



# حرفك هو قلبي

تأليف  
و. بس. موم

\*\* معرفتي \*\*

www.ibtesama.com  
منتديات مجلة الإبتسامة



ترجمته : سليم الأسيوطي  
راجعه : مصطفى حبيب



**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

الالف كتاب

(٥١٩)

حلال المومنين

بإشراف  
الإدارة العامة للثقافة  
بوزارة التعليم العالي

نصّدر هذه السلسلة بمعاونة  
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الالف كتاب

(٥١٩)

# حَدِيثُ الْمَوْسَى

تأليف  
شومرست موم

راجعه  
مصطفى جيب

ترجمته  
سليم ناو ضروري الأريسيوطي

مؤسسة سجل العرب  
بإشراف الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد  
٢٦ شارع شرمهه بانها - القاهرة  
٤٩٩٩٩

١٩٦٤

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

هذه ترجمة كتاب :

**The Razor's Edge**

تأليف :

**W. Somerset Maugham**

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**



إن السير على حد موسى الصارم شاق

هكذا يقول الحكماء :

إن السبيل إلى الخلاص عبر

كانا - أوبنشاد

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

## الفصل الأول

( ١ )

لم أشرع في كتابة رواية وأنا في حيرة من أمرى أكثر مما فعلت في هذه المرة ، فإذا ما سميتها رواية ، فاذك إلا لاني لا أعرف وصفاً آخر أطلقه عليها ، فليس لدى إلا القليل لأسمه عليك ، ونهاية القصة ليست هي الموت أو الزواج . والموت يضع حداً لجميع الأشياء ، وهذا هو شأن الخاتمة الشاملة للقصة ، ولكن الزواج ينهي القصة على الوضع الصحيح تماماً أيضاً ، وليس من الفطنة في شيء أن يسخر المتحدثون بما جرى العرف على تسميته بانتهاء السعيدة ، وإنما لغريزة سليمة تلك التي تفري عامة الناس بأنه بهذا يقال كل ما في حاجة إلى القول عند ما يجمع القدر بين ذكر وأثى ، بعد ما يعانين من تقلب وتحول ، فأنهما يحققان وظيفتهما البيولوجية وينقل تأثيرهما إلى الجيل الذي يخلفهما ، ولاكنى سأترك القارىء في الهراء ، إن هذا الكتاب يضم بين دفتيه الذكريات التي أحملها لرجل جمعتى به صلة وثيقة في فترات متباعدة ليس إلا ، ومعرفتى بما كان يلقاه هذا الرجل في هذه الفترات قليلة ، وأظن أن يوسعى أن أسد هذه الثغرات إذا ما لجأت إلى الخيال والابتكار بصورة معقولة مقبولة بما فيه الكفاية ، وبما يجعل قصتى أكثر تماسكا ولكن ليس لدى الرغبة لأن أفعل ذلك فإنى أرغب فى أن أدون ما أعرف مما لدى من علم .

منذ سنوات كثيرة مضت كتبت رواية تسمى القمر وست بنسات . وفى تلك الرواية مصور مشهور هو بول جوجان ، وباستعمال موهبة الكاتب الروائى ابتدعت عدداً من الحوادث لأصوّر الشخصية التى ابتكرتها التى تقوم على الأفكار العابرة التى أوحى بها الحقائق الطفيفة التى عرفتها عن الفنان الفرنسى . وفى

( م ١ - حد الموى )

الكتاب الذى بين أيدينا لم أحاول شيئاً من هذا القبيل ، ولم أخترع شيئاً . ولكنى أوفر الحيرة والارتباك على أناس ما زالوا على قيد الحياة ، فقد خلعت على الأشخاص الذين يلعبون أدواراً في هذه القصة ، أسماء اخترعتها ، ومن جانب آخر تكبدت العناء بغية التأكد من أن أحداً لن يتعرف عليهم ، والرجل الذى أكتب عنه ليس مشهوراً ومن المحتمل جداً أنه لن يكون كذلك أبداً ، كما أن من المحتمل أنه عند ما يحين الوقت فى النهاية لينتخب حياته فلن يترك خلفه أثراً بعد إقامته القصيرة على الأرض ، أكثر مما يتركه حجر ألقى به فى نهر على سطح الماء . وحينئذ فإذا ما قدر لكتابتى هذا أن يظفر بالقراءة من أحد ، فيجب أن يقرأ لما يقسم به من أهمية ذاتية جوهرية ، ولكن من الجائز أن يكون السبب أسلوب الحياة الذى اختاره ذلك الرجل وإرضاء نفسه ، بل ربما كانت أخلاقه القوية الحارقة وشمائله الحلوة النادرة ، ذات أثر على رفقاته ، ازداد قوة على الأيام إلى حد أنه بعد موته بزمن طويل قد تتحقق من أنه فى ذلك العصر عاش مخلوق جدير بالتقدير والاعتبار ، وحينئذ سيكون من الواضح الجلى جداً عنى أكتب فى هذا الكتاب وهؤلاء الذين ينشدون معرفة ولو القليل عن حياته الباكرة ، قد يجدون فيه شيئاً يحقق أغراضهم ، فإني أظن أن كتابى فى حدوده المقررة سوف يكون مصدراً نافعاً يزود كتاب سيرة صديقتى بالمعلومات .

لا أدعى أن المحادثات التى سجلتها يمكن النظر إليها بوصفها تقارير فى نفسها الحرفى . فلم يكن من عادتي الاحتفاظ بمذكرات تسجل ما قيل فى هذه المناسبة أو غيرها من المناسبات ، ولكنى أتمتع بذاكرة طيبة فى كل ما يهمنى ، وعلى الرغم من أنى سجلت هذه المحادثات بلفظي الخاصة ، فهى تمثل كما أعتقد ، ما قيل أصدق تمثيل . ولقد ذكرت ملاحظتى منذ هنيهة بأنى لم أخترع شيئاً ، وأريد أن أحور تلك العبارة . ولقد شجنى على ذلك ما شجع المؤرخين منذ عهد هيرودوت ، على أن أضع فى أفواه أشخاص قصصى أقوالاً لم أسمعاها ، ولم يكن من المحتمل أنى سمعتها

أيضاً ، وقد فعلت هذا للأسباب نفسها التي حملت المؤرخين على ذلك ، أعني كى أضعنى الحياة والصدق على المشاهد التي تفقد تأثيرها إذا ما اقتصرنا فيها على السرد البجرد فإني أهدف إلى أن يقرأ الناس ما أكتب ، وأظن أنى على صواب فى أن أفعل كل ما بوسعى لأجعل كتبى جديرة بالقراءة ، وأسوف يتبين القارىء الذكى بنفسه المواضع التي استخدمت فيها هذه الحيلة بسهولة ، وله مطلق الحرية أن يرفضها إذا شاء .

وسبب آخر حدا بى إلى أن أنهج هذا النهج فى ختمية وتوجس لاسيما أن الأشخاص الذين يجب أن أتناولهم أمرى يكون ، وأنه لمن الصعوبة بمكان أن يعرف شخص شعبياً . ولا أظن أنه بمقدور أحد أبداً أن يعرف قوماً غير قومه . فالرجال والنساء ليسوا الرجال والنساء أنفسهم ولكنهم الإقليم الذى ولدوا فيه وحى المدينة أو المزرعة التي خطوا على أرضها خطواتهم الأولى والألعاب التي مارسوها فى طفولتهم والقصص الحقاء الحافلة بالمعتقدات الخرافية التي استمعوا إليها عرضاً ، والطعام الذى تناولوه والمدارس التي التحقوا بها ، والرياضة التي زاولوها ، والشعراء الذين قرأوا لهم والإله الذى آمنوا به . إن كل هذه الأشياء مجتمعة جعلتهم على ما هم عليه الآن ، وهى أشياء لا يمكن أن تعرفها عن طريق الأخبار أو التقولات ؛ ولكن يمكنك أن تعرفها فقط إذا ما عشتها ويمكنك أن تعرفها فقط إذا ما كنتها . ولما كان لا يمكنك أن تعرف أشخاص أمة أجنبية عنك إلا بالملاحظة الدقيقة فمن المتعذر أن تعطى هؤلاء الأشخاص وصفاً صادقاً على صفحات هذا الكتاب ، فالشاهد الدقيق الملاحظة والحذر أيضاً مثل هنرى جيمس ، على الرغم من أنه عاش فى إنجلترا مدة أربعين عاماً ، فلم يوفى للإملاء فى خلتى شخصية رجل إنجليزي قبح ، ومن جانبي - ما عدا فى قليل من القصص القصيرة - لم أحاول قطعاً أن أتناول أى شخص سوى مواطنى . وإذا ما كنت قد أقدمت على ذلك فى القصص القصيرة فاذك إلا لأنه فى هذه القصص يمكنك أن تتناول الشخصيات فيها

باختصار أكثر ، فاعليك إلا أن تعطى القارىء إشارات عامة وترك له إكمال التفصيلات . ولقد يتساءل القارىء وقد حولت بول جوجان إلى رجل إنجليزى لماذا لم يكن بمقدورى أن أفعل مثل ذلك مع شخصيات هذا الكتاب . والإجابة على هذا السؤال بسيطة : لأنى لم أستطع ذلك ، ولو فعلت لما كان الناس الذين أقدمهم على حقيقتهم ولا أدعى لنفسى أنهم أمريكيون كما يرى الأمريكيون أنفسهم فهم أمريكيون كما يراهم الإنجليز . فلم أحاول أن أظهر خصائص حديثهم ، فإن الخطأ الذى يرتكبه الكتاب الإنجليزى عند ما يحاولون هذا لا يعدله سوى الخطأ الذى يرتكبه الكتاب الأمريكيون عند ما يحاولون التكلم باللغة الإنجليزىة كما يتكلمها أبناؤها فى إنجلترا لأن اللغة العامية هى الخطر المحيى . ولقد دأب هنرى جيمس على استعمال العامية فى قصصه الإنجليزىة ولكن ليس لإعلاء كما يفعل الإنجليز أنفسهم ، ولذلك فبدلاً من أن يظفر بالتأثير العامى الذى ينشده ، كان يصيب القارىء الإنجليزى غالباً بزجة تضايقه .

## ( ٢ )

لقد وقع لى فى عام ١٩١٩ أن كنت فى شيكاغو وأنا فى طريقى إلى الشرق الأقصى ولأسباب لا تتعلق بهذه القصة كنت أقيم هناك لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع وكنت قد أخرجت حديثاً رواية طويلة ناجحة . ولما كان ذلك الخبر الذى يشغل الأذهان آنئذ فأكدت أن أعلل لك هناك حتى جمعى وآخر حديث . فى صباح اليوم التالى ، دق جرس تليفونى فأجبت :

« إن إميوت تمبلتون يتحدث . »

« هل أنت تمبلتون ؟ لقد ظننت أنك فى باريس . »

« لا ، فأنا أقوم بزيارة مع شقيقى هنا ونحن نريد حضورك لتناول طعام

الغداء معنا اليوم . »

« إنى ارحب بذلك » .

لحد ساعة اللقاء وأعطاني العنوان .

كنت قد عرفت إليوت تيمبلتون مدى خمسة عشر يوماً ، وكان في ذلك الوقت في نهاية العقد السادس من سنى عمره ، وكان رجلاً فارح القوام رشيقاً حسن السمات ذا شعر حالك أشيث متموج وأشيب بقدر كاف لأن يضنى على مظهره مزيداً من الرفعة والأبهة فكان دائماً حسن الثياب وكان يتعامل مع بزاز يقطن في شارع شارفيه ولكنّه كان يجيء بحلله وأحذيته وقبعاته من لندن ، وكانت له شقة في باريس تطل على نهر جوش في شارع القديس جويم ، وكان الناس الذين لايميلون إليه يشيعون عنه أنه تاجر ولكن كانت هذه فرية كان يستكرها محققاً غاضباً ، فقد كان ذا ذوق ومعرفة ، ولم يكن يهتم بالإعلان أن في ماضى حياته عندما استقر به المقام في باريس ، كان لا يبخل بنصيحته على هواة جمع الصور الأثرية ، وعندما كان يجيئه نبأ عن طريق اتصالاته الاجتماعية أن نيلا سواء أكان إنجليزاً أم فرنسياً ، قد اقتقر يتتوى بيع صورة من المرتبة الأولى ، كان يسره أن يجمع بينه وبين مديري المتاحف الأمريكية الذين تصادف أن تعرف بهم ، والذين يتحينون الفرص لاقتناء تحفة رائعة لهذا أو لذلك من أعلام الفن ، فقد كان في فرنسا وفي إنجلترا كثير من الأسراقضتهم ظروف حياتهم إلى بيع صورة رائعة موقعة بامضاء بوهل ، أو منضدة للتحرير من صنع شبنديل نفسه إذا ما أمكن إجراء هذا في هدوء ودون جلبلة . وكان هؤلاء يسعدون بمعرفة رجل على ثقافة واسعة وخلق كامل بوسعه أن يدبر لهم الأمر بحصافة وفطنة ، وكان الإنسان خليقاً بأن يخامر الشك بالطبع بأن تيمبلتون كان يفيد من عقد هذه الصفقات . ولكن كل طيب الأرومة حسن التربية كان يتورع عن أن يذكرها ، وكان الناس الذين تجردوا من الشفقة والرحمة يؤكدون أن كل ما كان في شقته للبيع وكان بعد أن يدعو الأمريكيين الأثرياء إلى مأدبة غداء فاخرة يقدم فيها



الكرمة المعصورة تحتى واحدة أو اثنتان من رسومه الثمينة أو يذهب كموود  
ماركنزيه ويحمل مكانه آخر باللاكيه وعندما كان يسأل لماذا قد اختفت قطعة  
معينة من الأثاث كان يفسر ذلك بطريقة مقبولة جداً ظاهرياً بأنها لم  
تسكن في نظاره جديدة به لاثقة له ، وقد استبدل بها غيرها من نوع أجود وأجل  
كثيراً ويضيف قائلاً إنه لمدعاة للسأم والملل أن تنظر دائماً إلى الأشياء نفسها .  
وكان يقول بالفرنسية : نحن الأمريكيين نحب التغيير . إن ذلك موضع  
الضعف فينا وكذلك هو موضع قوتنا .

وكانت بعض السيدات الأمريكيات في باريس ممن كُنَّ يسعين لمعرفة كل  
شيء عنه ، يقطن إن أسرته كانت في فقر مدقع وإنه إذا ما كان قد تمكن من أنه  
يعيش بالأسلوب الذى ارتضاه فما ذلك إلا لفرط ذكائه ومهارته ، وليس بعلو  
مقدار ما كان يملك من مال ، ولكن صاحب المنزل في الدوقية لابد أن يكون  
قد تقاضاه قدراً وافراً من المال لقاء الشقة التى يسكنها وكانت مجهزة بأمتعة ثمينة .  
وكانت تعلقو الجدران رسوم لعظام أعلام الفن الفرنسيين من أمثال واتو  
وفراجونارد وكلود لورين وأضرابهم ، وتزين الأرض المصنوعة من خشب  
الباركيه طنائس سافوتيرى وأويديون . وكان يوجد في غرفة الاستقبال طاقم  
من طراز لويس الخامس عشر دقيقى الفرز على جانب عظيم من الرشاقة  
والانسجام بحيث تخال إنه كما كان يدعى صاحبنا ، من مقتنيات مدام دى  
بمبادور ، وعلى أية حال من الأحوال فقد كان له ما يكفيه لأن يعيش في  
المستوى الذى يراه لاثقاً بالجنتملان دون أن يبذل جهداً للحصول على المال ،  
وكانت الوسيلة التى فعل بها ذلك في الماضى أمراً جديراً بالالتشير إليه إذا كنت  
حكياً عاقلاً وإلا فقدت صداقته . ولما تخلس من متاعبه المادية أسلم قياده لهوى  
نفسه الذى تملكه وسيطر عليه واستأثر به ألا وهو العلاقات الاجتماعية .  
وكانت اتصالاته المتعلقة بالأعمال التجارية ، مع المعدمين العظام في كل من فرنسا

وانجلترا قد صانت مركزه الذي حصل عليه بفضل خطابات التوصية التي حملها معه عندما هبط أرض أوروبا ، عندما كان فتي يافعاً ، إلى أشخاص من ذوى المسكاة والخطر . وقد أوصى به ، هؤلاء الذين زودوه بهذه الخطابات ، عند السيدات الأمريكيات ذوات الألقاب اللاتي حمل إليهن الخطابات فقد كان ينحدر من أسرة عريقة من فرجينيا وعن طريق أمه أمكنه تتبع نسبه إلى أحد الموقعين على إعلان الاستقلال . وكان أثيراً لدى الجميع ذكياً وراقصاً مجيداً سديد الرماية من الطراز الأول ولاعب تنس لطيفاً ، وكان وجوده ضرورياً في كل حفل ، وكان يسرف في إهداء الزهور وعلب الشوكولاته ؛ وعلى الرغم من إنه لم يكن يولم كثيراً إلا أن مادبه كانت تمتاز بالابتكار الذي يلقى الرضى والارتياح من الجميع . وكان من دواعي سرور أولئك السيدات المثریات أن ينهبن إلى المطاعم البوهيمية في سوهو أو بستروس في الحى اللاتينى . وكان دائماً على أهبة الاستعداد لتقديم المساعدة إلى كل من يحتاجها أو يطلبها ولم يكن هناك أى شيء ، مهما كان شاقاً مملاً ، تسأله قضاءه إلا أفضل ذلك عن طيب خاطر ، وكان يتجشم كثيراً من المتاعب ليحظى بالقبول والاستحسان من السيدات الفانيات ، ولم يمض وقت طويل حتى غدا صديق الأسرة وقتها المدلل في كثير من البيوتات المهيبه ، ولقد بلغت عاباته الذروة فلم يكن يعبأ إذا ما تلقت دعوة في اللحظة الأخيرة لأن شخصاً قد تخلف عن الحضور ، وكان بوسعه أن تجلسه إلى جانب عجوز ثقيلة الظل تورث الملل ، وتطامن إلى أنه سيكون ظريفاً ومسلماً ، معها حيث يجيد ذلك .

وفي مدى عامين أو ما يزيد في كل من لندن التي اعتاد أن يذهب إليها في الجزء الأخير من الموسم ويقوم بجولة يزور فيها المنازل الريفية في باكورة الخريف ، وفي باريس ، حيث استقر به المقام كان يعرف كل من كان يستطيع الشاب الأمريكى أن يعرف . ولقد ذهلت السيدات اللاتي قدمنه أولاً في المجتمع عندما اكتشفن إلى

أى حد أخذت تتسع حلقة معارفه ، فن ناحية كن مسرورات لأن صنيعتن الشاب قد أحرز مثل هذا النصر المؤزر ، ومن ناحية أخرى كن مقتضات قليلاً لأنه كان يرتبط بمثل هذه الوشائج القوية مع أشخاص ظلت صلاتن بهم متكلفة جامدة ، وعلى الرغم من أنه استمر فى إرضائهن ووضع نفسه فى خدمتهن فقد كان يتولاهن شعور غير مريح بأنه كان يستخدمهن مبعراً لتحقيق تقدمه الاجتماعى ، وخشين أن يكون وضيعاً متعاطماً . وحقاً لقد كان زنيماً كبيراً جداً وكان زنيماً لا يتحرج ، يحتمل أية إهانة ويفضى عن أية صدمة ويبتلع أية فظاظلة أو خشونة مقابل دعوته إلى حفل يذهب إليه أو ليعقد صلة بأرملة من الأشراف تحمل اسماً عظيماً وكان جلوداً كدوداً لا يكل ولا يعمل . فعندما يثبت عينه على فريسته يظل يطاردها بمثابرة عالم النبات الذى يعرض نفسه لأخطار الفيضان والزلازل والحى وسكان البلاد المعادين بغية العثور على أركيديا نادرة الوجود . ولقد منحته الحرب العالمية عام ١٩١٤ فرصة النهائية فعندما اندلعت نيرانها انضم إلى قسم مستشفيات الميدان المتنقلة وعمل أول ماعمل فى الفلندرتن فى الأراجون بعد ذلك ؛ وعاد بعد عام وهو يزين عروة سترته بشريط أحمر وقد ظفر بمركز فى جمعية الصليب الأحمر فى باريس . وكان قبيل ذلك فى ظروف ميسرة وأسهم بسخاء فى الأعمال الصالحة التى تشرف عليها وترعاها الشخصيات من ذوى المكانة والخطر ، وكان دائماً على أهبة الاستعداد بما جباه الله من ذوق جميل ووهبه من القدرة على التنظيم ليسانع فى أى عمل خيرى واسع الانتشار بعيد الصيت وأصبح عضواً فى أكبر الأندية التى تضم الصفوة الممتازة فى باريس وأصبح إلبوت الفتى المدلل لدى سيدات فرنسا العظيمات . لقد وصل فى النهاية .

( ٣ )

وعندما التقيت بإلبوت لأول مرة كنت مؤلفاً حديثاً كإى مؤلف آخر غيرى ولم يعرفنى التفاتاً آنثذ ولم يكن يانى وجهاً رآه . وعندما كنت ألقاه

مصادفة هنا وهناك كان يصلحني بترحاب ولكنه لم يظهر رغبة إلى أن يذهب بصلتنا إلى أبعد من هذا فإذا ما رأيت في دار الأوبرا ، مثلاً إِبْصَحة شخص مرموق رفيع الشأن ، كان يميل إلى ألا يقع بصره على ولكن عندما واتاني الحظ وأحرزت نجاحاً مذهلاً إلى حد ما بوصني كاتباً مسرحياً فسرعان ما شعرت أن إليوت أصبح ينظر إلى يا حساس أكثر حماساً . وذات يوم تلقيت منه دعوة لتناول طعام الغداء في فندق كلارج حيث كان يقيم في أثناء وجوده في لندن . كان الحفل صغيراً كما إنه لم يكن حفلاً أنيقاً جداً . ولقد أدركت أنه برى من وراء هذه الدعوة إلى أن يسبر غوري ويتفحص شخصي ولكن منذ ذلك الحين فصاعداً وقد جمع نجاحي حولي عدداً كبيراً من الأصدقاء الجدد بدأت أراه وألقاه مراراً وتكراراً أكثر مما ألفت من قبل . وبعد ذلك بقليل قضيت عدة أسابيع من الخريف في باريس والتقيت به في بيت أحد المعارف لنا وسألني أين كنت أقيم . وفي غضون يوم أو اثنين تلقيت منه دعوة أخرى إلى الغداء ، وكان هذه المرة في شقته ، ولقد تولتني الدهشة لدى وصولي إذ وجدت أن المأدبة كانت حفلاً بالغ الوجاهة ، عظيم الرفعة فمتحكت بيني وبين نفسي . عرفت أنه بما أوتى من حساسية تامة الصفاء كاملة البقاء للعلاقات الاجتماعية ، تأكد أنني ، في المجتمع الإنجليزي ، كؤلف لا أهمية كبرى لي ، ولكن في فرنسا ، حيث يكون المؤلف مجرد مؤلف لا غير ، مهيباً موقراً ، فقد كنت ذلك الرجل . وفي خلال السنوات التي تلت أصبحت معرفتنا ودية في اعتدال دون أن تتطور أبداً إلى صداقة وإني لأشك إذا ما كان من المحتمل أن يصادق إليوت تيمبلتون أحداً . فلم يكن ليأبه بأناس في خارج إطار مركزهم الاجتماعي ، وعندما كان يتصادف وجودي في باريس أو لندن كان يوالي دعوتي إلى المآدب التي يقيمها إذا ما كان في حاجة إلى رجل آخر أو كان مرغماً على استضافة أمريكيين جائلين . وكان بعض هؤلاء ، كما ظننت ، بعض العملاء القدامى ، والبعض الآخر كانوا غرباء جاءوا إليه مزودين بخطابات توصية . وكانوا محنة حياته فقد كان يشعر . أن عليه أن يفعل شيئاً ما من أجل

هؤلاء ، ومع ذلك فقد كان لا يريدون أن يجتمعوا بأصدقائه العظام . وكانت أفضل الوسائل للخلاص منهم طبعاً أن يدعوهم إلى العشاء ويصحبهم لمشاهدة المسرحيات ولكن كان ذلك ، في غالب الأحيان ، أمراً عسير المنال عندما يكون مرتبطاً بمواعيد كل مساء مدى ثلاثة أسابيع مقدماً ، وعندما يلح أنهم يكادون لا يرضون بذلك . ولما كنت مؤلفاً وبالتالي قليل الأهمية والخطر فلم يحفل بأن يفضى إلي بمتاعبه في هذا الشأن .

« إن الناس في أمريكا لا يكثرثون في تخير الوسائل التي بها يزودون الناس بالوسائل ولا يعني هذا أني لا أسر آروية الناس الذين يعيشون إلي ، ولكنني حقاً لا أرى مبرراً لافتراضهم على أصدقائي ،

عمد إلي تقديم ترضية بإرسال سلال ضخمة من الورود وعلب عظيمة من الشوكولاتة ولكن في بعض الأوقات كان يضطر لعمل أكثر من ذلك . وحدث حينئذ ، وفي شيء من السذاجة بعد هذا الذي قاله لي ، أن طلب مني الحضور إلى المأدبة التي أقامها .

وكتب يمتلئني « إنهم يرغبون رغبة شديدة في مقابلتك » ، إن السيدة كذا وكذا امرأة مثقفة جداً واقدم قرأت كل كلمة خطتها ، .

إن السيدة كذا وكذا سوف تخبرني أنها قد استمتعت بكتابي مستر برين ومستر تريل ثم تزجني إلى التهئة على مسرحيتي « الحيوان الرخو » ، إن مؤلف الأولى هو هيو ولبول Hugh Walpole ، وكتب الثانية هو برت هنري ديفز Hubert Henry Davira

( ٤ )

إذا كنت قد ألقيت في روع القارى انطبعا بأن إليوت تمبلتون كان شخصية زرية فأكون قد جرت عليه ظلماً وإجحافاً فقد كان من ناحية ، ما يطلق عليه

الفرنسيون سريع تلبية النداء (خدوماً) وهي كلمة ، على قدر على ، لامقابل لها تماماً في اللغة الإنجليزية والقاموس يخبرنا أن كلمة سريع تلبية النداء بمعنى معين أو كريم مفضل أو ما شابهه هو معنى مهجور . وهذه صورة صادقة تماماً لما كان عليه إليوت من خلق كان كريماً سخياً وعلى الرغم من أنه كان في باكورة حياته العملية فقد كان يفتق بلاريب الزهور والمسكرات والهدايا على معارفه بدافع خفي يختلف عن ذلك الذي يظهره أو يصرح به . وليس أدل على هذا من أنه كان يستمر في هذه المجاملات عند ما لم يكن ثمة داع لها أو ضرورة . فقد كان يعده البذل والعطاء وكان كريماً مضيافاً وكان طاهيه ماهرأ كأي نده في باريس ، وإذا ما جلست إلى مائدة طعامه فعلت ذلك وأنت على ثقة من أنه يقدم لك أول أطيب أطعمة الموسم وكان النيبيذ عنده برهانا على تفوق ذوقه حقا . لقد كان يختار ضيوفه لمساكنتهم الاجتماعية لا لأنهم كانوا رقيقة طيبة ، ولكنه كان يحرص على دعوة واحد على الأقل أو اثنين لقدرتهم على تزجية الوقت والتسلية وبذلك كانت مآدبه تكاد تكون مسلية دائما وكان الناس يسخرون منه خاف ظهروه ويدعونه زنيماً قدراً ومع ذلك فقد كانوا يقبلون دعوته ويلبونها في سرعة وبمرور . كان يتكلم الفرنسية بطلاقة دون أن يخطئ كما بلغت لهجة الرجل وقد تجشم عناء شديدا لكي يتكلم الإنجليزية كما يتكلمونها في لندن فلا تستطيع سوى الأذن الحساسة الماهرة من أن تكشف عن رندته (١) وكان يتحدثاً مجيداً إذا ما استطعت أن تبعد به عن موضوع الدوقات وزوجاتهم ولكنه كان في الحديث عنهم ، وقد أصبح مركزه موطداً ، يستريح لنفسه ، وعلى الخصوص إذا ما كنت على انفراد معه ، أن يكون مؤنساً وكان يستمتع بلسان خبيث ولكنه يحب إلى النفس فما وقعت فضيحة لإحدى تلك الشخصيات المجلجلة إلا ووصلت إلى سمعه . فإنه عرف من يكون والد طفل الأميرة س الأخير ، ومن كانت عشيقته

(١) التثني أو التجويد وهو الدعى بنمة منة .

الماركيز دي واي ولا أعتقد أن مارسل بروس عرف عن الحياة الداخلية للأشراف والنبلاء أكثر مما عرف إليوت تيمبلتون .

وجرت العادة عند ما كنت أقيم في باريس أن نجتمع كثيراً حول مائدة الغداء ، في بعض الأحياء في شقته وفي أحياء أخرى في مطعم ، وكنت أحب من آن لآخر أن أرتاد حوانيت العاديات للشراء ، وللشاهدة في الغالب وكان إليوت مفتوناً بمراقبتي وكان على معرفة ودراية بهذه الشئون ويكن لكل جميل حباً حقيقياً وأظن أنه عرف كل حانوت من هذا النوع في باريس وكان على معرفة تامة بصاحبه وكان ييم بالمساومة حباً وعندما كنا ننتقل في سيلنا إلى غايتنا كان يقول لي :

« إذا ما كنت ترغب في شيء فلا تحاول شراءه بنفسك وما عليك إلا أن تشير إلى من طرف خفي تلميحاً وأترك لي قضاء ما بقي من الأمر . »

وكان يمتليء سروراً إذا ما تمكن من أن يحصل لي على شيء استهواني بنصف الثمن الذي طلب فيه . وكان من المتعة أن تشاهده وهو يساوم ويماكس . فمر يحاور وينظر ويتملق ويداهن ويحتد ويطيير طائرته ثم يعود فيلوذ بما وهب الله البائع من عليمه سمحة فلا يلبث أن يهزأ منه ويسخر به ويبرز نقائص السلعة موضع النقاش ويهدد بأنه لن يعود فيضع قدمه على عتبة داره مرة أخرى ، ويتهدد ويهز كتفيه ويحذر وينذر ويهب ميمماً شطر الباب وهو غاضب مقطب الجبين وعندما يبلغ مأربه في النهاية يهز رأسه حزناً وكأنه قد قبل الهزيمة مستسلماً ثم يمس في أذني بالإنجليزية قائلاً :

« احملها معك . فهي رخيصة ولو بضعف ثمنها . »

كان إليوت كاثوليكياً متحمساً فلم يطل المقام به في باريس حتى التقى برئيس دير اشتر بنجاحه في رد الخطاة والمارقين إلى حظيرة الكنيسة ، كان يكثرتناول عشاءه في الخارج وكان أريباً ذائع الصيت واسع الشهرة . أوقف خدماته وأعماله



على الاغنياء وطبقة النبلاء والاشراف وكان أمراً لا يمكن تحاميه الا يستميل إليوت رجلاً ، على الرغم من أنه متواضع المنبت ، كان ضيفاً يلقي الترحيب في معظم البيوتات القاصرة على الصفوة المختارة ، ولقد أسر إلى سيدة أمريكية ثرية كانت إحدى اللاتي قد اهتدين على يد رئيس الدير حديثاً ، أسر إليها بأنه على الرغم من أن أسرته كانت دائماً من أتباع الكنيسة الأسقفية فقد ظل وقتاً طويلاً يهتم بالكنيسة الكاثوليكية . وطلبت من إليوت أن يقابل رئيس الدير على عشاء ، ذات مساء ، يضم الثلاثة فقط ، وكان رئيس الدير متألقاً وأدارت مضيفتهما الحديث حول الكاثوليكية وتحدث عنها رئيس الدير بذلاقة وطلاقة وفي غيرة وحماس ، ولكن دون حذقة ، أو تظاهر بالعلم أو ادعاء به ، كما يتحدث رجل الدنيا الخبير بالحياة والناس ، على الرغم من أنه قس يعرف عنه كل شيء .

« إن الدوقة دى فاندوم كانت تتحدث عنك بالأمس . وقالت لي إنها تظن أنك على قدر رفيع من الذكاء . »

تورد وجه إليوت بالسرور . لقد قدم إلى سموها الملكي من قبل ولكن لم يدر بخلده أبداً ، أنها ستكون عنه رأياً جديداً بعد هذا اللقاء ونتيجة له . وتحدث القس عن الإيمان حديث حكمة ورفق ، فقد كان واسع الصدر عصرياً في نظراته إلى الأمور لطيفاً سميحاً . جعل الكنيسة تبدو في عيني إليوت شديدة الشبه بمنتهى ممتاز إلى حد يجعل الرجل الطيب الأرومة يؤمن أن الانتماء إليها شرف عظيم ، وبعد مرور ستة شهور استقبلته الكنيسة في أحضانها وقمت هدايته ، التي امتزجت بما أظهره من كرم ، في إسهامه في أعمال البر الكاثوليكية ، فتحت أمامه أبواباً عدة كانت مغلقة في وجهه من قبل .

إن من المحتمل الجازم أن تكون الدوافع التي حدثت به إلى التحول عن مذهب آباءه متعددة محتلطة ولكن ما من شك في إخلاصه عندما فعل ذلك ، فقد كان

يحضر القداس كل يوم أحد في الكنيسة التي يؤمها خيار الناس وأفضلهم وكان يذهب إلى الاعتراف بانتظام كما كان يقوم من آن لآخر بزيارة روما وقد كافأته الكنيسة على تقواه وصلاحه بأن جعلته أميناً بابوياً ، وكان لمثابرتة واجتهاده في أداء واجبات عمله أن منح وسام الجدث المقدس ، على ما أظن ولم تكن حياته بوصفه كاثوليكياً أقل نجاحاً ، في الواقع من حياته بوصفه رجلاً واسع الخبرة بالحياة والناس .

وكثيراً ما كنت أسائل نفسي عن سبب التعاطم المصطنع الذي يملك هذا الرجل الذكي جداً ؛ العطوف جداً ؛ المثقف جداً . فلم يكن حديث العهد بالنعمة أو المركز فقد كان أبوه رئيساً لإحدى جامعات الجنوب وجده حبراً أحرز بعض الشهرة والرفعة . وكان إليوت من البراعة والمهارة بحيك أمكنه أن يتغاضى عن الحقيقة الواقعة بأن كثيرين ممن كانوا يلبون دعوته إنما فعلوا ذلك ، فقط ، بغية الحصول على وجبة دون مقابل ، وأن من بين هؤلاء كان الأغبياء والتافهون ولكن برين ألقابهم الرذالة أعماه عن أخطائهم ويمكنني أن أخن أن الألفة الوطيدة بينه وبين هؤلاء العلية عريتي الأصل ، الكريمة المحتد ، وأنه كان المحافظ الأمين الوفي لسيداتهم قد أعطته شعوراً بالانتصار لم يعد له شعور قط ، وإنني أظن أن خلف هذا كله كانت تكن رومانسية قوية حادة حدث به أن يرى ، في الدوق الفرنسي الضعيف القميء ، الفارس الصليبي الذي ذهب إلى الأراضي المقدسة مع القديس لويس ، كما حدث به هذه الرومانسية القوية الحادة إلى النظر إلى الإيرل الإنجليزي الجمعاج صائد الثعالب ، السلف الذي رافق الملك هنري الثامن في فيلد أوف كلوث جولد . ففي رفقة أمثال هؤلاء كان يشعر أنه يعيش في الماضي الرحب المجيد وأظن أنه عندما كان يقلب صفحات تقويم جوته كان قلبه ينبض بحرارة والأسماء تتوارد الواحد تلو الآخر ، تحمل له من الماضي ذكريات الحروب القديمة والحصارات التاريخية والمبارزات المشهورة

والمؤامرات الدبلوماسية وغراميات الملوك . هذا هو إليوت تمبلتون ، على  
آية حال من الأحوال .

( ٥ )

كنت أغتسل وأصلح من شأن ملبسي قبل أن أنطلق إلى الغداء الذي دعاني  
إليه إليوت ، عندما دق جرس التليفون من مكتب الفندق ليعلنوا إلى أنه في  
انتظاري بالطابق السفلي . فدهشت ، لذلك ، ولكن بمجرد أن فرغت من شئوني  
وكنت على أهبة الاستعداد هبطت إليه .

وقال ونحن نتصافح : « اعتقدت أنه من الأسلم أن أجيء بنفسى لأصحبك .  
فلا علم لي بقدر ما تعرف من شيكاغو » .

لقد كان عنده الشعور الذي لاحظته في بعض الأمريكيين الذين عاشوا  
لسنوات كثيرة في الخارج ، بأن أمريكا ليست مكاناً صعباً لحسب بل خطراً  
أيضاً لا يمكن فيه للأوروبي أن يترك وشأنه ليجد طريقاً هنا أو هناك بنفسه .

واقترح قائلاً : « إن الوقت مازال مبكراً . ولا بأس من أن نقطع بعض  
الطريق مشياً على الأقدام » .

كانت فرصة طفيفة تشوب الهواء ولكن كانت السماء صافية لاتلبدها سحابة  
واحدة وكانت متعة أن نمدد سيقانا بالسير على الأقدام .

قال إليوت ونحن نسير : « لقد رأيت أن من الأفضل أن أحدثك عن أختي  
قبل أن تلقاها . فقد أقامت معي مرة أو مرتين في باريس ، ولكنى لا أظن أنك  
كنت هناك في ذلك الوقت . وحفل اليوم ليس حفلاً كبيراً ، كما تعلم . وهو  
قاصر على أختي وابنتها إيزابل وجريجورى برايزون » .

فألتته : « أهو المزخرف ؟ » .

وأجاب : « نعم . إن منزل أختي مروع وترغب إيزابل وأنا كذلك في أن يعيد طلابه . وحدث أن سمعت أن جريجورى كان في شيكاغو فسألتها أن تدعوه إلى تناول الغداء اليوم وهو ليس سيداً تماماً ، طبعاً ، ولكنه ذواقة فهو الذى قام بتزيين رانى كاسل لمادى أوليفنت وسانت كلمنت تالبوت من أجل سانت أرنس وكانت الدوقة مسرورة منه . ولسوف تشاهد منزل لوزا بنفسك وكيف تأتي لها أن تعيش فيه كل هذه السنوات ، أمر لن أستطيع إدراكه وكيف تأتي لها أن تعيش في شيكاغو أمر آخر لن يكون بوسعى إدراكه أيضاً . »

لقد وضع أن مسز برادلى أرملة لها ثلاثة أطفال : ابنان وابنة ولكن كان الابنان يكبرانها كما كانا متزوجين . كان أحدهما يشغل وظيفة حكومية في الفيليبين والآخر في السلك الدبلوماسى ، كما كان أبوه قبله ؛ في بيونس أيرس . فقد شغل زوج السيدة برادلى مراكز في أجزاء عدة من العالم . وبعد أن شغل مركز السكرتير الأول في سفارة روما لعدة سنين رفع إلى درجة وزير مفوض في إحدى الجمهوريات الواقعة على الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية ؛ حيث مات .

واستمر إليوت في حديثه ، وأرادت لوزا على بيع البيت الذى في شيكاغو عندما اتقل إلى لقاء ربه ؛ ولكنها كانت تحمل لهذا المنزل عاطفة قوية . لقد كان في حوزة أسرة برادلى وقتاً طويلاً جداً وأسرة برادلى من أقدم الأسر وأعرقها في إينوا . جاءوا من فرجينيا في عام ١٨٣٩ وأقاموا في أرض تبعد ستين ميلاً عما تسمى شيكاغو الآن وما زالوا يمتلكون هذه الأرض إلى الآن . وتوقف إليوت قليلاً ونظر إلى حتى يرى مبلغ تمييز ماسمته على . ثم وإلى حديثه قائلاً وكان برادلى الذى استقر هنا ما يجوز أن تسميه صاحب مزرعة . على ما أظن

ولست واثقاً إذا ما كنت تعلم ذلك . ولكن عند منتصف القرن الماضي تقريباً عندما بدأ الغرب الأوسط يفتح أبوابه ، أغرى سحرا الجهول عدداً ضخماً من أهل هرجينيا من شباب الأسر ذات المحدث العريق ، كما تعرف ، على ترك الطعام الجيد والنعم المقيم في أرض الوطن ورأى أب صمري شستر برادلي ، أن شيكاغو على موعد مع المستقبل وحصل على مركز في دار القضاء هنا . وفي جميع الأحوال تمكن من جمع ثروة تفي بحاجات ابنه إلى أبعد حد . .

وكانت طريقة إلبوت في الحديث . لا كلماته توحى بأن من المحتمل أن الأمر لم يكن كذلك تماماً مع المرخوم شستر برادلي فيترك الدار الجميلة الفخيمة والأراضي الواسعة التي ورثها ايلتحق بوظيفة . ولكن الحقيقة أنه قد جمع ثروة عوضته إلى حد ما عن هذه الأرض . ولم يسر إلبوت إطلاقاً عندما أطلقت مسز برادلي فيما بعد على بعض الصور الفوتوغرافية الخاطفة لما كان يطلق عليه « مسكنهم » في الريف . ولقد رأيت هيكل منزل متواضع بحديقة جميلة صغيرة ملحق به مخون للحبوب وحظيرة للأبقار ووزرائب للخنازير على مرمى حجر منه تحيطها حقول موحشة من الأرض الخراب المنبسطة ولم يكن بوسعى أن أتخامى الظن بأن: ستر شستر برادلي كان يعرف جيداً ما هو مقبل عليه عند ما تخلى عن كل ذلك ليشق طريقه في المدينة .

وسرعان ما لوحنا بأيدينا لسيارة أجرة ( تاكسى ) أوصلتنا أمام منزل مشيد بالحجر الأحمر الداكن ، ضيق وأميل إلى الارتفاع ، يصعد الداخل إلى البوابة الامامية بارتفاع بضع درجات منحدره . كان ضمن صف من المنازل في شارع يؤدي إلى بنه ليك شورديرايف . وكان منظره حتى في ذلك اليوم الصحو من أيام الخريف موحشاً كثيباً لدرجة تجعلك تعجب كيف يتأتى لشخص ما أن يحمل عاطفة ما لمثل ذلك المنزل . فتح الساقى الباب ، وهو زنجي طويل القامة بدين الجسم أشيب الشعر ، صحبنا إلى حجرة الاستقبال حيث كانت تجلس مسز برادلي التي ( ٢٤ - ح . الموسى )

هبت واقفة من مقعدها لحظة دخولنا وقد منى إليوت إليها . لا بد أنها كانت امرأة جميلة في شبابها لأن قسماها على الرغم من أنها كانت على الجانب العريض ، كانت وسيمة حسنة المنظر كما كانت عيناها جميلتين، لب (١) ووجهها الشاحب الذي خلا من المساحيق أو كاد بفضل الجهد الشاق الذي بذلته لتبدو بهذا المظهر . وكان واضحاً أنها قد خسرت المعركة مع بداية الكهولة وحدثت بأنها تآبى التسليم بالهزيمة إذ أنها ضد ما جلست كانت قامتها منتصبه جداً في مقعد ذي ظهر مستقيم جعله درع متدهما (٢) القاسى مريحاً أكثر من المقعد ذي الحشيات . كانت ترتدى رداء أزرق اللون زينه بكثير من الشرائط ، وكانت بنيتها متصلبة بعظم فك (٣) البال ، وكان لها رأس جميل يزينه الشعر الأبيض وقد جمعته بإحكام وشففته بصورة معقدة متشابكة . ولم يكن ضيفها الآخر قد وصل بعد . وبينما نحن في انتظاره طفقنا تتجاذب أطراف الحديث حول موضوع أو آخر .

قالت مسز برادلي : يقول لي إليوت إنك قد جئت عبر الطريق الغربى فهل تعرفت في روما ؟ ، .

ه نعم . لقد قضيت أسبوعاً هناك ، .

ه وكيف وجدت الملكة مرجريتا العزيزة ؟

! وكان هذا السؤال مفاجأة لي إلى حد ما فأجبت بأنى لا أعلم .

ه أوه ألم تذهب لمقابلتها ؟ مثل هذه المرأة الظريفة . لقد كانت كريمة لطيفة  
حسنا عند ما كنا في روما فإن مسز برادلي كان سكرتيراً أول فلماذا لم تذهب

(٢) الكورسيه

(١) ارتخى من بين طرفيه

(٣) البان أو الباغه .

وتقابلها؟ فلا أظنك على شاكاة إليوت شريراً إلى درجة أنك لا تستطيع الذهاب إلى الكويرينال .

فانقسمت قائلاً . لا أبدأ الحقيقة أنى لا أعرّفها .

وقالت مسز برادلى وكأنها لا تصدق أذنيها . ألا تعرفها؟ لم لا؟ .  
ز : — إنى أصدقك القول بأن المؤلفين لا يباشرون الملوك والملكات كقاعدة عامة .

اترضت مسز برادلى . وكأنه نزع منى ألا أعرّف الشخصيات الملكية  
وقالت : . ولكنها امرأة خلافة . وإنى لواقفة أنك ستحبها .  
وانفتح الباب فى تلك اللحظة وأعلن كبير الخدم ( الساق ) قدوم جريجورى  
برابازون .

وكان جريجورى برابازون على الرغم من اسمه ليس مخلوقاً رومانسياً . فقد كان رجلاً قصير القامة بديناً مفرط البدانة . رأسه أصمغ كالبيضة ما عدا حلقة من الشعر الأسود الجمعد تلتف حول أذنيه وفى خلف رقبته ، ووجهه أحمر عاطل لمنه الجبال يبدو كأنه على وشك الانفجار بالعرق العنيف ، وله عينان حادتان سنجائيتان وشفتان شهاويتان ولغد ثقيل . كان مواطناً إنجليزياً . قابلته بعض الأحيان فى حفلات بوهيمية فى لندن . كان مرحاً إلى أبعد حدود المرح ، صادقاً مخلصاً ، ويضحك كثيراً جداً ولكن لم يكن ليعوزك الكثير من المقدرة للحكم على الأخلاق فتعرف أن مردته الصاخبة ليست سوى قناع يخفى وراءه رجل أعمال داهية . فقد ظل لبعض سنوات أعظم المزخرلين نجاحاً فى لندن . وكان ذا صوت كالرعد وبدين صغيرتين سميتين معبرتين بصورة تدعو إلى العجب والإعجاب بحركات يديه المعبرتين ، وفيض من الكلمات المهتاجة كان بوجهه أن يشير خيال



عميل مستريب حتى كاد يكون من المستحيل أن تقاوم أو ترفض الأمر الذي يبدو أنه يجعل منه صنيعاً لتقبله .

عاد رئيس الخدم ( الساقى ) بصينية عليها أكواب الكوكتيل .

قالت مسز برادلى عند ما تناولت واحدا منها : سوف لا ننتظر إيزابل ، .

وسأل إليوت : أين هي ، ؟

لقد ذهبت لتلعب الجولف مع لارى . وقالت إنه من المحتمل أن

تأخر ، .

التفت إلى إليوت وقال :

إن لارى هو لورنس دارل . والمفروض أن إيزابل غطوبه له . .

وقلت : لم أكن أعلم أنك تشرب الكوكتيل يا إليوت ، .

فأجاب بوجه جهم وهو يرشف الكأس التي بيده : ولكن في هذه البلاد البربرية حيث تحرم الخمر ماذا عسى المرء أن يفعل ، ؟ ثم تهدأ ، لقد بدأت بعض الأسر تقدم الكوكتيل في باريس . إن المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة (١) . .

فقالت مسز برادلى : إن هذا لغو وهراء يا إليوت ، .

قالت هذا برقة كافية وافية ولكن في حزم أوحى إلى أنها امرأة ذات خلق قوى ، واستشعرت من النظرة التي حدجته بها ، تلك النظرة التي جمعت بين التسلية والمكر أنها ليست مخدوعة فيه . وعجبت ماذا عسى أن يكون حكمها على جري مجورمه

---

(١) « لا تغلوا . فان المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة » - رسالة بولس الرسول

برابازون فلقد لمحت نظراته المهنية التي تفحص بها الحجرة فور دخوله كما لمحته وهو يرفع حاجبيه الكثيفين قسراً وإجباراً لا طواعية واختياراً . لقد كانت حجرة منحلة حقاً . فلقد كان الورق الذي يغطي الجدران والكريتون الذي صنعت منه الجص والذي يكو المفروشات المنجدة على مثال واحد . وكانت على الجدران ، صور زيتية في إطارات مذهبة ضخمة . كان من الواضح أن آل برادلي قد اشتروها في أثناء إقامتهم في روما . كانت صور عذارى من إبداع مدرسة روفائيل (١) ، وصور عذارى من مدرسة جويديو ، ريني (٢) ومناظر طبيعية من مدرسة زكاريللي (٣) وآثار من باتيني (٤) ، وكانت هناك تذكارات من إقامتهم في بكين ، ومناضد من الخشب الأسود ازدحمت ازدحاماً شديداً بالرسوم المحفورة عليها والأواني الضخمة ذات الحواجز كما كانت هناك المشتريات التي حملوا عليها في شيلي أو بيرو ، وتماثيل بدينة منحوتة من الصخر الجلد وكذا أواني فخارية وكانت توجد منضدة شبنديل وفترينة مطعمة بالمركتري وكانت كيات المصايح مصنوعة من الحرير الأبيض رسم عليها فنان محروم من السداد صوراً لرعاة وراعيات في ثياب واتو . لقد كانت شنيعة ، ومع ذلك ، ولا أدري لذلك سبباً ، كانت مقبولة . لقد كانت تحمل طابع البساطة والألفة وتشعر الناظر أن ذلك الخليط الذي لا يعقل له مغزاه وأهميته . فإن جميع هذه الأشياء المتناقضة تأتلف

- 
- (١) روفائيل (١٤٨٣ - ١٥٢٠) واسمه الحقيقي رافاييل سانزيتو . كان أصغر ثلاثة عرفهم عصر النهضة بهذا الاسم وأبدع كثيراً من صور العذراء مريم .  
(٢) (١٦٤٢ - ١٥٧٥) كان مصوراً من بولونيا حاز أوسع شهرة في القرن السابع عشر والثامن عشر إلى أن عصف بها راسكن ثم استردت أعماله شهرتها في العصر الحديث .  
(٣) فرانسكو زكاريللي (١٧٠٢ - ١٧٨٨) كان رساماً للناظر الخلوثة من فلورنسا وعمل معظم وقته في فرنسا وإنجلترا .  
(٤) جيوفاني باولو باتيني (١٦٩٣ - ١٧٦٥) كان أول من تخصص في رسم الآبار والأطلال وقد عمل أولاً في روما حوالي سنة ١٧١٧ ميلادية ولكن أول صورة له تحمل تاريخ ١٧٢٧ محفوظة في متحف ولنجتون في لندن .

مع بعضها البعض على الرغم مما بينها من تقاضى وما ذلك إلا لأنها كانت جزءاً لا يتجزأ من حياة مسز برادلى .

وما كدنا نفرغ من شرابنا حتى انفتح الباب على مصراعيه ودخلت فتاة ،  
يتبعها فتى .

سألت الفتاة ، « هل تأخرنا ؟ لقد عدت ومعنى لارى . هل يوجد شىء  
يأكله ؟ »

ابتسمت مسز برادلى قائلة ، « لى أتوقع ذلك . دق الجرس وأخبرى أيوجين  
إن يضيف مقعداً آخر . »

« لقد فتح الباب انا . لقد أخبرتة أنتذ . »

قالت مسز برادلى وهى تنظر لى ، « هذه هى ابنتى ، إيزابل . وهذا هو  
تورنس دارل . »

صاحتى إيزابل فى عجلة ثم اتجهت فى قوة واندفاع نحو جريجورى براىزون .

« أهو أنت مسز براىزون ؟ لقد جئت حباً فى لقائك فلقد أحببت ما قد  
فعلت من أجل كلتئى دورمر . أليست هذه الحجرة مريمة ؟ لقد حاوات لأهل  
ماما على عمل شىء من أجلها سنوات وسنوات وها أنت هنا فى شيكاغو ، وسنحت  
الفرصة انا قتل لى بأمانة ما تراه بشأنها . »

كنت أعرف أن ذلك آخر ما يفعله براىزون . فنظرت لى مسز برادلى نظرة  
عجلى ، ولكن وجهها الذى يشبه قناعاً جامداً لم يعطه إجابة فانتهى لى قرار بأن  
إيزابل هى الشخص الذى يآبه له وانفجر يضحك ضحكاً عاصفاً صاخباً .

وقال : « أنا واثق منها حجرة مريمة أوحتوى على كل ما هو مريح . ولكن

إذا ما سألتني رأيتني في صراحة ، لحسنأ ، فإنني أؤكد الظن بأنها مروعة بما فيه الكفاية . .

كانت إيزابل فتاة فارعة الطول ذات وجه مستدير وأنف مستقيم وعينين جميلتين وفم ممتلئ مكتمل بدا أنه أحد السمات التي تميز بها الأسرة . كانت جميلة وإن كانت أميل إلى البدانة الأمر الذي عزوته إلى سنها وحدثت أن قوامها سوف يستدق ويرق كلما تقدمت بها السنون . كانت يداها قويتين جميلتين على الرغم من اكتنازهما بالشحم قليلا . وكان ساقها الذي كشف عنهما نفاثها (١) القصير على غرار يديها أيضاً . كانت وضوء البشرة ولونها المشرب بالحرارة زادت الرياضة والتدريب والعودة في سيارة مكشوفة حمرة فوق حمرة بلا مراء . كانت متألفة خفيفة الروح والحركة ، نشيطة مرحة وكانت صحتها المشرقة ومرحلة اللعوب واستمتاعها بالحياة والسعادة التي تستشعرها فيما ، كانت جميعها تهب النفس وتسمد القلب ، وتسرع الخاطر وكانت طبيعية في حركاتها وسكناتها إلى حد جعلت معه إليوت يبدو ، على الرغم من رشاقته ، مصطنعاً أزيه متبرجأ إلى حد ما . . وقد جعلت نظارة إيزابل مسز برادلي ، الغضة البضة المثلثة تبدو مكدودة ، رانت . عليها السنون .

هبطنا إلى الطابق السفلي لتناول الغذاء . وطرف جريجورى برا بازون فور أن رأى حجرة الطعام . كانت الجدران مكسوة بورق الحوائط ذي اللون الأحمر الداكن من ذلك النوع المنقذ ، وغطتها صور شخصية رجال ونساء تجهمت وجوههم ، وطار طائرهم ، وقد صورت تصويراً غاية في الرداءة ، وكان هؤلاء هؤلاء أسلاف مسز برادلي الراحل وكانت صورته بين تلك الصور ، أيضاً ، يحمل شارباً كثيفاً ، ويبدو متصلاً يابساً جداً في سترة الفراك (٢) ، والياقة

(١) النطاق الجوزية

(٢) سترة رسمية سوداء بذييل طويل .

البيضاء المنشأة . أما صورة مسز برادلى فقد كانت من رسم فنان فرنسى عاش فى التسعينات من القرن الماضى ، وعلقت فوق المدفأة ، وهى فى كامل ثوب السهرة المصنوع من الساتان الأزرق غير الزاهى وقد زينت جيدها بقلادة من اللؤلؤ كما رصعت شعرها بنجم من الماس وييد محلاة بالجواهر حملت بين أصابعها وشاحاً ( إيشارب ) من الدتلة التى رسمت بعناية وذقة فائقة جعلت بوسع الناظر إليها أن يحصي كل غرزة فيها ، وأمـكت باليد الأخرى ، وفى قلة اعتناء ، وعدم مبالاة مروحة من ريش النعام . أما الأثاث المصنوع من خشب البلوط الأسود فقد كان طاغياً على كل ما عداه .

سألت إيزابل جريجورى رايه إذ أخذنا بجلستنا ، « ما رأيك فيه ؟ » .

فأجبت قائلاً ، « لى واثق من أنه كلفكم مبلغاً طائلاً من المال » .

وقالت مسز برادلى ، « لقد كلفنا . إنه هدية الزفاف من والد مسز برادلى لقد طاف العالم معنا . كان معنا فى لشبونه ، وبكين ، وكيتو ، وروما . لقد امتدحته العريزة الملكة مارجريتا أوفر المديح » .

وسألت إيزابل براىزون ، « ماذا عسالك أن تفعله لو كان لك ، ؟ ولكن قبل ان يتمكن من الإجابة ، تولى إليوت الإجابة نيابة عنه .

قال ، « كنت أحرقة » .

وبدأ ثلاثهم يناقشون كيفية إصلاح الحجرة . وكان رأى إليوت مع طراز لويس الخامس عشر ، وحببت إيزابل مائدة الطعام والمقاعد الإيطالية ، وكان رأى براىزون أن طراز شيندل يساير شخصية مسز برادلى أكثر من غيره .

قال : « إن من رأى دائماً ، أن شخصية الإنسان من الأهمية بمكان ، . واتجه إلى إليوت . « طبعاً أنت تعرف دوقة أويغانت » ،

« أهى مارى؟ إنها إحدى أعر الصديقات عندى ، .

« لقد طلبت منى أن أصلح لها من حال مائدة الطعام عندها وبمجرد أن رأيتها قلت : جورج الثانى ، .

« لقد كنت على صواب إلى أبعد حد ، فقد شاهدت الحجرة آخر مرة تفديت هناك . إنها غاية فى الذوق الجميل الكامل ، .

وهكذا جرى الحديث . وكانت مسز برادلى تصفى ولكن لم يكن من المستطاع معرفة فيما كانت تفكر ، وقلت القليل ، ولم يقل صاحب إيزابل الشاب ، لارى ، — لقد نسيت اسم أسرته — شيئاً مطلقاً. كان يجلس إلى الجانب الآخر من المائدة بين برا بازون وإليوت ، وكنت ، بين الفينة والفينة ، أرمقه بنظرات سريعة . كان يبدو حدثاً جداً ، وكان فى طول إليوت تقريباً ، دون الست أقدام ، نحيلاً ، ثقيل الحركة . كان فى حسن المنظر لاهو بالوسيم ولا هو بالقبيح ، أميل إلى الخجل ، ليس بمتازا بحال من الأحوال . وكنت مهتماً بالحقيقة انه على الرغم من ، إنه لم يقل سوى بضع كلمات ، وبقدر ما تسعفى الذاكرة ، منذ وطئت أقدامه أرض المنزل فقد بدا مطمئناً تماماً ، وظهر بطريقة عجيبة أنه يسهم فى الحديث دون أن يفتح فاه . لقد لاحظت يديه ، كاتتا طويلتين ولكن غير كبيرتين بالنسبة إلى جرمه ، جميلتى التكوين وقويتى التركيب فى الوقت نفسه وظننت أن أى مصور يسره أن يقوم برسمهما . كان نحيلاً ولكنه لم يكن رقيق المظهر بل على التقييس ، كان من الواجب على ، أن أقول ، إنه كان قوياً صلباً شديد المقاومة وكان وجهه الرزين وهو هادى ساكن ، قد لفحته الشمس ، ولكنه لم يكن بحال من الأحوال ، عاطلاً من اللون تماماً ، وقسماته ، على الرغم من أنها كانت مستوية إلى حد بعيد ، فلم تكن متميزة . كانت وجناته بارزة العظام هوناً ما وغارصدغاه ، شمره أسود فاحم متموج قليلاً . وبدت عيناه أكثر اتساعاً مما هما عليه حقاً ،

وما ذلك إلا لأنهما كاتتا غائرتين في محجريهما ، وكانت أهدابه كثة طويلة -  
تفردت عيناه في وصفهما ، فلم تكونا بلون البندق الفاخر كما كان لون عيني إيزابل  
وأما وعمها ولكن كانت عيناه سوداوين لدرجة أن قرحية العين اختلطت بإنسانها  
في لون لواحد ، فأضني عليهما هذا الاختلاط قوة عجيبة غريبة .

كان رشيقةً بالطبع دون اصطناع أو تكلف يجذب إليه القلوب ويستوى.  
العقول فأدركت لماذا وقعت إيزابل أسيرة هواه . وكانت نظراتها تستقر عليه ،  
بين أن وآخر ، لحظة . وبدالى أنى أرى في تعبير وجهها لا الحب لحب ولكن  
الوله أيضاً . وحيثما كانت عيونهما تلتقي فيلوح في عينيه حنان بسر النفس.  
رؤيته ، فليس يوجد ما هو أندر على لمس شفاف القلب من منظر الحب الشاب ،  
ولما كنت متوسط السن في ذلك الوقت ، فقد حسدتهما ، ولكن في الوقت  
نفسه ، لم أستطع أن أتصور لماذا شعرت بالأسف والأسى من أجلهما . ولكن  
ذلك سخفاً مني ، لأنى ، على قدر ما عرفت ، لم يكن هناك سدود تقف حاجلاً في  
سبيل سعادتهما ، فقد كانت الأحوال مواتية والأمور تجري هينة سهلة، ولم تكن  
هناك مدعاة تحول دون زواجهما لينعما بالسعادة بعد ذلك

واستمر الثالث ، إيزابل وإليوت وجريجورى برايازون ، في الحديث عن  
إعادة تزيين المنزل وهم يحاولون حمل مز برادلى على التصريح بأن شيئاً ما يجب  
أن يعمل ولكنها كانت تؤثر ، دائماً ، الابتسام بلطف .

« يجب عليكم ألا تستعجلوني الأمر فإني أريد أن أفكر فيه ملياً ، . ثم  
واجهت الولد قائلة : « ما رأيك في كل هذا ، يا لارى ؟ » .

فنظر حول المنضدة والابتسامه تشرق في عينيه .

قال : « لا أظن الأمر بهم بصورة أو بأخرى ، .



فصاحت ليزابل قائلة : « يا لك من حيوان ، يا لارى . لقد رجوتك بصفة خاصة أن تساندنا وتقف إلى جانبنا » .

« إذا ما كانت العمة لوزا سعيدة بما تملك فما الداعى إلى التغيير ؟ »

وكان سؤاله عين الصواب وممقولا لدرجة جعلتى أنفجر بالضحك وحينئذ نظرت إلى وابقسم .

وقالت ليزابل : « لا تبسم تلك الابتسامة الساخرة لجرد أنك أدليت بهذه الملاحظة البلهاء جداً » .

وكان رده على ليزابل ابتسامة أعرض وأكثر سخرية ، ولاحظت آنئذ أن أسنانه صغيرة بيضاء ومنتظمة ، وكان في نظراته التى صوبها إلى ليزابل ، شىء جعلها تحمر خجلا وأوقف تنفسها ، وما لم أكن مخطئاً فقد كانت مجنونة بحبه ولكنى لا أدرى ما الذى جعلنى أشعر أن فى حبها له شىء يتصف بالأمومة ، أيضاً ، لم نكن لتوقه إلا قليلا من مثل هذه الصبية الثابتة . وبابتسامة رقيقة حلوة ترف على شفيتها وجهت الحديث ثانية ، إلى جرمجورى برا بازون .

« لا تعرفه التفاناً ، فهو غيبي جداً وعاطل من التربية والتعليم تماماً . وهو لا يعرف شىء ما عن أى شىء سوى الطيران » .  
فسألت : « الطيران ؟ »

« لقد كان طياراً فى الحرب . »

« لقد ظننت أنه حدث لدرجة لا تسمح له بمظهر من غماز الحرب . »

« لقد غماز غمارها . كان صغيراً جداً . وتصرف تصرفاً أخرق جداً . فقد

حرب من المدرسة ونهب إلى كندا . لقد ارتفع برأسه إلى علو حملهم على الاعتقاد بأنه بلغ الثامنة عشرة من عمره والتحق بسلاح الطيران . كان يحارب في فرنسا ، في أثناء الهدنة .

قال لارى : « إنك تضجرين ضيوف أمك ، يا إيزابل . »

ولقد عرفته ، طوال حياتي ، وكان عند عودته يبدو جميلاً لطيفاً في حلته الرسمية وقد انتشرت الأشرطة الجميلة على سترته الطويلة . ولنا قد جلست على درجات سلم داره ، كما يقولون ، حتى نزل عند رغبتى في الزواج منه لكي يتوفر له السلام والهدوء لا غير .

وكان التنافس مروعاً .

وقالت أمها : « حقاً ، يا إيزابل . »

وانحنى لارى نحوى عبر المنضدة .

« أرجو ألا تصدق كلمة واحدة ، بما تقوله إيزابل . إن إيزابل ليست فتاة شريرة ، ولكنها كذابة . »

انتهى طعام الغداء ، وبمجرد ما فرغنا منه انصرفت مع إليوت . وكنت قد أخبرته من قبل أنى اتتريت الذهاب إلى المتحف لمشاهدة الصور وقال إنه سوف يصحبني إلى هناك . ولست أحب ، على وجه الخصوص ، الذهاب إلى دور عرض الصور ، بصحبة آخر ، ولكنى لم أستطع القول بأنى أفضل الذهاب بمفردى ، وهكذا قبلت صحبته . وتحدثنا ، ونحن في طريقنا ، عن إيزابل ولارى .

وقلت : « إنه لمنظر ساحر فتان أن ترى قتي وقتاة ، في ريعان الشباب وميعة الصبا ، يجب كل منهما الآخر حباً مفرطاً . »

« إنهما صغيران لدرجة لا تؤهلها للزواج ، .

« لماذا؟ إنها لمتعة ، أن يكون الإنسان حديث السن عاشقاً ليزوج ، .

« لا تكن مضحكا . فهي في ربيعتها التاسع عشر وهو على أعتاب العشرين فقط . ولما يحصل على عمل بعد ، ودخله ضئيل ، ثلاثة آلاف في العام ، كما تقول لويزالي ، وليست لويزا ذات ثراء كثير أو قليل . وهي في حاجة إلى كل ما تملك ، .

« حسناً ، فيمكنه الحصول على عمل ، .

« هنا هو المشكل فهو لا يحاول هنا ، ويبدو أنه قانع راض بالبقاء دون عمل ، .

« من المحتمل أنه قضى وقتاً مروعاً في الحرب ويؤثر الراحة لبعض الوقت ، .

« لقد أمضى سنة في الراحة ، وهذه بكل تأكيد مدة كافية ، .

« تراهي لي أنه ولد ظريف ، .

« آه ، ليس لدى ما أخذه عليه . إنه سليل أسرة طيبة الأرومة ، كريمة المعتقد ، وكل ما هو في هذا القبيل ، فقد جاء أبوه من بلتييمور وكان أستاذاً مساعداً للغات القديمة في ييل ، أو شيء من هذا القبيل . وكانت أمه من فيلادلفيا من أصل يتصل بجماعة الأصحاب (١) أو دعاة السلام ، .

---

(١) هيئة مسيحية تعرف « بجماعة الصواب » أو « دعاة السلام » أسسها جورج فكنس عام ١٦١٨ : ١٦٥٠ . يارض أعضاؤها الحرب بشدة يتوخون البساطة في اللبس والحدوث . اجتماعاتهم يسودها الصمت وتستمر كذلك حتى يشعر أحد المجتمعين أنه يدفع إلى الحديث .

« إنك تتحدث عن والديه ، في الماضي فمهل هما في صداد الأموات ؟ »

« نعم ، لقد ماتت أمه في أثناء الولادة كما لقي أبوه ربه منذ اثنتي عشرة سنة مضت ، تقريباً . فكفله زميل قديم في الدراسة لأبيه ، وهو طيب في مارفن وعن طريقه عرفته لوزا وايزابل ، . »

« وأين مارفن ، ؟ »

« إن حى مارفن حيث يقع بيت برادلي . وتقضى لوزا الصيف هناك ، لقد كانت تأسى للطفل كثيراً . كان الدكتور نلسن عزباً ويجهل تربية الأطفال وتنشئتهم كل الجهل ، وكانت لوزا هي التي أصرت على إرساله إلى مدرسة القديس بولس ، وكانت تأتي به من المدرسة إلى هنا في عطلة عيد الميلاد ، . وهز إليوت كتفيه على الطريقة الفرنسية وقال ، « كان يجب أن أفكر فيما يجب أن تتوقعه من نتائج محتمة ، . »

« وكنا حينئذ قد وصلنا المتحف واتجه اهتمامنا إلى الصور . ومرة أخرى تأثرت بما عليه إليوت من معرفة وذوق جميل . لقد طاف بي الحجرات وكأني فوج من السامعين ولم يكن باستطاعة أستاذ فنون جميلة أن يتحدث حديثاً يهذب ويعلم ويتفق أكثر مما فعل هو . ولما كنت قد عقدت العزم على المجيء ، مرة ثانية ، بمفردي عند ما يمكنني أن أتقل بين جنبات المتحف حسب هواي ورغبتى ، لهذا خضعت له وأسلته أمرى ، وبعد هنية قصيرة نظر إلى ساعته . »

« وقال : « دعنا ننصرف . فإني لم أقض أكثر من ساعة في معرض صور ، قبل ذلك . إن ساعة من الزمن لأطول مما يمكن أن تحمله قوة تذوق إنسان . سوف تنتهي من الطواف في يوم آخر ، . »

« فشكرته بإخلاص عند ما افرقنا . وذهبت في حال سبيل وربما وأنا رجل

أكثر حكمة وفطنة وادباً ، بكل تأكيد ، وجعل أكثر تبرماً وأشد ضيقاً .

وعند ما نهضت مودعاً مسز برادل أخبرتني أن إيزابل سوف تستقبل فئة قليلة من شباب الأصدقاء والصديقات في اليوم التالي ، لتناول العشاء في البيت وسوف يقضون الوقت في الرقص بعد ذلك ، فإذا ما حضرت فإن بوسعي أن أزجي الوقت في الحديث مع إليوت ، بعد انصرافهم .

وقالت : « إنك سوف تسدى إليه ضيقاً بذلك فإنه قضى زمناً طويلاً بالخارج وينظر أن لا مكان له هنا بيننا . ولا يبدو عليه أنه قادر على المشور على شخص ترتبطه به شئون عامة ، .

قبلت هذه الدعوة وقبل أن نفرق على درج سلم المتحف أنهى إلى إليوت أنه مسرور لقبول هذه الدعوة .

وقال ، « إن أشبه روحاً ضلت الطريق في هذا البلد العظيم . وقد وعدت لوريزا بقضاء ستة أسابيع معها إذ أننا لم نلتق منذ عام ١٩١٢ . ولكنني أعد الأيام حتى أتمكن من السفر عائداً إلى باريس . إنه المكان الوحيد الذي يمكن الرجل المتمدين أن يعيش فيه . هل تعلم ، يا صديقي العزيز ، ماذا يعتبرونني هنا ؟ لأنهم يعتبرونني فلتة . يالهم من متوحشين ، . فضحكت وانصرفت .

## (٦)

وفي مساء اليوم التالي ، رفضت عرض إليوت التليفوني ، بحضوره ليصبحني ، ووصلت سالماً آمناً تماماً ، إلى دار مسز برادل . لقد تأخرت بسبب حضور شخص لمقابلي وكان أخرى طفيفاً . كانت تصدر أصوات جلبة صاخبة من قاعة

لاستقبال عندما صعدت السلم حتى ظننت أنها لابد أن تكون جماعة كبيرة ،  
ولشد ما كانت دهشتي ، عندما وجدت الحاضرين وأنا معهم ، اثني عشر  
شخصاً فقط . وكانت مسز برادلي رائعة جليلة في ردائها المصنوع من الساتان  
الأخضر ، وحلت جيدها بقلادة من اللؤلؤ النضيد . وكان إليوت يرتدي سترة  
السهرة التي حاكتها يد صناع فداً رشيماً أنيقاً كما يمكن له فقط أن يبدو كذلك .  
وعندما صالحني امتلاً أنني بكل عطور بلاد العرب الشذية . وقدمت إلى رجلا ،  
أميل إلى البدانة ، ذا وجه أحمر ، بدا أنه غير مرتاح في ملابس السهرة . كان  
اسمه دكتور نلسن ، ولكن في تلك اللحظة لم يكن لهذا الاسم أية أهمية لدى .  
وكان الباقيون هم أصحاب إيزابل ولكن تاهت عن أسمائهم بمجرد أن سمعنا .  
كانت الفتيات صغيرات وجميلات ، والرجال شباباً معتدلي القامة ، أقوياء  
وأصحاء . لم يترك أحدهم انطباعاً في نفسي ماعداً فتى ترك أثراً في نفسي لأنه  
كان مفرط الطول مفرط الضخامة . لابد أنه كان يبلغ ست أقدام وثلاث  
وأربع بوصات طولاً وكان ذا منكبين حريضين . كانت إيزابل تتألق جمالا في ثوبها  
الحريري الأبيض ذي النطاق المسترسل الضيق المحكم الذي أخفى ساقها الممتلئين  
وكان ثوبها يكشف عن بروز صدرها ، وذراعاها العاريتان أميل إلى الامتلاء قليلا  
ولكن جيدها كان بديعاً . كانت بادية الانفعال وفي عينيها يتلألأ بريق مشرق .  
ولم يكن هناك موضع شك في أنها عارمة الحسن ومطمح الأناظر . ولكن كان من  
الواضح أنها إن لم تعن بنفسها فسوف تغدو بدينة محرومة من الحسن .

وعلى مائدة العشاء ألفت نفسي بين مسز برادلي وقتاة خجول عملة ، يدل  
مظهرها على أنها أصغر سناً من الآخرين ، أيضاً . وعند ما جلسنا لنظامن من  
نفسنا ، أوضحت لي مسز برادلي أن جديها يقيمان في مارفن ، وأنها كانت زميلة  
لإيزابل في المدرسة وأنا سمها وهو الاسم الوحيد الذي سمعته يذكر ، صوفي . ولقد  
تبادل الحاضرون المزاح والنكات عبر المنضدة ، فقد تكلم كل واحد بأعلى صوته

وكان هناك ضحك كثير . وكانت الدلائل واضحة على أنهم يعرفون بعضهم البعض جداً المعرفة . وعند ما كان لا يشغلني شاغل مع مضيقتي حاولت أن أتجاذب مع جلوتي أطراف الحديث ولكن لم تكلم بالنجاح محاولاتي كثيراً ، فقد كانت أكثر هدوءاً من الباقين ، لم تكن بارعة الجمال ، ولكن وجهها يسر الناظرين ، ذات أنف مقوس قليلاً وفم منفتح وعينين ذوقاوين مائلتين إلى الخضرة ، ولكن شعرها الذي صفته ببساطة ، كان بلون الرمل الداكن . كانت نحيلة ضامرة ، أما صدرها فكان مسطحاً مستويّاً كصدر الصبي . كانت تضحك لما يجري من مزاح ، أو ينطلق من نكات ، ولكن بصورة مفتعلة قليلاً إلى حد تجعلك تشعر أنها ليست مسرورة كما كانت تدعى وحدثت أنها تبذل جهداً لتبدو أنها تستمتع بروح رياضية طيبة . ولم يكن بوسعى أن أدرك ما إذا كانت على شيء من الغباء أو أنها كانت فقط نجول بدرجة مؤلمة . ولقد حاولت أن أخوض معها في حديث عن موضوعات متعددة ولكن كل محاولاتي كانت تذهب أدراج الرياح ، ولكني أعثر على شيء أفضل يحملها على الحديث سألتها أن تخبرني بشيء عن كل من كانوا حول المائدة .

قالت وهي تشير إلى الرجل الذي في منتصف العمر الجالس قبالي ، وإلى جانب مسز برادلي ، « حسناً ، فإنك تعرف دكتور نلسن . إنه الوصي على لارى . إنه طبيبتنا في مارفن . وهو ماهر جداً ، ويخترع آلات للطائرات لا يستخدمها أحد مطلقاً وعند ما لا يفعل هذا فإنه يكف على الشراب ، .

وكان يلوح في عينها الذابلتين بين عندما قالت ذلك ، وجعلني هذا أشك أن هذه الفتاة تخفي بين جوانحها أكثر مما ظننت بها أولاً . واستمرت تعطيني أسماء الواحد تلو الآخر ، فتخبرني من يكون أبواها ، وعن حال الرجال في أية كلية كانوا وما العمل الذي يقومون به في اجتماع . ولم يكن في مثل ما قالت تنوير كاف .

« إنها حلوة الشبائل بالغة العذوبة ، أو « إنه لاعب جواف مجيد » .

« ومن عساه أن يكون ذلك الفتي الضخم الكك الحاجبين » ؟

« ذلك الفتي ؟ أوه ، إنه جراى ماتيورين . ووالده يملك منزلاً ضخماً على نهر مارفن . إنه صاحب الملايين ، بيننا ، ونحن به جد غفورين فهو يرفع من مكاتنا ويحلنا المسكان الأرفع . ماتيورين ، هوبز ، راينز وسمك إنه واحد من أعرض الناس ثراء في شيكاغو وجراى هو ابنه الوحيد » .

واقدم أضفت من السخرية المحببة على هذه القائمة من الأسماء ماجعلنى أحدجها بنظرة فضول وحب استطلاع أدركتها فغضبت حمرة الخجل وجهها .

« زيدنى معرفة بمستر ماتيورين » .

« ليس لدى ما أقوله سوى أنه رجل ثرى . ويحظى باحترام سام عظيم . نى لنا كنيسة جديدة في مارفن وتبرع بمليون دولار لجامعة شيكاغو » .

« إن ابنه فتى جميل المنظر » .

« إنه فتى ظريف لا يمكنك أن تتصور أن جده لايه كان يسكن كوخاً في أيرلنده وجده كانت نادلة (١) في مطعم » .

كان جرى ماتيورين ملقاً للأنظار أكثر منه وسيماً فقد كانت ترسم على وجهه نظارة عابسة لما تكتمل بعد ، أنفه أفطس قصير ، وفه شهبانى . أما بشرته فكانت تتصف بالتورد الإيرلندى وشعره فاحم رجل أنيك ، نبتته ملس متناه في ملاسته وله عينان صافيتان زرقاوان كماء البحر يظللها حاجبان كشيغان ، وعلى الرغم من

(١) نادمة اللاتمة .



ضخامته فقد كان متناسب الأعضاء وإذا ما جردته من شحمه المكتنز غدا رجلا متناسق الأعضاء كامل التكوين ، وكان من الواضح الجلي أنه قوى جداً ترك رجولته أثراً عميقاً جداً في النفس مما جعل لارى الجالس إلى جواره ، ولم يكن يقصر عنه سوى ثلاث بوصات أو أربع ، يبدو قزماً .

قالت جلوتى الخجول ، «لأنه موضع إطراء الجميع ، لاني أعرف قيات كثيرات لا يترددن عن اقتراب أى ذنب ولو جريمة قتل ، في سبيل الظفر به ، ولكن لم تواتهن الفرصة .»

« ولم لا ، ؟ »

« أنت لا تعرف شيئاً ؟ هل تعرف ، ؟ »

« وأنى لي ذلك ، ؟ »

« إنه يحب إيزابل جداً مبرحاً ، وهو قصير النظر ليس بوسعه أن يدرك حقائق الأمور ، فإن إيزابل تهوى لارى .»

« وما الذي يمنعه من أن يشرح في العمل ويبعد لارى عن الميدان ليأخذ مكانه ، ؟ »

« إن لارى صديقه الأعرز ، .»

« أظن أن ذلك يمقد الأمور ، .»

« إذا ما كنت صاحب مبادئ سامية مثل جراى ، .»

لم أكن واثقاً إذا ما كانت قد قالت ذلك وهي جلدة كل الجدة أو إذا ما كان يشوب التهمك لهجتها ، لم يكن في سلوكها سفه أو وقاحة ، أو شيء يتصف بالجرأة والاندفاع أو ينقصه الأدب والحياء ومع ذلك فقد انطبع في ذهني الاعتقاد بأنها

لا تنقصها روح الفكاهة أو الدعابة ولم تحرم من الذكاء أو الدهاء، وإني لأعجب بما صاها كانت تفكر فيه حقاً ، وهي تتجاذب مع أطراف الحديث ولكن عرفت أن ذلك ما لن أصل إليه أبداً ، لقد كانت بكل وضوح مجردة من فضيلة الثقة بالنفس. وفهمت السبب في ذلك فقد كانت الابنة الوحيدة التي عاشت في عزلة مع أناس يكبرونها سناً بجد بعيد . وكان فيها حشمة فاتنة وخفر أسر . ولكن إذا ما صدق ظني أنها عاشت طويلاً بمفردها فإني قد حدثت أنها كانت ترقب في هدوء هؤلاء الناس الذين يكبرونها سناً والذين عاشت معهم وانتهت إلى رأى قاطع فيهم فنحن الذين بلغنا سن النضج نادراً ما نرتاب فيما يصدره علينا من يصغروننا سناً بكثير ، من أحكام دون رحمة أو شفقة ومع ذلك فهي أحكام سداتها الإدراك ولحمتها التبصر وبعد النظر . فنظرت في عينيها الضاربتين إلى الخضرة مرة ثانية .

وسألتها : « كم عمرك » ؟

« سبعة عشر عاماً » .

فألقتها مجازةً ، « وهل تقرئين كثيراً » ؟

ولكن قبل أن تتمكن من الإجابة كانت مسز برادلي ، وهي الحريصة على أداء واجباتها بوصفها ربة الدار والمضييفة ، جذبتني إليها بإشارة وقبل أن أتخلص منها كان العشاء قد انتهى . وانصرف الشباب لفورهم إلى حيث أرادوا . وصعدنا نحن الأربعة الباقين إلى حجرة الجلوس .

واقعد ديمشيت لدعوتي لهذا الحفل . فإنه بعد حديث مفكك راحوا يتحدثون في أمر كنت أظن أنهم يفضلون مناقشته فيما بينهم فقط ولم يكن بوسعي أن أقطع برأى في إذا ما كانت من الفطنة وحصافة الرأي أن أنهن وأنصرف أو قد أكون

ذا تقع لم بوصف شخصاً محايداً لا مصلحة له . وكان موضوع النقاش هو إحجام لارى الغريب عن الاتحاق بعمل ، وانتهى بهم الحديث إلى عرض تقدم به مستر ماتيورين ، أبو الولد الذى كان فى العشاء ، بأن يأخذ لارى فى مكتبه . لقد كانت فرصة مواتية فبالقدرة والصناعة يمكن للارى أن يطعم ، فى الوقت المناسب ، فى جمع ثروة طائلة وكان جراى ماتيورين الشاب متشوقاً إلى أن يقبل لارى هذا العرض .

ليس بوسعى أن أتذكر كل ما قيل بهذا الصدد ، ولكن خلاصة القول واضحة كل الوضوح فى ذاكرتى . فبعد عودة لارى من فرنسا اقترح دكتور نلسن ، الوصى عليه ضرورة عودته إلى الكلية ولكن لارى رفض هذا الاقتراح . فقد كان من الطبيعى له ألا يقبل على عمل شئ لفترة من الزمن . فقد عاش أيام الشدائد والمحن وأصيب مرتين ، بجراح وإن لم تكن جراحاً خطيرة . وكان الدكتور نلسن يظن أنه ما زال يقاسى تحت وقر الصدمة وبدأ أنه من الصواب أن يلوذ بالراحة والدعة لبعض الوقت إلى أن يفيق منها تماماً . ولكن الأسابيع مرت وتلتها الشهور والآن وقد جاوز العام منذ أن خلع عنه رحلته العسكرية . وبدأ أنه أبل بلاء حسناً فى سلاح الطيران وعند عودته إلى شيكاغو يبدو أنه لفت إليه الأنظار وكان من أثر ذلك أن تقدم إليه كثيرون من رجال الأعمال بوظائف . فشكروهم ولكنه ورفض عروضهم . ولم يقدم لذلك سبباً سوى أنه لم يقرر بعد ماذا كان يريد أن يفعل . ثم تمت خطبته على إيزابل ولم تكن هذه الخطبة مفاجأة لمسز برادلى فقد ظلا لا يفترقان لسنين كثيرة ، وكانت تعلم أن إيزابل تهواه وكانت مغرمة به واعتقدت أنه سوف يسعد إيزابل .

• إن خلقها أقوى من خلقه . وبمكثها أن تمنحه ما ينقصه . .

وعلى الرغم من صغر سن كل منهما ، فإن مسز برادلى كانت متشوقة جداً

إلى أن يتزوجا لفورهما ، ولكنهما لم تكن قد أخذت لهذا اليوم عدته حتى يلتحق لارى بعمل فلم يكن له سوى مال قليل ، وحتى لو كان له عشرة أمثال ما يملك فإنها كانت مصرة على موقفها من هذا الأمر . وبقدر ما أدرك وأعرف فإن ما أرادت مسز برادى وإليوت معرفة من دكتور نلسن هو ما قرأى لارى عليه . وكانا يريدانه على استعمال نفوذه لحل لارى على قبول العمل الذى عرضه عليه مسز ماتيورين .

فقال : « أتم تعلمون أنى لم أكن فى يوم من الايام ذا نفوذ أو تأثير على رلاى لفتى وهو صبي يافع كان يسلك وفق هواه .

« لى أعرف ذلك . فقد تركت له الجبل على الغارب ، فركب رأسه . وإنها لمعجزة أن وصل إلى ما هو عليه ، .

لخدجها دكتور نلسن ، الذى كان يسرف فى الشراب ، بنظارة قاسية وازدادت حمرة وجهها قليلا .

« لقد كنت مشغولا جداً ، وكان على أن أرحى شئونى الخاصة فى . ولقد أخذته فى رعايتى ، لأنه لم يكن لديه مكان آخر يذهب إليه وكان أبوه صديقاً لى . أما هو فلم يكن من السهل التفاهم معه ، .

« ماذا عسى أن تفعل مع فتى لا يقبل المناقشة إطلاقاً معك ، ولكنه يفعل ما يترامى له تماماً وعند ما يحزن جنونك غاضبة عليه لا يفعل أكثر من أن يعتذر آسفاً ويتركك لثورتك وهياجك ، لو أنه كان ابنى لكان بوسعى أن أضربه . كما أنى لا أستطيع لنفسى أن أضرب ولداً فقد الأهل وذوى القربى ، وبات وحيداً فى الحياة ، وزيادة على ذلك فإن أباه قد تركه لرعايتى لأنه افترس أنى سوف أحضو عليه وأشفق به ، .

قال إلبوت محتدا قليلا ، « ليس الأمر كما تريان . فإن الوضع هو هذا : لقد تمهل وتواني بما فيه الكفاية . والآن وقد سنحت له فرصة الحصول على مركز سوف يدر عليه مبلغاً طائلاً من المال ، فإذا ما كان راغباً في الاقتران بإيزابل فعليه أن يقبل ذلك المركز . »

قالت مسز برادلي ، « يجب أن يدرك ، أن في الظروف الحاضرة التي يجتازها العالم ، على الرجل أن يعمل . فهو مكتمل القوة وصحيح البدن الآن . ونحن جميعاً نعرف كيف أنه بعد الحرب بين الولايات ، بنى رجال كثيرون لا يأتون عملاً ما بعد أن عادوا من هذه الحرب وصاروا كلا على أسرهم لم يرج منهم نفع للجمع . »

وحيثما اشتركت في الحديث .

« ولكن ما عذره في رفض هذه العروض المتعددة التي قدمت إليه ؟ »

لا عذر لديه سوى أنه لا يأنس في نفسه ميلاً إليها .

« ولكن ، أليست له رغبة في أن يعمل عملاً ما ؟ »

« من الواضح أنه لا يرغب في ذلك . »

أخذ دكتور نلسن قدحاً آخر من الوسكي والصودا ، ثم نهل جرعة طويلة ونظر عندئذ إن صديقيه .

« هل أخبرك بما انطبع في نفسي من أثر؟ ربما لا أكون حكماً عادلاً في شؤون الطبيعة الإنسانية ، ولكن على أية حال من الأحوال ، فإنه بعد تجربة استغرقت ثلاثين أو أربعين عاماً فأني أظن أنني أعرف شيئاً عنها ( الطبيعة الإنسانية ) . لقد فعلت الحرب فعلها بلاري وتركت فيه أثرها . ولم يعد منها كما كان عند ما ذهب

إليها . فهو لم يتقدم في السن ، لحب ، بل أيضاً شيء ما قد وقع فغير من شخصيته ، ؟

فألت ، « وماذا عسى أن يكون ذلك يا ترى ، ؟ »

« لا أدري فهو كتموم لا يبوح بما قارف من خطوب وما لافي من ويلات في الحرب ، . ثم التفت دكتور نلسن إلى مسز برادلي وسأل قائلاً ، « هل تحدث معك ، يا لويزا ، عن هذه التجارب ، ؟ »  
فهزت رأسها .

« لا ، فعندما عاد ، لأول مرة ، حاولنا استدراجه ليخبرنا عن بعض مغامراته ولكنه لم يفعل سوى أنه ضحك على طريقته المألوفة ، وقال إنه ليس لديه ما يقوله حتى إيزابل لم يفرض إليها شيء . لقد حاولت مراراً وتكراراً ، ولكنها لم تنظر منه شيء . . . »

استمر الحديث على هذه الوتيرة غير المرضية وبعد برهة وجيزة نهار دكتور نلسن إلى ساعتها وقال إنه لا بد أن ينصرف وأخذت أهبط الانصراف معه ، ولكن ألح على إلبوت على البقاء . وبعد انصرافه اعتذرت إلى مسز برادلي لضايقتهم لي بالحديث عن شئونهم الخاصة وعبرت عن خوفها من أن أكون قد ملكت الحديث .

وختمت حديثها قائلة ، « ولديك كما ترى فإن الأمر كله لا يبرح ذهني ، . إن مسز موم ، رجـل حميف ، يا لويزا ، وليس هناك ما تخشيه إذا ما أفضيت إليه بأى شيء . كما أتى لا أشعر بأن رابطة قوية تؤلف بين دكتور نلسن ولاري ، ولكن توجد بعض أشياء ، رأت لويزا ، ورأيت معها ، أنه من الأفضل ألا نذكرها له ، . »

« لقد قلت له الكثير ، فلا بأس من أن تقول له الباقي . إنى لأعجب إذا ما كنت قد لاحظت جرای ماتیورین فی أثناء العشاء ؟ »  
« إنه ضخم الجثة ، ولا يفوت أحداً ملاحظة ذلك . »

« إنه عاشق إیزابل . لقد كان یولها كل عناية واهتمام فی أثناء وجود لاری بعيداً عنها فی الحرب . إنها تفضله . ولو طالت الحرب زمناً أطول مما استغرقت لتزوجت منه . وحدثت لویزا أن ابنتها لا ترغب فی اتخاذ قرار حاسم حتى یعود لاری إلى أرض الوطن . »

فسألت : « وكيف حدث إنه لم ینخرط فی سلك الجنديّة ؟ »

« لقد أرق قلبه فی لعب كرة القدم . إنه لیس بالأمر الخطير ولكن الجيش رفض قبوله . وعلى أية حال من الأحوال فإنه عند عردة لاری إلى الوطن لم تواءم للفرصة وردته إیزابل غائباً تماماً . »

ولم أعرف ما كانوا يتوقعون منى من إجابة على ذلك ، فلم أقل شيئاً . واستمر إلیوت فی حديثه . إن مظهره الممتاز ولهجة إكسفورد التي يتحدث بها توهلانه لأن یكون من كبار الموظفين فی وزارة الخارجية ولا مرأ .

« طبعاً ، إن لاری فتى لطيف جداً ولقد كانت مغامرة جريئة منه أن یرب من الدراسة ویلتحق بالسلاح الجوى ولكنى قاض عدل فی شئون الأخلاق . ثم ابقم ابتسامة رقيقة ذات مغزى وأشار ، وكانت هذه هی المرة الیقیمة التي سمعته فیها یشیر إلى الحقيقة الواقعية بأنه جمع ثروة طائلة من اشتغاله بالتجارة فی الأعمال الفنية . « وإلا لما كان لی فی هذه اللحظة مبلغ رتيب يكفلی طمأنينة مضمونة . وإن رأی أن لاری لن یرقى كثيراً ولن یبلغ مطعماً كبيراً فلا مال عنده یتحدث عنه كما أنه لا یشغل مركزاً مرموقاً . أما جرای ماتیورین فأمره یختلف اختلافاً

بيناً . فهو يملك لقباً إيرلندياً قديماً صالحاً وكان لهم أسقف من بين أفراد الأسرة ،  
وكاتب مسرحي وجمهرة من كبار الضباط والعلماء .

فألتته : وكيف عرفت كل ذلك ؟

فأجاب بلا قصد : لأنها أشياء معروفة لكل إنسان في الواقع تصادف لي  
بالأمس وأنا أقلب صفحات قاموس التراجم القومية ، في النادي ، أن وقع  
بصري على اسمه .

فلم أفكر في أن من شأنى أن أكرر ما قالته لي جارتى في أثناء العشاء ، عن  
الإيرلندي ساكن الكوخ والنادلة ( خادمة المطعم ) السويدية وهما جد وجددة  
ماتيورين . واستمر إليوت في حديثه :

ونحن جميعاً على معرفة بهنرى ماتيورين من سنين طويلة . فهو رجل لطيف  
جداً وذو ثراء واسع . إن جراى سوف يملك أحسن بيوت المال في شيكاغو .  
وقد دان له العالم بأسره . وهو يطمح في الزواج من إيزابل وليس بوسع أحد  
أن ينكر عليها وجهة نظرها أنه سيكون زواجاً موفقاً جداً . وإنى أؤيد بكل قواى  
هذا الزواج وأعرف أن ليزا تؤيده كذلك .

قالت مسز برادلى وقد ارتسمت على شفيتها ابتسامة غائرة ، د لقد قضيت  
سنوات طويلة بعيداً عن أمريكا ، يا إليوت ، وفاتك أن في هذه البلد لا تزوج  
الفتيات لأن أمهاتهن ، وأخوالهن يريدون ذلك ويفضلونه .

فقال إليوت غاضباً ، د ليس هذا أمراً تفخر به ، يا لويزا ، وإنى أتحدث  
إليك عن خبرة ثلاثين عاماً ، بأن زواجاً يتم بالنظر الصادق إلى مركز الإنسان  
وثروته وظروفه كلها سوف تتوفر له جميع المزايا على زواج الحب . ففي فرنسا ،  
وهى كذلك البلاد الوحيدة المتقدمة ، في العالم ، سوف تزوج إيزابل من جراى



دون أن تفكر غير مرة في هذا الزواج ، ثم بعد مرور عام أو عامين إذا ما رغبت  
هي في أن تتخذ من لارى عشيةً لها ، كان لها ذلك ، ثم يعايش جراى بمثلة مشهورة  
في شقة فاخرة الأثاث والرياش وهكذا يعيش الجميع عيشة سعيدة تماماً .

لم تكن مزر برادلى سيدة حقاء بلهاء فنظرت إلى أخيها في تعجب ما كر .

« إن الاعتراض على هذا ، بالليوت ، وهو أن الفرق التمثيلية لا تفقد إلى هنا  
إلا لفترات محدودة ، ولن يكون بوسع جراى أن يحظى بوجود من تشغل  
شغته الفنا: إلا لوقت . . . محدود أيضاً . وسوف يكون ذلك مصدر قلق  
شديد واضطراب كبير لكل من الطرفين . »

فابتسم إليوت :

« إن في وسع جراى أن يشتري «قعداً في سوق الأوراق المالية (البورصة)  
ومن ناحية أخرى ، فإذا ما كنت ترغبين في الحياة في أمريكا فإني لا أرى سبباً  
واحداً يدعو إلى الحياة في غير نيويورك . »

لقد انصرفت فوراً بعد ذلك ، ولكن قبل أن أفعل ، فإن إليوت ، وأكد  
لا أعرف لذلك سبباً ، سأأتي إذا ما كنت أقبل تناول الغداء معه في النادي لأقابل  
أسرة ماتيوورين ، الأب والابن .

قال : « إن هنرى خير نموذج لرجل الأعمال الأمريكى وإني أرى أن من  
واجبك أن تلقاه فقد ظل يرعى استثماراتنا سنين كثيرة . »

لم تكن لي رغبة خاصة في هذا اللقاء ولكن لم يكن لدى سبب الرفض فأجبت  
مرحياً بالدعوة وبأنى سوف أسر لذلك .

( ٧ )

لقد استضفت طوال مدة إقامتي ، في ناد له مكتبة حافلة ، طامرة ، وفي اليوم التالي ذهبت إلى هناك لأنصفح مجلة أو مجلتيين من مجلات الجامعة كان من العسير علي من لا يستمتع بالاشتراك فيها أن يحصل على واحدة منها . لقد كان الوقت مبكراً ولم يكن من الزائرين سوى شخصين . آخر فقط . كان يجلس في مقعد جلدي كبير وهو غارق في كتاب . واندعشت إذ عرفت أنه كان لاري . فقد كان آخر من أتوقع وجوده في مثل هذا المكان . فرفح بصره ونظر إذ مررت به وتحقق من شخصيتي وهم كأنه يتوى الوقوف .

وقلت : « الزم مكانك ولا تتحرك » . ثم أردفت وأكاد أكون قد فعلت ذلك بصورة آلية : « ماذا تقرأ ؟ »

« إنني أقرأ كتاباً » : قال ذلك وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ، ولكنها كانت ابتسامة حلوة أسرة إلى حد جعلت الصدمة التي خلفتها إجابته لا تحمل إساءة بحال من الأحوال .

فقل الكتاب ونظر إلى بعينه الغامضتين ، بصورة خاصة وهو يسك بالكتاب في وضع معين يجعلني لا أتمكن من رؤية عنوانه .

فسأله : « هل قضيت وقتاً طيباً ، الليلة الماضية ؟ »

« لقد كان وقتاً جميلاً جداً . فلم أصل إلى المنزل حتى بلغت الساعة الخامسة . »

« إنه لجهد شاق ممن لك أن تكون هنا صافياً صافياً في مثل هذا الوقت

المبكر . »

«لاني أتردد كثيراً على هذا المكان. فغالباً ما يكون لي هذا المكان في مثل هذا الوقت»  
«لن أذكر صفوك» .

قال وهو يتسم ثانياً وفي تلك اللحظة بدالى أن ابتسامته عذبة إلى درجة عظيمة . لم تكن ابتسامته مشرقة براقة ولكنها كانت ابتسامته أضاءت وجهه وكأنه يضيء بنور داخلي . كان يجلس في مقعد صنع من أرفق بارزة وكان بجواره مقعد ووضع يده على مسنده .

قال : «هل تفضلت بالجلوس لحظة ؟»  
«حسناً» .

وناولني الكتاب الذي كان يقرأه .

«هذا هو الكتاب الذي كنت أقرأه» .

نظرت إليه ورأيت أنه مؤلف ولیم جيمس «مبادئ علم النفس» . لأنه طبعاً ، عمل ممتاز وذو أهمية كبرى في ميدان العلم الذي يعالجه وبالإضافة إلى ذلك فهو جدير بالقراءة إن أبعد حد . ولكنه لم يكن نعطاً للكتاب الذي أتوقع رؤيته بين يدي شاب حدث السن جداً ، وطيار ظل يرقس طول ليلة حتى الساعة الخامسة صباحاً .

فألتته : «ولماذا تقرأ هذا الكتاب ؟»

«أنا جاهل كل الجاهل» .

فأبتسمت قائلاً : «ولكنك صغير السن جداً ، أيضاً» .

وظل وقتاً طويلاً لا ينبس بينت شفة ، حتى بدأت أشعر أن الصمت ثقيل الوقع وهممت بالنهوض وأنا أنظر إن العجلات التي جئت للبحث عنها . ولكنني شعرت بأنه يود أن يقول شيئاً . فنظر في الفضاء ، ووجهه صارم يرتسم عليه

العزم ، وبدأ أنه غارق في تأملات عميقة : وانتظرت فقد كنت أتشوف لمعرفة كل ما في صدره . وعندما بدأ الحديث بدا كأنه يوالى الحديث وهو لا يعي فترة الصمت الطويلة التي سادت بيننا .

« عندما عدت من فرنسا طلب مني الجميع أن أذهب إلى الكلية . ولكني لم أتمكن فبعد كل ما بلوته وبعد كل ما مررت من أحداث وما أصابني من خطوب شعرت أنه ليس بوسعي الذهاب إلى المدرسة . وكنت لم أتعلم شيئاً في المدرسة الإعدادية بحال من الأحوال . وشعرت أنه ليس بمقدوري أن أبدأ حياة جديدة كتليذ مبتدى في كلية . فلن يحبوني ومن جانبي لم أرد أن ألعب دوراً لا أحسه . كما أتى ظننت أن المرين لن يعلونى شيئاً أرغب في معرفته . »

أجبت قائلاً ، « طبعاً ، أعرف أن هذا ليس من شأني ، ولكني لست مقتنعاً بأنك على صواب . أظن أني أفهم ما تعني وبوسعي إدراك ذلك ، فإنه بعد أن قضيت في الحرب عامين ، كان رضايقك نوعاً ما ، أن تصبح من ذلك الصنف من طلاب المدارس المعظمين ، طالب لما يتخرج بعد في مدرسته ، في السنة الأولى أو الثانية من دراسته . لا يمكنني أن أعتقد أنهم لن يحبوك ، فلا أعرف الكثير عن الجامعات الأمريكية ولكنني في الوقت نفسه لا أرى أن هناك فارقاً كبيراً بين الطلاب في الجامعات الأمريكية والطلاب في الجامعات الإنجليزية ، قد يكون الطلاب الأمريكيون أكثر صخباً إلى حد ما وأكثر ميلاً نوعاً ما ، إن الهزل السمج ، ولكن على وجه العموم فهم قتيمة محتمسون ، إلى درجة قصوى . وذوو إحساس وعقلاء . وإنني لو اتق أنك إذا لم تكن راغباً في أن تعيش عيشتهم فهم لا يحاولون دونك وهذه الرغبة إذا ما كنت على شيء من اللياقة والحياسة . لم أذهب مطلقاً إلى كبردج كما فعل إخوتي . لقد واثني الفرصة ولكنني رفضتها . كنت أرغب في الخروج إلى العالم الرحب . ولكنني ظلت طوال حياتي آسفاً لما فعلت . وأظن أنني لو التحقت بكبردج لجنبت نفسي كثيراً من الأخطاء . لأن

طالب العلم يحصل قدراً أكبر منه بإرشاد ذوي الخبرة والتجارب من المعلمين .  
ولذلك لتضييع وقتنا طويلاً سدى وأنت تضرب على غير هدى عبر طريق مسدود  
إذا لم يكن لك من يرشدك سواء السبيل .

« قد تكون على صواب ولكني لا أعياً لما أقترف من أخطاء ، قد أعثر  
على ضالتي التي أنشدها ، في أحد هذه الطرق المسدودة . »  
« وما هدفك ؟ »

تردد لحظة .

« هذا هو لب الموضوع . فأننا لا أعرف في هدفاً . »

لنت بالصمت ، فقد ظهر جلياً ، أنه لم يكن هناك ما أجيّب به على هذا القول  
لأني ، وقد كنت منذ فجر حياتي ، أضع نصب عيني غرضاً واضح المعالم ، وعدد  
الأهداف ، بدأت أستشعر نفاذ صبري ، ولديني زجرت نفسي ، فإن لي ما يمكن  
أن أسميه اللقاة (١) ، بأن في قرارة نفس ذلك الفتى لوناً من صراع مضطرب  
مبيل ، سواء أكان أفكاراً لجة يراها أو عواطف غامضة يحسها لم أستطع أن  
أقطع بها ، قد ملاء بقلق ملح ، ولم يعرف أيهما كان يورته . لقد أثار شفقتي عليه  
بصورة عجيبة . فلم أسمع من قبل يتحدث كثيراً ، وفي هذه اللحظة فقط أحسست  
حسن إيقاع صوته الرخيم . كان صوته فاتناً ساحراً أخاذاً . كان يشبه بنسماً يشني  
الجراح . وعندما فكرت في ذلك وفي ابقسامته الآسرة وقوة التعبير في عيفيه  
السوداوين ، أدركت تماماً ، لماذا جنت إيزابل به حباً . كان فيه حقاً شيء يحمل  
القلوب على الالتفاف حوله والتعلق به . أدار رأسه والتفت إلى دون أن تتولاه

( ١ ) بديهة - سرعة الإدراك - بصيرة النفس

حيرة أريناله ارتباك ولكن كان يتألق في عينيه بريق فاحس ولاء في وقت واحد .

« هل أنا على صواب في الظن بأنه بعد أن انصرفنا جميعاً إلى حلبة الرقص في الليلة الماضية ، تحدثتم عنى ؟ »  
« لبعض الوقت ،

« أظن أن هذا هو السبب الذي من أجله ألحوا على عمى بوب في الجوء إلى العشاء . فهو يكره البقاء في الخارج ،

« يبدو أن عرضاً ، بمركز طيب قدم اليك ، .

« وإنه مركز ممتاز ، .

« وهل ستقبله ؟ »

« لا أظن ذلك ، .

« ولم لا ؟ »

« لأنى لا أريده ، .

لقد أقحمت نفسى في أمر لا ناقة لي فيه ولا جمل ، ولكن لاح في خاطرى السبب الذى من أجله لم يحجم لارى عن التحدث لى في ذلك الأمر ، ألا وهو أنى وافد من بلد أجنبى .

فقلت وأنا أكنم ضحكى : « حسناً ، فإنك تعرف أنه عندما يندو الناس غير صالحين لشيء فإنهم يصيرون كتاباً ، .

« ولكنى لا أملك الموهبة ، .

« وماذا عماك تريد أن تفعل إذن ؟ » .

فأبسم لي ابتسامته المشرقة الساحرة .

وقال : « الرغيف »

كان الواجب على أن أضحكك، فضحكك.

وقلت : « ما كان يدور بخلدني أن شيكاغو خير مكان في الدنيا تفعل فيه ذلك . ولكن على أية حال من الأحوال سأتركك لقراءتك . فاني أود أن ألقى نظرة على مجلة ييل كوارترلي ( Yale Quarterly )

نهضت . وعندما غادرت المكتبة كان لاري مايزال غارقاً في كتاب وليم جيمس . تناولت الغذاء وحيداً في النادي ولما كان الهدوء يعم المكتبة فقد عدت إلى هناك لأدخن السيجار ، وأقضى ساعة أو ساعتين في القراءة وكتابة الخطابات . ولقد دهشت لدى عودتي إلى المكتبة إذ رأيت لاري ما زال منهمكاً في كتابه . وهذا كأنه لم يتحرك منذ أن تركته ، وبقي هناك عندما انصرفت ، وكانت الساعة قد قرابت الرابعة . ولقد لفت نظري ما حباه الله به من قوة التركيز والقدرة على التحفيل (١) . فلم يلحظ قدومي أو انصرافي . كان لدى كثير من الشئون التي أبغى قضاءها في فترة ما بعد الظهر ، فلم أعد إلى بلاكتون حتى حان وقت تغيير ملابس لارتداء ملابس السهرة استعداداً لحفل العشاء الذي كنت ذاهباً إليه وفي طريقي تملكني فضول قوي . فعرجت على النادي مرة أخرى ، وذهبت إلى المكتبة . وكان هناك عدد عديد من الناس حينئذ يقرأون الصحف وأشياء أخرى لاتعد ولا تحصى . كان لاري مايزال جالساً في المقعد نفسه ، منكباً على الكتاب نفسه . ياله من شخص عجيب !

---

(١) حفل : حمر — ركز ( المجمع اللغوي )

(٨)

وفي اليوم الثاني دعاني إليوت لتناول الغداء في مطعم بالمرهاوس لكي أقابل ماتيورين الأب وابنه . وكنا أربعة فقط . كان هنري ماتيورين ضخماً يكاد يعدل ابنه في ضخامته ، ذارجه اكتنز لحماً وشحمياً وأشرب حمرة وله لحي (١) عظيم ، وكان له الأنف الناقى نفسه ، ولكن عينيه كانتا أصغر من عيني ابنه ، لم تكونا زرقاوين وما كرتين جداً . وعلى الرغم من أنه كان من المستحيل أن يكون قد جاوز الخمسين من سني حياته بكثير فإنه كان يبدو أكبر من عمره بعشر سنين وكان شعره الذي يتساقط بسرعة أبيض كالثلج . ولم يكن يسترعى الانتباه أو يستهوى اللب عند النظرة الأولى . كان يبدو وكأنه قد أحرز نجاحاً أرضى طموحه لسنين كثيرة ، وترك في نفسه انطباعات لصورة الرجل الماهر القدير الذي يفتدو قاسياً لا يرحم في شئون المال والأعمال ، في جميع الأحوال . تحدث قليلاً في بادئ الأمر وفكرت أنه يحاول أن يسبرغوري ، وأدركت ، أنه ينظر إلى إليوت كما ينظر إلى شيء مضحك هزلي . ولما كان جرائ أنيساً مؤدباً فقد ظل صامتاً تماماً ، أو كاد ، طول الوقت ، ولولا أن إليوت بلباقته الاجتماعية الكاملة ، بعث في الحفل فيضاً متصلاً من الحديث الشائق الممتع ، لران على الحفل الملل وخيم عليه السأم . ونخنت أنه قد اكتسب في ماضى حياته خبرة كبيرة طيبة من اتصالاته برجال الأعمال في الغرب الأوسط وهم الذين يجب أن تتلقمهم وتداهنهم حتى تحملهم على دفع ثمن خيالي في صورة لأحد الأعلام القدامى . ولم تمر برهة قصيرة حتى بدأ مستر ماتيورين يرتاح لوجوده في هذا الحفل أكثر من ذي قبل . وأدلى بإشارة أو اثنتين تبين منها أنه أكثر ذكاءً لما ظهر عليه من قبل . وحقاً فلقد كان يستمتع بروح دعابة هادئة الدلالة ، بمعدة الفور ، لا يكشف عنها وجهه الجاد المظهر الهارم

---

(١) لحي : اللند



القبسات . وظل الحديث يدور ، لبعين الوقت ، حول الأسهم والسندات . وكان ينبغي لي أن أدهش إذا ما اكتشفت أن إليوت على معرفة واسعة بعيدة المدى في هذا الصدد ، ما لم أكن قد علمت منذ زمن طويل بأنه على الرغم من لغوه الباطل لم يكن ليخدعه أحد . وكان آنئذ أن أبدى مستر ماتيورين هذه الملاحظة :

« لقد تسلمت خطاباً من صديق جراي ، لاري دارل ، هذا الصباح » .

فقال جراي : « إنك لم تخبرني بأمر هذه الرسالة ، يا أبي » .

فالتفت إلى مستر ماتيورين وسأل قائلاً : « إنك تعرف لاري . ألا تعرفه ؟ »

« أو مات برأسي إيجاباً » ، لقد ظل جراي يفتل لي في الظهر والغارب حتى حملني على أن ألحقه بالعمل معي . فهما صديقان حميمان وجراي يحسن به الظن إلى حد بعيد المدى » .

« ماذا قال يا أبي ؟ »

« لقد شكرني وألمح إلى أنه قد تحقق من أنها كانت فرصة عظيمة لشاب حدث وأنه قد فكر في الأمر ملياً ثم قرع عزمه في النهاية على أن يخيب رجائي فيه ، فقد ارتأى أن من الأفضل له أن يعتذر عن عدم القبول » .

قال إليوت : « إنها لحماقة منه » .

وقال مستر ماتيورين : « إنها كذلك » .

فقال جراي : « إنني آسف كل الأسف يا أبي ، سوف تكون فرصة عظيمة حقاً لو أنكما عملتما معاً » .

« بوسمك أن تسوق الجواد إلى الماء ، ولكن لا يمكنك أن تحمله على الشرب قسراً » .

نظر مستر ماتيورين إلى ابنه وهو يقول ذلك ، وركت عيناه الثابتان اللذكيان وتحققت أن جانباً عاطفياً آخر يكمن في رجل الأعمال الصلب فقد كان مغموراً بابنه الجسيم . فاتجه نحوى مرة أخرى .

« هل تعرف أن ذلك الولد قد أجاد في لعب الجولف ، وكسب الشوط بنتقطين دون ما هو مطلوب في يوم الأحد ، وبذلك اتصر على سبعة إلى ستة ؟ كلذ بمقدورى أن أشج رأسه بمضرب اللعب ، وخصوصاً إذا ما عرفت أنى قد علمته بنفسى لعب الجولف .

كان يفيعن اعزازاً وزهواً . لقد بدأت أميل إليه .

« كان الحظ يلزمنى كثيراً ، يا أبى ، .

« لم يكن للحظ دخل إطلاقاً في اتصارك وهزيمتى . هل هو الحظ عندما تخرج من الدك (١) وتضع كرتك على بعد ست بوصات من الحفرة ؟ تعنى الضربة نمأً وثلاثين ياردة ، إذا كان الفرق بوصة واحدة . وانى أريده على الدخول في مسابقة بطولة الهواة للعام القادم .»

« ليس لدى الوقت الكافى الذى أعطيه للتدريب . . .

« إنى رئيسك . ألس رئيسك ؟

« وكيف لا أعرف ذلك ، وأنت تشعلها ناراً خامية إذا ما تأخرت دقيقة واحدة عن موعد العمل في المكتب ؟ .

ضحك مستر ماتورين ضحكة مكتومة .

وقال لى : « هو يحاول أن يصورنى بصورة الطاغية . ألا تصدقه ؟ إنى رجل أعمال . فشركائى لاتنفع يرجى منهم ، وأنا نظور بعملى . لقد بدأت بولدى هذا من الساعة الأولى وانى لاتوقع منه أن يشق طريقه صعباً كأى شاب أجير آخر عندى ، حتى إذا ما حان الوقت المناسب له لينخلفنى في مكانى فسوف يكون قد أعد نفسه لذلك .

( ١ ) هضية و . لعب الجولف نتم لتجمل اللعب أكثر صعوبة .

إن عملاً مثل عمل مسئولية ضخمة . لقد ظلت ثلاثين عاماً ، أتولى فيها العناية  
باستثمارات عملائي وهم يثقون في . وإن لافضل أن أخسر أموالى على أن أرى  
أموالهم تضيع ببدأ .

ضحك جرائ .

إنه بالأمس عندما جاءت فتاة عجوز إلى المكتب وأرادت استثمار ألف دولار  
في مشروع خطر يخشى منه ، كان قد أوصى به الناظر على شئونها ، ورفض قبول  
الطلب وعندما أصرت على مطلبها ، أغلظ لها القول حتى انصرفت باكية ثم دعا  
الناظر وكال له كما قال لها .

إن الناس يقولون أشياء كثيرة قاسية عنا ، نحن السامرة ولكن السامرة  
يختلفون بعضهم عن البعض الآخر . وإنى لا أريد أن يفقد الناس أموالهم بل  
على التقيض أريدهم أن يزيدوها . ولكن النهج الذى تنهجه الغالبية العظمى منهم ،  
تجعلك تظن أنهم يريدون الخلاص من كل سنت يملكون .

وسألتى إليوت ونحن نقادر المنزل بعد انصراف آل ماتيورين ليتوجها إلى  
المكتب ، « حناً ، ما رأيك فيه ؟ » .

« إن لقاء نماذج جديدة من البشر يسعدنى . فإن الحب المتبادل بين الأب  
وابنه كان مؤثراً إلى حد ما . وإنى لا أظن أن ذلك السلوك أمر شائع فى إنجلترا ،

« إنه مفتن بابنه حباً . فهو مزيج عجيب وكان ما قاله عن عملائه محض الصدق  
تقد كان عنده فئات من بجائز النساء ، والمتقاعدين من الخدمة ، والوزراء ممن  
عهدوا بمدخراتهم إليه لاستثمارها . وكنت أظن أنهم جميعاً مصدر متاعب له  
أكثر مما يستحقون ، ولكنه كان يمتاز بما يمنحونه من ثقة . ولكن إذا ما سئمت  
له صفقة كبيرة وكان عليه أن يؤدي فوائد عالية لم يكن هناك من يضارعه قسوة

وجوراً ، رتضب الرحمة من قلبه حينئذ ، ويطالب برطله من اللحم (١) ، ولا يقف في سبيل حصوله عليه شيء . فلو أخطأ في التعامل معه فلن يقتصر على تدميرك لحسب ، ولكن سوف يضحك ملء فيه على ما أصابك .

وعندما وصل إليوت إلى المنزل أخبر مسز برادلي أن لاري قد رفض عرض هنري ماتيوورين له . كانت تناول الغداء مع بعض صويجباتها ودخلت بينما كانا مايزالان يتحدثان عن رفض لاري لهذا العرض . ولقد استتجت بما ألقاه إليوت على مسامعي عن لحوى الحديث الذي دار فيها بعد أن عبر عن ذات نفسه بفصاحة وبيان . فعلى الرغم من أنه لم يعقد صفقة لمدة عشر سنوات ، وأن العمل الذي جمع به هذا الدخل الوافر الناخر كان بعيداً كل البعد عن العسر المصنت ، وكان ذا رأى راسخ بأن الصناعة أمر ضروري لتقدم الجنس البشري . كان لاري قتي عادياً تماماً ، ولم يتحل بأهمية اجتماعية كما لم يكن هناك سبب معقول يدعو إلى إلا بمثل لعادات بلاده الحميدة . وكان من الواضح الجلي لرجل بعيد النظر مثل إليوت أن أمريكا مقبلة على عهد رخاء ونماء لم تر له مثيلاً من قبل . وكانت الفرصة مواتية للاري كي يبدأ من أولى درجات السلم ، فإذا ما صبر وثابر على العمل اللائب الشاق فسوف يندو صاحب ملايين وهو على أعتاب الأربعين من سني حياته . فإذا ما أراد أن يتقاعد في ذلك الوقت ليعيش كما يعيش سادة القوم في باريس مثلاً ، في شقة في ( أفنيو دوبروا ) ، وقصر في تورين ، فإن إليوت لن يجد حجة يمارض بها ذلك ولكن لويزا كانت أكثر إيجاراً وأكثر صمتاً .

---

(١) إشارة إلى شيلوك بطل رواية تاجر البندقية لشكسبير الذي طالب مدينه برغل لحم من جده ، إذا ما هجر عن أداء دينه .

« إذا كان يحبك وجب أن يكون على أهبة الاستعداد للعمل من أجلك ، .  
لم أعرف ماذا كانت لإجابة إيزابل عن كل ذلك ، ولكن كان لها من  
الإحساس والإدراك ما يجعلها تدرك أن المنطق في جانب من يكبرونها . فإن جميع  
معارفها من الشبان كانوا يدرسون من أجل الدخول في مهنة ما ، أو كانوا في  
عمل فعلا . ويكاد لارى لا يتوقع قضاء بقية عمره على ما أحرزه من نصر وما ناله  
من شهرة في السلاح الجوى . فقد وضعت الحرب أوزارها وكان الجميع قد ملوها  
وأبغضوها وكانوا يودون أن ينسوا ذكرها وذكرها ما وسعهم السرعة إلى ذلك  
سيلا . وكانت نتيجة ذلك الحديث أن وافقت إيزابل على أن تصارح لارى  
بالموضوع ، مرة واحدة فقط ، لا تعود إليه بعدها ثانية . واقترحت مسز برادلي  
أن تسأل إيزابل لارى أن يقلها في سيارته إلى حي مارفن فقد أوصت بعمل سجنف  
لغرفة الجلوس وأخطأت عمل المقاييس ، وأرادت إيزابل على أخذها ثانية .

قالت : « إن بوب ويلسون يدعوكما لتناول الغداء ،

قالت إليوت : « إن عندي خعة أفضل من ذلك . أعدى سلة غذاء  
لها لتكون لهما فرصة تناول الغداء في شرفة المنزل ، وبعد الغداء يمكنهما  
التحدث معاً . »

قالت إيزابل : « سيكون ذلك مدعاة السخرية . »

أضاف إليوت قائلا باختصار : « قلنا توجد أشياء تسر النفس ، وتشرح  
الصدر مثل الغداء في نزهة خلوية ، يؤكل في راحة تامة . واقدا اعتادت الدوقة  
(أوزيه) العجوز أن تخبرني بأن أشد الذكور عنادا يصبح أسلمهم قيادا وأكثرهم  
قبولا للقتراحات في مثل هذه الظروف . فإذا عسى أن تعطيمهم للغداء ؟ »

« سوف أعطيهم بعضاً محشواً وشطائر بلحم الدجاج . »

« هراء . فلا يمكن أن يكون هناك نزهة خلوية بغير فطائر الكبدية الدسمة يجب أن تعطيهما سمك الأريبان المطيب بالتوابل والزنجبيل ليبدأ وجبتهما به ثم صدر السجاج في هلام الأكارع (١) مع سلطة من قلب الخس التي ساعد لها التوابل بنفسى ، وبعض الفطائر إذا أردت . ثم اعترافاً بامتياز العادات الأمريكية ، فلتكن فطيرة التفاح ، .

« قالت مسز برادلى في حزم وإصرار . « سوف أعطيهما أيضاً عشواً وشطائر بلحم السجاج بالليوت ، .

« حسناً ؛ تدبرى كلامى . فسوف تكون العاقبة الفشل ولن تلومى إلا نفسك ، « قالت إيزابيل . « إن لارى لا يأكل إلا قليلاً ؛ ياخالى ؛ إاليوت ؛ ولا أعتقد أنه يهتم لما يأكل ، .

« فأجاب خالها قائلاً : « آمل ألا تظنى أن ما تقولين فى صالحه ؛ ياطفلى المسكينة ، .

« ولكن انتهى الأمر بأن أخذاً بما قالت به مسز برادلى . وعندما أنهى للى نتيجة الرحلة هز كتفيه بطريقة فرنسية محضنة .

« لقد أخبرتهم أن العاقبة ستكون الفشل . لقد رجوت لويزا أن تضع فى السنة زجاجة من نبيذ مونتراشت الذى أرسلته لها قبل الحرب . ولكنها لم تصنع للى كلامى ولم تصنع لنصحى فقد أخذاً معهما كأظمة (٢) مملوءة بالقهوة الساخنة ، ولاشئء آخر فإذا كنت تتوقع ؟ ، .

١١ مادة الكوارع الجيلاتينية .

(٢) زجاجة للاحتفاظ بالحرارة أو البرودة ( ترمس ) .

وبدا أن لويزا برادلي وإليوت يجلسان وحيدتين في غرفة الجلوس عندما سمعا السيارة تقف بالباب وتدخل إيزابل المنزل . كان ذلك بعيد أن خيم الظلام ، وقد أسدلت السجف . وكان إليوت مسترخياً في مقعد ذي مسندين بجوار المدفأة يقرأ قصة طويلة وانهمكت مسز برادلي في وشى قطعة من القماش المزركش أعدت لتكون ستار نار . لم تدخل إيزابل الحجره ولكنها صعدت إلى حجرتها في الطابق العلوى . ونظر إليوت من فوق منظاره إلى أخته .

قالت : « أظن أنها ذهبت لتخلع قبعتها ثم تعود إلى هنا بعد دقيقة واحدة » ..  
ولكن إيزابل لم تحضر . ومرت بضع دقائق .

« قد تكون متعبة . ومن المحتمل أنها استلقت في فراشها . »

« ألم توقعي دخول لارى إلى هنا ؟ »

« لا أثر غضبي بإليوت . »

« حسنا ، إنه شأنك ، وليس بشأني . »

عاد إلى كتابه . واستمرت مسز برادلي في شغلها . ولكنها بعد مرور نصف ساعة نهضت واقفة لحاجة .

« أظن أن من الأفضل أن أصعد إليها لأرى أنها بخير . فإذا ما كانت قد

أخذت إلى الراحة فلن أزعجها . »

غادرت الحجره ولكن سرعان ما عادت إليها ، بعد برهة قصيرة ، ثانية .

« إنها تبكى . فإن لارى سيذهب إلى باريس وسوف يقضى هناك عامين .

ولقد وعدته بانتظاره . »

« ولماذا يريد الذهاب إلى باريس ؟ »

« لا فائدة ترجى من وراء طرح هذه الأسئلة على ، بإليوت ، فإنى لا أعرف

السبب . وهي لا تبوح لى بشيء . فهي تقول إنها تفهم وتقدر ولن تقف عشرة في سبيله . فقلت لها : « إذا ما كان على استعداد ليتركك لمدة عامين ، فليس يوسع أن يحبك حباً مفرطاً » . فقالت : « لا يمكنني أن أتحمى ذلك . إن المهم في الأمر أني أحبه كثيراً جداً » . فقلت لها « حتى بعد الذي حدث الليلة ؟ » فأجابت « إن أحداث اليوم جعلتني أحبه أكثر مما فعلت في أي وقت مضى . وهو بكل تأكيد ، يحبني ، يا أمي . وأنا واثقة من ذلك . »

فسبح إليوت في تأملاته لبعثر الوقت .  
« وماذا عسى أن يحدث في نهاية العامين ؟ »  
« إنني أقول لك أني لا أدري ، يا إليوت . »  
« ألا ترين أن هذا موقف لا يرضى أبداً ؟ »  
« جداً . »

« هنالك أمر واحد يمكن القول به ، ألا وهو أن كلا منهما حدث صغير السن ولن يضيرهما الانتظار عامين وفي ذلك الوقت يحدث الكثير . »  
« وقر رأيهما على أن يتركا إيزابل في سلام . فقد كانا سيتناولان العشاء في الخارج في تلك الليلة . »

« قالت مسز برادل : « لا أريد أن ألقها . ولن يعجب الناس إذا ما تورمت عيناها . »

« ولكن في اليوم التالي ، وبعد الغداء الذي تناولاه منفردين ، أثارت مسز برادل الموضوع ثانية . ولكنها لم تستطع الحصول على شيء سوى القليل من إيزابل . »

« قالت لها : « في الواقع يا أمي ، ليس لدي مزيد أضيفه إلى ما سبق أن قلته لك . »  
« ولكن ماذا يريد أن يفعل في باريس ؟ »



ابتسمت إيزابل لأنها عرفت كم ستبدو إجابتها مستحيلة لا تقبلها أمها .

« يضيع الوقت سدى . »

« يضيع الوقت سدى ؟ ماذا تعنين بذلك بالله عليك ؟ »

« ذلك ما قاله لي . »

« حقا ، لقد نفذ صبري معك . ولو كان بك نخوة لفسخت خطبتك لفورك

إنه يخذلك ، ليس إلا . »

نظرت إيزابل إلى الخاتم الذي تضعه في يدها اليسرى .

« ماذا عساني أن أفعل وأنا أحبه ؟ »

وحينئذ دخل إيوت طرفا ثالثا في الحديث وتناول الموضوع بلباقته المهدودة  
« ليس بوصفي غالما ، يا صديقي العزيز ، ولكن بوصني رجل الدنيا الذي جاب  
أرجاءها وخبر شئونها ، يتحدث إلى فتاة غرة لا تجربة لها ولا خبرة . . ولكنه  
لم يفعل خيرا مما فعلت أمها . فأدركت من الانطباع أنها قد أخبرته ، بكل أدب  
ولا ريب ، ولكن بما لا تخطفه الملاحظة ، أخبرته ألا يتدخل فيما لا يعنيه .  
أخبرني إيوت بكل ذلك فيما بعد في الصباح في حجرة الجلوس الصغيرة في  
بلاكستون حيث أقت . »

وأضاف قائلا : « طبعا ، إن لويزا لعلى حق . إن الأمر كله لا يرضى بحال  
من الأحوال ولكن هذا هو الوضع عندما تترك الشباب يدبرون شئون زواجهم  
على غير أساس سوى الميل المتبادل بينهم . ولقد أخبرت لويزا بالآتهم أو تنعم ،  
وأظن أن الأمور سوف تتطور إلى أحسن مما تنتظر وتوقع ، عندما يخلو  
الميدان من لارى ، وينزل ماتيورين الشاب إلى الحلبة — حسناً ، فإني إذا ما  
كنت على علم بطباع بني البشر ، فإن النتيجة واضحة بما فيه الكفاية . فممنما

تكون في الثامنة عشرة من سنى حياتك تكون عواطفك قوية عنيفة القوة ولكنها عواطف لاتدوم طويلا .

فابتسمت وقلت : « إن رأسك يحفل بحكمة الدنيا ، بالايوت . »

« إننى لم أقرأ لاروشفوكول — La Rochefoucauld « عبثا . وأنت تعرف ماهى شيكاغو . وسوف يظلان فى لقاء مستمر لاينفصلان طوال الوقت . فإنه لما يرضى غرور فتاة أن يكون لها رجل يكرس لها حياته . وعندما تعرف أنه لا يوجد سوى صويحباتها من الفتيات لايسرها أن يكون لها زوجاً — حسناً ، إنى لأسألك : هل فى الطبيعة الإنسانية أن تقاوم إغراء الفوز على كل شخص آخر ؟ إنى أعنى أن الأمر يشبه الذهاب إلى حفل حيث تعلم أن الملل هناك سيرين عليك إلى حد يشرذ ذهنك وتكون المشروبات والمأكولات المنعشة الوحيدة هى عصير الليمون والحلوى ، ولكنك تذهب إلى مثل هذا الحفل لأنك تعلم أن أحب أصدقائك إليك يودون لو تقتلع أضراسهم مقابل أن يدعوا إلى حفل ، ولكنهم لا يظفرون بمثل هذه الدعوة . »

« متى سيرحل لارى ، ؟ »

« لا أعلم ، فلا أظن أن ذلك الأمر قد تقرر بعد . » وأخرج إليوت من جيبه صندوق لفافات التبغ المصنوع من البلاتين والذهب وأخذ منه لفافة مصرية . فلم تكن لفافات تبغ فاتيا ، وشتر فيلد ، وكامل ( الجمل ) ولاكى سترايك ، لترضى ذوقه . إنهم نظر إلى بابتسامة ملؤها السحر والتلميح وقال ، إنى لأهتم أن أقول للويزا ، ولكن لا مانع لدى من أن أقول لك ، إنى أحمل لهذا الشاب عاطفة خفية . إنى أدرك أنه حصل على فكرة خاطفة عن باريس إبان الحرب ، فلا ألومه إذا ما كان قد وقع فى أسر المدينة الوحيدة فى العالم التى تصلح

لأن يعيش فيها رجل متمدين . فهو صغير السن ، ولا يخامرني شك في أنه يريد أن ينهمك في شهوات الشباب قبل أن يسكن إلى الحياة الزوجية . وهذا طبيعي جداً ولاثق جداً . سوف أرعى هذا الفتى وسوف أقدمه لمن يحب أن يتعرف بهم من الناس ، فهو على خلق لطيف . وبإشارة أو إشارتين مني سوف يذود لائقاً بأن يقدم للناس ، وإن بوسعي أن أضمن إطلاعه على جانب من الحياة الفرنسية لم تتح رؤيته إلا لقليلين من الأمريكيين . وصدقني ، يا صديقي العزيز ، أنه من الأسهل الأيسر ، أن يدخل الأمريكي المتوسط ، مملكة السماء من أن يدخل شارع البوليفار ، أو سانت جرمين ، وهو في العشرين من عمره وذو سحر وقتة . وأظن أن في إمكانني أن أدبر له اتصالاً مع سيدة تكبره سنّاً . إنني أظن دائماً أنه ليس يوجد تعليم وتربية لشاب أفضل من أن يصير عاشقاً لسيدة في عمر معين . وطبعاً إذا ما كانت من صنف النساء الصالح في نظري ، المرأة الجبرية ، كما تعلم ، فإن ذلك الشاب ينال مركزاً ممتازاً ، فوراً ، في باريس .

فسالته مبتسماً : « هل أفضيت بذلك الرأي إلى مسز برادلي ؟ »

فضحك إليوت ضحكة مكتومة .

« يا صديقي العزيز ، إنه إذا ما وجد أمر واحد أعترز وأغتر به فهو لباقي . لم أخبرها ، فالعريزة المسكينة لاتفهم ذلك . وهذا أحد الأشياء التي لا أفهمها في لويزا ، على الرغم من أنها قضت نصف عمرها في المجتمع الدبلوماسي ، في نصف عواصم العالم ، فقد ظلت بلا رجاء ، أمريكية كما هي . »

وفي تلك الأمسية ذهبت لتناول العشاء في منزل حجري يقع على شاطئ بحيرة لايك شور درايف وهو يبدو كما لو أن المهندس كان قد شرع في بناء قلعة من طراز العصور الوسطى ، وحيثئذ غير رأيه في منتصف العمل ، وقرر أن يحوله إلى (شاليه) سويسري . كان حفلاً ضخماً ، وقد سمعت إذ دخلت حجرة

الاستقبال الفسيحة الفخمة التي كانت حافلة بالتماثيل والنخيل وحاملات الشموع  
ومصور لأعلام التصوير القدامى ، والأثاث والرياش التي اكتظت بمشوها ،  
وسعدت إذ رأيت هناك ، على الأقل ، فئة قليلة من معارفى . وقدمنى هنرى  
ماتيورين إلى زوجه النحيلة ، ذات الأصباغ ، الواهنة . فقلت أهلاً وسهلاً مسز  
برادل وإيزابل . كانت إيزابل رائحة الحسن فى رداء أحمر حريرى ينسجم مع  
شعرها الأسود الفاحم وعينيها العسلتين المتسمتين . كانت إيزابل تبدو جزلة  
مبتهجة ، ولم يتح لأحد أن يحدس بأنها قد مرت بتجربة قاسية مؤخراً . كانت  
تحدث فى مرح إلى الشابين أو الثلاثة الذين أحاطوا بها ، وكان جراى من بينهم .  
وفى أثناء تناول العشاء جلست إلى مائدة أخرى ، ولم أستطع رؤيتها ، ولكن  
فيما بعد ، وبعد أن تمهلنا ، نحن الرجال ، طويلاً جداً فى احتساء القهوة والشراب ،  
وتدخين السيجار ، عدنا إلى حجرة الاستقبال ، وسنحت لى عندئذ فرصة التحدث  
إليها . كانت معرفتى بها ضئيلة لا تسمح لى بأن أفصح إليها ، مباشرة ، بشئ عما  
قد أخبرت به إليوت ، ولكن كان عندى ما أقوله وما ظننت أنها ستسر لساعه .

وقلت فى إشارة عابرة : « لقد رأيت رجلك الشاب بالأمس ، فى النادي ، » .

« أوه ، هل رأيتته ، ؟ »

وتحدثت حديثاً عابراً كما فعلت . ولكننى لاحظت أنها سرعان ماتتهبت .  
وغدت عيناها شديدتى الحرص والترقب وأظن أنى قرأت فىهما شيئاً يقرب من  
التوجس .

« كان يقرأ فى المكتبة . ولقد أثرت إلى حد بعيد بقدرته على  
التركيز كان يقرأ عندما دخلت لتوى بعد العاشرة ، وظل يقرأ حتى تناولت  
غداًنى وعدت إلى حجرة المكتبة بعد الغداء ، وكان مازال يقرأ عندما عدت إلى

المكتبة مرة ثانية وأنا في طريقى لأتناول العشاء . وإنى لا أعتقد أنه قد تحرك من مقعده طوال العشر الساعات التى قضاها هناك .

• ماذا كان يقرأ ، ؟

• كان يقرأ مبادئ علم النفس لمؤلفه وليم جيمس ، .

وخفضت بصرها فلم أستطع معرفة مقدار ما تركه حديثى فى نفسها من أثر . ولكنى رأيت الخيرة تملكها ، ثم الشعور بالارتياح يضرها فى الوقت نفسه . وكنت فى تلك اللحظة قد جئت مع مضمينى الذى أرادنى على لعب البريدج ، وقبيل انتهاء اللعب كانت إيزابل وأمها قد انصرفتا .

وبعد مضى يومين ذهبت لأودع مسز برادلى ومستر إايوت . فوجدتهما جالسين يشربان قدها من الشاى . وبعد برهة قصيرة ، دخلت إيزابل بعدى . ومحدثنا عن رحلتى الوشيكة الوقوع ، وشكرت لهم لطفهم ورقمهم مسمى فى أثناء مقامى فى شيكاغو وبعد فترة مناسبة نهضت لأنصرف .

قالت إيزابل : • سوف أصحبك حتى مخزن العقاقير الطبية ، فقد تذكرت أنى أريد الحصول على بعض الأشياء من هناك ، .

وكان آخر ما قاله لى مسز برادلى : • بلغ حبنى إلى الملكة مارجاريتا العزيزة عندما تراها ثانية . ألا تفضل بذلك ؟ ، .

لقد تركت التنصل من أية معرفة أو صلة بهذه السيدة العظيمة وأجبت بزلافة وفصاحة أنى سأحمل لإيها هذه التحية بكل تأكيد .

وعندما صرنا فى الشارع رمتنى إيزابل بنفارة باسمه من طرف عينها .

وسألتني : « هل تظن أن بمقدور أن كنتن تشرب قدحا من القشدة المثلجة مع ماء الصودا ؟ » .

فأجبت متبصراً : « يمكنني أن أحاول » .

ولم تفتح إيزابل فمها بغير أو بشر حتى وصلنا إلى مخزن العقاقير (١) الطيبة ولما لم يكن عندي ما أقوله ، لم أقل شيئاً .

دخلنا مخزن العقاقير ، وجلسنا إلى منضدة على مقاعد ذات ظهور وأرجل مصنوعة من الأسلاك المجدولة . كانت مقاعد غير مريحة إلى حد بعيد . وطلبت قدحين من القشدة المثلجة مع ماء صودا ( آيس كريم صودا ) وكانت هناك قلة من الناس يقفون إلى المعد يشترتون ، وجلس زوجان أو ثلاثة إلى مواثد أخرى ولكنهم كانوا مشغولين بشئونهم الخاصة ، وفي الحقيقة والواقع كنا وحيدين . أشعلت لفافة وانتظرت ، وراحت إيزابل تمتص في شفاطة طويلة وهي بادية الرضا جدا فأدركت أنها مهتاجة الأعصاب .

قالت فجأة : « لقد أردت التحدث إليك » .

فابتسمت وقلت : « لقد فهمت ذلك » .

وظللت تنظر إلى متفكرة متأملة لحظة أو لحظتين .

« لماذا قلت ذلك عن لارى ، في مكتبة ساترويتس الليلة قبل الماضية ؟ »

« لقد ظننت أن ذلك يدخل السرور إلى قلبك ، وخطرت لي أنك ، ربما ، لم

تعرفني جيداً ، ماذا كانت فكرته عن التسكع » .

---

(١) نسمي الصيدلية « في الولايات المتحدة » مخزن العقاقير ، وتبيع آلاف السلع المختلفة وتوجد بها المقاعد التي لاظهر لها ويجلس عليها الرواد أمام طاولة يشربون الآيس كريم والمرطبات .

« إن عمي إبيوت لرجل لقلق (١) مروع . وعندما قال إنه سوف يذهب إلى بلاكتون ليتجاذب معك أطراف حديث ذي شجون عرفت أنه سوف يقر عليك كل شيء . » .

« لقد عرفته منذ عهد طويل ، كما تعلمين ، وهو يتخذ من الحديث عن شئون الآخرين مادة دسمة للفكاهة والمزاح . » .

فابتسمت قائلة : « هكذا يفعل . ولكن ابتسامتها كانت ومضة فقط . نظرت إلى نظرة ثابتة وكانت عيناها جادتين : « ما رأيك في لاري ؟ » .  
« لقد رأيته ثلاث مرات فقط . إنه يبدو قبيحاً لطيفاً جداً . » .  
« هل هذا كل ما عندك ؟ » .

« كان في صوتها نغمة الحزن والأسى . »

« لا ، ليس هذا كل ما عندي . ومن العسير علي أن أقول ، كما ترى ، ففرقتي به ضئيلة . وهو طبعاً جذاب . وفيه خلق تواضع وود ورقة تستميل الإنسان إليه ويتمتع برصانة كبيرة لا يستمتع بها شاب في مثل سنه . وهو يختلف اختلافاً بيناً عن كل الفتيان الذين التقيت بهم هنا . » .

« وبينما كنت أتمتع هكذا في حديثي ، محاولاً أن أعبر بكلماتي عن انطباع عام مني في ذهني نظرت إلى إيرابل نظرة كلفة . وعندما أنهيت حديثي ، صعدت زفرة صغيرة ، كأنها زفرة الارتفاع وحينئذ ابتسمت لي ابتسامة غاطفة ساحرة تكاد تكون خبيثة . »

« إن عمي إبيوت يقول إنه كان يدهش في غالب الأحيان لقوة ملاحظتك ، »

---

(١) يجب القيل والقال .

ويقول إن مايفوت ملاحظتك ليس كثيراً ، ولكن مايعينك كثيراً بوصفك كاتباً هو ماحبك الله به من فهم وإدراك ، .

فأجبت في جفاء وجفاف : « بوسعى أن أفكر في صفة قد تكون أئمن وأكثر قيمة الأوهى الذكاء ، .

وأنت تعلم أنه ليس بد من أن أبحث معه هذا الأمر وأرى تنظراً إلى الأشياء من وجهة نظرها الخاصة وحدها ، فهي تريد أن تؤمن مستقبل ، .

« ذلك طبيعي ، أليس كذلك ؟ ،

« وعسى إليوت ينظر إلى الأمر من الجانب الاجتماعي ، وأصدقائي ، أعني هؤلاء الذين من قبلي ، يظنون أن لاري واهن قليل العزم . وهذا يؤلمني ألماً مبرحاً ، .  
« طبعاً ، .

« ليت الأمر يقتصر على عدم تعلقهم مع لاري فلا يقدر أحد إلا على أن يتلطف مع لاري . ولكنهم يعتبرونه أضحوكة ، ويمزحون معه مزاحاً لا ذعماً . ويمحنتهم أنه لا يبدو مهتماً بهم ويضحك فقط . وهل تعرف كيف تجري الأمور في الوقت الحاضر ، .

« إن أعرف فقط ماقصه على إليوت ، .

« هل تسمح لي بأن أقص عليك بالضبط ماذا جرى عندما ذهبا معا إلى مارفن ؟ ،  
« طبعاً ، .

« لقد أعدت بناء صياغة حديث إيزابيل من ذكرياتي عما قالت لي في ذلك الوقت



من ناحية ، ومن ناحية أخرى بالاستعانة بخيالي . ولكنه كان حديثاً طويلاً  
الممدى ذلك الذي جرى بينها وبين لارى ، ولا يخامرني شك أنهما تحدثا حديثاً  
أطول بكثير مما أتوى أن أسرد هنا . وإنى لأتوهم أنهما - كما يفعل الناس في  
مثل هذه الظروف - لم يقتصرأ على الخوض والإفاضة فيما هو خارج نطاق  
الموضوع بحسب ولكنهما قالا الأشياء نفسها مراراً وتكراراً .

عندما استيقظت إزابيل<sup>(١)</sup> ووجدت أن اليوم صحو جميل ، تلفتت إلى لارى ،  
وبعد أن أخبرته أن أمها طلبت منها الذهاب إلى مارفن لقضاء بعض الأمور لها ،  
رجته أن يقلها في سيارته إلى هناك . وقد احتاطت للأمر بأن أخذت معها كاطمة  
( ترمس ) مملوءة بالمارتيني<sup>(١)</sup> بجانب تلك التي حوت عصير الليمون والقهوة والتين  
أمرت أمها بوجين بوضعها في السلة . وكان لارى قد اقتنى حديثاً سيارته المفتوحة  
التي يعتز بها . وكان سريع القيادة . وقد أجهجتها السرعة التي كان يسير بها .  
وعندما وصلت إزابيل مع لارى لتدوين الأرقام ، قامت بقياس السجف التي سوف  
يقتدل بها غيرها . ثم بسطاً غداً هما على شرفة مدخل المنزل التي كانت بمأمن  
عن مهب كل ريح هناك . وكانت شمس الصيف الهندى تحجب في اصطلاح الهدف  
في أشعتها . ولما كان المنزل يقع على طريق قذو لم يكن له شيء من وشاقة الإطار  
القديم لمنازل نيويانجلند . وإن أفضل ما نقوله عنه إنه كان فسيح الأرجاء مريحاً .  
ولكن من شرفة مدخله كان يقع بصر الناظر على منظر يسر القلب ويشرح الصدر  
ويبهج النفس هو منظر المخزن المشيد من الحجر الأحمر ، ذى السطح الأسود ،  
توأجمة الأشجار . وفي الخلف على مدى البصر ، تمتد الحقول السمراء . كان منظرأ  
شهيواً معنا ، ولكن أشعة الشمس والألوان المتلاثة للسنة الفاربة أضفت عليه  
شياءً محبباً جميلاً . وكان يسود للفضاء العظيم الممتد أمام الناظر سرور وحبور .

(١) نوع من الخمر الفاخرة .

ولما كان بارداً قرأ دائماً في الشتاء ، وجافاً افحته الشمس ومضايقاتها في أيام الصيف والحار الشديد ، فقد كان في ذلك الوقت تماماً مثيراً بصورة عجيبة غريبة غير مألوقة ، لأن اتساع المنظر وعظمته كانا يحفزان الروح على المغامرة .

لقد استمتعوا بغذائهم كما يفعل الشباب الأصحاء من أضرابهم ، وكانا سميدين لوجودهما معاً . صبت إيزابل القهوة وأشعل لاري غليونه .

وقال والابتسامة المبهجة في عينيه ، « والآن امضي قدماً وقولي ما عندك ، يا عزيزتي ، » .

ذهلت إيزابل لهذه المباحثة .

وسألت وهي تعطفع الظهور بمظهر البراءة قدر طاقتها : « امضي قدما نحو ماذا ؟ وماذا أقول ؟ » .  
ضحك ضحكة مكتومة

« هل تظنيتي الغفلة ، الكاملة ، يا حبيبي ؟ »

فإذا لم تكن أمك قد عرفت مقاييس نواقذ حجرة الاستقبال فإني سأكل قبعتي (١) . وان الحصول على هذه المقاييس لم يكن هو الغرض من أتي نجحت بك في سيارتي إلى هنا .

وبعد أن أفاقت من ذهولها واستنادات سيطرتها على نفسها ، « نجت ابتسامة مشرقة وضادة .

« ربما يكون السبب السكامن وراء مجيئنا إلى هنا ، طاق بأنها نستكون سائفة طيبة إذا ما قضينا يوماً معاً بمحزل عن الآخرين . »

---

(١) كما يقول العامة : أقطع ذراعهم .

« قد يكون هذا ظنك . ولكني لا أرى رأيك أنه كذلك . وأن حدسي  
أن عمك إبيوت قد أخبرك بأني قد رفضت عرض هنري ماتيورين . »  
وقد تحدث بعبور وخفة ووجدتها فرصة مواتية أن توالى حديثه باللهجة  
تفسيها . « لا بد وأن يكون جرای قد خاب فأله إلى حد بعيد . فقد كان يظن أنها  
فرصة عظيمة أن تكون في العمل . مه سوف . تلتحق بعمل إن عاجلاً أو آجلاً  
والبركة في البكور لأنك كلما تباطأت وجدت الأمر أعسر وأشتى على نفسك . »  
طلق ينفخ دخان غليونه وينظر إليها مبتسماً في رقة فلم تتمالك أن تحكم  
مالذا كان جاداً أم هازلاً .

« هل تعلمين أن لدى فكرة هي أني أريد أن أفيد من حياتي أكثر من أن  
أبيع الصكوك المالية (السندات) . »

« حسناً إذن . التحق بـ مكتب قانوني أو ادرس الطب . »

« لا ، فلا أرغب في أن أفعل أيهما . »

« فإذا تريد أن تفعل إذن ؟ »

« فأجابت في هدوء : « أتسكع . »

« آه يا لاري ، لا تكن مازحاً . فهذا أمر جدي خطير . »

اختلج صوتها وملاات الدموع مآقيها .

« لا تبكي يا حبيبة قلبي ، فإني لأبغى إتعاسك . »

تمض وجلست بجانبها وطوق خصرها بذراعه وكان صوته يسيل عذوبة ورقة  
تلفف حيرتها وودها غير قادمة على أن تحبس دموعها . ولكنها جففت عينيها  
وفرضت ابتساماً على شففتها .

« إنه لجيل جماً منك أنك لا تريد أن تشقني ، ولكنك تشقني وأنت تعرف أنني أحبك . »

« واني لأبدلك هذا الحب ، يا إيزابيل . »

فتهدت تهدأ عميقاً . وحينئذ تخلصت من ذراعها التي تطوقها وابتعدت عنه .  
« فلنكن عقلاء مدركين للأمور . فالرجل يجب أن يعمل ، يا لاري ؟ إنه أمر احترام الذات ، فهذه بلاد شابة ، وإنه لمن واجب الرجل أن يسهم في أوجه نشاطها . إن هنري ماتيورين كان يقول بالأمس فقط إننا نبدأ عهداً سوف يجعل أفعال الماضي وأبعاده تبدو كأنهما شيئان مختلفان ، وقال إنه لا يقدّر أن يتكهن بما ينتظر لبلادنا من نجاح وتقدم ، وإنه لمقتنع أنه بيزوغ لجر عام ١٩٣٠ سوف تغدو أغنى وأعظم أمة في العالم . ألا تنان أن هذا مثير للغاية . »  
« للغاية . »

« إن فرصة مثل هذه لم تتح لشاب من قبل وكنت أظنك غخوراً إذا ما أسهمت في العمل الذي ينتظرنا . إنها مغامرة بدية . »  
فضحك في رقة :

« ربما تكونين على صواب فإن آرموي وسوف تغلبان لما أكثر وأجود ، وإن اخوان ماك كورمكس سوف ينتجون آلات حصاد أجود ، وإن هنري فورد سوف ينتج سيارات أكثر عدداً وأحسن بوعاً . وإن كل فرد سيغدو أكثر ثراء . »

« ولم لا ؟ »

« كما تقولين ، ولم لا ؟ فإن المال لم يستهوف في يوم من الأيام . »

ضحكت إيزابل ضحكة فاترة ساخرة .

« لا تتحدث كما يتحدث الحقى ، يا حبيب قلبى . فالإنسان لا يستطيع الحياة بدون مال . »

« إن لدى منه القليل الذى يتيح لى فرصة عمل أريد . »

« التسكع ، ؟ »

« أأجاب مبتسماً : « نعم . » .

« فتهدت قائلة : « إنك تجعل موقفى شاقاً عسراً ، يا لارى . » .

« « إنى آسف . لو كان بإمكانى أن أتحمى ذلك لما فعلت . » .

« « يمكنك أن تتحمى ذلك الموقف . » .

« فجز رأسه ، ولاذ بالصمت برهة ، وقاه فى مفازة الفكر . وعندما تكلم أخيراً كان ليقول شيئاً أفرعها .

« « إن الموقى يبدو موقى بصورة مرعبة وهم موقى . » .

« فألته حائرة مضطربة ، « ماذا تعنى أن تقول بالضبط ؟ » .

« « ربماها بأبقسامه أسيفة وقال ؛ « أعنى ذلك بالضبط . وإن لدى الطيار متسعاً من الوقت ليفكر وهو محلق فى السماء وحيداً . فتتكون عنده كثرة من الآراء الغريبة . » .

« « أى نوع من الآراء ؟ » .

« « فقال مبتسماً ، « الآراء الغامضة ، المتنافرة ، المضطربة . » .

فكرت إيزابل في ذلك لحظة .

« ألا تظن أنك إذا ما زاولت عملا فسوف تتضح هذه الآراء . وتنتق نفسها  
ومن ثم تعرف أين كنت ؟ » .

« لقد فكرت في ذلك وانتهى بي التفكير إلى أن أذهب لأعمل مع نجار  
أو في جراج ، .

« أوه ، يا لارى ، إن الناس سوف يظنون بك الجنون ، .

« وهل هذا بهم ؟ »

« نعم يهني ، فيما يتعلق بي ، .

واحتواها الصمت فترة ثانية . ووضعت نهاية لهذا الصمت . وتهدت :

« لقد تغيرت عما كنت عليه في سابق العهد قبل أن تذهب إلى فرنسا ، .

« ليس هذا بغريب فإن أحداثا كثيرة مرت بي حينئذ ، كما تعلمين ، .

« مثل ماذا ؟ »

« آه ، مجرد الأحداث الجارية الطارئة المألوفة . إن أخص صديق لهدى ، في  
السلاح الجوي ، قتل وهو يحاول أن ينقذني من هلاك محقق . ولم يكن بالأمر  
السهل أن أتطلب على ذلك لأشفي نفسي عما أصابها ، .

« حدثني عن ذلك ، يا لارى ، .

فقط إلبها والأسى ملء عينيه :

« من الأفضل ألا أتعرض لهذا الموضوع ، وعلى أية حال من الأحوال لقد

كان حدثا نائفا ، .

ولما كانت إيزابيل قد جبلت جياشة العاطفة ، فقد امتلأت مآقيها بالدموع  
ثانية .

« هل تشعر بالتماسة ، يا حبيب قلبي ؟ »  
فأجاب مبتسماً : « لا ، فإن الشيء الوحيد الذي يشقيني أنتى أشقيك » .

وقبض على يدها ، وكان في ملامسة يده القوية الثابتة ليدها ، شيء محبب  
ودى ، شيء حنون قلبي إلى حد جعلها تغمض شفتيها لتحول بين نفسها  
وربين البكاء .

« أظن أنه لن يهنا لى بالى حتى يمر عزمى على وضع من الأوضاع » . قال  
ذلك جاداً . ثم تردد : « إنه لمن الصعبه بمكان أن أصبر عن ذات نفسى بكلمات  
أو ألفاظ . ففى اللحظة التى أحاول فيها ذلك أشعر بالضيق وأتساءل قائلاً : « من  
عسى أن أكون حتى أرهق رأسى بهذا الأمر ، أو بذلك ، أو بغيره من  
الموضوعات ؟ قد يكون علة هذا أنتى متصلف معتر بذائق . أليس من الأفضل  
أن أسلك السبيل المطروق وأترك الأمور تجري فى أعنتها ، وليكن ما يكون ؟  
ثم أفكر فى زميل كان منذ ساعة يتفجر بالحياة والمرح . وهاهو ذا يرقد ميتاً .  
حان كل هذا قاس لامعنى له . إنه من العسير ألا يسأل الإنسان نفسه : ما الحياة ؟  
وما هدفها ؟ وإذا ما كان فى الحياة معنى ، أو إذا ما كانت كلها خطأ منجماً يأتيه  
القدر الأعمى » .

وكان من المستحيل ألا تتأثر عندما تكلم لارى بصوته الشجى شجى مذهلاً  
وهو يستأفى متردداً فى حديثه ، وكأنه يكره نفسه على أن يقول ما يفضل أن  
يبقيه فى طى الكتمان . ومع ذلك يقول بإخلاص يقار ألما مبرحاً . فظافت إيزابيل  
يرهة لالتجد فى نفسها الثقة للحديث .

« هل سيعكون لك فى وحيلك عن هنا لبعض الوقت معوان على أمرك ؟ »

لقد سألت هنا السؤال بقلب كبير وقد تعاضته الإجابة عنه وقتاً طويلاً .  
أظن ذلك . وأنت تحاولين الفهم بمظهر من لياحه للرأى العام . ولكن  
هذا ليس بالأمر اليسير . فعندما يكون عدائياً فإنه يثير العداة فى نفسك . وهذا  
من شأنه أن يشوه من أفكارك بدوره . .

« فلماذا لا ترحل إذن ؟ »

« حسناً ، نزولاً عند رغبتك »

« ليكن رائدنا الصراحة ، يا حبيب قلبى . فلا مكان لى فى قلبك فى الوقت  
الحاضر . »

« وهل يعنى هنا أنك لا تريد الإبقاء على خطبتنا أكثر من ذلك ؟ »  
ظهرت ابتسامة منتصبة على شفطها .

« لا ، أيها الأحمق ، فإن هذا يعنى أنى قد أخذت الأهبة للانتظار .  
« قد يكون انتظارك عاماً وقد يكون عامين . »

« حسن هذا . فقد يكون أقل . فإلى أين تبغى الرحيل ؟ »

نظر إليها باتباه وتمتم كأنه يحاول أن ينفذ إلى قرارة قلبها يتفحصه ،  
فابتسمت باستخفاف لتخفى أسفها العميق .

« حسناً ، لقد فكرت أن أبدأ رحلتى بالذهاب إلى باريس . وأنا لأعرف أحداً  
هناك . وسوف لا يكون هناك أحد يحول بينى وبين ما أريد لقد ذهبت إلى باريس  
عدة مرات فى إجازات . لأعرف السبب ، ولكن قد رسخ فى عقلى أن كل شىء  
غامض محتاط فى عقلى سوف ينجلى ويهدو وانحوا مبيناً . إنها مكان عجيب غريب  
إنها تجعل الإنسان يشعر أن بوسعه أن يفكر ويبصر ويتروى فى آرائه دون عائق



يقف في سبيله أو عقبة تعترض تفكيره وأظن أنني هناك سوف أتمكن من أنه  
أرى طريق واضحاً أمامي . .

«وماذا سيحدث إذا لم يتحقق لك ذلك؟»

ضحك ضحكة مكتومة .

«حينئذ سوف أرتد إلى إدراك الأمريكي الساذج الصحيح وأبذل محاولاتي  
بوصفها عملاً غير صالح ثم أعود أدراجي إلى شيكاغو ، وأزاول أي عمل يمكنه  
الحصول عليه . .

«كان المشهد قد أثر تأثيراً قوياً عميقاً في إيزابل لدرجة جعلتها غير قادرة -  
على أن تخبرني به دون أن تنفعل نوعاً ما ، وعندما فرغت من حديثها نظرت إليه  
مشفقة في حنان .

«هل تظن أنني فعلت الصواب؟»

«أظن أنك قد فعلت الشيء الوحيد الذي كان يمكنك عمله ولكن ما هو أكثر  
من ذلك أظن أنك كنت شفيقة عليه كل الشفقة وكريمة ومدركة لحاله .

«إني أحبه وأحبه السعادة . وأنت تعلم ، وبأية حال من الأحوال ، فلست  
أسفة لسفره فإني أريد له الخلاص من هذا الجو الممات ، وليس هذا من أجل  
خاطره لحسب ولكن من أجل خاطري أيضاً . فلا أستطيع أن ألوم الناس عندما  
يقولون إنه لن يصل إلى شيء وإني أكرههم لذلك ، لكن يمكن في أعماق دائماً  
خوف مرعب من أنهم على صواب . ولكن لا تقل إني عالة بالأمور مدركة لها  
فأنا لا أدرك ما يستهدفه في الحياة .

«ربما أنت تدركين بقلبك ، أكثر مما تدركين بعقلك . وابتدعت وقلت : «لماذا  
لا تزوجينه الآن وتذهبين معه إلى باريس ؟»

فطاف ظل ابتسامة في عينيها .

« ليس أحب إن نفسى من ذلك ، ولكنى لأستطيعه ، وأنت تعلم — على الرغم من أنى أمقت التصريح بما أقول إنه يكون أحسن حالا بدوتى . فإذا كان الدكتور هولسن على حق ، من أنه ( لارى ) يعاني من آثار صدمة فما لاشك فيه أن البيئة الجديدة والمصالح الجديدة سوف تشفيه من علكه ، وعندما يستعيد اتزانته ثانية فسيعود إلى شيكاغو ويلتحق بالعمل ، شأنه شأن أى شخص آخر . فلا أريد أن أتزوج عاطلا . »

لقد نشأت إيزابل بطريقة ثابتة وتقبلت الآراء التى لقنتها وعلتها . لم تفكر فى المال لأنها لم تعرف قط ماذا كان يعنى عدم الحصول على احتياجاتها ولكنها كانت تعى أهميتها بالفريزة كانت تضى القوة والسلطان والأهمية الاجتماعية وكان من الجلى الطبيعي أن على الرجل أن يكسب المال . فماذا هو عمل حياته الواضح التصريح .

قلت : « لا يدعشنى أنك لاتفهمين لارى ، لأنى واثق كل الثقة أنه لا يفهم نفسه . فإذا كان كتوماً فيما يختص بأهدافه فما ذلك إلا لأن هذه الأهداف غامضة مبهمه له . وليكن معلوما لك أنى أكاد لأعرف شيئاً عنه وكل هذا الذى قلت حدس مرتخمين ، أليس من المحتمل أنه يبحث عن شىء ما ، ولكن ماهو هذا الشىء ؟ هو نفسه لا يعرف بل أيضاً : ألا يكون من الجائز أنه غير متأكد من وجود هذا الشىء ؟ فهما يكن هذا الحادث الذى وقع له إبان ضرام الحرب ، فإنه قد أوونه القلق الذى لا يجعله على يقين مما ينشد . ألا تظنن أنى يجد فى البحث وراء مثل أعلى محتف فى سحابة من الجهول كالفلكى يبحث عن نجم لا تقول بوجوده سوى التقديرات الرياضية ؟ »

« إنى أحس أن شيئاً ما يبعك الاضطراب والقلق فى نفسه . »

« روحه ؟ قد يكون مرد ذلك أنه يخشى نفسه قليلا . قد يكون السبب هو

فقدانه الثقة فى صدق الرؤيا التى يدركها إدراكاً غامضاً فى عيني قلبه . »

« إنه يترك في نفس انطباعاً غريباً ، في بعض الأحيان ، إنه يترك في نفسي الانطباع الذي يتركه ماش في نومه استيقظ فجأة من نومه في مكان غريب عليه . وهو لا يستطيع التفكير أين هو . لقد كان شخصاً سوياً قبل الحرب . وكان أجمل ما فيه هو حماسه العارمة للحياة . لقد كان طائشاً ، رحماً وكانت صحبته تمتعاً . لقد كان عذوباً مضحكاً . فما الذي حدث وغيره هذا التغير العظيم ؟ »

« ليس بوسعي أن أعرف . فأحياناً يكون حدث صغير جداً ذا أثر عليك يفوق الحدث العظيم إلى أبعد مدى . وهذا يتوقف على الظروف التي يقع فيها الحدث والمزاج الذي يكون عليه من يقع له الحدث في ذلك الوقت . وإني لأذكر ذهابي لحضور القداس في عيد ( يوم جميع القديسين ) الذي أطلق عليه الفرنسيون ( يوم الموتى ) وكان ذلك في كنيسة قرينة نال منها الألمان بعض الشيء في أثناء زحفهم في فرنسا . كانت الكنيسة تفسر بالجند والنسوة في ثياب الحداد ، وفي ساحة المقابر كانت تقوم صفوف الصليبان الخشبية الصغيرة . وبينما الطقوس والشعائر الحزينة المهيبة تأخذ مجراها والنساء تتحب والرجال يكونون تملكيني شعور بأنه ربما يكون هؤلاء الراقدون تحت الصليبان الصغيرة أحسن حالاً منا نحن الأحياء . وكاشفت صديقا بهذا الإحساس ، فسألني عما إذا كنت أعني ، ولم أستطع تفسيراً ، وأدركت أنه يظن في الحفاقة المطبقة . وإني لأذكر بعد مشاهدة كومة من الجنود الفرنسيين الموتى تكردست الجثث بعضها فوق البعض أنها بدت مثل الدمى في مسرح للعرائس قد أفلس ، قد أقيت بدداً في ركن مغطى بالتراب لأنها لم تعد ذات نفع لأحد وتذكرت حينئذ ما قاله لما لاري إن الموتى يبدون موتى بصورة مروعة ،

إني لا أريد أن يظن القارئ أنني أجعل سرّاً مغلقاً من كل ما حدث للاري إبان الحرب والتي أثرت فيه تأثيراً عميقاً أنني أجعل منه سرّاً مغلقاً أفضه في اللحظة

المناسبة . ولا اظن أنه أخبر أحداً شيئاً في يوم ما ولكنه باتاً كيد ، على أية حال من الأحوال ، بعد سنوات كثيرة ، قد أخبر امرأة ، هي سوزان روفير قد عرفها كلانا ، أخبرها عن الطيار الذي لقي مصرعه ، وهو يحاول إتقاذ حياته ( لارى ) وقد روتها لى . وهكذا يمكننى فقط أن أرويها بدورى . ولقد ترجمتها من الفرنسية التي تكلمتها ، ومن الواضح أن لارى قد عقد صداقة قوية مع فتي آخر في سرية وعرفت سوزان هذا الصديق باللقب النهكى الساخر الذى كان لارى يذكره به .

قال لارى : كان فتي قبيحاً ذا شعر أحمر ، وهو أيرلندى واعتدنا أن نتأديه باتى . وكان يتدفق حيوية لم أعهد لها في أحد غيره من قبل . باللهي ، لقد كان سلكاً مشحوناً بالكهرباء . كان له وجه مضحك وكثرة ساخرة وكان يكفى أن تنظر إليه فتنفجر ضاحكاً . وكان شيطاناً متهوراً وعلى استعداد لارتكاب أى عمل جنونى . ويعد شملة من الجحيم وهو في طبقات الجو العليا . لم يكن الخوف يعرف طريقه إلى قلبه وعندما يفلت من موت كان منه على قيد شعرة تغطي الابتسامة العريضة وجهه وكأنها أطرف ملحة في الدنيا . كان طياراً بالفطرة وكان هادئاً الأعصاب حذراً وهو يحلق في السماء . لقد علمنى الكثير . وكان يكبرنى قليلاً وقد تولانى برعايته وكان ذلك باعثاً على الضحك حقاً ، فقد كنت أطول منه بست بوصات أو يزيد ، وإذا ما وصل الأمر إلى النزال بيننا فإني لا محالة ألحق به الهزيمة بكل هدوء ، وهذا ما فعلته ذات مرة في باريس ، عندما كان ثملاً وخشيت أن يدفعنا إلى المتاعب .

لقد شعرت بالرهبة وإنى لست لما عندما التحقت بسرب الطيران وخشيت ألا أحسن صنفاً ولكنه دفعنى إلى الثقة بنفسى . كان يسخر من الحرب ، ولم

يكن يضمن كرهاً للألمان، لكنه كان يجب الصراع وصراعهم كان يثيره حتى الموت.. ولم يكن إسقاط طائرة من طائراتهم، في نظره، سوى الفكاهة (١) العملية التي تتم بحيلة كان وقد اضارياً لا يعرف المسؤولية ولكنه كان ينفرد بصفات تحمك على حبه. ويقدم لك كل مامعه إلى آخر بنفس عن طيب خاطر وسباحة وكأنه يأخذ منك. وإذا ما استثمرت الوحدة أو الحنين إلى الوطن أو داخلك الحروف، وهذا ما كان يحدث لي بين الفينة والفينة، كان يدرك ذلك لغوره وينفجر متفهماً بوجهه القبيح الصغير ويقول الشيء الصحيح الذي يردك إلى حالك الطبيعية ثانية..

تفخ لاري دخان غليونه، وانتظرت سوزان حتى يفرغ ويرالي حديثه: «وكنا نرتب الأمر حتى نحصل على إجازتنا معاً. وعندما كنا في باريس أطلقنا أنفسنا العنان واستمتنا بوقت عظيم جداً. كانت وجهتنا بقعة تقضى فيها عطلتنا باكراً في شهر مارس، في الثامن عشر منه على وجه التحديد، ولقد أعدنا خططنا مقدماً. لم يكن هناك شيء إلا وقد اتصينا معه. وفي اليوم السابق لرحيلنا أرسلنا في مهمة للطيران فوق خطوط العدو لكي نعود بتقارير عمارة أينا. ولجأة رأينا أنفسنا نخلق تجاه بعض الطائرات الألمانية، وقبل أن نعرف أين كنا، اشتبكنا في معركة حامية، وتبعني إحدى الطائرات ولكنني انطلقت أولاً وأصبحت نظرة لاري إذا ما كان يتسوى صداماً وآتذ رأيت من ركن عيني أنه ينقض على كاس الساعة وأيقنت أنني لا محالة هالك، وحينئذ رأيت باق ينقض عليه كشعاع من البرق الخاطف ويكيل له الضربات. بكل ما وسعه من قوة وجهه وما حملت طائرته من دمار. فولوا هاربين بعد أن نالهم ما فيه الكفاية وقفلنا واجمين إلى الوطن. لقد أصيبت طائرتي إصابة قوية، وتمكنت من إصلاحها بقدر يسمح لها بالعمل ووصل باق قبلي وعندما خرجت من طائرتي كانوا قد أخرجوه لتوه

من طائرته . كان راقدًا على الأرض وكانوا في انتظار وصول عربة الإسعاف  
فأرآني حتى ابتسم ابتسامته العريضة .

وقال : « لقد أصبت الذي كان يتعقبك » .

وسألت : « ماذا أصابك يا باني » ؟

« إنه أمر تافه . لقد أهاض جناحي » .

« كانت تلوه صفرة الموت . ولجأة غشيت وجهه نظرة غريبة . كان قد رسخ  
في ذهنه أنه يسلم الروح ولم تخطر فكرة الموت بباله كما فعلت آنتذ ، وقبل أن  
يوقفوه اعتدل وأطلق ضحكة .

وقال : « حسنا ، إن الأرض تميد تحتي » .

وسقط على ظهره إلى الوراودة لفظ النفس الأخير . كان في الثانية والعشرين  
من العمر . وكان سيتزوج من فتاة تنتظره في أيرلندا ، بعد الحرب .

وفي اليوم التالي لحديثي مع إيرابل غادرت شيكاغو قاصداً سان فرانسيسكو  
حيث كنت سأستقل الباخرة إلى الشرق الأقصى .

**\*\* معرفتي \*\***

**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**

**منتديات مجلة الإبتسامه**

## الفصل الثاني

( ١ )

لم أر إليوت حتى جاء إلى لندن قرب نهاية شهر يونيو في العام التالي. وسألته عما إذا كان لارى قد ذهب في نهاية المطاف، إلى باريس. لقد ذهب. ولقد اتخذت من سخط إليوت عليه تسلية لى .

« إنى أحمل عطفاً خفياً للفتى ولم أجد مدعاة لأن ألومه لرغبته في قضاء عامين في باريس . وكنت على استعداد لتشجيعه ومعاوته . فطلبت منه أن يخبرني بمقدمه فور وصوله . ولسكنى عرفت ذلك فقط عندما كتبت لوزير رسالة تنهى إلى فيها نبأ حضوره إلى هناك . فكُتبت إليه طرف الأمريكان إكسبريس وهو العنوان الذى أعطيته ودعوته للحضور لتناول الغداء معى ولقابلة بعض الشخصيات، التى ظننت أنه كان لزاماً عليه أن يتعرف بهم . وقد فكرت أولاً فيما سوف تسفر عنه معرفته بجماعة الفرانكو أمريكان ( الأمريكيون المقيمون، في باريس ) من أمثال إميلي دى مونتادور ، جراسى دى شاتو — جيلارد ومن على شا كلتهم . فهل تعرف بماذا أجاب ؟ قال إنه يأسف لعدم استطاعته الحضور لأنه لم يحضر معه ملابس للسهرة . »

نظر إلى إليوت وهو يواجهنى تماماً ليرى أثر الغيبة التى توقع أن تغشاني لسماحى هذا الخبر ورفع حاجباً متغطرساً عندما لاحظ أنى، تقيت الخبر بهدوء .

« لقد كتبته على رسالتى، على ورقة تعافها النفس تحمل في أعلاها اسم مقهى في الحى اللاتينى ، وعندما كتبت إليه ثانية ، طلبت منه أن يعطى بمكان إقامته فقد شعرت أن من واجبي أن أعمل شيئاً من أجل خائر إسرائيل ، وظننت أنه ربما ( م ٦٢ حد الروسى )

يكون حياً وأعني بذلك أني لم أكن أصدق أن شاباً يتمتع بقواه العقلية والحسية ،  
يجيء إلى باريس وهو لا يحمل معه ملابس سهرة . وعلى كل حال ففي هذه المدينة  
حاشكون معتدلون ومحتملون وعلى هذا دعوته لتناول الغداء وأخطرتة في دعوتي  
أن الغداء سيضم جماعة صغيرة جداً ، فهل تصدق ، إنه لم يتجاهل رجائي في أن  
يزودني بعنوان آخر غير الأمريكان إكبيرس ، لم يتجاهل ذلك لحسب ، بل أيضاً  
فأجاب أنه ما تناول غداء قط ، وكان ذلك نهاية المطاف معه فيما يخصني .

« إنني لأعجب ماذا كان يشغله من أمره ، منذ ذلك الوقت حتى الآن . »

« لا أدري ، ولكني أصدقك القول فأننا لأهتم ، وإنني لأخشى أن يكون  
شاباً غير مرغوب فيه حقاً وأظن أن إيزابل سوف ترتكب خطأ فاحشاً إذا  
تزوجت منه . وعلى أية حال ، فلو كان يعيش عيشة سوية عادية لالتقيت به في بار  
( مشرب ) ريتز أو في بارفوكيه ، أو في أي مكان آخر . »

« إنني أذهب إلى هذه الأماكن العصرية التي يؤمها العلية في بعض الأوقات ،  
ولكنني أغشى أماكن أخرى أيضاً ، ولقد حدث أن قضيت عدة أيام في  
باريس في باكورة الخريف من ذلك العام ، وأنا في طريقني إلى مرسلينا ، حيث  
كنت أعزم أن استقل إحدى بواخر شركة المساجيري إلى سنغافورة . تناولت  
عشاءً ذات مساء مع صحاب في حي مونتبارناس وبعد العشاء ذهبنا إلى  
« الدوم » (١) لشرب قدها من الجملة ( البيرة ) وبعد برهة وجيزة وقعت عيناى ؛  
في تجوالها هنا وهناك ؛ على لاري جالساً بمفرده إلى منضدة صغيرة ذات سطح من  
الرخام في الشرفة وقد عجت بالحاضرين . كان ينظر في تراخ وتكاسل إلى الناس  
الذين يروحون ويحيثون ؛ وهم يستمتعون برغاء نسيم الليل بعد نهار لافح الحر  
محبس الهواء ؛ مشبع بالرطوبة فتركت تعالي واتجهت إليه . فأشرق وجهه إذ

---

(١) اسم حانة .



وأتى ونظر إلى باقسامة أسرة أخاذة ؛ ودعاني للجلوس ؛ ولكنى أجبتة : إنه ليس في مقدورى البقاء معه ؛ إذ كنت مرتبطاً بمن هم معى من الصحاب .  
وقلت : لقد جئت لأرحب بك ، فأهلاً وسهلاً .  
: فسألنى ، وهل أنت مقيم هنا .  
: لا أيام قليلة جداً فقط ،  
: هلا تفضلت بتناول الغداء معى غداً ؟  
: لقد ظننت أنك لا تتناول للغداء إطلاقاً .  
ضحك ضحكة مكتومة .

: هل رأيت إلبوت ؛ فأنا لأأراه فى الغالب . فليس لى متسع من الوقت ؛  
ولأأتناول سوى كوب من اللبن وقطعة من البرويوش ( حلوى ) ؛ ولكنى أحب أن تتناول الغداء معى .  
: حسناً .

ورتبنا أمرنا على اللقاء فى اليوم ، فى اليوم التالى لتتناول مشبياً ثم فأكل غداءنا فى أى مكان ما ، فى البوليغار . وعدت إلى رفاقى . وجلسنا نتحدث . ولما بحثت عن لارى مرة ثانية كان قد انصرف .

( ٢ )

قضيت صباح اليوم التالى فى متعة بالغة . . . قد ذهبت إلى اللوكسمبورج وقضيت ساعة أشاهد بعض الصور الجيبية إلى نفسى . ثم طفقت أجوس خلال الحدائق مستعيداً ذكريات صباى . فلم يئن شىء قد تغير ومن الجائز أن رواد هذه الحدائق كانوا هم أنفسهم الطلاب الذين ساروا على طرقاتها المغطاة بالحصى

اثنين اثنين يناقشون الكتاب الذي يفعلون به ، في شوق وحماة . وقد يكون هؤلاء الرواد هم الأطفال أنفسهم الذين كان يدحرجون أطواقهم في حراسة الأعين الساهرة للبريات أنفسهم ، وقد يكونون هم الرجال المسنون أنفسهم . يمشون الدفء في أشعة الشمس ، ويقرأون صحف الصباح وقد يكن من النصف النصف اللاتي ارتدين السواد وجلسن على المقاعد الطويلة دون مقابل وخضن في القيل وقال مع بعضهن البعض عن أثمان الطعام وسوء أعمال الخدم . ثم ذهبت إلى الأوديو ، وتطلعت إلى الكتب الجديدة في المعارض وهناك رأيت الفتیان ، الذين على شاكى ، منذ ثلاثين عاماً ، كانوا يحاولون تحت رقابة أعين الخدم المرتديات . القباء النسائي ، كانوا يحاولون أن يقرأوا ما وسعتهم القراءة في الكتب التي لم يكن في استطاعتهم شرائها . وحينئذ طوفت على مهل ، بتلك الشوارع العريضة ، القنطرة حتى وصلت بوليفاردي موتبارناس ومن ثم إلى الدوم ، حيث كان لاري في انتظارى . فاحسبنا قدحاً من الشراب وسرنا في الشارع حتى وصلنا مطعماً حيث يمكننا أن تناول الغداء في الهواء الطلق .

ربما كان وجهه شاحباً شيئاً ما ، أكثر مما كنت أذكره ، ولقد جعل هذا عينيه البالغي السواد ، في محجريهما العميقين ، أشد جاذبية وأكثر لفتاً للنظر . ولكنه كان يتمتع برياطة الجأش نفسها ، عهدتها فيه ، والعجبية في من كان في مثل شبابه . وكانت الابتسامة الصريحة النبيلة مازالت مرسمة على شفاهه . وعندما أمر النادل بإحضار غذائه لاحظت أنه يتكلم الفرنسية بطلاقة وبهجة سليمة فهنأته على ذلك .

وشرح لي الموقف فقال ، « كنت أعرف قدرأ محدوداً من قبل كما تعرف ، قد كانت العمة لوزا تحتفظ بمرية فرنسية من أجل إيزابل ، وعندما كانوا يقطنون حى مارفن . كان من مألوف عاداتها أن تجعلنا نتكلم الفرنسية مع تلك المرية طول الوقت .

• وسأته إذا ما كان أحب باريس .

• كثيراً جداً .

• وهل تعيش في مونتبارناس ؟

وبعد فترة قصيرة من التريث عزوتها إلى عدم ميله إلى أن يخبرني عن عنوانه الأصلي بالضبط .

• لقد أعلن إليوت أن العنوان الوحيد الذي أعطيته كان الأمريكان  
ماكبريس .

• ابقم لارى ولكنه لم يجب .

• وكيف تمشى وقتك ، وماذا تعمل كل الوقت ؟

• أتكعب ،

• وهل تقرأ ؟

• نعم ، إلى أقرأ .

• هل لديك أخبار من إيزابل ؟

• في بعض الأحيان . فكلانا لا يميل إلى كتابة الخطابات . وهي تقضى وقتاً ممتعاً جداً في شيكاغو . وسوف تحضر مع امها إلى باريس في العام القادم ليقبلا مع إليوت .

• سوف يكون ذلك لطيفاً ، من أجلك .

• لا أعتقد أن إيزابل قدرأت باريس من قبل ، وسوف تكون متعة

أن تجول معها بين ربوع المدينة .

كان مثبوتاً لأن يعرف نتائج رحلتي في الصين وأصغى باهتمام بالغ لما أقيمت على مسامعه ، ولكن عندما حاولت أن أحمله على الحديث عن نفسه ، باءت محاولاتي بالفشل . ولقد كان صموتاً إلى حد أرغمني على الاعتقاد بأنه مادعاني إلى تناول الخداء معه سوى رغبته في أن ينعم برقتي ، ولقد سرتني هذا ولكنه حيرني في الوقت نفسه . وما كدنا نفرغ من احتساء القهوة حتى أرسل في طلب قائمة الحساب ثم أدى ما عليه ونهض واقفاً .

قال : حسناً يجب أن أنصرف . .

واقترقنا ولم تزد معرفتي بما اتواه من خطط عما كانت عليه من قبل ولم أوه ثانية .

### ( ٣ )

لم أكن في باريس ، في الحريف ، عندما وصلت مسز برادلي وإيزابل للاقامة مع إليوت ، وكان وصولها أسرع مما كانتا قد دبرتا من قبل ، وللرة الثانية أراني مضطراً لأن أكل معرفتي بما جرى في غضون الأسابيع القلائل التي مرت بهما هناك ، بقوة خيالي . لقد هبطتا شاربورج . ولما كان إليوت ، كما هو شأنه دائماً حريصاً على أداء واجبه ، فقد ذهب لاستقبالهما . ومررتا بالجرمك ، وبدأ القطار رحلته . وأخبرهما إليوت في رقة وملاطفة أنه قد ارتبط مع وصيفة جيدة جداً لتعني بشئونهما ، وعندما قالت مسز برادلي إن ذلك لم يكن ضرورياً إذ لم تكونا في حاجة إلى مثلها ، ثار عليها وغضب غضباً شديداً معها .

« لا تثيري متاعبي ، فور وصولك ، يا لويزا فليس بوسع أحد أن يبدو بالمظهر اللائق بدون وصيفة ، ولقد ارتبطت مع أنطوانيت لتعمل معك لا من أجل

عاطرك وعاطر إيزابل لحسب ، بل من أجل نفسي أيضا . فإنه يقتلني إلا أراكا  
في أكل وأتم رداء . .

ونظر إلى ثيابها التي يرتديانها نظارة استخفاف .

« طبعا ، إنكما في حاجة إلى بعض الثياب الجديدة . وبعد تفكير طويل  
ناصح توصلت إلى قرار بأن شانل (١) ، هو خير من يزودكما بها .

قالت مسز برادلي ، « لقد اعتدت الذهاب إلى ورت (٢) . »

وكان الأفضل لما ألا تتكلم إذ لم يعرفها التفاتاً .

« لقد تحدثت إلى شانل ، بنفسى وحددت موعدا للقائكما عنده في غد في الثالثة  
ثم يجيء دور القبعات . وإنه لمن الواضح الجلي أننا سنقصد ريبوكي (٣) من أجلها .

« لا أريد أن أسرف في مالي ، يا إيليو ، . »

« إنى أسرف ذلك وقد اتتويت أن أتولى بنفسى دفع ثمن كل شيء . وقد  
عقدت العزم على أن تكونا موضع غفر وتشريف لي . آه ، يا لويزا ، لقد  
أعددت العدة لإقامة عدة حفلات لكما وأخبرت أصدقائي من الفرنسيين أن  
مايرون كان سفيرا ، وطبعاً كان لابد أن يصل إلى هذه الوظيفة لو أمهله العمر  
قليلا وسوف يكون لذلك وقع أحسن ، ولا أحسب أن هذه الرمية ستصيب  
ولكنى أظن أن من الأفضل أن أنبسكما إلى ذلك . »

« إنك تسعو إلى السخرية ، يا إيليو ، . »

---

(١) ، (٢) محلان شهيران للأزياء ، في باريس .

(٣) محل للقبعات

• لا ، فلست أدعو للسخرية فإني أعرف الدنيا ، وأعرف أن أرملة الصغير  
أرفع قنراً من أرملة الوزير ، .

وعندما دفع القطار ببخاره في محطة ( جردنورد ) ، نادى إيزابل التي كانت  
تقف حينئذ بجوار النافذة ، بصوت عال .  
• ها هوذا لارى ، .

وما كاد القطار يتوقف عن السير حتى قفزت منه وجرت مسرعة لتقاه .  
فلوفا بذراعيه .

وسأل إليوت أخته بحدة ، • كيف عرف بقدمك ، ؟

• لقد أبرقت له إيزابل لاسلكياً من على ظهر السفينة ، .

وقبلته مسز برادلي بحب وود وصالحه إليوت بفتور . كانت الساعة العاشرة  
صاء في ذلك الوقت .

صاحت إيزابل وقد اشتبك ذراعها بذراع لارى ووجها يطفح شوقاً ،  
وتلييض عيناها ضياء ، صاحت متسائلة • هل يمكن أن يأتي لارى لتناول  
الغداء ، في غد ، يا عماء ، إليوت ؟ ، .

• لسوف يسعدنى ذلك ولكن ألقى لارى في روى أنه لا يتناول  
الغداء إطلاقاً ، .

• لسوف يتناول الغداء ، غداً . هلا تناولت الغداء معنا يا لارى ؟ ، .

فابتسم وقال : • سوف أتناول الغداء بكل تأكيد ، .

• إنه ليسرنى أن أراك غداً في الساعة الواحدة إذن ، .

ومديده مصالفاً ، مرة أخرى ، حتى ينصرف ، واكن لارى ، اجضم

في قعة ابتسامه عريضة كشفت عن أسنانه استخفاة بإليوت في آن واحد .

« سوف أساعدكم في حمل الحقائب وأحضر لكم عربّة خيل ، » .

قال إليوت في عزة وإباء : « إن عربتي في الانتظار وسوف يعنى الخادم بالحقائب ، » .

« هذا جميل ، إذن كل ما بقي أماننا أن نتصرف وإذا ما كان بالسيارة مكاناً لي غاي سأذهب معكم حتى باب منزلكم ، » .

قالت إيزابيل : « نعم يوجد ، فتفضل بالجيء ، يا لارى ، » .

وسارا معاً عبر الرصيف وتبعهما مسز برادلي وإليوت وقد علت وجهه نظرة باردة جامدة من عدم الرضى .

وقال لنفسه بالفرنسية : « يا لهم من متصنعين ! ، لأنه في بعض المواقف كان يشعر أن بوسعه أن يعبر عن مشاعره تعبيراً أقوى وأوقع بالفرنسية .

وفي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي ، بعد ارتدائه ثيابه ، فهو لا يبكر في النهوض من فراشه ، أرسل بجالة قصيرة لاخته ، عن طريق خادمه جوزيف وأنطوانيت يدعوها للذهاب إلى المكتبة حيث يمكنهما التحدث معاً . وعندما وصلت إلى هناك أغلق الباب بعناية ، وبعد أن ثبت لفاقة تبغ في ميسم طويل جداً من العقيق اليماني ، أشعلها وجلس .

وسأل : « هل يتحتم على أن أفهم أن إيزابيل ولارى مازالا خطيبين ؟ ،

« على قدر على ، » .

« إنى أخشى ألا يكون لدى قدر طيب جداً أدلى إليك به عن الشاب ، » .  
ثم أنهى إليها كيف أنه كان مستعداً لأن يدخله في المجتمع وأطلعها على الخطط التي

أعدّها لتتمتع الاستقرار في حال ملائمة سديدة . . حتى أنّي قد وضعت عيني على طبقة سفلى لمنزل كانت تناسبه إلى أبعد حد . فهي ملك الماركيز دي ريشل الشاب . وقد أراد أن يؤجرها من الباطن لأنه نصب للعمل في السفارة بمدريد . .

ولكن لاري رفض قبول دعوات الماركيز بصورة جعلت من الواضح اليين له ، أنه ( لاري ) لا يرغب في قبول مساعدته .

• ماذا يكون الهدف من المجيء إلى باريس ، إذا كان الشخص لا يريد أن يفيد بما يمكن لباريس أن تقدمه له . إن هذا لأبعد عما يبلغه إدراكي وفهمي . فأنا لا أعلم ماذا يعمل مع نفسه . فهو يبدو أنه لا يعرف أحدا . هل تعرفين أين يعيش ؟ .

• إن العنوان الوحيد الذي حصلنا عليه هو الأمر وكان إكسبريس . .

• على غرار بائع جائل أو معلم مدرسة في عطلة فلا يدهشني إذا كان يعيش غانية تافهة في استوديو في مونتمارتر . .

• آه ، يا إليوت . .

• أي تفسير آخر يمكن أن يوجد لتبرير الغموض الذي أحاط به مكان سكناه وليبيان علة رفضه الاشتراك مع ناس من طبقاته ؟ . .

• لا يبدو أن هذا ينطبق على لاري . ففي الليلة الماضية ، ألم تستشعر الانطباع بأن لاري ما زال يهوى إيزابل كما عهدناه من قبل ؟ لم يكن بوسعها أن يكون كذاباً مزوراً ، إلى هذا الحد . .

• وبهزة من كتفيه ، جعل إليوت أخته تفهم أنه لا حد لرياء الرجال .

• وماذا وراك من أخبار عن جراي ماتيورين ؟ أما زال في الذاكرة ؟ . .



« إنه يود أن يتزوج من إيزابل في غد ، إذا ما ارتضته زوجاً » .

وأخبرته مسز برادلى حينئذ لماذا جاءت مبكرة عن موعدها إلى أوروبا ، حسبما كانت النية أولاً . فقد ألقت نفسها معتلة الصحة وأخبرها الأطباء أنها تعاني من مرض السكر . لم يكن الأمر خطيراً ، وبالعناية بالغذاء الصحي وتناول جرعات معتدلة من الأنسولين سوف تمتد بها الحياة لسنوات كثيرة طيبة ولكن عليها بما تعاني من مرض ( عضال مستعصى على الشفاء ) جعلها قلقة من أجل إيزابل ومشوقة لأن تراها وقد استقرت في بيت الزوجية . ولقد تدارسوا الأمر معاً . وكانت إيزابل عاقلة مدركة للأمور فوافقت على أنه إذا مارفت لارى العودة إلى شيكاغو بعد نهاية العامين في باريس اللذين اتفقوا عليهما ، ليحصل على عمل ، فلم يكن أمامها سوى أمر واحد تعمله ، ألا وهو فسخ خطبتها معه . ولكن لقد جرح عزة نفس مسز برادلى وآذى كرامتها أن تنتظر حتى الموعد المضروب ثم يحضرون لمله على العودة إلى شيكاغو كأنه هارب من وجه العدالة . وشعرت أن إيزابل سوف تكون في موقف لا تحسد عليه من الصغار والذلة . ولكن كان من الطبيعي أن يقضيا الصيف في أوروبا التي لم ترها إيزابل منذ أن كانت طفلة . وبعد زيارة باريس يمكنها الذهاب إلى بعض أماكن المياه المعدنية التي تناسب ومرض مسز برادلى ، للاستشفاء ، ومن ثمت إلى التيرول النمساوى لقضاء بعض الوقت ومن هنالك تحملان عصا الترحال على مهل ، تجوبان إيطاليا . وكانت مسز برادلى تتوى أن تطلب من لارى مرافقتها في هذه الجولة حتى يتعرفا إذا ما كانت الفرقة الطويلة قد غيرت من مشاعرهما ، أم تركتها على ما كانت عليه من قبل وسوف يكون واضحاً في الوقت المناسب ، وبعد أن يكون لارى قد روح عن نفسه ، إذا ما كان مستعداً لتحمل مسئوليات الحياة التي سوف تلقى على عاتقه .

• كان هنرى ماتيورين غاضبا منه لرفضه المركز الذى عرضه عليه ، ولكنه جرائى من جانبه ، قد أقنعه بالحجة ، وأنه فى إمكانه أن يبدأ العمل فور عودته إلى شيكاغو ، .

• إن جرائى فى لطيف جداً ، .

تهدت مسز برادلى : إنه حقاً ظريف جداً . ولانى أعلم أنه سوف يورفر السعادة لإيزابل .

وحينئذ أنهى إليها إليوت خبر الحفلات التى نظمها لهما . فقد كان على أهبة لإقامة حفل غداء ضخم فى اليوم التالى ، وفى نهاية الأسبوع سوف يقيم حفل عشاء فاخر . وسوف يصحبهما إلى حفل استقبال فى شاتو - جيلارد ، ولقد حصل على بطاقات دعوة لهما لحضور حفل راقص يقيمه آل روتشلد .

• سوف تدعو لارى إلى الحضور ، ألا تدعوه ؟ ،

فقال إليوت وهو ينشق : • إنه يقول لى إنه لم يحضر معه أية ملابس للمهرة ، .

• حسناً على حد سواء فلتطلب منه الحضور . لأنه على أية حال من الأحوال فهو فى ظريف جداً ومعاملته بمغفاه لن تفيد بحال سوى أن تدفع لإيزابل إلى العناد والتشبث بموقفها ، .

• طبعاً سوف أوجه له الدعوة إذا ما رغبت فى ذلك ، .

جاء لارى إلى الغداء فى الوقت المحدد ، أما إليوت الذى كان على خفى جدير بالإعجاب فقد كان ودوداً له فى إخلاص ووضوح . ولما كان من العسير

ولارى يفيض مرحاً وبهجة وتغمره روح عالية داقة إلى حد يتطلب رجلاً أكثر شراسة وسوء نية وخبث طوية من إليوت حتى لا تأسره صحبة لارى ولا يسليه وجوده . دار الحديث حول شيكاغو وأصدقائهم هناك . فلم يبق أمام إليوت سوى أن يبدو بمظهر الأنيس اللطيف ويدعى الاهتمام بشئون من كلن يظن ألا أهمية اجتماعية لهم . ولم يضايقه الإصغاء إلى الآخرين ، ولقد كان حقاً مثيراً مؤثراً أن يسممهم يتحدثون عن خطوبة اثنين من الشباب أو زواج اثنين منهم أو الطلاق بين اثنين . من عسى أن يكون قد سمع عنهم ؟ لقد عرف أن الماركيزة دى كيانشات الصغيرة الجميلة قد حاولت أن تتناول السم لأن عشيقها أمير دى كولومبي قد زكها ليتزوج من ابنة مليونير من أمريكا الجنوبية . لقد كان هذا الموضوع مادة دسمة للحديث عنه . وإذا نظر إلى لارى لم ير مندوحة من الاعتراف بأنه ذو سحر خارق للعادة وجاذبية غير مألوفة ، وقد حباه الله عينين سوداوين عجيبتين، ووجنتين مرتفعتي العظام، وبشرة شاحبة، وفماً متفيراً مما ذكر إليوت بصورة شخصية من أعمال بوتشلي (١)، وطاف بخاطره أنه إذا ما ارتدى ثياب ذلك العصر فإنه سيبدو رومانسياً مفرط الرومانسية . وتذكر ميله إلى أن يجزية بامرأة فرنسية ممتازة، وابتسم في خبث عندما فكر في أنه كان ينتظر في العشاء في يوم السبت ماري لويز دى فلوريموند التي جمعت بين الصلات البريئة المنزهة عن اللوم ورداءة السمعة بالخلاعة والفجر . كانت في الأربعين من عمرها ولكنها كانت تبدو كابنة الثلاثين ، فقد ورثت الحسن الرقيق عن جدتها العليا التي صورها ناتير (٢) والتي تضمنها إحدى المجموعات الأمريكية

---

(١) - اندرو بوتشلي ١٤٤٥ - ١٥١٠ ميلادية وهو أعظم رسام أنجبت فلورنسا في نهاية القرن الخامس عشر .

(٢) - هوجين مارك ناتير ١٦٨٥ - ١٧٦٦ بدأ حياته فناناً في باريس ولكنه اشتهر فيما بعد بوصفه مصوراً جان بلاط لويس الخامس عشر .

العظيمة كما روى إليوت نفسه ، ولقد كانت على ظمأ لا يرتوى ، وقد أزمع إليوت أن يجلس لارى إلى جوارها لأنه كان يعلم أنها لن تخضع وقتاً في إيضاح رغباتها له . كان قد سبق له أن وجه الدعوة إلى ملحق السفارة البريطانية لأنه كان يعلم أن إيرابل قد تميل إليه . كانت إيرابل فاتنة الجمال جداً ، ولما كان إنجليزية ، ومن أهل الثراء ، فلم يكن ثراؤها ذا بال بالنسبة له . ولما كان إليوت قد انتشى بشراب مونتراشيه الممتاز الذى بدءوا به الغداء ، وكذلك بنبيذ برودو الفاخر الذى تلاه فقد فكر بسرور هادئ في الإمكانيات التى تواردت على خاطره . فإذا ما سارت الأمور سيراً مرضياً جداً ، كما قدر لها أن تسير ، فلن يكون لدى العزيزة لويزا ما يعلق بالها . كانت دائماً تختلف معه اختلافاً طفيفاً ، العزيزة المسكينة ، كانت دائماً ريفية ضيقة الفكر جداً ، ولكنه كان مغرماً بها . وكان تدير كل شئ من أجلها بما له من معرفة بالدنيا يرضيه ويقر عينه .

ولكى لا يضيع الوقت هباء ، دبر إليوت الأمر بأن يصحب سيده فوراً بعد الغداء لمشاهدة الثياب ، ولذا فما كادت السيدات ينهضن من المائدة حتى أنهى إلى لارى بالكياسة التى كان يتقنها بأن ينسحب ولكن فى الوقت نفسه طلب منه فى لطف وإلحاح أن يعرض الحملين العظيمين اللذين أعد لها العدة . ولم يكن فى حاجة لأن يتكبد كثيراً من المشقة فقد لبى لارى كلا الدعوتين بسرور وحبور .

ولكن خطة إليوت لم تحظ بالنجاح وشعر بالارتياح عندما ظهر لارى فى سترة عشاء لائقة جداً . فقد كان يخشى أن يحضر مرتدياً البذلة الزرقاء نفسها التى كان يلبسها فى الغداء . وبعد العشاء اتحن إليوت بمارى لويزدى فلوريموند جانبا وسألها إلى أى مدى قد أحببت صديقه الأمريكى الشاب .

« إن عينيه جميلتان وأسنانه حسنة المنظر . »

« هل هذا كل ما في الأمر ؟ لقد أجلستك بجواره لأنى ظننت أنه قدح الشاي الذى تبغينه . »

نظرت إليه فى شك

« لقد أخبرنى أنه مخطوب لابنة أختك الجميلة . »

« أصغى لى ، يا عزيزتى ، فالحقيقة أن رجلاً يخمس امرأة أخرى لم تمنعك قط من انتزاعه منها إذا ما كان بمقدورك ذلك . »

« وهل هذا ما تريدنى أن أفعله ؟ حسناً ، فلن أكون مخلب القط وأقوم بأعمالك القذرة لك ، أيها العزيز المسكين ، إليوت . »

ضحك إليوت ضحكة مكتومة .

« إن معنى ذلك كما أحس بناء على معرفتى السابقة بك ، أنك قد استفدت حيلك ولم تظفرى بنجاح ما . »

إن ما يحملنى على محبتك يا إليوت ، هو أنك تتمتع بخلق من يدبر ماخوراً . فأنت لا تريد أن يتزوج من ابنة أختك . فلماذا لا يتزوجها ؟ إنه ذو تربية طيبة وقاتل الشكل جداً . ولكنه ساذج وعر ، ولا أظن أنه استراب لإطلاقاً فيما قصدت إليه .

« كان واجبا عليك ، يا عزيزتى ، أن تكونى أكثر وضوحاً وصراحة معه . »

« إن لدى من الخبرة والتجربة ما يكفي لأن أعرف الوقت الذى أضيع فيه وقتى سدى ، ففى الحقيقة والواقع أنه يرنو إلى حبيبتك إيزابل الصغيرة فقط والحديث بينى وبينك وإنما تمتاز على بعشرين ربيعاً من الشباب وهى حلوة أيضاً . »

« هل يعجبك ثوبها ؟ لقد اخترته لها بنفسى ، .

« إنه جميل ومناسب ولكنها بالطبع عاطلة من الأناقة ، .

اعتبر إليوت أن هذا القول تعريضاً به ، ولم يكن مستعداً أن يدع مدام دي فلوريموند تصرف دون أن يرد لها اللطمة وضحك بلطف .

قال « كان من الواجب علينا أن نبلغ ما يلفت من العقل والنضوج حتى يكون لنا مثل أناقتك ، يا صديقتى العزيزة ، .

هوت عليه مدام دي فلوريموند بالهراوة بدلاً من أن تسدد إليه طعنة بالمغول (١) فقد جعلت إجابتها دماءه تغلي في عروقه .

« ولكنى على ثقة من أن في بلادك الجميلة ، بلاد العصابات ( قالتها بالفرنسية ) يكادون لا يابهون لشيء رقيق جداً ومنقطع النظر إلى أبعد حد . مثل هذا الأمر ، .

ولكن إذا كانت مدام فلوريموند قد عابت ، فإن بقية أصدقاء إليوت . قد سروا بإيزابل ولارى . فقد أحبوا فيها جمالها النضر وشبابها الدافق . الدم وكذا حيويتها ، وأحبوا فيه جمال منظره وحسن خلقه ودعابته الهادجة . اللاذعة . فقد كان كل منهما يمتاز بقدرته على أن يتحدث الفرنسية الصحيحة . بطلاقة . وكانت مسز برادلى ، بعد أن أمضت هذه السنوات الطوال ، في الدوائر الدبلوماسية ، تتحدث الفرنسية الصحيحة بما فيه الكفاية ولكنها كانت تتحدثها بتلك اللهجة الأمريكية التي لا تنجل . ولقد أسرف إليوت في

---

(١) سيف الطعن أو الوخز - الكهنس .

إكرامهم أما إيزابل وقد سرت بشيائها الجديدة وقبعاتها الجديدة ، وتسلت بما أضفاه إليوت على الحفل من مرح وبهجة ، وسكنت لوجودها بصحبة لارى لكل هذا اعتقدت أنها لم تستمتع من قبل كما استمتعت في ذلك اليوم .

( ٤ )

كان من رأى إليوت أن طعام الافطار وجبة يجب أن تناولها فقط مع الغرباء . تماما ، وحينئذ فقط إذا لم يكن هناك مندوحة لذلك ، ولذا فإن مسز برادلى وعلى غير رغبة منها إلى حد ما ، وإيزابل ، وهى ليست ساخطة أو مستاءة ، اضطررتا إلى تناول افطارهما فى حجرات نومهما . ولكن إيزابل ، عندما كانت تنهض من نومها كانت تخبر أنطوانيت ، وهى كبيرة الوصيفات التى ارتبطت معها إليوت من أجلهما كانت تخبرها بأن تحمل لها القهوة بالحليب إلى حجرة أمها حتى يمكنها أن تتحدث إليها وهى تحتسبها . فى الحياة الحافلة بالمشاغل التى كانت تحياها إيزابل ، كانت فترة تناول القهوة هى اللحظة الوحيدة من النهار التى يمكنها أن تنفرد فى خلالها مع أمها . وذات صباح عندما كانوا فى باريس ، وبعد أن قصت إيزابل حوادث الليلة الماضية ، بقرابة شهر ، تلك الليلة التى أمضت معظمها مع لارى تجولان فى الأندية الليلة مع جماعة من الصحاب ، ذات هذا الصباح ، سألت مسز برادلى السؤال الذى طالما شغل بالها وودت لو سألته منذ وصولهما .

« متى سيعود إلى شيكاغو ؟ »

« لا أعرف . فلم يتحدث عن ذلك ، »

« ألم تأليه ؟ »

« لا . »

« هل أنت عاتفة من سؤاله ؟ » .

( م ٧ حد الوسى )

« لا ، طبعاً لست خائفة ، » .

كانت مسز برادلي تجلو أظافرهما وقد رقت على الشيزلونج وهي ترتدى نشيرا (١) من آخر طراز كان إلبوت قد أصر على إعطائه لها .

« فيم تتحدثان طوال الوقت وأنتما معا وحيدتين ؟ » .

« نحن لا نتحدث طوال الوقت فإنه بليل أن نكون معا . فكما تعرفين أن لاري أميل إلى الصمت وعندما نتحدث يكون لي القدر الأعظم منه ، » .

« وماذا كان يفعل بنفسه ووقته ؟ » .

« لأعلم في الحقيقة والواقع . لا أظن أنه كان يعمل شيئاً كثيراً جداً وكما نأمن فإنه كان يقضى وقتاً طيباً ، » .

« وأين يعيش ؟ » .

« ولا أعرف ذلك أيضاً ، » .

« يبدو أنه كتوم متحفظ ، أليس هو كذلك ؟ » .

أشعلت إيزابل لفاقة من التبغ ونظرت إلى أمها في هدوء وترو وهي تنفخ سحابة من الدخان من منخريها .

« ماذا تعنين بذلك تماماً ، ياماما ؟ » .

« إن خالك إلبوت يظن أنه يقيم في شقة ويعايش امرأة فيها ، » .

« انفجرب إيزابل ضاحكة . » .

« أنت لاتصدقين ذلك ، هل تصدقينه ؟ » .



« لا ، وبكل إخلاص وأمانة لأصدقته . ( ونظرت مسر بردلى إلى اظافرها  
متأملة ) ألا تتحدثين إليه عن شيكاغو ؟ »

« نعم ، كثيراً جداً . »

« ألم يذكرك ما يدلى على أنه يتنوى العودة إلى هناك ؟ »

« لا يمكننى أن أقطع بهذا . »

« فى أكتوبر القادم سوف يكتمل عامان على رحيله . »

« إنى أعرف ذلك . »

« حسناً ، إنه شأنك الذى يخصك ، يا عزيزتى ، ويجب أن تفعل ما تريه  
الصواب ، ولكن الأمور تزيد تعقيداً بتأجيلها ، ونظرت إلى ابنتها نظرة عجلى؛  
ولكن إيزابل لم تلفتها هذه النظرة فابتسمت إليها ابتسامة حنان وإشفاق :  
« إذا كنت تحرصين على أن تكونى فى الموعد ، على الغذاء ، فالأفضل أن تذهبي  
لتأخذى حمامك . »

« سوف أتناول غذائى مع لارى ، فنحن ذاهبان إلى مكان ما فى الحى اللاتينى . »

« أمتى نفسك . »

وبعد مضى ساعة حضر لارى ليأخذها معه واستقلا عربة خيل إلى بونت  
سانت ميشيل — قنطرة القديس ميشيل — وجالا خلال المخرفة (١) المزدحمة حتى  
جاءا إلى مقهى أعجبهما منظره . جلسا فى الشرفة وطلبا اثنين من الدوبونت . ثم  
استقلا عربة أخرى وذهبا إلى مطعم . كانت إيزابل تتمتع بشهوة صحيحة للطعام  
ولقد استمتعت بالأطياب التى طلبها لارى لها كما استمتعت بمشاهدة الجالسين

(١) الشارع المتسع ذو الأشجار على كادالجانين

لصق بعضهم بالبهمن ، فقد كان المكان مكتظا بالماضرين وأضحكها أن ترى المتعة العظيمة التي ينعمون بها في وضوح وهم يتناولون طعامهم ، ولكنها استمتعت أكثر وأكثر بالجلوس إلى منضدة صغيرة في عزلة مع لاري . لقد أحببت التفككة التي في عينيه وهي تتحدث إليه دون توقف . وكان يسحرها ويخلب لها أن ترى نفسها وقد زالت الكلفة بينهما ولكن في مؤخرة رأسها كان يمكن قلق غامض لأنه على الرغم من أنه أيضا كان يبدو مستريحا غير متكلف فقد أحست أنه غير مستريح معها كما هو مستريح في بيئته . ولقد أزعجها ما قالته أمها لها ، قليلا ، وعلى الرغم من أنها انطلقت تثرثر في صراحه وأمانه إلا أنها كانت تلاحظ بدقة كل تعبير انطبع على وجهه فلم يكن كما عهدته تماما ، عندما رحل عن شيكاغو ولكن لم يكن بمقدورها أن تقول أين كان يقع الخلاف . كان يبدو تماما كما ذكرته ، شابا صريحا سليم الطوية ، ولكن ملاحظه قد تغيرت . لم يكن التغيير الذي طرأ عليه أنه أصبح أكثر جدأ ، فإن وجهه في لحظات المجوع والدعة كان جدأ دائما . لقد شمله هدوء لم تعهده فيه من قبل ، كان يبدو وكأنه قد سوى أمرا مع نفسه واستقر به النوى . فاستشعر الطمأنينة وهدوء البال بصورة لم يألّفها إطلاقاً من قبل .

وعندما فرغا من تناول غدائهما اقترح عليها أن يطوفا في حديقة اللوكسمبرج .

« لا ، فأنا لا أريد أن أذهب لأشاهد الصور . »

« حسنا جدأ . إذن ، هيا بنا نذهب ونجلس في الحدائق . »

« لا ، فأنا لا أريد أن أفعل هذا أيضاً . أريد أن أذهب لأرى أين تعيش . »

« ليس هناك ما يرى ، فإني أكن حجرة حقيرة صغيرة في فندق . »

« إن عمي إليوت يقول إنك تسكن شقة حيث تعيش في الخيطنة ، أمراء

تعمل نموذجاً لفنان . »

فضحك وقال : إذن تعالى ، وشاهدى بنفسك . إنه على قيد خطوة من هنا  
ويمكننا الذهاب مشياً على الأقدام . .

صحبها خلال شوارع ضيقة ملتوية وقنطرة على الرغم من رقعة السماء الزرقاء  
كانت تطل بين المنازل العالية ، وبعد برهة توقف أمام فندق ذى واجهة لا تعطى  
صورة صادقة عنه .

« ها نحن قد وصلنا ، .

تبعته إيزابل إلى داخل بهو ضيق ، فى أحد جانبيه مكتب جلس رجل يرتدى  
قيصاً ذا أكمام وصداراً ذا خطوط رفيعة سوداء وصفراء ويضع على صدره  
ميدعة قنطرة وكان يقرأ صحيفة ، طلب لارى مفتاح حجرته ، ودفعه إليه الرجل  
ظوراً من اللوحة التى تعلق بها المفاتيح خلفه ، وحسب إيزابل بنظرة فضولية  
سرعان ما تحولت إلى ابتسامة متكلفة ، هى ابتسامة العالم الخبير بالأمور . كان  
من الواضح أنه ظن بها الظنون وأنها كانت ذاهبة إلى حجرة لارى لغرض  
غير شريف .

صعدا مجموعتين من الدرج كان يغطيهما بساط أحمر وان عليه القدم فحمرت  
خيوطه ، وفتح لارى الباب ودخلت إيزابل حجرة صغيرة إلى حد ما وبها نافذتان  
كانت النافذتان تطلان على مبنى ذى شقات ، رمادى اللون من الجانب المقابل  
حيث كان يوجد فى الدور الأرضى منه حانوت وراق (١) . كان بالحجرة سرير  
واحد وبجانبه منضدة ليلية وصوان ملابس ذو مرآة ضخمة ومقعد ذو متكئين  
صنجد وذو ظهر مستقيم كالمسند . بين النافذتين منضدة عليها آلة كتابة وأوراق

---

(١) بائع أدون كصابه

وعدد من الكتب وكانت كومات من الكتب المجلدة بالورق تغطي اثاث الوقد .

« تفضلى بالجلوس فى المذرع (١) ، إنه غير مريح ولكنه أفضل ما عندى . »  
وجذب مقعداً آخر وجلس .

وسألت إيزابل « هل هنا تعيش ؟ »

ضحك ضحكة مكتومة من النظرة الارتسمة على وجهها .

« هذا مقامى . وإنى أقيم هنا منذ هبطت باريس . »

« ولكن لماذا ؟ »

« لأنه مكان مريح ومناسب ، فهو على مقربة من دار الكتب الأهلية

والسربون . ثم أشار إلى باب لم تلحظه .

« إن هذه الحجرة حماماً وبوسعى أن أتناول الإفطار وعادة أتناول العشاء

فى ذلك المطعم حيث تناولنا غذاءنا . »

« إنه حقير جداً . »

« لا ، إنه لا بأس به وهو كل ما أحجاجة ،

« ولكن أى لون من الناس يعيشون هنا ؟ »

« آوه ، لا أعلم . فى الطابق الأعلى يسكن بعض الطلاب واثنان أو ثلاثة من

العزاب موظفى الحكومة المسنين وبمثلة متقاعدة فى مسرح الأوديون ، والحجرة

الأخرى الوحيدة الملحق بها حمام تحتلها امرأة يأتى صديقها لزيارتها كل يوم

خميس بعد آخر ، وزائرون عابرون قليلون . إنه مكان هادىء ومحترم جداً . »

ارتبكت إيزابل قليلاً ولعلها أن لارى لاحظ ارتباكها واتخذ منه وسيلة

فلم تمنع فى غضبها حتى النهاية بل كان غضبها بين بين .

(١) كرى كبير ذو سنادتين .

سألت ، « وماذا عسى أن يكون ذلك الكتاب الضخم الذى على المنضدة ؟ »  
« ذلك الكتاب ؟ آه ، هذا قاموس اللغة الإغريقية . »

صاحت متسائلة ، « قاموس ماذا ؟ »

« حسناً جداً ، فهو لن يعضك . »

« هل تدرس اللغة الإغريقية ، ؟ »

« نعم . »

« لماذا ، ؟ »

« لأنى رأيت أنى أبغى دراستها . »

كان ينظر إليها والابتسامة تسبح فى عينيه ، وبادته الابتسامة .

« ألا ترى أن تخبرنى ماذا كنت تفعل طوال وقتك منذ قدمت باريس  
حتى الآن ، ؟ »

« لقد قرأت الكثير من الكتب . إنى أفضى ثمانى أو عشر ساعات فى  
القراءة كل يوم واستمعت إلى المحاضرات فى السوربون وأحسبى قرأت كل ما هو  
هام فى الأدب الفرنسى وبوسى أن أقرأ اللاتينية على الأقل وبسهولة تكاد  
تعدل قراءة للفرنسية . ومن الطبيعى فإن اللغة الإغريقية أكثر صعوبة من  
اللاتينية . ولكن الله قيض لى معلماً قديراً جداً . وحين جئت إلى هنا كنت  
أتوجه إليه ثلاث أمسيات كل أسبوع . »

« وإلى أين سينتهى بك ذلك ، ؟ »

« فابقم وقال : « سينتهى بى إلى تحصيل المعرفة . »

« لا يبدو أن ذلك عملى جداً . »

« ربما يكون كذلك ، ومن جهة أخرى ربما يكون على النقيض . ولكنه  
حتمة عظمى فليس أبوسعك أن تتصورى النشوة التى تملكك وأنت تقرأ  
الأوديسة (١) فى الأصل الإغريق ، لأنها تجعلك تشعرين أنه ماعليك إلا أن تهنى  
على أطراف أصابع قدميك وتمدى ذراعيك لتلمس النجوم ، .

ونمض من مقعده وكأ أنه يندفع بقوة نشوة تملكه وهو يروح ويحيى . فى تلك  
الحجرة الصغيرة .

« قضيت الشهر الماضى أو الشهرين الماضيين فى قراءة إسبنوزا ، ولا أظن أنى  
قد وعيت الكثير جداً منه حتى الآن . ولكنه يملأ القارىء بالابتهاج والاعتزاز  
ويجعله يحس بأنه قد هبط بطائرته فوق هضبة عظيمة من الجبال حيث العزلة  
والهواء نقي لاتشوبه شائبة فينفذ إلى الرأس وكأ أنه الخمر ويشعر الإنسان أنه  
صاحب ملايين ، .

« ومنى ستعود إلى شيكاغو ، ؟

« شيكاغو ؟ لا أعلم ، فإنى لم أفكر فى ذلك ، .

« لقد قلت إنك إذا لم تحصل على ماتريد بعد حامين فأنتك سوف تتركه بوصفه  
صلاً رديئاً ، .

« لا يمكنى ، العودة الآن . إذ أنى على الاعتبار . إنى أبصر بأفاق واسعة  
للروح تترامى ممتدة أمامى ، تشير إلى ، وإنى لمتشوق لأن أرتادها ، .

---

(١) قصيدة عزيت إلى هوميروس بصفتها تجوال أوليمبوس بعد حصار طروادة .

• وماذا تتوقع أن تجده في تلك الآفاق ، .

قال ، • الإجابات على أسئتي ، . وربما بنظرة كادت تكون نظرة دعابة  
ولولا أنها قد عرفته جيد المعرفة ، لغانت أنه يتحدث مازحاً . • إنى أريد أن  
أقرر إذا ما كان الله موجوداً أو غير موجود . إنى أريد أن أميط اللثام عن  
سبب وجود الشر ، إنى أريد أن أهدك الحجاب ، لأرى إذا ما كانت روحى  
خالدة أم أن يموتى تكون نهايتى ، ؟

انهرت إيزابل قليلاً فقد أمضها أن تسمع لارى يقول مثل هذه الأشياء  
وشكرت الله إذ أنه كان يتحدث بدعابة وبلهجة الحديث المألوف حتى أمكنها أن  
تغلب على برمها .

ابتسمت قائلة : • ولكن يالارى ، الناس يسألون هذه الأسئلة منذ آلاف  
السنين حتى الآن . فإذا ما كان فى الامكان الإجابة على هذه الأسئلة لتلقينا هذه  
الإجابات قبل الآن .

ضحك لارى ضحكة مكتومة .

قالت غاضبة ، • لا تضحك وكأنى قد قلت شيئاً معتوها ، .

• على التمييز ، أظن أنك قلت قولاً حكيماً . ولكن من جهة أخرى ، يمكنك  
القول بأنه إذا كان الناس ظلوا يسألون هذه الأسئلة منذ آلاف السنين حتى الآن  
فذلك يبرهن على أنهم لا يستطيعون ملافاة ذلك وينبئهم أن يستمروا فى أسئلتهم  
هذه . وزيادة على ذلك فليس حقيقة أن أحداً لم يمش على الإجابات . فالإجابات

أكثر من الأسئلة . وقد وجد كثير من الناس إجابات أوضحتهم كل الرضا .  
ولنضرب بالمدعو أولد رويبروك مثلاً .

« ومن عساه أن يكون ، ؟ »

« فأجاب لاري بذلاقة ، مجرد شخص لم تتح لي معرفته في الكلية ، . »

« لم تفهم إيزابل ماذا عناه ، وانكبتها تجاوزت عن ذلك ووالك الحديث . »

« يبدو لي أن كل هذا من خصائص الشباب وهذه هي أنماط الأشياء التي  
تثير طلبية السنة الثانية ثم إذا ما تركوا الكلية ينسون كل شيء عنها إذ عليهم أن  
يكسبوا أوقاتهم ، . »

« إنني لا ألومهم . أنا كما تربيتي في مركز أعبط عليه إذ لي ما يكفي أن  
أعيش في مجبوحة ورغد . إذ إذا لم يكن عندي ما أملك الآن لكان لزاماً علي  
أن أفعل كما يفعل الآخرون وأجمع المال ، . »

« ولكن ، ألا يعني المال شيئاً لك ، ؟ »

« فضحك ساخراً ، « لا شيء ، . » »

« كم من الزمن ، على ما تظن ، سيستغرق هذا العمل ، ؟ »

« لا أود أن أعرف ، فقد يكون خمس سنوات ، وقد يكون عشرة ، . »

« وبعد ذلك ماذا عساك أنت فاعل بكل تلك الحكمة ، . »

« إذا اكتسبت الحكمة فسوف أكون حكيماً ، حكمة كافية تجعلني أعرف ماذا ؟ »

« أفضل بها ، . »

« شبكت إيزابل يدها غضباً ومالت إلى الأمام في مقعدها . »



« إنك لعل خطأ مبين ، يا لارى . فأنت أمريكى ومكانك ليس هنا . إن  
مكانك فى أمريكا ، .

« سوف أعود عندما أكون على استعداد لذلك . .

« ولكن يفوتك الكثير الآن . كيف تحتل البقاء هنا فى مسال (١) عقلى  
راكد لا يتقدم فيه العقل أو يستحدث آراء جديدة ، وأنت تعيش أعظم مغامرة  
عرفها العالم حتى الآن ؟ لقد انتهت أوروبا ونحن أعظم وأقوى شعب فى العالم .  
تقفز قدماً بخطى واسعة سريعة . إننا نملك كل شىء . وواجبك أن تسهم فى تطوير  
وتقدم بلادك . لقد أغفلت مدى النشوة التى تغمر الحياة فى أمريكا اليوم . هل  
أنت على ثقة من أنك لاتسلك سلوكك هذا لأنه ليست لديك الشجاعة الكافية  
لأن تواجه فى ثقة واطمئنان العمل الذى ينتظر كل أمريكى اليوم ؟ آوه ، إنى  
أعرف أنك تعمل بصورة ما ولكن أليس عمك هذا هروباً من المسئوليات  
الملقاء على عاتقك ؟ أليس عمك هذا نوعاً من الكسل الشاق المتعب ؟ ماذا  
سوف يحقق بأمريكا لو تولى كل شخص وتواكل كما تفعل الآن ، ؟

قال مبتسماً : « إنك قاسية يا حبيبتى . والإجابة على ذلك الذى تقوين هى أن  
كل شخص لا يشعر كما أشعر ، ولحسن حظهم ، ربما ، إن السواد الأعظم من  
الناس يسلك الطريق المألوف ، وإن ما فاتك هو أنى أريد أن أتعلم بقوة وحماسة  
مثل جراى ، مثلاً ، يريد أن يجمع المال ويكده . هل أنا حقاً خائن  
لوطنى لأنى أريد قضاء عدة أعوام أعلم وأتقف فيها نفسى ؟ من المحتمل أنى عندما  
أخوض مضار الحياة يجب أن يكون لى شىء أعطيه ويسر الناس الذين يأخذونه  
إنها فرصة فقط ، طبعاً ، ولكنى إذا أخفقت فلن أكون أسوأ حالاً من رجل

---

(١) مجرى ماء صغير يخرج من نهر ويندى من مائه

دخل ميدان الأعمال وهو عاطل من الخبرة فيه .

« وما موقفي ؟ ألس بذات أهمية إطلاقاً ، لك ؟ »

« أنت ذات أهمية عظيمة بالنسبة لي ، وأنا أريدك على الزواج مني . »

« متى ؟ في غضون عشرة أعوام ؟ »

« لا ، الآن ، بأسرع ما يمكن . »

« على أية شريطة ؟ إن أمي ليس بوسعها أن تعطينا شيئاً ما . وزيادة على

ذلك فلن تفعل إذا ما قدرت . فهي ترى أنه من الخطأ أن تعينك على الحياة دون

أن تعمل عملاً ما . »

قال لاري ، « لا أرغب في الحصول على شيء من أمك . فلدي ثلاثة آلاف

سنوياً وهذا قدر كبير في باريس ، ويمكننا أن يكون لنا شقة صغيرة وعادم

جميع الأعمال وننعم باللهو والمرح ، يا عزيزي . »

« ولكن يا لاري ، لا يمكننا أن نعيش على ثلاثة آلاف في العام . »

« طبعاً يمكننا . إن كثيرين يعيشون على مبلغ أقل من ذلك بكثير . »

« ولكني لا أريد أن أعيش على ثلاثة آلاف سنوياً ، فليس من سبب يدعوني

إلى ذلك . »

« لقد كنت أعيش على نصف هذا المبلغ . »

« ولكن كيف ! »

نظرت إلى الحجرة القذرة الصغيرة وقد سرت في جسدها وعشة اشتمزاز .

« إن هذا يعني أن لدي مبلغاً مقتصداً ويا مكاننا أن نذهب إلى كبرى لقضاء

شهر الصل وفي الخريف سوف نذهب إلى اليونان فاني ولوح ولعاً جنونياً

بالذهاب إلى هناك . ألا تذكري كيف كنا نتحدث عن الأسفار معا في جميع

أنحاء العالم ، ؟ »

« طبعاً ، أريد أن أقوم بأسفار . ولكن ليس بذلك المستوى . فأنه لا أرغب في السفر بالدرجة الثانية على ظهور البواخر وأقيم في فنادق من الدرجة الثالثة بدون حمامات ، وأتناول طعامي في مطاعم رخيصة . »

« لقد جيت إيطاليا في أكتوبر الماضي على ذلك المستوى ولقد قضيت وقتاً ممتعاً . فيه كنا أن نافر بمبلغ ثلاثة آلاف سنوياً . »

« ولكنني أريد أن أنجب أطفالاً ، يا لاري . »

« ذلك حسن جداً ، وسوف نصحبهم معنا . »

ضحكت وقالت ، « إنك لساذج . هل تعلم كم يكلفك أن يكون لك طفل ؟ لقد أنجبت فيوليت توملسون طفلاً في العام الماضي وتوخت غاية الاقتصاد في تلك الحال ما وسعها الجهد وكلفها الأمر ألفاً ومائتين وخمسين جنيهاً . وكم تظن أن الحاضنة ستكلف ؟ ، وازدادت حدة وشدة إذ أخذت الأفكار تتوارد على خاطرهما الواحد بعد الآخر . « أنت غير عملي . ولا تدري ماذا تسألني أن أفعل . إنني شابة وأريد أن استمتع بالحياة وأريد أن أفعل كل ما يفعله الناس . أريد أن أغشى الحفلات وأذهب إلى الحفلات الراقصة وأريد أن ألبس الجولف وامتطي صهوة الجياد أريد أن أرتدي ثياباً فاخرة جميلة . ألا يمكنك أن تتصور ماذا يعني بالنسبة لفتاة ألا ترتدي من الثياب فاخرها كما تفعل بقية لداها . هل تعلم ماذا يعني يا لاري ، أن تشتري ملابس أصدقائك القديمة عندما يضيقون بها نوعاً . ثم تلهج بالشكر عندما يقدم لك شفقة بك ورحمة ، ثوباً جديداً ؟ لا يمكنني حتى الذهاب إلى حلاق مناسب ليصفف لي شعري بصورة لائقة . لا أريد التنقل عبر الشوارع في مركبات النقل ( في المدينة ) وفي الحافلات (١) . »

(١) الأنيبوس - السيارات العامة .

لانى أريد أن يكون لى سيارتى الخاصة ثم ماذا تظن أنى سأشغل وقتى طوال اليوم وأنت تقرأ فى المكتبة ؟ هل تظن أنى سأذرع الشوارع إقبالا وإدباراً أتطلع لى واجهات الحوانيت ؟ أو تظن أنى سأمضى وقتى جالسة فى حدائق الكسمبورج أرقب أطفالى لئلا يحل بهم مكروه ؟ وسوف لا يكون لنا أى أصدقاء .

قطاعها قائلاً ، وآه يا أيزابل .

ليس صنف الأصدقاء الذين أفتهم . نعم ، فإن اصدقاء العم لا يوت سوف يدعوننا من آن لآخر من أجل خاطره ولن أتمكن من تلبية الدعوة والذهاب إلى تلك الحفلات لأنه لن يكون لى الملابس اللائقة لأذهب بها . وسوف لا نذهب إلى هذه الحفلات لأننا لن نتكمن من مقابلة اكرامهم لنا بالمثل بسبب عدم مقدرتنا على ذلك . وإنى لا أرغب فى أن أعرف كثيراً من ناس حقراء قنرين ، فليس لى ما أقوله لهم كما ليس لديهم ما يقولونه لى . لانى أريد أن أعيش ، بالارى . ، وفجأة ارداد إحساسها ووعيتها بالنظرة التى تلتصق فى عينيه فعلى الرغم من أنها كما كانت دائماً ، رقيقة عطوفاً عندما يثبت ناظره عليها ، إلا أنها كانت لهوة رقيقة . ، إنك تظن أنى ساذجة ، أليس كذلك ؟ تظن أنى أصبحت تافهة بنفضة .

د لا ، لأظن ذلك . وأظن أن ماقولينه طبيعى جداً .

كان يقف وظهره إلى أناك المدفأة ، فنهضت واتجهت إليه وأصبحت وجهاً لوجه .

د بالارى ، إذا لم تكن تملك سنتاً واحداً وحصلت على عمل يدر عليك ثلاثة

آلاف سنويا فإني - أتزوج منك دون لحظة تردد واحدة . سأطهو لك طعامك وأصنع لك فراشك وان أعبا ماذا ألبس وأنقل بدون أى شيء . وأنظر إلى الأمر كله بوصفه متعة بالغة ، وما ذلك لأنى أعرف أن الزمن سيصلح كل شيء . وسوف تنجح فى عملك . ولكن هذا يعنى العيش عيشة الشح الكريهة طول العمر . ولا هدف أمامنا نعمل من أجله . ومعنى هذا أتى سوف أظل فى كد ونصب حتى يوم ماتى . ولم هذا ؟ كى تقضى سنوات تحاول العثور على إجابات على مشكلات ، أنت نفسك تقول ، إنها غير قابلة للحل . إنه لخطأ بين ، وعلى الرجل أن يعمل وهذا هو الغرض من وجوده فى هذه الحياة الدنيا ، وهذا طريق إسهامه فى رفاهية المجتمع الذى يضمه .

وبالاختصار ، فإن واجبه أن يلقى عصا الترحال ويستقر به النوى فى شيكاغو ويدخل مؤسسة هنرى ماتيورين . فهل تظنين أنى عندما أحمل أصدقتائى على شراء الصكوك المالية التى يتم لها هنرى ماتيورين أسهم بقرص وافر فى رفاهية المجتمع ؟

• يجب أن يكون هناك سمسرة . وهذا عمل لائق تماما وطريق شريف لكسب العيش ؟ .

• لقد رسمت صورة قائمة جدا للحياة فى باريس ، على دخل متوسط . إنك لتوقين أن الأمر حقا ليس كما تتصورين فى الممكن أن ترتدى السيدة ثيابها فى أناقة وحسن دون أن تذهب الى بيت ( شانل ) للأزياء ، ولاتعيش كل ظرفاء القوم بجوار آرك دى تريومف ( قوس النصر ) وأنينى فوش ( شارع فوش ) . وتعيش فئة قليلة من الظرفاء فى الواقع هناك ، وعلة ذلك أن الظرفاء عادة لا يملكون . الا كثيرا وإنى أعرف عددا كبيرا من الناس هنا ، منهم الفنانون والكتاب والطلاب من الفرنسيين ، والإنجليز والأمريكيين والذين ليسوا

على غرار أولئك اللاتي ترين أنهن أكثر لطفاً وظرفاً من ذوات ألقاب «ماركيزة»  
القليلات ، أو «دوقة الطويلات الأنوف» من صويحبات العم إليوت . وقد حباك  
الله سرعة بديهة وروح دعاية مرحة ، وسوف تتعنين بالاستماع اليهم وهم  
يقبضون الآراء عبر مائدة العشاء حتى ولو كانت الخمر نبيذاً مألوفاً . ولا يقوم  
خادم خاص بالمائدة وساعيان على خدمتك ، .

« لا تكن غيبياً . يا لارى . طبعاً سأنعم كما تقول ، إذ أنك تعرف أنى لست  
مترفة (١) وأتمنى لو ألتقي بأناش ظرفاً ، .

« نعم . وأنت مرتدية ثوباً من بيت شانل للأزياء . فهل تظنين أنهم لن  
يفطنوا الى أنك تأخذين الأمر بوصفه لونهاً من الحياة الثقافية في الأحياء  
الفقيرة ؟ ولن يشعروا بالإرتياح أكثر مما تشعرين ، ولن تحصلى على شيء من  
كل ذلك عدا ما تقولينه لأميل دى موتادور وجراسى دى شاتو - جيلارد عن  
المتعة التي جنيتها من لقائك مع جمع حافل من البوهيميين القديريين في الحى  
اللاتينى ، .

هزت إيزابل كتفها هزة خفيفة .

« لعلك على حق . فهم ليسوا من نوع من نشأت بينهم من الناس . وهم  
ليسوا من نوع من تربطنى بهم وشيخة ما ، .  
« وأين يتركنا ذلك ، ؟

« حيث بدأنا . فقد عشت في شيكاغو منذ بدأت أذكر الحياة . وجميع  
« صدقائى هناك . وكل مصالحى وما يعنينى هناك . وهناك أكون فى وطنى

---

(١) المترفة : من يألف الاتصال بمن يعتبرهم أقل منه فى مرتبة .

بين قومي وعشيرتي . إنها المنكان الذي أتمو إليه ، وهي المنكان الذي تتنى إليه . إن أمي مريضة ولن تحسن حالها أبداً وليس بمقدوري أن أتركها حتى ولو أردت ذلك .

« هل يعني ذلك أنه ما لم أكن مستعداً للعودة إلى شيكاغو فإنك لا تريدني الاقتران بي ؟ »

ترددت لإيرابل ، فقد أحببت لاري وأرادت الزواج منه وكانت تريده بكل قوى حواسها وكانت تعرف أنه يطلبها وبشيتها ، ولم يكن بوسعها أن تصدق أنه إذا ما وصل الأمر إلى أن تفصح عن مرماها الحقيقي فلن يضعف . كانت تخشى منفة الأمر ولكن كان عليها أن تغامر .

« نعم ، يا لاري ، هذا هو ما أعنيه بالضبط . »

أشعل عود تقاب على أساس الموقد . وكان تقاباً من أعواد الكبريت الفرنسية التي مضى وقتها والتي تملأ خياشيمنا برائحة الخبز ، ثم أشعل غليونه ، وسينتد مر بجوارها وجاوزها ، وعبر الحجر ، ووقف بجوار إحدى النوافذ ، ونظر إلى الخارج ولاذ بالصمت وقتاً بدأ بغير نهاية . ووقفت كما كانت قد وقفت من قبل ، عندما كانت تواجهه ، ثم نظرت إلى المرأة القائمة على أساس الموقد ، ولكنها لم تر صورتها ، فقد كان قلبها يدق دقات محومة مجنونة وكانت مأخوذة بانفعال شديد من الذعر والخشية والتفت إليها في النهاية .

« بودي لو أتمكن من أن أبصرك بأن الحياة التي أقدها إليك أحفل من أي شيء تصوريته ، وبودي لو أتمكن من أن أجعلك ترين كم هي مثيرة حياة الروح وكما هي غنية بالتجربة . إنها حياة لانهاية . إنها حياة سعيدة ، ولا يوجد إلا شيء واحد يمتارعاها : عندما تكونين في طائرة تخلق بك عالياً ، عالياً في الفضاء ، ( م ٨ حد الوسي )

ولا يحيط بك سوى اللانهاية . إنك آتخذ تحسين بسعادة لا ترضين عنها بديلاً . ولو كانت كل قوى ومجد العالم . لقد كنت أقرأ ديكارت (١) بالأمس . إنه اليسر والطلاوة والوضوح . روعة ! .

قاطعته بيأس ، « ولكن ألا ترى ، يا لارى ، أنك تصألنى أمراً لا أصلح له ، ولا مصلحة لى فيه ، ولا أريد أن يكون لى فيه مصلحة ؟ كم من مرة اضطررت لأن أعيد عليك مراراً وتكراراً ، إنى فتاة سوية عادية ، والآن فى العشرين من عمري ، وفى غضون عشر سنوات سوف أشيخ ، وأريد أن أفضى وقتاً طيباً عندما تتاح لى الفرصة . آه ، يا لارى ، إنى أحبك حباً عارماً أكيداً ، وما ذلك كله إلا زهات عابرة ، ولن ينتهى بك إلى نهاية ما . ولأجل خاطر ك أضرع إليك أن تترك هذا الموضوع . كن رجلاً يا لارى ، وقم بعمل الرجال . إنك تهدر سنوات عمرك الثمينة التى يفيد منها الآخرون الشيء الكبير . فاذا ما كنت تحببى يا لارى ، فلن تتخلى عنى من أجل حلم ولقد نهلت من المسرات بما فيه الكفاية ، فعد معنا إلى أمريكا . »

« لا يمكننى يا حبيبة قلبى فسوف يكون فى ذلك موتى ، وخيانتة منى لروحى »

« آه ، لا يا لارى ، لماذا تتحدث بهذه الطريقة ؟ إنها الطريقة التى تتحدث بها النساء المتوسسات المصحيات العلم . وماذا تعنى ؟ لاشئ ، لاشئ ، لاشئ . »

فأجلب وعيناه تآلقان : « ويحدث أنها تعنى بالضبط ما أحس . »

« كيف تستسيغ هذا المزاج ؟ ألم تتحقق بعد أن هذا أمر بالغ الخطورة ؟ فقد وصلنا مفترق الطريق الآن : وإن القرار الذى ستتخذه الآن سيكون له أثره على حياتنا . »

« إنى أدرك ذلك . وصدقينى إنى جلد كل الجدد . »

(١) ديكارت ( ١٥٩٦ - ١٦٥٠ ) رعيم النهضة العقلية فى القرن ١٧ كانت فلسفته تقوم على :

« أ » إثبات وجود النفس « ب » إثبات وجود الله . « ج » إثبات وجود العالم الخارجى .



تهلت :

« إذا كنت لا تصنى إلى صوت العقل فلم يبق إذن ما يقال ، .  
« ولكنى لا أظن أنه العقل . بل أظن أنك كنت تحدثين - سديشاً فارغاً  
مروها طوال الوقت ، .

« أنا ؟ ، ولولا ما تستشعره من تعاسة لضحكت . « إنك أحق كالغرا (١) ،  
نزعت خاتم خطبتها ببطء من أصبعها ووضعت على راحة يدها ونظرت إليه  
كأن الخاتم يتكون من حجر مربع من الياقوت وضع في إطار رقيق من البلاستيك  
وقد كانت تفضله دائماً .  
« إذا كنت تحبني فلن تجملني غير سفيدة ، .

« إني أحبك بكل تأكيد ، ولكن لسوء الطالع أن الإنسان أحياناً لا يتمكن  
من أن يفعل ما يظن أنه الصواب دون أن يشقى شخصاً آخر ، .  
مدت يدها التي استقرت عليها الياقوت وأبسمت ابتسامة معتصبة بدت على  
شفتيها المرتعشتين .

« اختر لنفسك ، يا لارى ، .

« لا فائدة منه لي . فملا أبقيته تذكراً لصدقتنا ؟ يمكن وضعه في الخنصر  
فلا يجبان تنهى صدقتنا . هل يجب أن تتوقف ؟ ،  
« سوف أهتم بك دائماً ، يا لارى ، .

« إذن فلتحتفظي به . فإني أود أن تضلي ذلك ، .

---

(١) طائر ماى يضرب به الثقل في الحماة .

ترددت لحظة من الزمن . ثم وضعته في أصبع يدها اليمنى .

• إنه نواسع زيادة عن الحد ، .

• يمكنك تغييره . والآن هيا بنا نذهب إلى مشرب الرتز لنأخذ شراباً ، .

• حسناً جداً ، .

لقد اندمشت قليلاً إذ مر كل شيء بهذه السهولة فلم تبك ولم يبد التغيير على شيء ما عدا أنها سوف لا تزوج لارى . وكذات لا تصدق أن كل ما بينهما قد انتهى وأصبح أمراً مفضياً . واستكرت قليلاً الحقيقة الواقعة ، حقيقة أنهما لم يثيرا مشهداً عاصفاً ، بل إنهما على التقيض ناقشا الموضوع كله في هدوء كاد أن يعدل الهدوء الذي يناقشان به استئجار منزل . وشعرت بالاستسلام والضعف ولكنها في الوقت نفسه كانت تنوكت ما بها من رضا لأنهما قد سلكا سلوكاً مهنياً في معالجتهم للأمر ، وكانت تحرق لمعركة أحاسيس لارى ومشاعره تماماً . ولكن ذلك كان أمراً بعيد المنال دائماً ، فقد كان وجهه الهادئ الساكن وعيناه السوداوان قناعاً تدرك أنها ، وهى التى قد عرفته لسنين كثيرة ، لا تستطيع أن تفذ منه . كانت قد خلعت قبعتها ووضعتها على الفراش . أما الآن وهى واقفة أمام المرأة فقد عادت ولبستها ثانية .

قالت وهى تسوى شعرها ، • ويهينى أن أعرف هل ترغب فى فخ

خطبتنا ، ؟

• لا ، .

• ظننت أن فى ذلك راحة لك . ، فلم يجب . أما هى فقد استدارت وقد وفدت

ابقسامه جذلة على شفيتها . • هأنذى على استعداد ، .

وأوصد لارى الباب خلفه ، وعندما سلم المفتاح للرجل الجالس إلى المكتبة

حدهما معاً بنظرة مكر مقنع ، وكان من المستحيل على إيزابيل ألا تحس ما ظنه  
يهما من سوء .

قالت : « لا أظن أن ذلك الرجل العجوز يراهن كثيراً على بتولتي ، »

استقلا سيارة أجرة ( تاكسي ) إلى الرتز وتناولوا مشروباً . تحدثا في شئون  
شقي ، دون اضطرار ظاهر ، مثل صديقين قديمين يلتقيان كل يوم . وعلى الرغم  
من أن لاري كان صموتاً بطبعه ، فإن إيزابيل كانت فتاة ثائرة بمعين لا ينضب من  
الثرثرة والمهرج ، ونوت ألا تدع للصمت بينهما سبيلاً ينفذ منها إليهما ، بحيث  
يصبح من المسير معاودة الحديث بعد . لم تكن تقصد أن تجعل لاري يظن أنها  
تبرم به ، وألزمتهما كبرياتها أن تسلك سلوكاً لا يشتم منه (لاري) أنها قد أوديت  
وأنها غير سعيدة . وبعد برهة وجيزة اقترحت عليه أن يقفها في عربته إلى المنزل ،  
وخذ ما ترجلت أمام باب المنزل قالت له مرحة :

« لا تقس أنك ستتناول معنا الغداء غداً ، »

« كوني على ثقة ، وحياتك ، أتق لن أنسى ، »

وأصغته خدماً ليقبلها ثم مرقت داخل باب الخوخة (١) .

### ( ٥ )

وعند ما دخلت إيزابيل حجرة الاستقبال وجدت أن بعض الزائرين قد جاءوا  
لتناول الشاي . كان هناك سيدتان أمريكيتان قحيان في باريس ، حسناً الهندام ،  
وقد تحفت كل منهما بقلادة من اللؤلؤ حول جيدها ، وأساور من الماس حول  
معصمها ، وخواتم نفيسة غالية الثمن في أصبعها . وعلى الرغم من أن إحداهما كان

---

(١) باب في دمليز إذا فتح سمح بمرور المركبات .

شعرها مخضياً بالحناء الداكنة وشعر الأخرى ذهبياً بصورة غارقة للعادة ، فقد كانتا متشابهتين شهاً يدعو إلى العجب . وكان طلاء رموش أعينهما غزيراً عميقاً وشفاهما جرة (١) . بدهان واحد ، ووجنتهما منظاة بلون أحمر واحد وكان قوامها أهيف رشيماً . وقد احتفظتا ، بما تكبدتا من زهد مطلق ، بالتقاطيع الصافية الحادة . ولا يسمع سوى أن تدرك أن حياتها كانت صراعاً يائساً للحفاظ على سحرهما الداوى . وكان حديثهما لغواً وفي صوت مرتفع رنان ، دون توقف ولو لحظة واحدة ، وكانهما تخشيان ، إذا ما صمتتا لحظة ، أن الآلة سوف تتوقف ويتحطم البناء المصطنع — وقد كان كل ما فيهما مصطنعاً — ويذهب بدءاً . وكان بين الحاضرين أيضاً أمين سر من السفارة الأمريكية وهو دمك صوته ، لأنه لم يستطع أن يقول كلمة واحدة ، وكان رجل الدنيا الذي خرب الحياة والناس إلى أبعد حد . كما ضم الحفل أميراً رومانياً صغير الجسم أسمر اللون ، كله انحناءات وصغار وله عينان صغيرتان سوداوان تعشقان ، ووجهه أسمر اللون ، ولحيته حلقة جداً وكان دائم الحركة : يقفو هنا وهناك ليتناول قدحاً من الشاي ، أو يقدم طبقاً من الكمك ، أو يشعل سيجارة . كما كان أيضاً يكيل في غير ما حياء أو خجل ، للحاضرين ، أعظم عبارات المدح والإطراء . وكان يؤدي الحساب عن كل حفلات العشاء التي حضرها للأغراض التي يستهدفها للتعلق والتناق . ومن أجل حفلات العشاء التي كان يأمل أن يحضرها .

وكانت مسز برادلي وهي جالسة إلى المائدة — وقد ارتدت من الثياب ما يرضى مستر إليوت ، وكانت تلك الثياب أغفر نوعاً مما كانت تظن أنه ملائم لهذه المناسبة — كانت في هذا المظهر تؤدي واجبها بوصفها ربة الدار المضيفة بلطفها

(١) مصرقة .

المعهود ، ولكن في غير اكثرات ، نوعاً . أما ماذا كانت تظن بضيوف أخيها فأمر يمكنني أن أتخيله لحسب ، فلم أعرفها قط إلا بقدر ضئيل جدا . وكانت امرأة تطوى جوانحها على مكنونات سرها ، إذ لم تكن امرأة غبية ، ففي أثناء السنوات كلها التي عاشتها في العواصم الأجنبية قابلت عددا لا يحصى من الناس من جميع النحل والائل . وأظن أنها قد أحصتهم بنها . وذلك كافين حسب الأصول المرعية في البلدة الصغيرة في ولاية فرجينيا حيث ولدت وتربت . وأظن أنها كانت تستشعر التسلية واللهو في مراقبة مجنونهم ، ولا أعتقد أنها كانت تأخذ زهوم واستكبارهم مأخذ الجذ أكثر مما تأخذ ما يكابده شخصوص قصة تفرؤها من عناء وما يلقونه من آلام ، وهي تعلم من البدء ( وإلا لما قرأتها ) ، أنها سوف تقهي نهاية سعيدة . ولم يكن لباريس وروما وبكين أثر على الصفات الأمريكية فيها أكثر مما كان لكاثوليكية إليوت المخلصة على عقيدتها المشيخة المكيئة الشديدة ولكنها مناسبة وصالحة .

واقد بعثت إيزابل نسيات من الهواء البليل الطلق في ذلك الجو الفاسد ، بشبابها النضر ونظاراتها الفتية الحبيبة وحيويتها الجياشة الداقة . فقد جاءت تمشى في الأرض مرحا وكأنها ربة الجبال تخطر على الأرض في هالة من الشباب والرواء . فوثب الأمير الروماني واقفاً ليدفع مقعدا لها ، وتم له هذا بعد أن أتى كثيرا من الحركات بيديه وجسمه . أما السيدتان الأمريكيتان ، وعلى شفاهما عبارات بودية صاكة ، فقد طفقتا تحدجانها بالنظرات من هامة رأسها إلى أخمص قدميها ، وأحاطتا بتفاصيل ثيابها . ومن المحتفل أنهما شعرتا في أعماق قلوبهما بفضة الملح عندما طالعتما بشبابهما . وابقم الدبلوماسي الأمريكي لنفسه لاذرأى كيف أن إيزابل قد أظهرت زيفهما وهزالها . ولكن إيزابل ارتأت أنهما عظيمنتان معيانتان ، وأحبت ثيابهما الفاخرة واللالء النيفة . وتأكل قلبها

حددا لما هما عليه من أهمية ، وما لها من خبرة وتجربة بفنون الحياة . وعجبت كيف يتأتى لها دائماً إدراك هذه الكياسة الفائقة وتحقيق ذلك الظرف الرفيع . ولقد كان الرومان القمىء موجبا للهزء والسخرية طبعاً ، ولكنه كان هذباً رقيقاً نوعاً ، إذا لم يكن يقصد الأشياء الظريفة التي يتحدث بها فقد كان الإصغاء إليها مستجاباً . ولقد عاود الحاضرون حديثهم الذي قطعه دخولها ، وتحدث الجمع حديثاً مشرقاً مدعماً بالاعتناع إلى حد جعل حديثهم جديراً بالذكر ، واقنع المستمع إليه بأنه حديث العقل أو كاد أن يكونه . ولقد تحدثوا عن المآذب التي ذهبوا إليها وتلك التي سوف يذهبون إليها ، ثم خاضوا في حديث الفضول عما جرى مؤخراً من فضائح . وشرحوا أصدقاؤهم تشريحاً ومزقوماً إرباً وتناولوا بالحديث الأسماء الضخمة واحداً بعد الآخر .

وبدا من حديثهم أنهم يعرفون كل الناس ، وأنهم على بينة من جميع الأسرار تحدثوا حديثاً سريعاً ، وكاد يكون حديثهم في وقت واحد ، عن أحدث المسرحيات وأحدث صانع ثياب ، وأحدث مصور يرسم الأشخاص ، وعشيقة آخر رئيس وزراء . وجعل هذا الحديث المستفيض من يسمعهم يتحدثون يعتقد أنهم على علم بكل شاردة وواردة وأنصت ليزابل إلى هذه الأحاديث في اقتنان وحبور وبدت لها الأحاديث كلها مهذبة إلى حد يدعو إلى العجب والإعجاب ، إذ كانت هذه هي الحياة حقاً ، وملأتها بالإحساس بالنشوة لأنها في خضم الأحداث ، وكان هذا حقيقياً والوضع كاملاً تاماً . فالحجرة الفسيحة والبساط السافونيري<sup>(١)</sup> الذي يغطي أرضها ، والصور الجميلة على الجدران المغطاة بالخشب الفاخر ، والمقاعد ذات الفرز الدقيقة ، وقطع الأثاث المطعمة ، بالمادكتيري ، ،

(١) ضرب مشهور من الطنافس .

سواء أكانت خزانات ذات جوارير (١) ، أم موائد صغيرة سهلة الحمل والنقل من مكان إلى آخر ، كل قطعة منها جديرة بالعرض في متحف . واسترعت الحجره يجمعها وما اتسمت به من حسن الاختيار ، اقتياها بصورة لم تألفها من قبل ، وما ذلك إلا لأنها مازالت تحمل في ذنبا صورة حية للحجرة الصغيرة الرثة في الفندق ، والسرير الحديدى ، وذلك المقعد المتعب الذى جلس ( لارى ) فيه . هذه الحجره التى لم ير لارى أى عيب فيها . لقد كانت عاربه من الأثاث وكثيية وبنيضة فكانت ترتعش كل ما تذكرتها .

انقرط عقد الحفل وانصرف الحاضرون ، وبقيت إيزابل مع أمها .

شيع إليوت السيدتين السمجتين المملتين الملطختين بالطلاء والأصباغ ، وعند عودته قال : « عرفتما عندما استقر بهما المقام فى باريس لأول مرة . ولم أحلم أبدا أنهما سوف تبدوان كما فعلتا الليلة . إنها لصفة مذهلة ، قدرة نائنا على الموازنة . وبالجهد الجهد يمكنك الآن أن ترى أنهما أمريكيتان ومن الغرب (٢) بالأوسط علاوة على ذلك . »

رفعت مسز برادلى حاجبها . ودون أن تتلقى بينت شفة حدجه بنظرة لم يكن ليدرك مغزاها إلا من كان حاضر البديهة .

وتابع حديثه المشوب بالحدة والمطف مآ : « لا يمكن لأحد أن يقول ذلك عنك يا عزيزتى لوزا المكينة . مع أن جميع الفرص قد سنحت لك كما يعلم الله . »

جعلت مسز برادلى شفقتها .

( ٢ ) صغر فى الولايات المتحدة .

( ١ ) هى المعروفه باسم كومود

« إني أخشى أن أكون قد سببت لك خيبة أمل عزيزة ، يا إليوت ، ولكن لا صدقك القول بأنني لم أكن راضية عن تفدي كل الرضا كما أنا الآن .  
تمتم إليوت ، « إن كل الأذواق كاملة في الطبيعة .  
قالت إيزابل ، « أعتقد أنه أصبح لزاما على ابن أخبرك بأنني لم أعطه  
خطيبة لارى . »

صاح إليوت فائلا وقد نفذ صبره : « صه ، فإن ذلك سوف يلقى مأذبة الغذاء  
تلقى سأقيمها في غد . فكيف يتأتى لي الحصول على رجل غيره ، يحل محله بعد  
هذه الملاحظة العابرة ؟ »

« آه ، إنه قادم لتناول الغداء . »

« بعد أن فسخت خطبتك ؟ إن هذا ليبدو خارجا على التقاليد إلى الدرجة  
القصى . »

ضحكت إيزابل في استمراء وهي تركز نظراتها على إليوت ، لأنها كانت تدرك  
أن أمها قد ثبتت نظراتها عليها ولم تكن ترغب في أن تلتقي نظراتها بنظرات أمها .  
« لم نقشاجر . لقد ناقشنا الموضوع بعد ظهر اليوم ووصلنا إلى قرار بأننا قد  
ارتكبنا خطأ . فهو لا يريد العودة إلى أمريكا ، ويريد أن يبقى في باريس . كما  
أنه يتحدث عن الذهاب إلى اليونان . »

« وماذا يعني من وراء ذلك ؟ فلا يوجد مجتمع رفيع في أثينا ، يولي في  
الواقع ونفس الأمر لم أنظر قط بعين الاعتبار والتقدير إلى الفن الإغريقي .  
فبعض الأعمال الهلينية (١) ذات السحر المضمحل تستهوى القلوب إلى حد ما .

(١) الهليني : المتعلق بالتاريخ أو الثقافة أو الفنون اليونانية بعد الإسكندر الأكبر .



ولكن فيدياس (١) : لا ، لا .

قالت مسز برادلى ، د انظرى إلى يا إيزابيل .

استدارت إيزابيل وواجهت أمها وقد ارتسمت ابتسامة على شفيتها . ونظرت إليها مسز برادلى نظرة فاحصة ، ولكن كان كل ما قالت : د م . لم تكن الفتاة تبكى ، فقد رأت أنها كانت هادئة رابطة الجأش .

قال إليوت ، د أظن أنك قد أحنت صنعا بفسخ الخطبة ، يا إيزابيل . لقد كنت دائما متأهبا على أن أفيد من الموقف بقدر استطاع . ولكنى لم أكن أبدا متؤمنا بأنه زوج صالح فلم يكن فى الواقع ندا لك ، وسلوكه فى باريس دليل واضح على أنه لن يبلغ شأوا ما فى ميدان ما . وإنك بمالك من نظرات واتصالات يجب أن تهفو نفسك إلى ما هو أحسن من ذلك . وإنى لعلى يقين من أنك قد سلكت سلوكا واعيا .

ورمقت مسز برادلى ابتها بنظرة لم تخل من القلق .

د إنك لم تتخذى هذا القرار من أجلى ، يا إيزابيل ؟

هزت إيزابيل رأسها فى إصرار .

د لا ، يا حبيبتي ، فقد فعلت كل هذا مستوحية نداء عقلى .

( ٦ )

كنت قد عدت من الشرق وأقضى بعض الوقت فى لندن حينذاك . ومن المحتمل أن ذلك كان بعد أسبوعين من الحوادث التى ذكرتها ، عندما دعانى إليوت ذات صباح فى الهاتف . ولم يدهشنى سماع صوته ، لأنى علمت أن من عادته المجيء

( ١ ) نحات أنبى عاصر فى القرن الخامس قبل الميلاد .

إلى إنجلترا ليستمتع بنهاية الموسم ، وأخبرني أن مسز برادلي وإيزابل تهيان معه ، وأتى إذا ما أتيت إلى مسكنه في السادسة مساء لتناول كأس من الشراب فسوف تسران لرؤيتي . لقد كانوا طبعاً يقيمون في فندق كلارديج . وكنت في ذلك الوقت أقيم على مقربة منه ، ولنا فقد ذهبنا مشياً على الأقدام حتى بارك لين ، ثم سرت خلال الشوارع الهادئة ذات الجلال في حي « ماى فير » حتى وصلت الفندق . كان في جناحه المهود في الفندق ، وكانت جدران هذا الجناح مكسوة بالألواح الخشبية ذات اللون البنى التي تشبه صناديق السيجار ، ومؤتة بأثاثات الترف والنعم الهادى . كان بمفرده عندما دخلت . وكانت مسز برادلي وإيزابل قد ذهبتا بتبضعان ، وكان يتوقع عودتهما بين لحظة وأخرى . فأخبرني بأن إيزابل قد غسخت خطبتها مع لارى .

ولما كان إليوت ذا حساسة رومانية تقليدية عظيمة بالأسلوب الذى يقيمه الناس لتوفير أسباب الراحة لأنفسهم تحت ظروف خاصة ، فإن سلوك الشباب قد بلبل خاطره فإن لارى لم يقتصر على حضور مأدبة الغداء في اليوم التالى نفسه لفسخ الخطبة لحسب ، بل تصرف وكأن وضعه بينهم لم يتغير كان كالمهد به أيضاً ومصغياً ومرحاً في وقار ورسامة ، وعامل إيزابل بمطف الخدن نفسه الذى كان يعاملها به دائماً . فلم يبد أنه متكدر أو مزعج أو مثقل بالهموم ، كما لم يبد على إيزابل وهن أو قنور ، ولكنها كانت بادية السعادة تضحك بملء قلبها مرحة ، وتمزح مسرورة ؛ وكانها لم تتخذ لتوها حقاً خطوة حاسمة قاسية في حياتها . ولم يدرك إليوت شيئاً من هذا السلوك ولقد فهم من مقتطفات حديثهما التى التقطها أنهما لا يعترضان إلغاء أى موعد من المواعيد التى ضرباها من قبل . ولقد تحدث إلى أخته في هذا الشأن عندما سئلت له أول فرصة .

قال : « ليس هذا لائقاً . فلا يمكنهما التنقل في ربوع المدينة وكأنتما ما زالوا

خطيبين . ويجب على لارى أن يكون أكثر إحساسا بأصول اللياقة وقواعد  
المحبة وزيادة على هذا فإن ذلك يحطم فرص إيزابل التي تنتظرها . فإن فوذرنجهام  
الشاب الذى يعمل في السفارة البريطانية كلف بها كافا واضحا وله أموال طائلة ،  
فإننا ما عرف أن الجو خال له فلن أعجب إطلاقا إذا ما تقدم لها طالبا يدها .  
وأظن أنه من الواجب عليك التحدث إليهما في هذا الأمر .

د يا عزيزى ، إن إيزابل في العشرين من عمرها ولها وسائلها الخاصة التي  
تقول لك بها إن ذلك أمراً لا يعينك دون أن تشرك بالإهانة . وكنت أجد دائماً  
أن من الصعوبة بمكان أن أتعامل معها بنجاح في أمر من الأمور .

د إذن قد نشأتها تنشئة رديئة تماما ، يا لويزا ، وزيادة على هذا فإنه  
أمر يخلصك .

د تلك قطة سوف تختلف فيها معها بالتأكيد .

د إنك تختبرين قوة صبرى ، يا لويزا .

د يا عزيزى المسكين إليوت ، لو كان لك ابنة يافعة وقارتها بئس أو ظي  
أو بوعلى شرس حرون لعرفت أن هذا ألبين منها عريكة وأسلس قياداً . أما  
الحديث عما يختلج بفؤادها أو يجرى بين ضلوعها — حسناً ، فن الخبير لك جداً  
أن تظاهر بأنك المعجوز الأبله ، البسيط ، الساذج كما كانت تراك كذلك دائماً .

د ولكنك قد بحث الأمر معها يا إيزابل ؟

د لقد حاولت ذلك . ولكنها سخرت منى وقالت لى إنه فى الحقيقة ليس لديها  
شئ . قوله .

د هل هى مكتتبه منقبضة الرجاء ؟

.. لا أرى ركل ما أعرفه أنها تأكل جيداً وتنام نوما هادئاً  
كما ينام الطفل ..

.. حسناً ، كوني على ثقة بما أقول لك . إذا ما تركتهما على هذه الحال فسوف  
ينطلقان في يوم من هذه الأيام التي يلتقيان فيها ويتزوجان دون أن يتفوهما بكلمة  
عن هذا الموضوع لأحد ، و... .

قاطعة مسز برادلي : « كني يا إيلوت . إنني لأهتم لأرائك عن القيم الاجتماعية  
والأخلاقية عن المعاشرات الجنسية المتشوشة ، .

في هذه الفترة وضع إيلوت خطة من شأنها أن تعوق علاقات إيزابل المتصلة  
مع لاري ، وكانت هذه الخطة تقنافر وإحساسه بما هو لائق وملائم . كان الموسم  
في باريس كاد يبلغ نهايته ، وأخذ جميع الناس الممتازين يتأهبون للذهاب إلى  
قصور أسلافهم في تورين ، أو أنجو أو بريتانى لقضاء بقية الصيف . وكان إيلوت  
ينذهب إلى لندن عادة في نهاية شهر يونيو ، ولكن لما كان شعور الأسرة عنده  
قريباً ، وجه لأخته وإيزابل مخلصاً ، فقد كان مستعداً لأن يضحى بنفسه ويبقى  
في باريس إذا ما أرادت ذلك ، عندما لا يبقى بها أحد من الناس ذوى المسكاة .  
ولكنه ألقى نفسه الآن في موقف مناسب ليتمكن من أن يفعل ما هو الخير  
للآخرين وفي الوقت نفسه ما يلائمه ويروق له . فاقترح على إيزابل أن ينهبوا هم  
الثلاثة ، إلى لندن فوراً ، حيث كان الموسم في مهبان نشاطه وحيث ستجد  
إيزابل أن المصالح الجديدة والصحاب الجدد ما يصرفها عن حيرتها ويقبل عثرتها  
وينسيها تعاسها . وحسبأروت الصحف فإن الأخصائي العظيم في مرض مسز برادلي  
كان حيثنذ في العاصمة البريطانية ، وسوف تحفزهم الرغبة الشديدة في استشارته  
على التعجيل بالرحيل والتغلب على كل رغبة في البقاء في باريس قد تكون عند

إيزابيل ووافقت مسز برادلي على الاقتراح فقد كانت إيزابيل تحيرها وتبليبل خاطرها ولم تستطع أن تجزم بما إذا كانت هي حقاً سعيدة كما بدت أو أنها موجهة غاضبة كسيرة القلب وتضع قناعاً خفيفاً على وجهها تخفي وراءه مشاعرها الجريئة . ولم يكن بوسع مسز برادلي سوى أن تنزل عند رأى إليوت من أن إيزابيل سوف تفيد كثيراً من مشاهدتها لأناس غير الناس وأماكن غير الأماكن التي في باريس .

وانهمك إليوت في حديث تليفوني ، وكانت إيزابيل تقضى اليوم مع لاري في فرسايل فلما عادت إلى المنزل أمكنه أن ينهى إليها بأنه حدد موعداً لأمها لمقابلة طبيب نابه الذكر ، بعيد الصيت في مدى ثلاثة أيام من ذلك الوقت ، وأنه قد حجز جناحاً في فندق كلاردج ، وأنهم سوف يغادرون باريس بعد يومين وكانت مسز برادلي ترقب ابتها وهي تلتقي هذا النبأ الذي أنهاه إليها مستر إليوت في شيء من الأناقة والاختيال ، ولكنها لم تحرك ساكناً .

صاحت في عنفها المعهود واحتدامها المألوف وهي مبهورة الأنفاس أو كلدت : « آه ، يا عزيزتي ، إنني مسرورة جداً لأنك سوف تعرضين نفسك على ذلك الطبيب وطبعاً ، يجب ألا تغفلت منك هذه الفرصة وسوف تكون زيارة لندن عظيمة كل العظمة . كم من الزمن سنبقي هناك ؟ » .

قال إليوت : « سوف تكون عودتنا إلى باريس عديمة النفع والجدوى . ففي مدى أسبوع لن يبني شخص واحد هناك وإنني أريدك على الإقامة معي في فندق كلاردج — بقية الموسم . فداًئماً تقام بعض حفلات راقصة طيبة في شهر يوليو ، وطبعاً هناك ويمبلدون (١) ثم جوودود وكلوز ، وإنني لواقع من أن

(١) حيث قام مباريات التنس المشهورة .

آل النجم سوف يسرون لاستضافتنا على ظهر يختهم إلى كلوز . كما أن آل باتسكس دائما يقيمون حفلا كبيرا لآل جود وود . .  
وبدا على إيزابل السرور واطمأنت مسر برادلي وهدأت . وبدأ الأمر وكأنها لا تعطى لارى مكانا ما من تفكيرها .

كان إلبوت قد فرغ من سرد كل هذا على مسامعي عندما دخلت الام وابنتها . وكانت مسر برادلي أنجل بما كانت من قبل ، وأكثر شجوبا ، كانت بادية التعب ومعتلة الصحة . ولكن إيزابل كانت متوردة كزهرة متفتحة . فلونها الراهي . وشعرها الفاحم الأنيك وعيناها البراقان العسلتان ، وأديم بشرتها الصافية ، كانت ترك انطباعها القوي العميق في النفس عن الشباب والبهجة الغامرة الكاتلة . في حقيقة الحياة لناتها حتى إنك لتشعر أنك تميل ، إلى حد ما ، إلى الضحك طربا وسرورا : ولقد أعطتني فكرة سخيصة بعض السخف عن ثمرة الكثرى الذهبية المفرطة في الحلاوة وقد نضجت وحن قفافها ، وهي تنادي من يأكلها . ولقد أشعت الدفء بحيث تظن أنك لو مدت يديك لامسكك أن تحس الراحة التي تبعثها في جنبات المسكان وبدت أطول قامة بما كنت قد رأيتها آخر مرة ، سواء لأنها كانت تلبس حذاء ذا كعب مرتفع أو لأن صانع ثيابها حاك لها رداءها بحيث جعله يخفى ربالة شبابها . . لأدوى وكانت تخطر خطرات سهلة رشيقة هي خطرات الفتاة التي مارست الرياضة البدنية في الحلاء منذ طفولتها وخلاصة القول إنها كانت امرأة شابة جذابة جداً ولو كنت مكان أمها لاقتنعت بأن الوقت قد آن لزوجها .

ولما كان يسرني أن أرد بعض العطف الذي لقيته من مسر برادلي في شيكاغو . فقد دعوتهم هم الثلاثة لمشاهدة مسرحية معي ذات مساء ، وأعددت العدة لإقامة حفل غداء لهم .

قال إليوت ، ، إنه لمن الحكمة والعقل من جانبك أن تنضوي تحت لواء  
الصحاب فوراً يا زميلي العزيز فقد أذعت نبأ مقدمك بين أصدقائي ، وأنتك تقيم  
بين ظهراينا ، وأظن أنه في غضون يوم أو يومين سوف نكون قد ارتبطنا  
بمواعيد لبقية الموسم . .

فهمت من ذلك أن إليوت يرمى إن أنه في ذلك الوقت لن يكون لديهم وقت  
لامثالي ، فضحكت ، ورماني إليوت بنظرة تبينت فيها لونا معينا من التعالي .

، ولكنك طبعاً سوف تجدنا عادة هنا حوالى الساعة السادسة وسوف يكون  
من دواعي السرور لنا أن نراك . ، قال ذلك فردة ولطف ، ولكن بقصد واضح  
لوضعي بوصني مؤلفاً في مكاني المتواضع .

ولكن الدودة تتحرك أحياناً (١) .

قلت : ، يجب أن تحاول الاتصال بسانت أو لفردس (٢) قد نمتي إن أنهم  
يريدون التخلص من صورة كاندرايئة سالسجورى التي رسمها كونستابل (٣) . .

، لا أريد شراء صور في الوقت الحاضر . .

، أعرف ذلك . ولكننى ظننت أنك ربما تنازل عنها لهم ،

قالنى في عيني إليوت بريق قوى عنيف .

، يا صديقى العزيز ، إن الإنجليز شعب عظيم ولكن لم تواتهم القدرة يوماً

---

(١) قول ماثور فى الإنجليزية ، يعنى أن أشد الناس حلياً وبواضاً لا بد وأن يقاوم إذا  
سلك ظلمه . .

(٢) تجار تحف . (٣) جون كونستابل (١٧٧٦ - ١٨٢٧) كان زرار أعظم  
مصوريين إنجليزين الطبيعة والريف فى القرن التاسع عشر .

( م ٩ حد الوسى )

على التصوير ، ولن تكون لم هذه القدرة في يوم ما : ولا أهتم بالمدرسة (١)  
الإنجليزية . .

( ٧ )

وفي الأسابيع القليلة التالية لم أر إليوت أو أقاربه إلا لماما . لقد أكرم  
ضيافتهم وأولام شرفاً عظيماً . فقد صحبهم في نهاية أسبوع إلى منزل أعظم في سكس  
وفي نهاية أسبوع آخر إلى منزل أعظم وأكبر في مقاطعة ولتشاير . وذهب معهم إلى  
الأوبرا حيث أجلسهم في المقصورة الملكية بوصفهم ضيوفاً على أميرة صغرى من  
بيت وندسور ، وذهب معهم إلى مآدب الغداء والعشاء التي يقيمها العظام . كما  
ذهبت إيزابل إلى حفلات راقصة عديدة . واستقبل في فندق كلاردج سفلة من  
الضيوف الذين ظهرت أسماؤهم في عرض جميل على صفحات الجرائد في اليوم التالي  
وأولم مآدب في سيرو والسفارة . وفي الواقع ، فإنه فعل كل ما هو صواب .  
وكان في الإمكان أن تطلق إيزابل لسانها من عقاله فتثرثر ما شاءت لها الثرثرة ما لم  
يهر بصرها ما زود به الحفلات التي أقامها من زهى ، وما أضنى عليها من بهاء ،  
ليوفر لها كل أسباب السرور والطرب . كان بمقدور إليوت أن يتملق نفسه بأنه  
ما كابد ذلك كله إلا بدافع مجرد عن كل أثره ، وعاطل من كل أفانية ، ولكنه  
ابتغاء صرف ذهن إيزابل عن الوقوع في غرام منكود ، ولكنه اعتقدت أنه  
كان يرضى غروره كثيراً جداً عند مما يجعل أخته ترمى بعين رأسها كم هو على  
اتصال تام بكل ما هو عصري مهذب وشهير بارع . لقد كان مضيئاً جديراً

---

(١) تعنى كلمة مدرسة أكثر من معنى . ولكن لا يوجد حد واضح بين واحد وآخر .  
وبمعناها الواسع لا تعنى أكثر من أن العين الحيرة يمكنها أن تكشف البله الأصيل التي أبدعت  
فيه سورة ما دون القدرة على تحقيق شخصية الفنان الذي صورها .



بالإعجاب ، وكان يسعدده ويسره أن يظهر فطنته الفنية (١) .

حضرت مآدبة أو اثنين من المآدب التي أولها ، وبين الفينة والفينة كنت أزوره في كلارديج في الساعة السادسة فكنبتعأجد إيزابيل محاطة بالشباب المشوق والقوام المفتول السواعد ، الطويل العاد ، الرفيع النجاد ، وقد ارتدوا الثياب الخفيفة واللاذين كانوا من لواء الحرس أو كانوا من الشباب الصبوح في ثياب أقل جمالا ، جلدوا من وزارا الخارجية . ولقد كان في إحدى هذه المناسبات أن اتحت بي جانبا .

قالت : . أريد أن أسألك بعض الشيء . هل تذكر ذلك المساء عند ما ذهبنا إلى غزون المقابير وتناولنا القهوة الثلجة مخلوطة بماء الصودا ( أيس كريم صودا ) ، ؟  
- تماما .

• لقد كنت ظريفاً ومعيناً آتئذ . فهلا تكلمت أن تكون الظريف المعين ثانية ، ؟  
• سأبدل قصارى جهدي .

• إنني أبنى أن أتحدث إليك في بعض شأني . فهل في الإمكان أن نتناول الغداء يوماً ما ، ؟

• في أي يوم تحبين ، ؟

• مكان هادي .

---

(١) القراة الفنية : حب الفنون .

« ما رأيك في أن نستقل السيارة إلى هامبتون كورت وتتغذى هناك ؟ سوف تكون الحدائق في أجهى حلة آتذ ويمكنك مشاهدة سير الملكة إليزابث . »

راقبنا الفسكرة وحددنا يوماً ولكن عند ما حان الموعد انعكس الطقس الذي ظل جميلاً ودافئاً ، وتبدت السماء بسحب داكنة وأمطرت طللاً (١) . فصعدت إليها وسألتها عما إذا كانت تفضل تناول غداها في المدينة .

« لن تتمكن من الجلوس في الحدائق ، وستكون الصور من الظلام بحيث لن ترى شيئاً . »

« لقد جلست في حدائق كثيرة ، وسئمت مشاهدة أعمال قدامى الفنانين . دعنا نذهب على أية حال من الأحوال . »  
« حسناً . »

صحبنا وانطلقت بنا السيارة . وكنت أعرف فندقاً يمكن أن نتناول فيه وجبتنا باعتدال وقسط . فذهبنا مباشرة إلى هناك . وفي أثناء الطريق تحدثت إليزابث بما عهد فيها من حيوية مألوفة ، عن المآدب التي حضرتها ، والناس الذين قابلتهم هناك . لقد استمعت ، ولكن تعليقاتها على المعارف العديدة ألفت في روعي أنها ذات حصافة ودعاء ، وأن لها عيناً نافذة لكل ما هو سخيف أو محال . ولقد حال للطقس الرديء دون مجيء الزائرين ، وكنا بمفردنا في قاعة الطعام ، وكان هذا الفندق متخصصاً في الأطعمة الإنجليزية البسيطة فتناولنا شريحة من بخذ الصان الممتاز مع البازلاء الخضراء والبطاطس الطازجة . تلتها فطيرة تفاح في صحن غائر صلواها قشدة دوفشاير ، وكل ذلك ، مع طيبة (٢) من المزر (٣) الأيض ، وكوكتو جيدة

(١) الرقاد

(٢) قذح كبير

(٣) شراب كاجنة

غذاء ممتازة . وعند ما فرغنا من طعامنا اقترحت عليها أن ندخل في حجرة قهوة  
القلوية حيث كانت توجد المذارع (١) ، وحيث كنا الجلوس في راحة ودعة .  
لقد كان البرد قارصاً هناك . ولكن كانت النار معدة فأشعلتها بثقاب من عندي  
ونجست النار الحجرة القفرة أكثر أنساً .

قلت . . . لقد اجتمعنا ، فخيرني الآن بما تريدني أن نتحدثي به . إلى . .  
ضحكت ضحكة مكتومة وقالت : . إنه الموضوع نفسه الذي حدثتلك عنه في المرة  
السابقة . إنه لارى . .

هكذا حدثت . .

أنت تعلم أننا قد فسخنا خطبتنا . .

لقد أخبرني بذلك إليوت . .

إن أمي تشعر بالارتياح ، وهو ( إليوت ) مسرور . .

تريث لحظة ثم عادت إلى الكلام عما جرى بينها وبين لارى من حديث قد  
بذلك كل جهدي لأطلع عليه القارى بأمانة وإخلاص . وقد يندهش القارى  
لأنها اختارت شخصاً معرفتها به ضئيلة جداً لتخبره الكثير جداً . فلا أظن أتى  
قد رأيتها من المرات ما يزيد على عدد أصابع اليدين ، ثم باستثناء تلك المرة التي  
ذهبنا فيها إلى مخزن الأدوية (٢) لم أقابلها وحيدة إطلاقاً . لم يدهشني ذلك لسبب واحد  
كما سيقول لك أى كاتب ، هو إن الناس يقولون ، بكل تأكيد ، لكاتب أشياء  
لا يوحون بها الآخرون ولا أدري لذلك سبباً سوى أنهم بعد أن يقرأوا له

(١) جمع مندرع وهو كرسي كبير ذو ستادتين :

(٢) في الولايات المتحدة الأمريكية يبيع مخزن الأدوية غير الأدوية مئات الأشياء مثل  
لمرش الأسنان والمعاجين الخاصة بها وشهيرات الحلاقة والأيس كريم ( القعدة المطلوبة )

كتاباً أو اثنين يشعرون بأنهم على صلة وثيقة خاصة به ، أو لأنهم يدرمون (١) أنفسهم وعندما يرون أنفسهم وكأنهم شخص في رواية يغدون على استعداد ليكونوا صرحاء معه كما يتصورون أن الشخص الذي يخلقها صريحة معه أيضاً ، وأعتقد أن إيزابل كانت تشعر بأني أحببتها هي ولاري ، وأن شباهما قد آثار إحاسي وشعوري ، وأتق كنب أشاركهما المحنة التي يجتازانها ، ولم تتوقع أن تجد المستمع العطوف في إليوت الذي لم يكن ليقلق نفسه مع شاب ازدرى أعظم فرصة أتيت لشاب ليدخل المجتمع الرفيع من أوسع أبوابه . كما لم تستطيع أمها عديد العون لما فقدت مسز برادلي تعتق مبادئ سامية وعلى فهم وإدراك . واقد أكد لها إدراكها وفهمها أنه إذا ما أراد الإنسان أن ينجح في الحياة فعليه أن يتقبل تقايدها ولا يفعل ما فعله كل شخص آخر ويدل دلالة واضحة على التقليل والتلون . كما حملتها مبادئها السامية على الإيمان بأنه فرض على الرجل أن يزاوّل عملاً في مهنة أو حرفة حيث تكون له بالجهد والسبق والابتكار فيها فرصة كسب مال كاف ليعول زوجته وأسرته في مستوى يتلاءم ومنزله . ويتيح لأبنائه تربية تمكنهم عند الوصول إلى سن الرشد من أن يكسبوا عيشاً شريفاً ، وتترك عند مماته أرملة مزودة بكل حاجات الحياة .

كانت إيزابل ذات ذاكرة قوية حفر فيها توالي المناقشات المتعددة أثراً عميقاً فأصنيت صامتا حتى فرغت من حديثها . وقد توقفت مرة عن الحديث لتسألني سؤالا . « من كان رايسدل ؟ »

رايسدل ؟ لقد كان مصوراً هولنديا يرسم المناظر الخلوية . ولكن ماذا

---

(١) يدرم أو يصرح بجمل على نسق مسرحي

تسألين ؟ .  
أخبرتني أن لارى ذكره في حديثه فقد قال إن رايسدل على الأقل قد وجد  
إجابات عن الأسئلة التي كان يسألها ، وأعدت على إجابته الهازلة عندما  
استفسرت عن يكون .

« ماذا يعني ، على ما تظن ؟ »

لقد أوحى إلي بالإجابة .

« هل أنت على يقين من أنه لم يقل رايسبروك ؟ »

« من المحتمل أنه فعل ، ومن كان هذا أيضا ؟ »

« كان متصوفا فلمنكيا عاش في القرن الرابع عشر . »

« قالت وقد خاب فالها ، آه . »

لم يكن ذلك يعني شيئاً لها ، ولكنه كان يعني شيئاً لي . فقد كانت هذه هي  
الدلالة الأولى التي تشير إلى الاتجاه الجديد الذي اتخذته تفكير لارى ، بينما قد  
انطلقت قدماً في رواية قصتها . فعلى الرغم من أنني كنت لا أزال أصغى في اقتناء  
واهتمام ، فقد انشغل به من عقلي بالاحتمالات التي قد أفضحت عنها إشارته إلى  
هؤلاء الأعلام . ولم أعلق اهتماماً كبيراً على ذلك فربما يكون قد ذكر هذا المعلم  
الغريب ليثير نقطة جدال ، ومن المحتمل أيضاً أن يكون هذا الذكر ذا مغزى وأهمية  
فاتت على إيرابل . فعند ما أجاب عن سؤالها بقوله رايسبروك كان مجرد زميل لم  
تح له فرصة التعرف عليه في الكلية كان من الواضح البين أنه فعل ذلك ليصرفها  
عن الموضوع .

وعند ما ختمت حديثها سألت ، « ماذا تفهم من ذلك كله ، ؟ »

توقفت هنيهة قبل أن أجيب .

« هل تذكرين قوله بأنه سوف يذهب ليتكلم ؟ فإذا كان ما يقوله لك هو الصدق فإن تسكمه يعنى أنه يتضمن بعض الأعمال العنيفة جداً ، .

« إنى واثقة من أنه يقول الصدق . ولكن ألا ترى أنه إذا ما كان قد بذل مثل هذا الجهد الشاق فى أى لون من ألوان العمل المنتج لتوفر له معاش لائق ، ؟

« يوجد كثير من الناس ذوو تكوين خلقى غريب . وهناك مجرمون يشتغلون كالسمور (١) لتدبير خطط تهوؤهم إلى السجن الذى يكادون لا يغادرونه حتى يعودوا إليه ثانية وثالثة ورابعة ولو بذلوا مثل هذا الجهد وهذه المهارة وسعة الحيلة والصبر فى عمل شريف ، لأمكنهم أن يجنوا من وراء ذلك مالا طائلا ولتربوا فى دست الوظائف الهامة ولكن هكذا جبلوا على الجريمة ، .

« فهمت : : « إن لارى مكين . سوف لا تعرض على أنه يدرس اللغة الإغريقية القديمة ليدبر خطة سطو على مصرف ، .

ضحكت أيضاً .

« لا ، سوف لا أقول ذلك ؛ ولكن ما أحاول قوله هو أن هناك رجالا يتسلط عليهم حافز قوى جداً يستحثهم على فعل شئ معين لا يمكنهم إلا أن يفعلوه ، فيتحتم عليهم فعله وهم على استعداد للتضحية بكل شئ لإرضاء تلهفهم إليه ، .

« حتى الناس الذين يحبونهم ،

« آه ، نعم . .

(١) حيوان يرمانى تصيد من جهده بحرف وهـ .

« أليس هذا يبلغ مبلغ الأثرة الخالصة ويزيد ؟ »

« اتهمت قائلاً : « لأدرى » .

« ما هي الفائدة التي يمكن أن يجنيها لارى من دراسته للغات القديمة الميتة ؟ »

« لدى بعض الناس رغبة منزهة عن الغرض في المعرفة وهي ليست رغبة

« خيبيية . »

« ولكن ، ما فائدة المعرفة إذا لم نستخدمها في شيء . ؟ »

« ربما يكون مزماً استخداماً ، وربما تكون المعرفة المجردة فيها الرضا

الكافي ، كما هو الحال عند الفنان الذي يجد رضا كافياً في إنتاج عمل فني . وربما

يكون ذلك من جانبه خطوة فقط نحو شيء أسى وأعظم . »

« إذا كان ينشد المعرفة فلماذا لم يدخل كلية عند ما عاد من الحرب ؟ وكان

« هذا ما أرادته مستر ولسن وأى على عمله . »

« لقد تحدثت إليه عن ذلك في شيكاغو . إن الدرجة الجامعية ليست بذات

فائدة له . وإن هسة (١) تلوح بصفحة خيالي تشير إلى أن لديه فكرة محددة عما

أرادته وأحس أنه ليس بمقدوره أن يحصل عليها أو يحققها في الجامعة . فأنت

تعرفين أن في الدراسة يوجد الذئب المنفرد كما يوجد الذئب الذي يسير مع القطيع

وأظن أن لارى أحد هؤلاء الذين لا يسلكون إلا طريقهم الخاصة بهم . »

« لقد سألته ذات مرة إذا ما كان يبنى أن يكتب . فضحك وقال إنه ليس

« لديه شيء يكتب عنه . »

(١) فكرة غامضة لم تأيد أو تمضح بهد .

أبقت قائلاً : « هذا السبب غير المقنع إطلاقاً أسمة لأول مرة عن الإحجام  
عن الكتابة . »

أبدت إيزابل بحركاتها ما يدل على نفاذ صبرها . فلم تكن بحال من الأحوال  
في مزاج يسمح لها بتقبل أخذ المزاج .

« إن ما لا يمكنك إدراكه هو لماذا سلك هذا السبيل ، فقبل الحرب كانت  
حاله مثل حال أي شاب آخر . وسوف لا تصدق أنه لاعب تنس مجيد ولاعب  
جولف لا بأس به وقد اعتاد أن يمارس كل ما يمارسه بقية الناس . لقد كان شخصية  
سوية في صباه ، ولم يكن من سبب ما يدعو إلى الظن بأنه لن يكون رجلاً سويًا  
كاملاً أيضاً . وعلى كل حال فأنت كاتب رواية وفي إمكانك تفسير ذلك . »

« من عساني أن أكون حتى أستطيع تفسير كل التعقيدات في الطبيعة  
الإنسانية ؟ »

قالت وهي لا تعير ما قلت التفاتاً : « هذا هو الأمر الذي من أجله أردت  
أن أتحدث إليك اليوم . »

« هل أنت سعيدة ؟ »

« لا ، لست غير سعيدة تماماً . عند ما لا يكون لاري في الموضوع أشعر  
أنني على خير حال . إنني أشعر بالضعف عند ما أكون معه . والآن أعاني لونا من  
الوجع المستمر ، يشبه التصلب الذي يتأب شخصاً عند ما يركب جواداً لمدة  
طويلة بعد أن يكون قد انقطع عن الركوب شهوراً ، إنه ليس بالألم كما أنه غير  
مريح إطلاقاً . ولكنني أحسه وسوف أتقبل عليه تماماً إنني أمقت فكرة أن  
لاري قد زج بنفسه في هذا المأزق . »



« ربما لا يزوج نفسه في مازق ما . إن الطريق الذي بدأ السير فيه طريق طويل وعصر ، ولكن من الجائز أنه في نهاية هذا الطريق قد يجد ضالته . »

« وما ضالته التي يبحث عنها ؟ »

« ألم تخاطر لك على بال ؟ يبدو لي أنه فيما قال لك قد أوضحها كل الوضوح . إنها الله . »

صاحت : « الله ! ، ولكنها كانت صيحة الدهشة التي لاتصدق . إن استمالنا للكلمة نفسها ، ولكن بمعنى مختلف ، لما أثر مضحك إلى حد جعلنا نضحك على زعمنا . ولكن سرعان ما عادت إيزابل إلى جسدها ثانية وشعرت أن شيئاً شبيها بالخوف يتملك اتجاهها كله . « ما الذي يجعلك بحق السماء تظن ذلك ؟ »

« إنه مجرد تخمين ولكنك سألتني عما أرى بوصفي كاتب رواية ، ولسوء الطالع فأنت لاتعلمين أية تجربة قد خرج بها من الحرب وأثرت عليه التأثير العميق . إن شخصياً أظن أنه قد تلقى صدمة مفاجئة لم يكن قد أعد نفسه لها . وإن أقرح عليك أنه مها يكن هذا الذي حدث للاروى فقد ملأه بإحساس بسرعة زوال الحياة وبهلع يؤكده أن هناك عوضاً عما يلقي الإنسان من خطيئة وما يقارف من أسى في هذه الحياة الدنيا . »

« ولم أستطع أن أدرك أن إيزابل لم ترحب بالاتجاه الذي وجهت نحوه الحديث فقد أخرجها وأخرجها . »

« ليس هذا كله سقياً عليلاً ؟ فالإنسان يجب أن يتقبل الحياة على علاتها فإذا ما كنا أحماء . وجب علينا بكل تأكيد أن نفيد من الحياة كل الفائدة . »

« من المحتمل أن تكوني على صواب . »

« لا ادعى أنني سوى فتاة سوية عادية تماماً وأريد أن أستمتع بالحياة . »

« يبدو أن هوة سحيقة من التخالف التام في السجايا والطباع كانت تفصلكما  
عن بعضكما البعض . ومن الأفضل أن تكشفتم لكما الحقيقة قبل الزواج . . »  
« إنى أريد أن أتزوج وأنجب أطفالا وأعيش . . . »

لقاطعتها مبتسما : « على هذه الحال من الحياة التى سرت العناية الإلهية  
الرحيمة إذ ومنتك فيها . »

« حسنا ، فلا يوجد ضرر فى ذلك . هل يوجد ؟ إنما حال سارة جدا وإنى  
لقائمة بها جدا . . »

« إنكما تشبهان صديقين يريدان أن يقضيا العطلة معا ، ولكن أحدهما يريد  
قضاء عطلته فى تسانج جبال جرينلند الثلجية والآخر يريد أن يصطاد السمك من  
شاطئ الهند المرجاني ، ومن الواضح أن هذا لا ينتهى إلى شئ . . »

« وعلى أية حال فربما حصلت على معطف مصنوع من جلد العييل (١) الذى  
يميش فى جبال جرينلند الثلجية ، وأظن أنه لموضع شك كبير أن نعرض على سمك  
من شاطئ الهند المرجاني . . »

« سنعيش ونرى ، »

فألت وهى تعبس قليلا : « ماذا تقول ذلك ؟ إنك تبدو طويل الوقت  
وكأنك تعاني لونا من التحفظ الذهني . وطبعما فإنى أعرف أنى لا أقوم بدور  
البطلة فى هذا . فإن لارى يضطلع بهذه البطولة فهو المثالى ، وهو الحالم الذى يرى  
حلما جميلا ، وحتى إذا لم يتحقق الحلم فإنه لما يثير ويبعث النشوة فى النفس أن نحلم  
به ، لقد ولدت لأؤدى الدور الشاق المأجور العملى . ليس الإدراك أو الفهم عملا

( ١ ) حيوان بحرى من الرعنفات .

تعطفيا لإطلاقا . هل هو ؟ ولكن ، لقد نسيت أنى أنا الذى استدفع الثمن . وسوف ينطلق لارى متعلقاً بسحب الجسد ، وكل ما سيتبقى لى السير محاولة أن الحق بالركب وأن أعيش فى حدود دخلى . وأنا أريد أن أعيش الحياة . ،

« إن هذا كله لا ينيب عن بالى . فبئذ سنوات مضت ، وعند ما كنت شاباً ، عرفت شخصاً يمتن الطب ولم يكن طبيباً رديئاً أيضاً ، ولكنه لم يتدرب ولم يمارس عمله . أمضى سنوات يبحث وينقب فى مكتبة المتحف البريطانى وبعد طول الزمن أخرج كتاباً عليا وفلسفيا كاذباً لم يقرأه أحد واضطر أن ينشره على نفقته الخاصة فى النهاية . لقد كتب أربعة أو خمسة من هذه الكتب قبل موته وكانت كلها عديمة القيمة تماماً . وكان له إن أراد أن يعمل فى الجيش ولكن لم يكن لديه من المال ما يعينه على تلتى العلم فى ساند هرست فاضطر إلى الانخراط فى سلك الجندية وقتل فى الحرب . وكان له ابنة أيضاً كانت بارعة الحسن ولقد قتلت بها هوناً ما . واحدة التمثيل ولكنها لم تكن موهوبة فطفقت تجوب الأرياف تودى أدواراً صغيرة فى فرق من الدرجة الثانية براتب حقير . أما زوجه فبعد سنوات عجماف قفرة وبعد الكدح سعياً على الرزق تدمت صحتها ، وأرغمت الفتاة على العودة إلى البيت لترضاها وتحمل الكدح عن أمها التى لم يعد لها من القوة ما يساعدها عليه . نفوس مضناة خاوية لا تستهدف غرضاً ولا تسير إلى غاية . وعندما يتككب الإنسان السبيل المطروق يصبح مصيره فى يد القدر ، لأن كثيرين يدعون وقليلين يختارون (١) »

« إن أبى وعمى إبيوت موافقان على ما فعلت فهل أنت موافق أيضاً ؟ »

« وما أهمية موافقتى لك يا هوزيقى ؟ فانى أكاد أكون غريباً عنكم . »

« إنى أعتبرك مراقباً مزها عن الغرض ، قالت والابتسامة العذبة تشرق بين شفيتها . « إنى أطمح فى الحصول على موافقتك . فأنت تعتقد أنى قد فعلت الصواب . ألا تعتقد ذلك ؟ »

قلت وأنا واثق ، بين بين ، أنها ان تلاحظ أقل اختلاف يحدث فى إجابتى :  
« أظن أنك قد أحسنت إلى نفسك . »

« إذن ، لماذا يكون لى ضمير معتل ؟ »

« هل لك ؟ »

أومات برأسها والابتسامة ما زالت على شفيتها وأمكنها ابتسامة أسيفة .

« إنى أعلم أنه حسن الذوق فقط . إنى أدرك أن كل شخص عاقل ، عادل موافق على أنى فعلت الشيء الوحيد الممكن . فمن جميع وجهات النظر العلمية ، ومن وجهة نظر الذوق والأدب ، ومن وجهة نظر ما هو صواب وما هو خطأ فإنى قد فعلت ما كان ينبغى لى أن أفعله ، ومع ذلك فى قرارة نفسى يحتج بى إحساس قلق بأنى لو كنت أفضل مما أنا عليه ، ولو كنت أكثر إخلاصاً وتحرراً من الغرض ، ولو كنت أكثر إثارة ، ولو كنت أنبل مما أنا عليه الآن لتزوجت من لارى وعشت العيشة التى يعيشها ولو أتى أحبته حباً كافياً لكفانى حبه عن الدنيا وما فيها . »

« يمكنك التعبير عنه عكساً فتقولى لو أنه أحبك حباً لما تردد فى أن يفعل ما أردت . »

« لقد قلت ذلك لنفسى أيضاً . ولكن لا بد مما ليس منه بد . فأنى أعتقد أنه من طبيعة المرأة أكثر مما هو فى طبيعة الرجل أن تمنحى بنفسها من أجله لا أن

يضعني من أجلها بنفسه . . وضجرت سرّاً : قصة راغوث (١) والحنطة القريبة  
وكل ما هو من هذا القبيل . .  
لماذا لا تغامرین ؟

ولقد كنا نتحدث بسهولة وكأنا نخوض حديثاً عابراً عن أناس يعرفهم كل  
حنا ؛ ولكن لاهمنا شئونهم عن قرب ، حتى أن إيزبل عندما قصت على خبر  
حديثها مع لارى تحدثت في انشراح وخفة روح ، وكانت تبصق في حديثها المرح بما  
تضيفه عليه من دعاية وكأنها لا تريدني أن آخذ ما تقول لي مأخذ الجدل . ولكن  
حال لونها آتئذ .  
إني خائفة . .

نخيم الصمت علينا لحظة وسرت في جسدی قشعريرة كتلك التي تعتريني على  
غير عادتني عندما تواجهني عاطفة إنسانية قوية وعميقة فأني أجدها مروعة  
مروحية بالهية والخشوع نوما ما  
سالتها في النهاية : هل أنت مدلجة بجه ؟

لا أدري . فأني برمة ، حاقة عليه ولكنني ما زلت أحسن إليه شوقاً . .  
ونخيم علينا الصمت ثانية ولم أدر ماذا أقول لها . وكانت حجرة القهوة التي  
جلسنا فيها صغيرة وتغلي نوافذها سحجف من المخمرات الثقيلة حجبت  
للضوء . وعلى الجدران المكسوة بالورق الأصفر المرخم (٢) كانت تعلق صور  
مطبوعة رياضية ، وكانت بأثاثها المصنوع من خشب الكابلي (٣) والمقاعد الجلدة

(١) يوجد في العهد القديم من الكتاب المقدس سفر راغوث التي اتصلت ببوعز صاحب  
حقل المنطة التي كانت تجمع فيه الحب المساطق فتزوجها في النهاية .

(٢) الذي كالأرخام لونا .

(٣) الماهوفاني خشب الهبة عند الصناع .

الرمورائحتها العفنة تذكرني بطريقة غريبة لها نظير في إحدى روايات ديكنز (١) :  
حركت النار ووضعت عليها مزيداً من الفحم وبدأت إيزابل الحديث بفتة .

« إنك ترى أتى ظننت إذا ما انتهى به الأمر إلى الإفصاح عن مراميه  
الحقيقية فإنه سوف يذعن مقراً بعجزه وغلبته ولقد عرفت أنه ضعيف  
واهن . . »

صحت : « ضعيف ؟ ما الذى حدا بك إلى هذا الرأى ؟ وهو الرجل الذى  
ثبت أمام معارضة جميع أصدقائه وأصحابه ، لأنه عقد الخناصر على أن يسلك  
الطريق التى اختارها لنفسه . . »

« كنت دائماً أستطيع أن أفضل ما أريد معه . كان بوسعى أن أديره كالحاتم  
حول خنصرى . لم يكن أبداً القائد أو المرشد فيما كنا نفعل معاً . كان يسير في ركب  
العامة فقط . . »

أشعلت لفاقة من التبغ ورحت أرقب حلقة الدخان التى نفضتها في الهواء  
والتي اتسعت شيئاً فشيئاً ثم تضاءلت واختفت عن الأنظار في الهواء .

« وكانت أمى ترى ، وكان إليوت يشاركها الرأى ، باتقى على خطأ بين لائق  
أجوس منه خلال المدينة بعد أن انفصلنا وكان شيئاً لم يكن . ولكنى لم آخذ  
الأمر مأخذ الجد كثيراً وبقيت حتى اللحظة الأخيرة أظن أنه سوف يذعن  
في النهاية . ولم يكن بوسعى أن أصدق أنه عندما ظن بعقله الجامد الضيق أنى عنيت  
ما قد قلت لم يسلم بالأمر . . ثم تريت ومنحتنى ابتسامة خبيثة مازحة . « هل  
تصدم كثيراً إذا أفضيت إليك بعض الشأن ؟ . . »

(١) نشاراس ديكنز كتاب إنجليزى ( ١٨١٢ : ١٨٧٠ )

« أظن أن ذلك بعيد الاحتمال . »

« عندما صمنا على انجىء إلى لندن استدعيت لارى وسألته إذا ما كان يمكننا قضاء ليلتي الأخيرة في باريس معاً . وعندما أخبرتهم قال العم إليوت إنه ذلك سلوك غير لائق بالمرّة، وقالت أمى إنه أمر غير ضرورى، فهى تعنى أنها تعارض تماماً فى ذلك الأمر وسألنى العم إليوت عما يكون الغرض الكامن خلف هذه الفكرة، وأجبتهُ بأننا سوف نتناول عشاءنا معاً فى مكان ما ، ثم نقوم بجولة فى الأندية الليلة، فأخبر أمى أنها يجب أن تمنعنى من الذهاب، فقالت أمى: « هل تعيرين أوامرى اهتماماً إذا ما نبيتك عن الذهاب ؟ ، قلت « لا ، يا حبيبتي ، لن أفعل ، . فقالت حيثئذ : « هذا هو ما توقعت . وفى هذه الحال لا يبدو أن هناك فائدة ترجى من حثار ذهابك معى . »

« يظهر أن أمك على قدر عظيم جداً من العقل والإدراك ، . »

« لا أعتقد أنها تخطئ المرى كثيراً . فعندما دعانى لارى ذهبت إلى حجرتها لأحييها تحية المساء وكنت قد تزينت قليلاً ، فكما تعلم يجب على الفتاة أن تتزين فى باريس ولا بدت عاطلة من الجمال . وعندما رأيت الثوب الذى ارتديته ، سرى فى أوصالى شك قلن بعته نظرتها التى حدجتى بها من هامة رأسى إلى أخمص قدمى قد عرفت بثاقب فكرها ودهائها ماذا كنت أنشد ولكنها لم تقل شيئاً وقبلتني وصبرت عن رجائها فى أن أستمتع بوقت طيب . »

« وماذا كنت تشدين ؟ . »

« نظرت إلى إيزابل نظرة الشك والريبة وكانها لا تستطيع تماماً أن تقطع برأى إلى أى مدى كانت مستعدة أن تصارحنى بمكنون نفسها . »

( م ١٠ - حد الموصى )

• لا أظن أنى لم أكن ذات حسن وجمال وقد كانت هذه هى فرصتى الأخيرة .  
وحجز لارى مائدة فى حانة ما كيم وكانت لنا أطايب الطعام وكل ما كنت أتذوقه  
على الخصوص ، كما شربنا البشمانيا ومالت رؤوسنا أو مالت رأسى على الأقل ،  
وضحك لارى منى . وإنه لما كان يجيبنى فى لارى أنه كان يوسى دائماً أن أسليه  
وأهجه . ورقصنا حتى قضينا لباتتنا من الرقص فانصرفنا إلى شاتودى مادريد  
فوجدنا بعض من نعرفهم هناك وضمنا الجمع معاً ، وشربنا كشوسا أخرى من  
البشمانيا ، ثم ذهبنا إلى أكاشيا ، وكان لارى راقصا بارعا جدا ، ونزلنا إلى الحلبة  
وتحت تأثير الحرارة وسحر الموسيقى ونشوة الخمر — أصابنى الدوار قليلا  
وشعرت بموجة عاتية من الاستتار والاستخفاف ، تجمأ حتى تماما فرقصت  
ووجهى لصق وجه لارى ، وأدركت أنه يشتهنى والله يعلم أنى كنت أشتهيه .  
راودت عقلى فكرة ، أظن أنها كانت دائماً كامنة فيه لا تبرحه فعن لى أن أعود به  
إلى المنزل فإذا ما ضمتنا جدراننا وأظلمنا سقفه ، حسناً ، لم يعد هناك بد أن يحدث  
ما ليس منه بد . .

• أقسم لك بشرى أنه ليس فى مقدور أحد أن يعبر عن هذه الفكرة بركة  
وبلطف أكثر مما فعلت . .

• لقد كانت حجرتى بمنأى عن حجرة العم إليوت ومخدع أمى وبذا عرفت  
أن لا مجازفة فيما نفعل . وعندما نعود إلى أمريكا كنت أزمع أن أكتب إليه  
قائلة لانى على وشك أن أغدو أما فى منظر إلى الرجوع ليتزوج منى . فإذا ما عاد إلى  
الوطن فلا أعتقد أنه كان من العسير الشاق حمله على البقاء هناك وخصوصاً أن أمى  
مریضة وقلت لنفسى : كم كنت حقا . لأنى لم أفكر فى ذلك من قبل ، وطبعاً فإن  
ذلك سوف يحسم كل أمر . وعندما صمتت الموسيقى ظلمت بين ذواحيه ساكنة



لا أتحرك . ثم قلت إن الليل قد تأخر بنا وكان علينا أن نأخذ القطار في الظهر وإذن فن الأفضل لنا أن نتصرف . فركبنا سيارة أجرة وسكنت إليه وطوقى بساعديه وقبلنى . قبلنى ، قبلنى . آه ، لقد كانت فردوس النعيم وعندما توقف التاكسي أمام باب المنزل كاد يبين أنه لم تكن لحظة واحدة علينا . وقد لارى السائق .

قال : « سأعود إلى المنزل مشياً على الأقدام » .

قعقع صوت السيارة وقد انطلقت طائفة . وطوقت رقبته بذراعى .  
قلت : « هلا صعدت معى لتناول كأساً أخيرة ؟ » .

قال : « نعم ، إذا كنت تودين ذلك » .

دق الجرس وانفتح الباب على مصراعيه وأضاء الأنوار إذ دلفنا إلى الداخل نظرت في عينيه . كاتنا توحيان بالثقة والشرف والصرامة . ولم يكن يخالجه أدنى شك بأن قد نصبت له شركاً وأحسست بأنى لا أستطيع أن ألعب عليه هذه الحديقة القفرة التى كانت تشبه اغتصاب الحلوى من يد طفل . هل تعرف ماذا فعلت ؟ قلت : « آه ، حسناً ربما كان من الأفضل ألا تأمى فأمى ليست على مايرام الليلة ، ولا أريد أوقفها إذا كانت قد استسلمت للنوم . طابت ليلتك . ورفعت وجهى له حتى يقبلنى ودفعته إلى خارج الباب وكان هذا هو نهاية المطاف » .  
فسألها : « وهل أنت آسفة ؟ » .

« لست مريرة ولست آسفة . فلاحيلة لى فيما حدث . فانى كنت شخصاً آخر عندما فعلت ما قد فعلت . لقد كان دائماً تملكنى روحاً وجسداً وفعل كل ما فعل باسمى » . ثم ابتسمت ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانها وقالت :  
« أظنك ستقول إن هذا السلوك هو ( طبيعى الأحسن ) » .

• أظن أنك ستقولين ذلك ، .

• إذن يجب على طبيعتي الأحسن أن تحتفل للتأخر ، وإنني واثقة من أنها  
( طبيعتي الأحسن ) ستكون أكثر حذراً في المستقبل ، .

كان ذلك غائمة حديثنا في الواقع . وربما كانت سلوى وراحة لإيزابيل أن  
تمكنت من الحديث إلى شخص يمثل هذه الصراحة التامة . ولكن كان هذا كل  
ما أمكنتني أن أسديه إليها من صنيع ولما كنت أشعر بعجزى ، فإني على أضعف  
الإيمان حاولت أن أقول بهض أشياء صغيرة قد تأسو جراحها وتعزيبها .

قلت : • إنك تعلمين أنه عندما يحب الإنسان وتسير الأمور سيراً خاطئاً  
يفقد الإنسان تعساً تعاسة مروعة ويظن أنه ليس بوسفه التغلب على تعاسته ؛  
ولكنك سوف تذهلين عندما ترين ما سيفعله البحر بك وبما يتركه من  
أثر عليك ، .

• ابشمت : • ماذا صاك أن تعني ؟ ، .

حسناً : • إن الحب لا يجيد ركوب البحر ويصيبه الفتور والوهن في رحلة  
عبر البحر . وسوف يدهشك ، عندما يفصل الأطلنطي بينك وبين لارى ،  
إذ تتبينين كم هي واهنة وأمية تلك الغصة التي كنت تحسرين بها شديدة الوقت باهظة  
الحل قبل أن يقطع سفينك ، .

• هل أنت تتحدث من صميم تجربتك ؟ ، .

• من تجربة ماض حافل عاصف . عندما كابدت غمص حب لا عوض فيه  
وطايت آلامه العنيفة دون جواب . فسرعان ما استقلت باخرة تجزير بد  
عباب المحيط ، .

لم يبد ما يشير إلى توقف هطول المطر ، قررنا أنه بوسع إيزابل البقاء على قيد الحياة دون أن ترى المخزنة العتيقة في همتون كورت أو دون أن ترى سرير الملكة إيزابث أيضاً فاستقلينا السيارة عائدين إلى لندن . ورأيتهما مرتين أو ثلاث مرات بعد ذلك ، ولكن رأيتهما فقط بمحضر آخرين . وحيث كنت قد نلت ما فيه الكفاية من لندن لبعض الوقت لحملت عصا الترحال إلى التيرول .

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

## الفصل الثالث

( ١ )

ومرت عشرة أعوام بعد هذه الأحداث لم أر خلالها إيزابيل أو لارى ولكن اتصل لقاتي مع إليوت ، وفي الواقع ، ولسبب ما سوف أذكره فيما بعد ، كان لقاءنا أكثر مما اعتدنا من قبل وكنت أعرف منه ، بين الفينة والفينة ، ما كان يجرى من أحداث لإيزابيل ؛ لكنه لم يستطع أن يخبرني بشيء عن لارى .

« إن كل ما أعرفه أنه ما زال مقيماً في باريس ، ولكن ليس من المحتمل أن أقابله مصادفة فنحن لا نرتاد دوائر واحدة . » ثم استطرد قائلاً وهو يبدى التلطف والرضا : « ولكن إنه لأمر محزن حقاً أن يتدهور هكذا تماماً فهو سليل أسرة عريقة ومرموقة جداً . إنى أؤكد لك أنه كان بوسعى أن أجعل منه رجلاً محظوظاً كل الحظ لو أنه وضع نفسه بين يدي . وعلى كل حال فقد كان مهراً سعيدياً لإيزابيل ، .

لم تكن دائرة الصحاب التي تحيطني محدودة كتلك التي يتحرك فيها إليوت فلقد عرفت عدداً من الناس في باريس كانوا من وجهة نظره أشخاصاً غير مرغوب فيهم إلى أبعد حد . فني إحدى إقاماتي القصيرة التي تكررت وتعددت بينهم سألت واحداً أو آخر منهم إذا ما كان قد تصادف له أن قابل لارى أو وصلته أخبار عنه قلة كانت تعرفه عرضاً ولكن لم يدع أحداً من بينهم أن وشيجة قوية تربطه ولم أستطع العثور على أحد يمطيني أخباراً عنه . فتوجهت إلى المطعم الذي كان يتناول فيه عشاءه عادة ولكني تبينت أنه لم يذهب إلى هناك منذ مدة طويلة وظنوا أنه لا بد أن يكون قد رحل . كما أن عيني لم تقع عليه أبداً في إحدى المقاهي الموجودة في بوليفار مونتبارناس ، والتي كان يحتمل أن يتردد عليها القاطنون على مقربة منها .

كان يعتزم السفر إلى اليونان بعد رحيل إيزابيل؛ ولكنه نبذ هذه الفكرة، وكان مافعله حقاً هو ما أخبرني به بنفسه بعد مرور سنوات كثيرة؛ ولكنني سأقصه الآن لأن من الأنسب أن أضع الأحداث ما وسعني الجهد في تسلسل زمني فقد بقي في باريس في أثناء الصيف وظل يعمل عملاً متصلاً ودون توقف حتى حل الحريف وسار شوطاً طويلاً نحو الشتاء ،

قال : « فكرت حينئذ أني في حاجة إلى الراحة ، فقد ظلت أعمل ثمان ساعات أو عشر كل يوم لمدة عامين . ولذا فقد ذهبت لأعمل معدناً في منجم الفحم . صحت : « ماذا فعلت ؟ ،

ضحك من دهشني .

« ظننت أنني سأفيد فائدة طيبة إذا ما عملت شهوراً قليلة عملاً يدوياً فقد كانت لدى فكرة أن ذلك سيف يعطيني فرصة لأفرد وأنتق آرائي وأتصاف مع نفسي ؟ ، .

كنت أصفي صامتاً . وعجبت إذا ما كان ذلك هو السبب الوحيد لهذه الخطوة غير المتوقعة أو إذا ما كان السبب مرتبطاً برفض إيزابيل الزواج منه ، وكانت الحقيقة الواقعة أنني لم أعرف لإطلاءاً عمق حبه لها ، فعظم الناس عندما يشقون يتعللون بشئ العليل ويتحلون الأعذار ليقنعوا أنفسهم أنه من العقل فقط أن يفعلوا ما يريدون ، ولهذا كما أظن يعزى كثير من الزيجات الفاجعة ، وشأنهم شأن من يلقون بمقاييد أمورهم في يد من يعرفون أنه غشاش منافق ولكنه تصادف أن كان صديقاً حميماً ولأنهم لا يرغبون في أن يصدقوا أنه الغشاش أولاً ، وصديق ثانياً ، فهم مقتنعون « أنه مهما كان خائناً مع الآخرين فلن يكون خائناً معهم . وكان لاري قوياً قوة كافية جعلته يرفض أن يضحى من أجل إيزابيل بالحياة التي كانت يعتقد أنها الحياة التي تلائمها ولكنه ربما كانت فكرة ضياع إيزابيل من

يديه أفسى وأشد مرارة مما كان يحتمل ويتوقع وقد يكون مثل السواد الأعظم  
منا قد أراد أن يحرز النصر ويظل محتفظاً به .

قلت : « حسناً ، استقر » .

« غرمت كتي وملايبي في حقيبتين كبيرتين وكلفت الأمريكان إكسبريس  
بمخزنها ، ثم وضعت حلة غير تلك التي ارتدتها وبه من البياضات من الملابس في  
حقيبة سفر وانطلقت في حال سيلى . وكان للمدرس الذى يعلنى اللغة الإغريقية  
شقيقة متزوجة من مدير منجم بالقرب من مدينة لوزة أعطانى له خطاب توصية  
هل تعرف لوزة ؟ »

« لا . . . »

لأنها مدينة تقع في شمال فرنسا ، ليست بعيدة من الحدود البلجيكية . ولم أكن  
سوى ليلة واحدة هناك في فندق المحطة . وفي اليوم التالى استقلت قطاراً محلياً  
إلى حيث كان يوجد المنجم . هل وقع لك أن زرت قرية مناجم ؟ » .

« في إنجلترا » .

« حسناً ، أظن أنها نفس الشيء . إنى جد بعيد . فهناك المنجم ومنزل مدير  
المنجم وصفوف من المنازل الأنيقة الصغيرة ذات الطابقيين وكلها متشابهة تماماً  
وعلة ورتيبة بصورة تجعل قلبك يفرح بين جنديك . كما توجد كنيسة أليبت  
بالجديدة أو العتيقة قبيحة المنظر ، كما توجد حانات عدة . كان الجو بارداً كشيئا  
عندما وصلت هناك وكانت تنساقط شآبيب المطر . فذهبت إلى مكتب المدير  
وبعثت بخطابى ، كان المدير رجلاً قصير القامة بديناً ذا وجنتين حمراوين وعلى  
وجهه مظاهر من ينعم بطعامه ، كانت تقصمهم اليد العاملة فقد لنى كثيرون من  
المعدنين حتفهم في الحرب وكان عدد ضخم يبلغ مائتين أو ثلاثمائة من البواندين

يعملون هناك ، حسب ظني . وسألني سؤالا أو اثنين ولم يرتح إلي كوني أمريكياً وبدا أنه يتشكك في أمري نوعاً ما ؛ ولكن الخطاب الذي زودني به أخو زوجته ذكرني بالخبر وعلى أية حال من الأحوال فقد سره أن أكون معه . أراد أن يعطيني عملاً على السطح ولكنني أخبرته أنني أريد أن أعمل في قاع المنجم فأخبرني بأن ذلك العمل سيثنى علي إن لم أكن معتاداً عليه ولكنني أخبرته بدوري ، أنني قد أخذت أهيق وأعددت العدة لذلك فقال حينئذ يمكنني أن أعمل مساعداً للمنجم . كان ذلك عمل الغلمان ولكن الغلمان لم يكونوا متوفرين حول ذلك المكان . كان شخصاً لطيفاً ، سألتني إذا ما كنت قد بذلت أية محاولات للعثور على مسكن ولما أخبرته أنني لما أفعل كتب لي عنواناً على قصاصة ورق وأخبرني إنني إذا ذهبت إلى هناك فإن سيدة المنزل ستعطيني فراشاً . كانت أرملة معدن قتل في الحرب وكان أبناها يعملان في المنجم .

حملت حقيبتي الصغيرة وسرت في طريقني . وجدت المنزل وفتحت لي الباب امرأة طويلة القامة ضامرة الجسم ذات شعر أشيب وعينين واسعتين سوداوين ، كانت ملامحها جميلة تدل على أنها كانت وسيمة قسيمة في صباها . وكان من الممكن ألا تبدو حينئذ قبيحة بصورة فظيعة ما لم تفقد اثنتين من أسنانها الأمامية . أخبرتني أنه لا يوجد لي غرفة في بيتها ولكن كان يوجد سريران في حجرة كانت قد أجزتها من قبل إلى بولندي فهو يشغل سريراً ويمكنني أن أشغل الآخر وكان أبناها يشغلان حجرة في الطابق العلوي وهي تشغل الحجرة الأخرى . وكانت الحجرة التي أرتبها في الدور الأرضي وكان المفروض كما ظننت أنها تستعمل للجلوس وكنت أفضل أن أستقل بحجرة ، ولكنني رأيت أن من الأفضل ألا أثير ضجة حول هذا الموضوع . كانت شائيب انظر قد تحولت إلى مطر خفيف ثابت . وكنت مبتلا من قبل ولم أورد أن أذهب إلى مكان أبعد فيهطل على المطر وينفذ إلى جسمي ، فقلت إن الفراش يناسبني واستقرت في الحجرة . واستخدموا المطبخ حجرة للجلوس



أما حجرتي فكان بها مدرعان<sup>(١)</sup> واهنان مهتمان وكانت توجد صومعة فخم في الفناء الذي كان يتخذ حماماً أيضاً . كان الابنان والبولندي قد حملوا غذاءهم معهم ولكنها أخبرتني أن بالإمكان أن أتناول غذائي معها في الظاهر . وجلست فيما بعد في المطبخ أدخن وبينما كانت تقوم بعملها . قصت على كل ما يتعلق بها وبأسرتها . وحضر الباقون عند انتهاء نوبة عملهم ، وقد حضر البولندي أولاً وفي أثره الولدان . اجتاز البولندي المطبخ وأوماً برأسه لي دون أن ينطق بكلمة عندما أخبرته صاحبة المئوي<sup>(٢)</sup> أني سأشاركه حجرتي وحمل غلاية كبيرة من مسخنة الطعام وذهب ليغتسل في الصومعة وكان الولدان فارعى الطول جميل الحيا على الرغم مما يغطي وجهيهما من تراب الفحم . وبدا عليهما ميل ودي نحوي واعتبرا أني فلتة لأنني أمريكي كان أحدهما في التاسعة عشرة سوف يذهب إلى الجندية في غضون شهر قلائل . وكان الآخر في الثامنة عشرة من عمره .

وعاد البولندي ، فذهبا حينئذ ليغتسلا . كان البولندي يحمل اسماً من تلك الأسماء البولندية الصعبة ولكنهم كانوا ينادونه بكوستي . كان قتي ضخم الجثة أطول مني بيومتين أو ثلاث بوصات ثقيل الوزن . كان وجهه ممتكاً شاحباً وأنفه عريضاً قصيراً وفه كبيراً . كانت عيناه زرقاوين ولأنه لم يستطع أن يغسل الفحم ويزيله عن حاجبيه وأهدابه فقد بدا وكأنه يضح طلاء زينة وجعلت الأهداب السود زرقة عينيه تبدو مذهلة . وكان قتي قبيح المنظر غليظاً . وغادر الولدان المنزل بعد أن أبدلا بملابسهما غيرها . وجلس البولندي في المطبخ يدخن الغليون ويقرأ الصحيفة اليومية وكنت أحتفظ بكتابي في جيبي فأخرجته وبدأت أقرأ أيضا . ولاحظت أنه رمقني بنظراته مرة أو مرتين وفي هذه اللحظة التي صحيفته من يده .

(١) المدرع : كرمي ذوسنادتين للذراعين

(٢) صاحبة المئوي أو المئوي

سأل : « ماذا قرأه ؟ »

فاولته الكتاب ليرى بنفسه . كان نسخة من أميرة دي كليف كنت قد اشتريتها من المحطة في باريس لأنها كانت صغيرة صفراً ، كنت من وضعها في جيبي . نظر إليه ، ثم نظر إلى بفضول وأعادته إلى ولاحظت ابتسامة ساخرة على شفتيه .

« هل يفككك ، ؟ »

« أظن أنه عثم جداً — وأيضاً يستغرقك ، . »

« لقد قرأته في المدرسة بوارسو . لقد أملني وأضجرتني ضجراً شديداً ، كان يتكلم الفرنسية السليمة جداً . فتكاد لا تلاحظ فيها أثر الذبرة البولندية ، . »

« والآن لا أقرأ شيئاً غير الصحف والقصص البوليسية ، . »

« وجلت مدام د وكليك ، فقد كان ذلك اسم صاحبة الثوى العجوز ، جلست إلى نضد ترتق الجواب وهيئا على الحساء الذي كانت تطهوه للعشاء . وأخبرت كوستي أن مدير المنجم قد أرسلني إليها وأعادت على مسامحة ما قد رأيت أنه مناسب فأخبرتها به . وأصغى إليها وهو يتفخ الدخان من فمه ونظر إلى بعينين زرقاوين براقين . كاتنا صارمتين وما كرتين . وسألني بضعة أسئلة عن نفسي . فلما أخبرته بأنني لم أعمل من قبل في منجم انفرجت شفاه عن ابتسامة ساخرة مرة أخرى . »

« أنت لا تدرك ما أنت مقدم عليه . فلا يجرؤ إنسان على العمل في منجم إذا كان يوسعه أن يزاول أي عمل آخر . ولكن هذا شأنك الذي يعينك وحدك . وما لا شك فيه فلديك من الأسباب ما يبرر هذه الخطوة من جانبك . أين كنت تقيم في باريس ، ؟ »

أخبره .

« في فترة من الفترات اعتدت الذهاب إلى باريس كل عام ولكنني كنت الوم لجران بوليفار . هل ذهبت إلى مطعم لاريو ؟ لقد كان مطعمي المفضل . »  
« لقد أذهلني هذا بعض الشيء ، لأنه كما تعلم ، ليس مطعماً رخيصاً . »  
« إنه أبعد ما يكون عن الرخيص . »

« أظن أنه رأى دهنتي ، فقد رمقتي مرة أخرى بإبتسامة ساخرة ، ولكن من الواضح أنه لم ير ضرورة لمزيد من الشرح أو التفسير واستمررتنا في حديث مفكك غير متتابع وبلا ترتيب وحيثتذ عاد الولدان وتناولنا العشاء . وبعد أن فرغنا من الطعام سألتني كوستي إذا ما كنت أود أن أذهب معه إلى البسترو للشرب الجمعة معاً . كانت هذه الحانة غرفة فسيحة نوعاً ما ، بها مشرب ، في إحدى نهايته عدد من الموائد ذات الأسطح الرخامية وحوطها كراسي خشبية وكان يوجد معزف ( بيانو ) آلي ، فوضع أحد الحاضرين قطعة من النقود في فتحة تلك الآلة الموسيقية انيكانيكية التي راحت تبعث نغماً رائعاً شبيهاً بالنهيق . وكانت ثلاث موائد فقط قد شغلت بالقرب من مائدتنا وسألتني كوستي إذا ما كنت ألعب ( بيلوت ) (١) وكنت قد تطلتها مع بعض أصدقائي الطلاب ولذا أجبته بأن ألعبها ، واقترح علي أن نلعب على الجمعة . ونزلت عند اقتراحه وطلب ورق اللعب وخسرت مرة ثم مرة أخرى واقترح علي حينئذ أن نلعب مقابل نقود . كان دائماً معه أوراق طيبة ومعي دائماً حظ عاثر . كنا نراهن على مبالغ زهيدة جداً ومع ذلك فقد خسرت عدة فرنكات وأكسبته البيرة وهذا الريح ورحا مرحة ومزاجاً صافياً فراح يتحدث . ولم أستغرق وقتاً طويلاً أن أحس من الطريقة التي كان يعب بها عن ذات نفسه وسلوكه أنه رجل قد تعلم وثقف ، وعندما عاود الحديث عن باريس كان يسألني إذا ما كنت

(١) لعبة ناعس بورق اللعب (الكوتشنة) .

عرف كذا وكذا وعن نساء أمريكيات كنت قد قابلتهن بمنزل إليوت  
عند ما كانت الخالة لويزا وإيزابل تقيان معه وبدأ أنه يعرفهن أحسن مما عرفتهن،  
وعجبت كيف كان يحد نفسه في حاله الراهنة . كان قد تأخر بنا الليل وكان علينا  
أن نستيقظ مع انبثاق الفجر .

قال كوستي : « دعنا نشرب كأساً أخرى من الجمعة قبل أن تنصرف ، .

« كان يرشف الجمعة وينظر إلى خلصة بعينه الماكرتين الصغيرتين . إني عرفت  
بما يذكرني حينئذ . بخنزير حاد الطبع .

سأنتي : « لماذا قد جئت لتعمل في هذا المنجم الفاسد ؟ ،

« من أجل الخبرة ، .

قال : « أنت أبله يا صغيري ، .

« ولماذا تعمل أنت فيه ، ؟

فهركت فيه الضخمتين القبيحتين .

« لقد دخلت الكلية الحربية عند ما كنت فتى غنى الإهاب وكان أبي قائداً  
في عهد القيصر وكنت ضابطاً في سلاح الفرسان إبان الحرب الأخيرة (١) ولم أكن  
أحتمل بلسودسكي . وأعددتنا العدة لقتله ولكن انفضح أمرنا بعد أن وشى بنا  
البهمن فأطلق النار على من وقع في قبضته ونجحت في اجتياز الحدود في الوقت  
المناسب، ولم يبق أمامي غير العمل في ( الفرقة الأجنبية ) أو في منجم محلي .  
فاخترت أخف الضررين ، .

« كنت قد أخبرت كوستي عن العمل الذي كان ينتظرنى فى المنجم ولم يقل شيئاً ، ولكن الآن ، وهو يضع مرقبيه على المنضدة ذات الطح الرغامى ، قال :  
« حاول أن تدفع يدي إلى الخلف .

« كنت أعرف المحاولة القديمة لاختبار القوة فوضعت راحة يدي المبسوطة مقابل راحته . فضحك . « إن يدك لن تبني ناعمة لينة — كما هي فى غضون أسابيع قليلة . « فدفعت يده بكل ما أوتيت من قوة ولكنى لم أتمكن من التأثير إطلاقاً فى قوته الهائلة وضغط يدي تدريجياً إلى الخلف حتى أرساها على المائدة .

« أنت على قوة لا بأس بها ، ، وكان لطيفاً جداً عندما قال : « قليلون هؤلاء الذين يشبتون طويلاً كما ثبت . اصنع إلى ، إن مساعدى غير صالح للعمل وهو فرنسى قصير القامة صغير الجسم لم يؤت قوة قلة . فتعال معى غداً وسوف أحمل رئيس العمال على أن يستبدلك به . «

قلت : « إنى أود ذلك ، ولكن هل تظن أنه سوف يفعل ما ترى ، ؟

« الأمر فى نفس يعقوب . هل يمكنك ان تستغنى عن خمسين فرنكا ؟ ومد يده وأخرجت ورقة مالية من محفظة جيبي . وعدنا إلى البيت وآويت إلى فراشى بعد يوم حافل قمت نوماً عميقاً جداً . «

سألت لارى . « ألم تجد العمل شاقاً بدرجة مروعة ، ؟

« كان العمل قاصماً للظهر أولاً ، وابتسم ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه . « لقد دبر كوستي الأمر مع رئيس العمال وصرت مساعداً له ( الكوستي ) . وفى ذلك الوقت كان كوستي يعمل فى مساحة تعدل حجرة حمام فى فندق وكان على المعدن بالنسبة يشتمل بها أن يدخلها من خلال نفق خفيين جداً يجعله يزحف خلاله على

يديه وركبتيه وكان حاراً كالسمر، وكنا نعمل وقد تخففنا من جميع ثيابنا ماعدا السراويل وكان في جذع كوستي الضخم الأبيض البدين ما يبعث الاشمزاز في النفس بدرجة مروعة ، فقد بدا كأصلح (١) ضخم وكان صخب القطاع الهوائي ، في ذلك الحيز الضيق ، يسم الآذان وكانت مهتة جمع كتل الفحم التي اقتطعها وأوسق (٢) بها سلة أجرها من خلال النفق إلى فتحة ، حيث يمكن وسقها في عربة عند مجي القطار في فترات متقطعة في طريقه إلى المصاعد . إنه المنجم الوحيد الذي عرفه في حياتي ولذا فإني لا أعرف إذا كان هو ذلك العمل المألوف في المناجم. بدا لي أنه عمل يوافق هواي، ولكنه عمل شاق بغيض وفي منتصف الوقت توقف العمل فترة للراحة وتناولنا غداءنا ودخنا . لم آسف عند ما انصرم اليوم، وقسمنا فإن الاستجمام كان مفيداً فقد خيل لي أنني لن أستطيع تنظيف قدمي قد كاتنا سوداوين كالمداد فقد تهرمت يداي وثأمت منهما الماشديداً ولكن التأمت الجراح واعتدت العمل .

« وكم من الزمن بقيت في ذلك العمل ؟ »

« بقيت في ذلك العمل أسبوعين . كان جرار يسحب العربات التي تحمل الفحم إلى المصاعد وكان السائق ميكانيكياً قليل الكفاية وكانت الآلة تتوقف دائماً وذات مرة لم يتمكن من إدارتها وبدا أنه لا يعرف ماذا يفعل ، حيناً فإني ميكانيكي لا بأس به فألقيت عليها نظرة وفي نصف ساعة من الزمان تمكنت من إدارتها فأخبر رئيس العمال المدير الذي أرسل في طلبي وسألني إذا ما كانت لي معرفة بشئون السيارات وكانت نتيجة ذلك أن أسند إلى عمل الميكانيكي ، ولقد كان عملاً رتيباً عملاً طبعاً ولكنه سهل ، ولما امتنعت الشكوى من الآلات سرواني . »

(١) كفة معربة : حيوان من بطنية الأرجل .

(٢) بحل .

« حزن كوستى حزناً شديداً عند ما تركته فقد كنت ملائماً له ، واعتاد هو العمل معى ، لقد عرفته جيد المعرفة فقد كنا نعمل معاً طوال اليوم ونذهب الى ( البسترو ) معاً بعد العشاء ، وكنت أقاسمه حجراته . كان فتي ممتعا ، كان من نمط الرجال الذى ترتاح اليه . لم يكن يختلط بالبولنديين فلم نذهب إلى المقاهى التى يرتادونها ، لم يستطع أن ينسى أنه من النبلاء وأنه كان ضابطاً فى سلاح الفرسان وكان يعاملهم كالمقازورات ، وطبعاً كانوا يشتمون من هذه المعاملة ولكنهم لم يقدرُوا أن يفعلوا شيئاً إزاءها ، فقد كان قوياً كالثور ، أما اذا وصلت الأمور إلى حد الشجار فواء أكانت المشاجرة بالمدى أم بدونها فقد كان نداء لسته مجتمعين منهم: وكنت أعرف بعضهم أيضاً ، وأخبرونى بأنه كان ضابطاً فارساً مرموقاً فى أحد الألوية المشهود لها بالصرامة والشدة ولكن كان ما اتحله من أسباب سياسية لمغادرته بولندا كذباً فقد طرد شر طردة من نادى الضباط فى وارسو وجرى من رقبته العسكرية لسوء سلوكه لأنه ضبط متلبساً بالغش فى لعب الورق ، وحذرونى من اللعب معه ، وقالوا إن هذا هو سبب ابتعادهم عنه ، لأنهم عرفوا الكثير عنه وأنهم لن يلعبوا معه .

« كنت أخسر تقودى معه باستمرار ، ولكن لم تكن خسارة كبيرة ، أنت تعرف ، خسارة لاتعدو بضعة فرنكات فى الليلة ، ولكنه عندما كان يرجح كان يصر على أن يدفع المطلوب منى للشراب ولذا فلم تصل خسارتى فى الواقع إلى شيء يستحق الذكر . وظننت أن سوء الحظ يلازمى أو أنى لا أجيد اللعب كما يجيده . ولكننى بعد ذلك أخذت حذرى فتأكدت بما لا يدع مجالاً للشك فى أنه كان فعلاً يفتش فى اللعب . ولكن هل تعرف أنتى — وقدما بجياق — لم أدرك كيف كان يفعل ذلك ؟ وبمينا ، لقد كان ماهراً حاذقاً . وكل ما عرفته أنه لا يمكن أن يحصل باستمرار على أحسن الورق دائماً فراقبته كما يفعل الوشق (١) . كان ما كرا كما اشعلب

---

(١) الوشق حيوان أصفر من الههد قصر الذيل، معروف بأنه حديد البصر .  
( م ١١ — حد الموسيقى )

وأخمن أنه رأى أنني قد سلكت معه سلوكاً حكيماً عاقلاً . فذات مساء وبعد أن لعبنا بعض الوقت ، نظر إلى ابتسامته القاسية نوعاً ما ، تلك الابتسامة الساخرة التي كانت طريقته الوحيدة التي عرفها للابتسام وقال :

« هل أريك بعض الحيل ؟ .. »

« أخذ حزمة ورق اللعب وطلب مني أن أسمي ورقة ، ( وفضلت) الورق ثم دعاني إلى اختيار واحدة ، ففعلت ، وكانت الورقة التي ذكرتها ، ثم قام بجيلتين أو ثلاث حيل أو أكثر ثم سألتني عما إذا كنت ألعب البوكر ، قلت إنني ألعبه . فأعطاني الورق ، فلما نظرت إليه وجدت أن معي أربعة من الآس وشائباً . »

سألتني « سوف ترغب في المراهنة بقدر كبير من المال على ما بيدك من ورق الآس ؟ »

فأجبت : « كل ما معي من قهود ، . »

« ستكون أحق لو فعلت ذلك ، ثم وضع ورقة الذي أخذه لنفسه . كان ( فلوش (١) ) أما كيف تم له ذلك ، فلا أدري . وضحك من دهشتي : « لو لم أكن رجلاً أميناً لجردتك من قبضك الآن . »

فضحكت ضحكة عريضة : « لم تصل إلى هذا الحد من الشر فيما فعلت ، . »

« وجبة من الدجاج . فلا يكفي ذلك المبلغ للحصول على وجبة عشاء في مطعم لاربي ، . »

« دأبنا على اللعب كل ليلة دون إسراف ولقد استنتجت أنه كان يفش في

---

(١) في لعبة البوكر .



اللعب ليس جرياً وراء المال بقدر ما كان يفعل ذلك من أجل ما يبعثه من متعة المزاح . فكان يمتليء بالرضا العجيب عند ما يعرف أنه يسخر مني : كما كان يسر سروراً عظيماً عند ما يتبين أنني أقع فريسة له ، ولا يمكنني أن أرى كيف تأتي حيله والأعيبه .

ولكن كان ذلك جانباً واحداً من جوانبه ، أما الجانب الآخر فهو الذي كان يهمني فيه ، ولم أستطع أن أوفق بين الاثنين . فعلى الرغم من أنه كان يباهي بأنه لا يقرأ سوى الصحيفة اليومية والقصص البوليسية فقد كان رجلاً مثقفاً . كان محدثاً مجيداً ، لاذعاً ، فظاً ، ساخراً ولكن الإصغاء إليه كان مهجماً ساراً . كان كاثوليكياً تقياً ويعلق تمثالاً للشيخ مصلوباً فوق فراشه ، كما كان يذهب لحضور القداس كل يوم أحد بانتظام . وفي ليالي أيام السبت اعتاد أن يعاقر الخمر حتى يشل . كان ( البسترو ) الذي اعتدنا أن نغشاه مكتظاً مزدحماً بالرواد في ذلك الوقت ، والهواء ثقيلاً بما يحمل من دخان . كان هناك معدنون ، نصف ، هادثون مع أسرم ، وكان يوجد أيضاً شباب كثير يثيرون الصخب والضوضاء . ورجال تددت وجوههم بالعرق حول الموائد يلعبون ( البيلوت ) وهم يتصايحون ، وقد جلست زوجاتهم خلفهم عن كשב منهم ورحن يرقبهم . ويكون لأزحام والجلبة تأثير عجيب على كوستي فيغدو جلدأ ، ويبدأ الحديث في كل الموضوعات غير المتوقعة — في التصوف . ولم أكن أعرف شيئاً عنه غير مقال من تأليف ما ترانك عن رزيروولد كنت قد قرأته في باريس ؛ ولكن كوستي تحدث عن بلوتينوس ودينيس الأريوفاغيظ<sup>(١)</sup> والإسكافي يعقوب بوهيمي وميستر اينخارت . لقد كان وهما وخيالاً أن تسمع ذلك الشخص العظيم الضخامة ، الفارغ ، معدوم الجندوى الذي لفته عالمه ، وذلك المفزع القانط الميثوس منه ، يتحدث عن الحقيقة القصوى الأشياء ونعمة الاتحاد مع الله . كان كل ذلك جديداً على قبلي بل خاطري

(١) فاض بحكمة يونانية عالياً قديماً .

واحتاجت نفسى . كنت شبيهاً بمن بات ساهراً فى حجرة أظلمت ، ولجأة يمرق بصيص من الضوء خلال السجف (١) فيعرف أنه ما عليه إلا أن يجذبها (السجف) فتتكشف أمامه الخلوات ممتدة فى جلال الفجر ومجده . ولكن إذا ما حاولت أن أسوقه إلى الحديث عن هذا الموضوع وهو صاح استشاط غضباً وحن جنونه معى وتطاير الحقد من عينيه .

قال بعنف وسرعة : « كيف يتأتى لى أن أعرف ما كنت أتحدث عنه عندما لا أعرف ما كنت أقول ؟ »

« ولكنى عرفت أنه يكذب فقد عرف تمام المعرفة ما كان يتحدث عنه وعرف كثيراً طبعاً . كان سكيراً ، ولكن النظرة التى فى عينيه والتعبير المستأمل على وجهه القبيح لم يكن مردهما الشراب فقط . كان سببها أكثر من ذلك . ففى المرة الأولى التى تحدث فيها على ذلك النقط قال شيئاً لن أنساه ما حييت لأنه أفرغنى وأرعبنى . قال : « إن الدنيا ليست خلقاً ، لأنه لا شىء يخرج من العدم ، ولكنها الكشف عن الطبيعة الخالدة الأزلية ، حسناً ، كان كل ذلك صواباً ولكنه حينئذ أضاف قائلاً إن الشر كالحير سواء بسواء ، فهو كشف مباشر عن اللاهوت . » . كانت أقواله كلمات غريبة على السمع فى ذلك المقهى الحميم الصاخب بمصاحبة الأتنام الراقصة الصادرة عن المعزف الآلى .

## ( ٢ )

لكى أعطى القارى فترة من الراحة أبدأ هنا قسماً جديداً ، ولكنى أفعل هذا فقط مرضاة له ومن أجل راحته . كان الحديث لا يزال متصلًا لم يتوقف .

---

( ١ ) التائر .

وإني اتهم هذه الفرصة، فرصة أن لارى تحدث على مهل وهو يتتقن ألفاظه بعناية .  
وعلى الرغم من أنى لا أدعى سرد هذه الألفاظ تماماً كما كانت ، فقد حاولت أن  
أعيد ، لا مادة الحديث لحسب ولكن أسلوبه أيضاً . فإن صوته الغنى النغمة كان  
ذا أصالة موسيقية جعلته مستحباً فى الأذن ، وكان يتحدث دون إيماءات  
أو إشارات من أى لون كان ، وينفخ دغان غليونه ويتوقف من آن لآخر عن  
الحديث ليعيد إشعاله . . .

. . . كان يواجهك بتعبير لطيف بهييج متلون أحياناً يشع من عينيه السوداوين .  
ثم أقبل الربيع متأخراً فى هذا الصقع المنبسط الموحش الذى كان  
ما يزال بارداً ممطراً ، ولكن فى بعض الأحيان يجعل اليوم الدافئ الجميل من  
الصعب على الإنسان أن يترك عالم ما فوق الأرض ويهبط فى جوف الثرى مئات  
الأقدام فى مصعد كسيح مزدحم بالمعدنين فى مكساتهم (١) القنطرة . كان ربيعاً  
جميلاً ، ولكن بدا أنه قد جاء على استحياء إلى ذلك الصقع الجهم الخثير ، وكأنه  
لا يتوقع أن يلقى ترحيباً . كان يشبه زهرة النرجس أو الوسن التى تنمو فى أصيص  
موضوع على عتبة النافذة فى منزل فى حى فقير فتعجب لوجود تلك الزهرة هناك .  
وفى صباح يوم أحد ونحن نرقد فى الفراش — فقد كان من مألوف عادتنا أن  
نبقى راقدين حتى ساعة متأخرة من الصباح أيام الآحاد — وكنت أقرأ — قال  
لى كوستى لجأة :

« سوف أبرح هذا المكان . فهل تريد مراقبتي ؟ »

« كنت أعرف أن عدداً كبيراً من البواندين يعودون إلى بواندا فى الصيف  
ليجمعوا المحصول ، ولكن كان الوقت مبكراً على الحصاد ، وزيادة على ذلك ،  
فإن كوستى لا يمكنه العودة إلى بواندا .

---

( ١ ) ( المكهاة : ( العفرينة فى لغة الصائم )

« سأجوب عبر بلجيكا ومن تحت إلى المانيا ثم أهبط إلى الراين . وسوف  
يمكننا الحصول على عمل في مزرعة تقضى بها الصيف ، ،  
« في التو واللحظة اتخذت قرارى وحزمت أمرى ، ،

قلت : « وإن هذا يبدو جميلا ، ،

« وفي اليوم التالى أخبرنا رئيس العمال أننا اعترمنا الرحيل ، ووجدت زميلا  
يرغب فى أن يأخذ حقيبة سفرى مقابل خرج ، وأعطيت الملابس التى لم أعد  
فى حاجة إليها أو التى ينقىس حملها ظهرى إلى ابن مدام ليسكوبرك الذى كان فى مثل  
حجمى تقريبا . ترك كوستى حقيبته ووضع ما يحتاجه فى الخرج . وفى اليوم  
التالى ، وبمجرد ما قدمت لنا السيدة القهوة ، انطلقنا فى سبيلنا .

« لم نكن على عجل من أمرنا إذ كنا ندرك أنه ليس بمقدورنا أن نحصل على  
عمل فى مزرعة قبل أن تنتضج النباتات وتتهيأ للحصاد ، على الأقل . . . ولذا فقد  
تلكا<sup>١</sup>نا ونحن ننتقل فى فرنسا وبلجيكا عن طريقين نامور وليج حتى دخلنا ألمانيا  
عن طريقين آسن . لم نكن نقطع أكثر من عشرة أميال أو اثنى عشر ميلا فى اليوم  
وإذا ما أعجبنا منظر قرية توقفنا عندها . وكان يوجد دائما حانة من نوع ما حيث  
يمكننا الحصول على فراش ، وحانة المزرع<sup>(١)</sup> نحمد بها ما نأكله من الطعام أو  
ما نشربه من الجمعة . وكان الطقس بوجه عام لطيفا وجميلا . لقد كان الخروج إلى  
الحلاء عظيما بعد كل تلك الشهور التى قضيناها فى المنجم . ولا أظن أنى قد أدركت  
قبل ذلك كم هو جميل أن تشاهد مرعى أخضر أو مبلغ جمال الشجرة لا تظهر  
أوراقها ، ولكن الأغصان تحتجب وراء نقاب من الضباب الخفيف . بدأ كوستى

---

(١) شراب كالبعة أو البيرة

يعلمنى الألمانية، وأعتقد أنه كان يتكلمها بالطلاقة نفسها التي كان يتكلم بها الفرنسية. وبينما كنا نكلم مشياً كان يعرفنى بأسماء الأشياء المختلفة التي نمر بها، باللغة الألمانية، مثل بقرة وحصان ورجل وهم جرا، ثم يطلب منى تكرار جملة ألمانية بسيطة. ولقد جعل هذا الرمن يمر. وعندما أصبحنا على أبواب ألمانيا كنت أستطيع على أقل تقدير أن أطلب الأشياء التي أريدها.

كانت مدينة كولون تبعد قليلاً عن خط سيرنا، ولكن كوستى أصر على ذهابنا إلى هناك من أجل العذارى الأحد عشر ألفاً، كما قال، وعندما وصلنا إلى هناك استقل مركباً طياراً. وظلت طيلة ثلاثة أيام لا أراه. وعندما عاد إلى الحجرة التي كنا قد حللنا بها في منزل للعمال يؤجر حجرات، كان آتند غليظاً فقط سبيء الخلق. كان قد تورط في شجار وناله لكمة أحالت عينه سوداء وجرحته شفته. وبوسى أن أقول لك، إن منظره لم يكن ليسر العين. ووقد في فراشه أربعة وعشرين ساعة، وحينذاك بدأنا نحبوب هابطين وادى الراين صوب دارمستادت، حيث كما قال، كان الريف جميلاً طيباً، وأتيحت لنا أحسن فرصة للحصول على عمل.

دلم أستمتع بشيء مطلقاً أكثر مما استمتعت بمقايى هناك. فقد استمر الطقس البليل وطوفنا بالمداين والقرى. وعندما كانت تلوح مناظر جديدة بالمشاهدة كنا نتوقف وننظر إليها. وكنا نقيم حيث يمكننا الإقامة ونمنا مرة أو مرتين في عليه (١) فوق حديقة. وتناولنا طعامنا في الحانات على حافة الطريق، وعندما وصلنا إلى إقليم الكروم تحولنا من الجمعة إلى النييد وصادفنا الناس في الحانات التي كنا نشرب فيها. وكان كوستى يمرح مرحاً خشناً أكبه ثقهم، وكان يلعب معهم (الأسكات) وهي لعبة ألمانية تمارس بورق اللعب، ويفضهم بمثل تلك

(١) الطبة : غرفة في أعلى البناء.

البشاشة المكشوفة والذكات السمجة التي يقدرونها حتى أنهم كادوا لا يعبأون بما يخسرون من ( فننجات (١) ) معه . وتمرن على اللغة الألمانية معهم . كنت قد اشتريت في كولون كتاب محادثة إنجليزية ألماني في النحو والصرف وتقدمت تقدماً مرضياً . وفي الليل بعد أن يكون كوستي قد أفرغ في جوفه لترين من النبيذ الأبيض ينطلق ويتحدث في صورة غريبة مرضية في الهروب من ( الوحيد ) إلى ( الوحيد ) ، من ( ظلام ليل النفس ) ومن ( الوجد الغائي ) الذي يصبح فيه المخلوق واحداً مع المراد ، وياكن في الصباح الباكر ، ونحن نسير خلال الريف الباسم وما زالت قطرات الندى تغطي العشب ، عندما حاولت أن أجعله يتحدثني أكثر استشاط غضباً إلى حد أن هم بضربي .

قال : ه أصمت أيها الأحمق . ماذا تبغى من كل ذلك الحديث والهرام ؟ هيا بنا ، دعنا نوالي دراسة اللغة الألمانية .

لا يمكنك أن تجادل رجلا له قبضة يد تشبه المطرقة البخارية ولا يتردد في استخدامها . لقد شهدته في ثورة غضب وعرفت أن في مقدوره أن يصرعني بضربة تشل حواسي ويتركني في حفرة ، وكذا لم أكن أتردد في أن أفرغ جيوبني من محتوياتها وأنا في الخارج . لم أتمكن من فهم هذا الرجل . وعندما كانت الخمر تطلق لسانه من عقاله فيتحدث عن الذي لا ينطق به ، وكان شبيهاً بالمسكاة القذرة التي يرتديها في المنجم . كان يجيد الحديث بل كان بليغاً فصيحاً أيضاً . لم يكن بوسعي أن أصدق أنه لم يكن مخلصاً . لا أدرى كيف خال بيالي ولكن راودتني الفكرة على كل حال ، بأنه قد اتخذ هذا العمل الشاق الفشوم في المنجم وكبت شهواته ، واءتقدت أنه كره جسمه المائل الشاذ وأراد تعذيبه ، وأن غشه في

---

(١) عملة المانية

اللعب وصرامته ووحشيته كانت ثورة إرادته ضده ، لا أدري ماذا تسميها — ضد غريزة متأصلة من القداسة والتقوى ، ضد الرغبة في الله التي كانت تفرضه ومع ذلك كانت تستولى عليه وتسيطر به .

• لقد قضينا وقتاً طيباً ، ووقف الربيع يودع آخر أيامه وقد بلغت مداها رواء ، وبدأت الأعناب في الكروم تمتلئ . وكنا نلزم الطرق القنطرة بقدر الإمكان . وقد بدأت تنفضي بالتراب . كنا قد أصبحنا على مشارف مدينة دارمستادت . وقال كوستي إن من الأفضل لنا أن نبحث عن عمل . بدأت تنضب تقودنا . كنت أحمل ستة صكوك سياحية في جيبتي ولكنني عثرت العزم ألا استعملها إذا ما كان بوسعي تحامي ذلك . وعندما كنا نرى بيت مزرعة يبشر بالخير كنا نتوقف ونسأل إذا كانوا في حاجة إلى عاملين . وربما كان منظرنا غير مشجع جداً . كان يغطي التراب والعرق والأفطار . كان كوستي يبدو سفاهاً مرعباً ولا أظن أنني كنت أحسن منه حالاً كثيراً . قولنا بالصدفة مرة بعد أخرى ، وفي مكان ما قال المزارع إنه سيأخذ كوستي ولكنه لا يستطيع استخدامي ، وقال كوستي نحن برعمان لا ينفصلان ، وأخبرته بأن يذهب ليعمل بدوئي ولكنه رفض هذا العرض ، ودهشت . عرفت أن كوستي قد مال إلي ، على الرغم من أنني لم أتمكن من أن أتصور سبب ذلك الميل فلم أكن الشخص الذي يفيد منه أية فائدة ولكنني لم أفكر قط أنه أحبني بالدرجة التي تجعله يرفض عملاً من أجلي . وشعرت بتأنيب الضمير ونحن نسير قدماً في طريقنا ، لأنني لم أحبه حقاً ، فالحق يقال إنني كنت أجده ثقيل المعشر تسمز منه النفس نوعاً ما ، ولكن عندما حاولت أن أقول شيئاً أظهر به سروري بما قد فعلت ردني بكلماته يكيهاها على رأسي .

• ولكن أخيراً . ابتسم لنا الحظ فإذهبنا بعيداً في قرية من منخفض ، ووصلنا بيت مزرعة متنقل كان يبدو أنه لا بأس به وقرعنا الباب ففتحت امرأة ، وقدمنا أنفسنا كالمعتاد فقلنا إننا لا نريد أجرأ ، ولكننا نرغب في العمل مقابل

المأوى والمأكل ولشدة دهشتي فبدلاً من أن تغلق الباب بعنف في وجهنا طلبت منا الانتظار . ونادت شخصاً داخل المنزل وبعد برهة قصيرة خرج إلينا رجل ، وحلق فينا جيداً وسألنا من أين قد أتينا وطلب الاطلاع على بطاقات تحقيق الشخصية ، ثم حدجني بنظرة أخرى عندما رأى أني أمريكي وبدا عليه أنه لا يرتاح إلى ذلك كثيراً ، ولكن على كل حال طلب منا الدخول ، ودعانا لشرب كأساً من النبيذ وأخذنا إلى المطبخ وهناك جلسنا ، أحضرت المرأة إبريق شراب وبعض الاكواب . وأخبرنا الرجل أن الرجل الأجير عنده قد نطحه ثور ويرقد في المستشفى ، وان يكون قادراً على العمل قبل أن يولى زمن الحصاد . ولما كانت الحرب قد قضت على الكثيرين من الرجال واجتذبت المصانع التي ظهرت على طول حوض الراين الآخرين منهم فقد أصبح من العسير جداً الحصول على اليد العاملة وعرفنا ذلك واعتمدنا عليه . حسنا وايكي لا نطيل الحديث ونختصر القصة فقد قال إنه سوف يقبلنا . وكان المنزل فسيحاً ولكن أظن أنه لم يتصور أنه يأوينا بين جدرانته وتحت سقفه ، وعلى كل حال فقد أخبرنا أن بعليّة الدريس يوجد سريران ، وهناك سوف ننام .

لم يكن العمل شاقاً فقد كان علينا أن نعى بالأبقار وكذلك الخنازير ، وكانت الآلات الزراعية في حال يرثى لها وكان واجباً علينا أن نفعل شيئاً لإصلاحها ومع ذلك فقد توفرت لي بعض الفراغ . لقد أحسيت رائحة المراعى العطرة فكنت أجول في المساء هنا وهناك وأعيش الأحلام . كانت حياة سعيدة .

كانت الأسرة تتكون من بيكر المجوز ، وزوجه ، وزوجة ابنه الأرملة وأطفالها . وكان بيكر مترهلاً أشيب الشعر في نهاية الحلقة الخامسة من العمر . خاض غمار الحرب وقارف خطوطها وما زال يقاسى من عرج بسبب جرح أصاب ساقه . كانت تؤله ألماً مبرحاً وكان يسرف في الشراب ليقضى على الألم . وكان من عاداته أن يأوي إلى الفراش متأخراً ، وكانت صلوات كوستي به طيبة وإعتاداً الذهاب



معاً إلى الحانة بعد العشاء ليأبى (الأسكات) ويجرعان النبيذ . كانت فروبيكر فتاة أجيرة جاءوا بها من ملجأً للأيتام . وتزوجها بيكر فور موت زوجته . كانت تصفره بسنوات كثيرة وجيلة الطلعة نوعاً ما أيضاً ، ناضجة ومتوردة الوجنات وذات شعر أشقر ونظرات عطشى . ولم يتكلف كوستى وقتاً طويلاً في الاقتناع بأن في الأمر شيئاً يجب أن يقضى ، ونصحت كوستى بالألا يكون أحق ، فقد كان عملنا طيباً ولم نرد أن نخسره . فما كان منه إلا أن سخر مني ، كنت أعرف أنه لا جدوى من الاستغاثة بحاجه التأدب عنده ، ولكنني نصحته بأن يكون حذراً ، ربما لا يدرك بيكر ما كان يرمى إليه ، ولكن كانت هناك كفته (١) ولا يفوتها شيء مما يجري حولها .

كانت إيللى ، وذلك اسمها ، شابة مكنتزة البدن ضخمة الجسم ، دون الثلاثين من العمر . لها عينان سوداوان وشعر حالك وجهها شاحب متناسب ونظراتها مكتئبة . ما زالت ترتدى الحداد على زوجها الذي قتل في موقعة فردان (٢) . كانت تقيّة صالحة ، وفي صباح أيام الأحاد تمشى متناقلة متجهة صوب القرية لحضور القداس الباكر ثم تعود إلى الكنيسة ثانية بعد الظهر لحضور صلاة المساء ، كانت أما لثلاثة أطفال ولد ثالثهم بعد موت زوجها ، وما تحدثت قط في أثناء الوجبات سوى لتوبخهم . كان عملها ضئيلاً في المزرعة ، ولكنها كانت تقضى معظم وقتها في العناية بالأطفال ، وفي المساء كانت تجلس في حجرة الجلوس والباب مفتوح لتتمكن من سماع البكاء إذا ما كان أحدهم يبكي ، وتقرأ الروايات . وكانت كل من المرأتين تذكره الأخرى ، وإيللى تزدرى فروبيكر لأنها كانت لقيطة ، وكانت

(١) الكفة : زوجة الابن .

(٢) إحدى المواقف التي جرت بين الفرنسيين والألمان في الحرب العالمية الأولى .

قد عملت خادماً واحتقرتها بمرارة لأنها كانت سيدة البيت وفي وضع يوهنها لأن تكون صاحبة الأمر فيه .

أما إيللى فكانت ابنة مزارع ناجح وقد جاءت ومعها بائنة طيبة . لم تذهب إلى مدرسة القرية ولسكن إلى زونجنبرج أقرب بلدة ، حيث كانت توجد جمنزيوم للبنات وحصلت على تعليم وتربية طيبة . وجاءت فروبيكر إلى المزرعة وهي في الرابعة عشرة من عمرها ، وكان تعليمها لا يعدو معرفتها بالقراءة والكتابة ، وكان ذلك سبباً آخر للاختلاف والحصام بين المرأتين . كانت إيللى تنتهز كل فرصة لإظهار معرفتها وعلما وتسأل فروبيكر ، وقد خضت حمرة الغضب وجهها « ما فائدة العلم لزوجة زارع ؟ ، حينئذ تنظر إيللى إلى صورة زوجها في القرص الذي تحمله في سلسلة من الصلب حول معصمها وبظنرة حادة على وجهها الصارم تقول :

« لست زوجة فلاح . إني أرملة فلاح قطع . أرملة بطل ضحى بحياته في سبيل بلاده . » .

وكان بيكر المسكين يترك عمله ليصلحها ويقر السلام بينهما .

قاطعت لارى سائلا : « ولكن ماذا كانوا يظنون بك ؟ »

« آه : ظنوا أنني قد هربت من الجيش الأمريكى ، ولم يكن في إمكانى العودة إلى أمريكا وإلا أودعت السجن . وهكذا فسروا عدم اهتمامى بالذهاب إلى الحانة وإعراغى عن شرب الخمر مع بيكر وكوسقى . ظنوا أنى لم أورد أن ألفت الانتار إلى نفسى وأدفع كونسابل القرية إلى التحرى عنى . ولما اكتشفت إيللى محاولتى لتعلم اللغة الألمانية أخرجت كتبها المدرسية القديمة وقالت إنها ستعلمنى ، وهكذا كنا نذهب بعد العشاء إلى حجرة الجلوس ، تاركين فروبيكر في المطبخ ، وأقرأ عليها بصوت مرتفع ، وهي تصوب نراتى وتحاول أن تفهمنى الكلمات التى لم

أستطع إدراك معانيها ، وحدثت أنها لم تكن تفعل ذلك بقصد مساعدتي بقدر ما كانت ترمي إلى خداع فروبيكر وزجرها .

« وطوال ذلك الوقت كان كوستي يحاول التقرب من فروبيكر والتودد إليها ولم يعد يبرح الدار . وكانت امرأة ماروبياً مريحة تميل إلى الدعابة والضحك معه ، وكانت له وسائله الخاصة في معاملة النساء ، وأخمن أنها كانت تعرف ما يهدف إليه وربما كان يفرها الثناء ؛ ولكنه عند ما بدأ يقرصها أخبرته أن يكف يده عنها ، ولطمته على وجهه وإني لعلى يقين أنها كانت لهلمة قاسية جداً . »

تريت لارى قليلا ثم ابتسم خجلا هوذا ما .

« لم أكن في حياتي إطلاقاً الرجل الذي يظن أن النساء يلاحقني ، ولكن حدث لي أن — حسناً — فروبيكر سحرت بي وقد ضايقني ذلك إلى حد ما ، فن جانب السن كانت تكبرني كثيراً ومن جانب آخر كان ييكر العجوز لطيفاً جداً معنا وكانت تعرف الطعام في الأطباق على المائدة ، وكان لا بد أن ألاحظ أنها تعطيني بنسخاء أكثر من الآخرين ، وبدأ أنها تهجين الفرص لتكون معي على انفراد وبنجوة عن الآخرين . وتأنت تبسم إلى في صورة أسمها على ما أظن مشيرة وتساألني إذا ما كان لي صديقة ، وتقول إن شاباً مثلي لا بد وأن يقاسى لعدم وجود فتاة معه في مثل ذلك المكان ، وإنك لعلى علم بالأمر ، فلم أكن أملك سوى ثلاثة أقصة فقط بليت كلها أو كادت . وذات مرة قالت إنه لعار أن أرتدى مثل هذه الأسماال البالية ، فإذا حملتها إليها أصلحتها لي . سمعتها إبلى وفي المرة التالية التي جمعنا معاً وحيدين فقالت إنه إذا كان لدى شيء أبني إصلاحه فهي التي ستصلحه فأخبرتها أن ذلك أمراً ليس بذى بال . ولكن بعد يوم أو يومين وجدت أن جواربي قد رقت وأفصتي رقت وأعيدت إلى مكانها السابق على الرف الذي كنا نحفظ عليه ما لدينا من أشياء ، في العلبة ، ولكن أي المرأتين قد قامت بذلك ، لا أعلم ،

وطبها فإني لم آخذ الأمر مأخذ الجدم مع فروبيكر ، فقد كانت سيدقريقة عجوزاً وظننت أنها تنظر إلى الأمر من جانبها كما تنظر الأم إلى ابنها ، ولكن ذات يوم فيما بعد قال لي كوستي :

« اصنع لي يا صاح ، إنها لا تريدني ، إنها تريدك أنت . فلم تسخ لي الفرصة . »

« قلت له : « لا تقل مثل هذا الهراء ، إنها في مثل عمر أمي . »

« وما شأن هذا ؟ تقدم يا فتاي ، فإني لا أقف في طريقك . إنها ليست شابة كما يجب أن تكون ولكنها صورة مجسمة للمرأة المليحة . »  
« اصمت . »

« لماذا تردد ؟ أرجو ألا أكون السبب . إني فيلدف وأعرف أن في البحر أسماكاً جيدة كنتك التي خرجت منه . فلا ألومها . إنك شاب وكنت أنا شاباً أيضاً ، ثم قال بالفرنسية : « ما الشباب إلا لحظة . »

« لم أكن مرتاحاً لأن كوستي كان متأكداً كل التأكد مما لا أود أن أومن به ، ولم أدرك تماماً كيف أسلك في هذا الوضع ، وحينئذ تذكرت أشياء عدة لم تخطر لي يال في ذلك الوقت ، أشياء قالتها لإيللي ولم أعرها اهتماماً كبيراً . ولكنني آنئذ فهمتها ووثقت كل الثقة أنها أيضاً عرفت ، ما كان يحدث . فتظاهر بلجأة في المطبخ إذا حدث وكانت فروبيكر : أنا وحيدتين ، وأحسنت أنها كانت تراقبنا ولم أحب ذلك وظننت أنها كانت تتأهب لاقتناصنا . كنت أعرف أنها تبغض فروبيكر . وأنها إذا سنحت لها بعض الفرصة فلن تتواني عن التشهير بنا وإثارة القلاقل حولنا . وكنت أعرف طبعا أنها لن تتمكن من أن تمسك بنا . ولكنها كانت مخلوقاً شريراً ، ولم أعرف الأكاذيب التي ستخترعها لتصبها في أذني بيكر العجوز . ولم

أجد مخرجاً من هذا المأزق غير أن أدعى البلاهة حتى أنى لم أدرك ما كانت تستهدفه الفتاة العجوز . كنت سعيداً في المزرعة واستمتع بالعمل ولم أرغب في الرحيل إلا بعد جمع المحصول . .

لم أتمالك نفسى من الابتسام وبوسمى أن أتصور كيف كان لارى يسود حينذاك ، بقميصه المرقم وسراويله القصيرة ، وقد أحالت شمس وادى الراين الحارة لون وجهه ورقبته أسمر داكناً يجسمه اللدن الأهيف وبعينه السوداوين فى محجرتيها العميقين وإنى لقادر حقاً أن أصدق بأن منظره قد جعل فرويكر الكهله الشقراء ممتلئة الصدر تضطرم الرغبة فى كل كيانها .

سألته : « حسنأ ، وماذا حدث ؟ »

« حسنأ ، انصرم بالصيف . كنا نعمل كالشياطين هناك . كنا نحصد القمح ونضعه فى عرصات . ثم نضج الكرز وكنت وكوستى نصعد على السلام وقطفها ، والمرأتان تضمانها فى سلال عظيمة يحملها بيكر العجوز إلى زوننجبرج ويبيعها هناك . ثم نحصد الشوفان . وطبعأ دائماً كانت هناك البهائم نعى بأمرها . كنا نستيقظ قبل الفجر ولا نتوقف عن العمل قبل أن يخيم الظلام . أظن أن فرويكر قد ينست منى إذ لم نجد طائلا ورائى . ولقد تحاميت القرب منها والألفة معها بقدر الإمكان من غير أن أسبىء إليها أو أزعجها . فكنت أشعر بسلطان النوم على فى الأمسيات حتى أتى لم أستطع قراءة كثير من اللغة الألمانية . وفور الانتهاء من تناول العشاء كنت أذهب إلى العلية وأرقد فى فراشى وكان بيكر العجوز وكوستى يذهبان إلى الحان فى القرية فى معظم الأمسيات . ولكنى كنت أستغرق فى النوم قبل أن يعود كوستى . كانت العلية حارة وكنت أنام متجرداً

من ملابسى ، وخشيت عواقب نزوات النفس فقررت أن أفضل ما يمكن عمله هو  
الرحيل من هذا المكان .

و غالباً ما كنت ألن كوستى لأنه لم يكن يستيقظ إلا بمشقة وعند ما عملنا فى  
المنجم اعتدت أن أهزه هزاً عفيفاً لأبعث فيه الحياة حتى يصحو فى الموعد  
المناسب لنذهب إلى العمل ولكفى حينئذ شكرت الله لاستفراته فى النوم . فأشعلت  
الفانوس وارتديت ملابسى وحزمت متاعى فى الخرج — لم يكن متاعى بالثمن  
الكثير ، فلم يستغرق من الوقت دقيقة واحدة ودست ذراعى خلال سيور الخرج  
الجلدية . ومشيت عبر العلية فى جوارى ولم أقتل حذائى إلا بعد أن بلغت أسفل  
السلم . أطفأت الفانوس . كانت ليلة ظلماء ، فقد احتجب القمر ، ولكفى عرفت  
طريقى ويمت صوب القرية . وأوسعت الخطى فقد كنت أريد أن أبنفها قبل أن  
يصحو الناس من نومهم وينثروا فى أنحائها . كانت المسافة إلى زونجنبرج لثمن  
عشر ميلاً فوصلتها بمجرد أن دبت فيها الحياة . ان أنسى ما حيت هذه المسيرة .  
وكان لا يسمع ركز ولا صوت سوى صوت وقع أقدامى فى الطريق وأصوات  
صياح ديك فى مزرعة من آن لآخر . ثم جاءت الرمادية الأولى عند ما لا يكون  
ضياء بعد ولا يكون ظلام تام ، ثم لاحت تباشير الفجر الأولى . وأشرقت الشمس  
وبدأت الطيور كماها تغرد ، وظهر الريف الخصب الأخضر والمرعى والغابات  
ونحول القمح ذهبية فضية فى الضوء الرطيب لليوم الوليد . تناولت قدهاً من  
القهوة مع كعكة فى زونجنبرج ، ثم ذهبت إلى مكتب البريد وأبرقت إلى الأمريكان  
لكبرىس لإرسال ثيابى وكتبى إلى مدينة بون .

قاطعته سائلاً : د ولماذا بون ؟

د لقد أحببتها عند ما توقفتنا ، بها ونحن نسيح مشياً على الأقدام هابطين وادى  
الراين . لقد أحببت إشرافة النور على أسطح المنازل وصفحة النهر . لقد أحببت

شوارعها الضيقة العتيقة ، وفيلاتها وحدائقها وشوارعها الكبيرة وأشجارها  
الكستناء على جوانبها ومباني الجامعة الاركسك(١)، وجمال بخلدي حينئذ أنها مكان  
لا بأس به للإقامة فترة من الزمن . ولكن رأيت من الأفضل أن أبدو بالمظهر  
الجدير بالاحترام عند ما أذهب إلى هناك فقد ظهرت بمظهر جواب الآفاق ، ولم  
أفكر أتى أوحى بالثقة كثيراً إذا توجهت إلى (بنسيون) وطلبت حجرة ، ولنا  
أخذت القطار إلى فرانكفورت واشترت حقيبة صغيرة وبعض الملابس القليلة .  
وأقت في بون وطال في المقام حتى مر عام ، .

• وهل حصلت على شيء من خبراتك وتجاربك ، في المنجم ، أقصد ، وفي  
المزرعة ؟ .

قال لارى وهو يومي برأسه ويتنم ، • نعم ، .

ولكنه لم يخبرني ما الفائدة التي جناها وكنت قد عرفته جيد المعرفة حينذاك ،  
فعرفت أنه إذا أحس برغبة في الإفضاء إليك بشيء، فعل ذلك من تلقاء نفسه ،  
ولكنه إذا لم يرد حول الأسئلة وجهة أخرى بلطف هادئ، رصين يجعل من  
العبث البهاجة في العالب . ولذا يجب أن أذكر القارىء . بأنه قص على كل هذه  
الأحداث بعد عشرة أعوام من حدوثها . وحتى ذلك الوقت ، وعند ما اتصلت  
به ثانية ، لم تكن لدى فكرة ما عن مقامه أو عمله وكل ما عرفته أنه ربما يكون  
قد مات . ولولا استمرار صداقتي مع إايوت الذي استمر يوالينى برسائله حاملا  
إلى مجرى حياة إيزابل وبذلك كان يذكرني بلارى ، لولا ذلك لنسيت وجوده  
من غير شك . .

---

(١) بوصف بذلك شيء مزخرف بطريقة الركوك وهو ضرب من الزخرفة .  
( م ١٢ — حد ناوسى )

(٣)

وتزوجت إيزابل من جراى فى أوائل يونيو من العام بعد فم خطبتها إلى لارى ، ولم يكن إليوت راغباً فى ترك باريس والموسم الاجتماعى فى أوجه ، وأن يفتب عن عدد من حفلاتها الكبرى ، إلا أن شعوره بأسرته كان قوياً بحيث لم يأذن له فى إهمال ما حبه واجباً اجتماعياً . ولم يكن إخوة إيزابل بمستطيعين ترك مراكزهم البعيدة ، ولذلك فقد حسن له أن يقوم بالرحلة الجهدة إلى شيكاغو .

ونذكر أن أشراف فرنسا قد ذهبوا إلى المقصلة وهم يرتدون أنفر ملابسهم ، قصد لندن حيث اشترى لنفسه بذلة جديدة للصباح ، وصديرياً رمادياً ، وقبعة من الحرير . وعلى أثر عودته إلى باريس دعانى لرؤيته وهو فى ملابسه الجديدة ، وكان بادى القلق لأن لؤلؤته الرمادية التى تعود أن يزين بها ربطة العنق لم تعد تتلام مع ربطة العنق الرمادية التى اختارها لهذه المناسبة ، واقترحت عليه الدبوس الزمردى .

وقال : « لو كنت ضيفاً لعمك باقتراحك ، ولكن نظراً للمركز الخاص الذى سوف — أشغله ، فأتى أشعر أن اللؤلؤة هى ما ينصح به فى مثل هذه الحالة .»

وكان سعيداً بالزواج غاية السعادة ، فإنه يتفق مع آرائه فى اللياقة ، وتحدث عنه بحماسة الدوقة الطريفة اللقب وهى تعبر عن تكافؤ الزواج بين ابن لارشيوفوكول ، وابنة مونت مورنيز . وعلامة على رضاه أخذ معه هدية الزفاف ، صورة رائعة لأميرة من البيت المالئ فى فرنسا بريشة فاتييه (١) وهو غير مقتصد فى النفقات .

(١) جين مارك (١٧٦٦ - ١٦٨٥) أشهر برسومه لبيئات البلاط لوزير الخاه من عشر



وبدا أن هنرى ماتيوين قد اشترى للعروسين بيتاً فى شارع إستوراى-كونا على مقربة من السيدة برادلى وغير بعيد من بيته الفاخر فى لاىك شوردرائف .

وبمصادقة سعيدة ، أشك فى أن لإليوت بدأ فى تدبيرها ، كان جريجورى برابازون فى شيكاغو عند شراء البيت ، فهد لإيه بزخرفته . ولما عاد إليوت إلى أوربا قصد لندن مباشرة ، فلم تعد له حاجة فى موسم باريس ، وأحضر معه صورة البيت بعد أن أتم برابازون زخرفته ، وقد ترك برابازون نفسه على سجيتهما لجعل غرفة الاستقبال على طراز جورج الثانى ، وكانت فخمة ، وفى المكتبة ، وهى صومعة جراى ، استوحى غرفة فى قصر أمالينبرج فى ميونخ ، وبلغت حد السكال ، ولم يكن ينقصها غير شىء واحد ، هو أنه لم يكن فيها مكان للكتب . وجعل غرفة العروسين الأمريكين على ما يشتهى لويس الخامس عشر وهو يزور عشيقته مدام بومبادور إذا استئينا الفراش المزدوج . ولسكن حمام لإيزابل كان مثيراً للدهشة حقاً ، فكله من الزجاج ، الجدران والقف والحوض . وعلى الجدران كان السمك الفضى ينساب بين النباتات المائية الموهبة بالذهب .

وقال إليوت : « طبعاً ، إنه بيت صغير ، ولكن هنرى أبلغنى أن زخرفته كلفته مائة ألف دولار ، وهذه ثروة عند بعض الناس ، .  
وكن احتفال الزفاف عاشداً على قدر ما تتحمله طقوس كنيسة إنجيلية .

وقال لى فى ارتياح : « إنه ليس زفافاً كالذى يتم فى كاتدرائية نوتردام ، ولكن لا ينقصه شىء باعتبار، زواجا بروتستانتينيا ، .

وكان مسلك الصحافة إزاء الزواج رائعاً ، وقدم إلى إليوت قصاصات الصحف فى شىء من عدم الاهتمام ، وأراني صوراً لإيزابل ، وكانت جميلة فى ثوب الزفاف وإن بدت كأنها مثقلة به . وبدا جراى جسيماً ، ولكنه كان مثالا رائعاً للرجل ،

وشيء من الفلق يعمل في داخله وهو في ملابسه الرسمية . وكان هناك عدد من الوصيفات يحف بالعروسين ، وجماعة أخرى تحيط بالسيدة برادلي وهي في ثوبها الفاخر ، وكان إليوت يمسك بقبعة العالية الجديدة برشاقة لا يتقنها غيره . وسألته عن صحة السيدة برادلي ، فأجابني بقوله : « لقد نقص وزنها كثيراً ، ولونها لا يعجبني ، ولكن لا بأس بها ، طبعاً كان الأمر كله فوق احتمالها ، ولكن ما دام كل شيء قد انتهى فهي تستطيع أن تستريح الآن » .

. وبعد سنة وضعت إيزابل طفلة ، وأسمتها « جوان » ، وكان الاسم شائعاً في ذلك الوقت . وبعد سنتين وضعت طفلة ثانية أسمتها « بريسيلا » ، حسب الشائع من الأسماء أيضاً .

ومات أحد شركاء هنري ماتيورين ، وسرعان ما اعتزل الاثنان الآخران تحت الضغط ، وهكذا أصبح المالك الوحيد للعمل الذي كان يسيطر عليه دائماً سيطرة كاملة . وحقق الطموح الذي كان يراوده طويلاً ، وأشرك جراي معه في العمل . وحقت المؤسسة ازدهاراً ونجاحاً لم تحققهما من قبل .

وقال لي إليوت : « المال يتدفق عليهما بغير حساب ، ولم لا ؟ وهذا جراي يكسب خمسين ألفاً في العام في سن الخامسة والعشرين . وهذه مجرد بداية فوارد أمريكا لا تنضب . وليست هذه ضربة من ضربات الحظ أو صعود في السوق ، ولكنه النمو الطبيعي لبلد عظيم » .

واتفخ صدره بزهو وطني ليس غريباً عنه .

قال : « ولن يعيش هنري ماتيورين إلى الأبد ، فضغطه عال كما تعلم ، وعندما يبلغ جراي الأربعين ستصل ثروته إلى العشرين مليوناً من الدولارات ، شيء رائع يا صديقي العزيز ، رائع حقاً » .

وكان إبيوت يكاتب شقيقته بانتظام ، وكان من وقت لآخر والسنون تتوالى ينقل إلى ما كانت تباته . وكان جراى وإيزابل سعيدين غاية السعادة ، والطفلتان رائعتين . وكانا يعيشان على أسلوب أقر إبيوت ، وهو مقتبط ، انه مناسب كل المناسبة ، وكانا لا يكفان عن إقامة الحفلات ، أو الاشتراك في الحفلات ، وتاللى وهو لا يخفى ارتياحه ، إن إيزابل وجراى لم يتناولوا الطعام بمفردهما ولا مرة في ثلاثة أشهر . وقطعت دوامة الريح التى كانا يعيشان فيها بوفاة السيدة مانيورين وهى المرأة العاطلة من الجمال ذات المواد الرفيع ، التى تزوجها هنرى مانيورين لاتصالاتها الممتازة عند ما كان يهيم لنفسه مكانا في المدينة التى جاءها أبوها ريفياً ساذجا ، وظل الزوجان الشابان لا يدعوان غير ستة أشخاص على العشاء لمدة عام كامل احتياماً لذكرى هذه السيدة .

وقال إبيوت ، عازماً أن يكون متفائلاً : « لئن أقول دائماً إن العدد ثمانية هو الأمثل ، فهو يسمح بتبادل الحديث العام ، وفي نفس الوقت يجعلك تشعر كأنك في حفلة . »

وكان جراى سنجياً للغاية مع زوجته ، فعلى أثر مواد طفلتها الأولى ، قدم لها غاتما ذا ماسة مربعة ، وفي مولد الطفلة الثانية قدم لها معطفاً من الفراء الثمين . وكان انهما كه في العمل بمنعه من ترك شيكاغو كثيراً ، ولما كنهما كانا يقضيان الإجازات التى كان يستطيع الحصول عليها في بيت مانيورين الكبير في مارفن . ولم يكن هنرى يبخل بشيء على ابنه الذى كان يحبه أشد الحب . وفي أحد أعياد الميلاد منحه مزرعة في ساوث كلرولينا يتيح له فرصة صيد البط في موسم كل أسبوعين .

وقال إبيوت : « إنك ترى ، بلاشك ، أن أمراء التجارة عندنا يقابلون حماة الفنون العظماء إبان النهضة الإيطالية الذين أثروا عن طريق التجارة ، ومتمهم

آل مدينتى على سبيل المثال ، ولم يجد ملكان من ملوك فرنسا غناضة ولاضة في مصاهرة هذه العائلة المشهورة ، وإتقأ أتباعاً باليوم الذى يطلب فيه ملوك أوروبا أياى أميرات الدولار ، وعندئذ تتحقق قولة شيلي « ويبدأ عصر عظيم من جديد ، وتعود الأيام الذهبية » .

وظل هنرى ماتيويرين زمنا طويلا يعرض استثمارات السيدة برادلى وإليوت ، وكانا محققين في نقتهما بقدرته وذكائه ، وأحاط ما هما بالضمانات السليمة ، وسرعان ما وجد أن ثروتهما المتواضعتين نسيباً ، قد ازدادتا بطريقة أذهلت الاثنين وسرتهما . وأبلغت إايوت أن ثروته في عام ١٩٢٦ أصبحت ضعف ما كانت عليه عام ١٩١٨ بدون أن يحرك أصبعا واحداً . وكان في الخامسة والستين وكان شعره قد وخطه الشيب ، وتغضن وجهه ، وانتفخ ما تجت عينيه ، ولكنه كان يتحمل ثقل السنين في شجاعة ، وظل شامخ الرأس منتصب القامة كدأبه ، فلم يكن مسرفاً في عاداته ، وكان يتم يظهره ، ولم يكن ميالا إلى المنوع لرفاهية العصر ، وإن كان يحرص أن يعهد ببذله إلى أحسن حائك في لندن ، وأن يعهد بشعره إلى حلالة الخاص ، وأن يأتى المملك كل صباح ليمينه على الاحتفاظ برشاقة جسمه . ونسى من زمن بعيد أنه كان قد امتن نفسه بالعمل في التجارة ، وهو لم يقل هذا صراحة لأنه لم يكن من النبأ بحيث يدلى بكذبة لا بد أنها ستتكشف ، ولكنه كان يلمح أنه عمل في ذلك الدبلوماسية في شبابه ، ولا بد أن أقر أتقأ لو أتاحت لي فرصة رسم صورة سفير لاخترت إايوت نموذجاً لي .

ولكن الأشياء كانت تتبدل وتتغير ، فالسيدات العظيمات اللواتي رفعن إايوت في حياته العملية إلى الأمام فقدن سلطانهن مع الزمن ، فنيلات إنجلترا وقد فقدن اللوردات أجبرن على التخلي عن القصور الريفية إلى زوجات بنهن وانزوين في فيلاتين في شيلتهام ، أو في بيوتهن المتواضعة في ريخت بارك ، وتحول قصر متافورد إلى متحف ، وأصبح قصر كيرزون مقرا لإحدى المنبئات

وحرص نصر ديلفونشاير للبيج ، وانتقل بخت إليوت إلى أيدي غيره ، وكان من عادته أن يقضى فيه أيامه في كاوز . ولم يعد رجال المجتمع الجدد في حاجة إلى رجل كبير مثل إليوت ، فقد وجدوه متعباً ، ومثيراً للسخرية ، وكانوا لا يزالون يرحبون بدعوتهم إلى حفلات الغداء في نادي كلاريدج ، ولكنه كان ذكياً بحيث يدرك أنهم إنما جاءوا ليلتي بعضهم بعضاً لا ليروه . ولم يعد يفاضل بين الدعوات التي كانت تنال عليه ، ولكنه لم يسمح للآخرين أن يعرفوا كيف أصبح يقاسى من مهانة تناول الطعام بمفرده . وكان من عادة سيدات الطبقة الراقية الإنجليزية ، عند ما توصل الفضايح أبواب المجتمع في وجوههن ، أن ينصرفن إلى الفنون ويحطن أنفسهن بالرسامين ، والكتاب ، والموسيقين ، ولكن إليوت كان ضئيلاً بكبريائه أن يفعل هذا .

• وكان في ضريبة التركات ، وظهور طبقة التجار الجشعين القضاء على المجتمع الإنجليزي كما قال إليوت الذي أضاف : « ويبدو أن الناس لم يعد يعيهم من يعرفون ، ولا تزال لندن محتفظة بخيرة حائكيها وصانعي الأحذية والقبعات فيها ، وأعتقد أنهم سيظلون بهدى ، ولكن كل شيء قد انتهى فيما عداهم . هل تعلم ، يا صديقي العزيز ، أن في مطعم سانت أرت مضيفات ؟ »

وكان ينقل إلى هذا الحديث ، ونحن نغادر شركة كارلتون هاوس بعد حفلة غداء كانت مسرحاً لحادثة مؤسفة . فقد كان مضيفنا اللورد يملك مجموعة من الصور ، وأعرب أحد الحاضرين ، وهو أمريكي يدعى بول بارتون عن رغبته في مشاهدة الصور ، وسأله : « هل لديكم لوحة من لوحات تيتيان ؟ »

« كنا نملك واحدة ، وهي الآن في أمريكا ، فقد عرض علينا يهودى عجوز مبلغاً كبيراً من المال ثمنها لها ، وكنا نعاني شيئاً من العسر فباعها ولى أمرنا . »

ولمحت إليوت ، وقد اتفخ صدره غيظاً ، وهو يلتي نظرة هائلة علي ماركيز

مرح ، وقدرت أنه هو الذي اشترى الصورة ، واستشاط غضباً لأنه يوصف بهذا الوصف وهو من أبناء فرجينيا وحفيد موقعي وثيقة الاستقلال ، ولم يواجه مثل هذه الإهانة في حياته من قبل ، وبما زاد الأمر وبالأن بول بارتون كان هدفاً لكرهيته المميتة . وبول بارتون شاب أمريكي ظهر في لندن بعد الحرب بقليل ، وكان في الثالثة والعشرين أشقر وسيماً جذاباً ، وراقصاً بارعاً ، وكان يملك ثروة وفيرة . وقد قدم على إليوت يحمل خطاب توصية ، وتولى إليوت بما أثر عنه من طيبة ، تقديمه إلى عديد من أصدقائه . ولم يكتف بهذا فلقنه بعضاً من آداب السلوك القيمة ، وآراه ، مستوحياً خبراته الماضية ، كيف أنه في ميسور الأجني أن يثبت طريقته في المجتمع الإنجليزي بشيء من الالتفات إلى السيدات العجائز ، والإنصات إلى حديث الرجال البارزين .

ولكن العالم الذي دخله بول بارتون كان يختلف عن العالم الذي غراه إليوت تملتون قبله بجيل بالثابرة والعناد . فقد كان عالماً يميل إلى الترفيه عن النفس ، وما كتبه بول بارتون بمرحه وروحه العالية وأسلوبه الأسرع في أسابيع قليلة كسبه إليوت بعد سنوات من الجهد والثابرة . ومرعان ما وجد نفسه في غنى عن معونة إليوت ، ولم يهتم بإخفاء هذه الحقيقة . وكان لطيفاً معه إذا ما تقابلا ولكن على نحو مفتعل كان يؤلم الرجل الكبير أشد الإيلام . ولم يكن إليوت يدعو الناس إلى حفلات الزداء لأنه يحبهم . ولكن لأنهم كانوا يعملون على نجاح الحفلة ، وهكذا استمر يدعو بول بارتون، إلى حفلة الزداء الأسبوعية لأنه كان محبوباً ، ويمنح حوله جواً من البهجة والسرور ولكن الشاب الناجح كان مشغولاً ، ورفض دعوة إليوت مرتين في آخر الحفلة وحاول إليوت أن يتجاهل أن الشاب إنما فعل هذا مفضلاً دعوة أشد إغراء .

وقال لي إليوت وهو يغلي من الغضب : « إنني لا أطلب منك أن تصدق

ولكنها الحقيقة ، إن هذا الدعي لن يتعرف على صورة لتيبيان إذا ما عرضت عليه واحدة منها .

وما رأيت إليوت غاضباً هكذا من قبل ، وكان مبعك غضبه اعتقاده أن بول بارتون قد تعدد السؤال عن الصورة في خبث ، وقد علم بطريقة ما أن إليوت هو الذي اشتراها ، وأنه سوف يستخلص قصة مسنية من جواب اللورد على حسابه .

واستطرد إليوت يقول محملاً حديثه شيئاً من السخرية : « إنه ليس أكثر من مدع قذر ولا أكره شيئاً واحترمه مثل نظرف المدعي ، ولولاي لما أصبح شيئاً مذكوراً في المجتمع . هل تصدق أن أباه يصنع أثاث المكاتب ؟ ، وعندما أقول للناس إنه لا أصل له في أمريكا ، لا يبلغو عليهم شيء من الاهتمام . صدقني ، يا صديقي العزيز ، إن المجتمع الإنجليزي قد قضى عليه كما قضى على طائر اللودو .

ولم يجد إليوت فرنسا أحسن حالاً ، فالسيدات العظيمات اللواتي كان يعرفهن في شبابه ، أصبح من بقين على قيد الحياة منهن ، يقضين وقتهن في لعب البردج وهي لعبة يحبها إليوت ، أو في أعمال الخير ، أو في العناية بمحفدتهن . واحتلت الأمريكيات المطلقات أو المنفصلات عن أزواجهن بيوت الطبقة الراقية ، وكان يقدمن حفلات باهرة ، كان إليوت يجد نفسه مكرهاً على مقابلة رجال السياسة الذين يتكلمون الفرنسية بلمجة منفرة ، وصحفيين لا يرعون آداب المائدة ، فمخلاً عن الممثلين، ولم يجد أبناء الأسر العريقة حرجاً في الزواج من بنات البقالين . حقا كان المرح يملأ باريس كمهدا ولكنه كان مرحاً ممسوخاً ، فالشباب كان مهمهم مطاردة اللذة والمتعة في جنون ، فكانوا ينتقلون من ناد ليلي إلى آخر يحتسون الشمبانيا الرخيصة ، ويتراقصون متلاصقين مع حشائمه النساء المدبنة حتى

الساعة الخامسة صباحاً ، وكان الدخان ، والحرارة ، والضوضاء تصدح رأس إليوت . لم تكن باريس هذه هي التي عرفها منذ ثلاثين سنة ، واعتبرها ملاذ الروحي . لم تكن باريس هذه هي التي كان يذهب إليها الأمريكيون الصالحون بعد موتهم .

### ( ٤ )

وكان لإليوت حدس ونذير حسن أوحيا إليه أن الريفيرا على وشك أن تصبح مرة ثانية ، ملاذا للطبقة الراقية ، وكان يعرف هذا الساحل معرفة طيبة لأنه كثيراً ما كان يقضى بضعة أيام في أوتيل دى بارى في مونت كارلو وهو في طريقه عائداً من روما حيث كانت واجباته في البلاط البابوي تدعوه إلى هذه الزيارة ، أو كان ينزل في كان في فيللا واحد من أصدقائه . ولكن كان يحدث هذا في الشتاء ، ولكن الشائعات بدأت تصل إليه مؤخراً أن الريفيرا قد أصبحت مصيفاً مستطاباً ، والفنادق الكبرى تظل مفتوحة ، وأدرج نزلاؤها الصيغيون في أعمدة المجتمع في صحيفة « باريس هيرالد » ، وقرأ إليوت الأسماء المعروفة في ارتياح واستحسان .

رقال : « لقد وصلت الآن إلى السن التي أجد نفسي فيها مستعداً للتمتع بجمال الطبيعة ، » .

قد تبدو الملاحظة غامضة ولكنها ليست كذلك في الواقع . فقد كان إليوت يشعر دائماً أن الطبيعة تعوق الحياة الاجتماعية ولم يكن ذا صبر على أولئك الذين يهتمون بمشاهدة بحيرة أر جبل وأمامهم قطعة أثاث نادرة . أو لوحة من



رسم واتو (١١) . وكان في ذلك الوقت يملك قدراً محترماً من المال ينفق منه . قد تخلى هنري ماتيورين عن تحوطه القديم شيئاً فشيئاً بتحريرين من ابنه ، ولأنه رأى أصدقاءه يكسبون ثروات كبيرة من البورصة في أيام قليلة ، فلم ير ما يمنعه من أن يجارى الأحداث فكتب إلى إليوت يقول : «إنه كعده دائماً لا يزال ضد المقامرة . ولكن هذه ليست مقامرة ، ولكنه تأكيد لعقيدته في موارد البلاد التي لا تنضب . وكان تماؤله مبنياً على إدراك سليم للأمور ، فلم يكن يرى شيئاً يعوق تقدم أمريكا وازدهارها ، وأنهى رسالته بأنه اشترى عدداً من السندات لحساب لويزا برادلي العزيزة ، وأنه يسه أنه يستطيع أن يبلغ إليوت الآن أنها قد ربحت من وراء هذه السندات عشرين ألف دولار ، وإذا كان إليوت راغباً في كسب شيء من المال ، وأن يترك الأمر لحسن تقديره فلن يخيب ظنه . وعقب إليوت أنه يستطيع مقاومة أى شيء اللهم إلا الإغراء ، متبعلاً قوله أحد الساخرين . ومن ذلك الوقت لم يعد يلتفت إلى عامود المجتمع في صحيفة الهيرالد عندما تجلب له مع طعام الإفطار ، بل كان يبدأ بقراءة أسعار البورصة . وسجل هنري ماتيورين نجاحاً كبيراً في العملية . بحيث أصبح إليوت ذات يوم ليجد أنه قد أضاف إلى رصيده خمسين ألف دولار لم يفعل شيئاً في الحصول عليها .

وقرر أن يشتري هذا المبلغ الذي جاءه من غير عناء بيتاً في الريفيرا ووقع اختياره على أتيب لتكون ملاذته بعيداً عن العالم ، وتقع أتيب في مكان وسط بين كان ومونت كارلو بحيث يسهل الوصول إليها من أيهما ، ويصعب القول إذا ما كانت العناية الإلهية أو سليلته هي التي دفعت إلى اختيار هذا المكان الذي

---

(١) جان أطلوان واتو ( ١٦٨٥ - ١٧٢١ ) مصور ولد في فالنسنيوز وهي مدينة كانت قديماً ثم صارت فرنسية ، مؤرخاً ورسوماً يعمل إحساساً بالزوال . نزل لندن وباريس ومات بها .

سرعان ما أصبح مركزا للصفوة . وكان ذوقه المصني يمج الفيلات ذات الحدائق التي تذكره بسوقية الضواحي ، ولذلك فقد اشترى بيتين في البلدة القديمة يطلان على البحر ، وجعل منهما بيتا واحدا وأنشأ فيه مركزا للتدفئة ، وحمامات ، المستلزمات الصحية التي فرضها الذوق الأمريكى على أوروبا المتقدمة . وأثته على الطراز البروفنسى القديم وإن كان يأخذ بشيء من الطابع العصرى . وكان لا يزال عازفاً عن قبول رسامين أمثال بيكاسو وبراك ، وكان بعض المهوسين المضللين يلفظون حولهما لفظاً شديداً ، وكان يقول لى : ، يا لفظاعة هذا الرسم يا صديق اء ، ولكنه وجد فى نفسه ميلا إلى بسط رعايته على التأثيرين ، فزين جدران بيته ببعض الصور ارائعة منها على ما أذكر ، لوحة لمونية لبعض الناس يجدفون فى نهر ، و لوحة أخرى لبيسارو لرصيف وجسر على نهر السين ، ومنظر من مناظر تاهيتى الطبيعية بريشة جوجان ، وصورة رائعة لفتاة وضفائر شعرها الأصفر الطويل تتدلى على ظهرها من رسم رينوار ، وبدا بيته بعد أن أتمه تأثيلاً وزخرفة بهيجاً وظريفاً مع شيء من البساطة التي تجعلك تدرك أنها بساطة كلفت صاحبها الكثير من النفقات .

ثم بدأت أروع مرحلة فى حياة إايوت ، فأحضر رئيس طهاته من باريس وسرعان ما اعترف له أنه يملك أحسن مطبخ فى الريفيرا . وألبس رئيس الخدم والخدم ملابس بيضاء بشرائط ذهبية فوق الأكتاف . وأولم الولايم الباذخة التي لم تتجاوز قط نطاق الذوق السليم . وانتشر على شواطئ البحر المتوسط عدد من الأسر الملكية من مختلف أنحاء أوروبا ، ومنهم من كان ينشد الطقس اللطيف ومنهم من كان نفعيا ، ومنهم من ألبأته فضيحة قديمة أو زواج فاشل إلى العيش فى بلد أجنبي ، فكان هناك آل رومانوف من روسيا ، والبوربون من أسبانيا ، وصقلية وبارما ، وكان هناك أمراء من بيت وندسور ، وأمراء من بيت برانكا ، وأصحاب السمو من السويد ، وأصحاب السمو من اليونان ، وكأى إايوت يدعوهم

إلى ولائمه. وكان هناك أمراء وأميرات لايجرى الدم الملكي في عروقهم ، ودوقات  
ومر كيزات من النمسا وأسبانيا وروسيا وبلجيكا ، وكان إليوت يدعو هؤلاء  
وهؤلاء إلى ولائمه . وفي الشتاء وفد ملكا السويد والدانيمارك إلى الساحل لقضاء  
بعض الوقت . ثم جاء الفونسو ملك أسبانيا في زيارة سريعة ، وأقام إليوت  
المآدب تكريماً لهم . ولا زلت أعجب بالطريقة التي كان ينحنى بها محبياً ضيوفه  
من أصحاب الجلالة والسمو ، ويحتفظ ، في الوقت نفسه ، بطابع المواطن المستقبل  
الذي جاء من بلد ولد فيه الناس متساوين .

وكننت في ذلك الوقت ، قد اشتريت بيتا في كاب فيرا (١) بعد أن ألقيت  
عصا الترحال ، فكنت ألتقي بإليوت مراراً ، وارتفع قدرى عنده إلى حد  
جمعه يتفضل بدعوتي إلى بعض مآدبه الكبرى .

وكان يقول لي : « تعال يا صديقي ، إكراماً لي ، وإثني أعلم ، كما تعلم أنت ،  
أن أصحاب الجلالة يفسدون أية حفلة ؛ ولكن ما الحيلة وغيرنا من الناس يودون  
رؤيتهم ، وإثني أرى أن من واجبنا أن نظهر هؤلاء المساكين شيئاً من الاهتمام ،  
مع أنهم ، وحق السماء ، لا يستحقون هذا . فليس أشد نكراً أن للجميل منهم ،  
فهم يتفجعون منك وبك ، وعند ما تصبح من غير منفعه لهم يلفظونك لفظاً نواة ،  
وهم يقبلون منك خدمات لا عداد لها ؛ ولكنك لن تجد واحداً منهم يكلف نفسه  
مئونة عبور الشارع ليقدم إليك خدمة صغيرة في مقابل هذا . »

وحرص إليوت على أن يكون على وئام مع السلطات المحلية ، وكثيراً ما كان  
محافظة الإقليم والأسقف والكاهن العام يشرفون مائدته . وكان الأسقف ضابطاً  
في الفرسان قبل دخوله الكنيسة ، وقاد كتيبة في أثناء الحرب . وهو رجل متملئ  
الوجه أحمر ، تجرى على لسانه ألفاظ المعسكرات ، وكان كاهنه الناحل الجاد

---

(١) مكان في الريفيرا الفرنسية حيث كان الكاب يقيم .

حريصاً ألا يصدر من الأسقف شيء منجمل وكان يصفى إلى قصر زئيمه المفضلة وعلى وجهه علامات الاستنكار ، ولكن الأسقف كان يرعى شئون أسقفية بكفاية ملحوظة ، وكانت مواعظه من فوق المنبر مثيرة بقدر ما كانت نوادره على المائدة مليئة . ورضى عن إليوت استخامه مع الكتيبة ، وأحبه لحسن معشره ، ولجودة طعامه ، وأصبح الاثنان صديقين ، بذلك استطاع إليوت أن يرضى عن نفسه إذ خلص لنفسه بأحسن ما في الدين والدنيا ، أو إذا جاز لي القول ، أنه أحسن الجمع بين حب الله وحب المال .

وكان إليوت غفوراً ببيته ، وحرص على أن ترى أخته بيته الجديد ، وكان يشعر دائماً بشيء من التحفظ في استحسانها له ، فأراد لها أن ترى الأسلوب الذي يعيش به ، والأصدقاء الذين يختلط بهم ، وكان في هذا الرد القاطع على تردها فلا بد أن تعترف له أنه سلك السلوك الحسن . فكتب لها يدعوها للقدوم في صحبة جراى وإيزابل ، لا اقيموا عنده ولكن لينزلوا ضيوفاً عليه في فندق دى كاب القريب إذ لم يكن هناك متسع لإقامتهم في بيته . وردت عليه السيدة برادلى تقول إنها لم تعد تحمل مشقة السفر ، فقد خذلتها صحتها ، والأفضل لها أن تبقى حيث هي ، وإنه من المستحيل ، كذلك ، على جراى أن يغيب عن شيكاغو فالعمل مزدهر ، والمال يتدفق ، وعليه أن يثبت في مكانه . وكان إليوت شديد التعلق بأخته فأقلقت رسالتها ، فكتب لإيزابل ، وردت عليه برقيةاً بأن أمها بعيدة عن الخطر وإن كانت صحتها ليست على ما يرام ، وهي تلازم الفراش يوماً في الأسبوع ، ولا يزالان في عمرها بقية مع العناية ، وأضافت أن جراى في حاجة إلى الراحة ، وليس هناك ما يمنعه من أخذ إجازة ما دام أبوه سيتولى شئون العمل وعلى ذلك فوف يزورانه لا في هذا الصيف ولكن في الصيف الذى يليه .

وفي الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٩٢٩ انهار سوق نيويورك .

( ٥ )

وكنت في لندن وقتئذ ، ولم ندرك ، ونحن في إنجلترا ، خطورة الموقف في أول الأمر ، ولا مدى ما سوف يكون لآثاره من ضحك ، ومن جانبي ، وإن كنت قد أسفت لآتي خسرت مبلغاً من المال ، فإن خسارتي كانت وراً لا نقداً . وكنت أعلم أن إلبوت يقامر بإسراف وخشيت أن تكون خسارته جسيمة ، ولكن لم أكن أعلم إلا بعد عودة كلينا إلى الريفييرا في عيد الميلاد ، فأبغضت أن هنري ماتيورين قد توفي ، وأن جراي قد أفلس .

ولم أكن أعلم إلا القليل عن المسائل المالية ، وأخشى أن أقول إن روايتي الأحداث تقلا عن إلبوت ، تبدو مشوهة مضطربة . وأستطيع أن أعزو الكارثة التي أحاقق بالمؤسسة إلى عناد ماتيورين من ناحية ، واندفاع جراي من ناحية أخرى . فلم يشأ هنري ماتيورين أن يفتتح بخطورة الانهيار في أول الأمر ، وأقنع نفسه بأنها مؤامرة من سماسرة نيويورك لتقضاء على إخوتهم في الأقاليم ، فغمر السوق بالمال ليدعمه ، وأعلن سخطه على سماسرة شيكاغو لأنهم أجفلوا أمام أوغاد نيويورك . وكان يزهو لأن أحداً من صفار عملائه ، الأراامل ذوات الدخل الثابت ، والضباط المحابين على المعاش ، ما كان يخسر قرشاً إذا أخذ بنصيحته ، وها هو الآن قد دعم حسابهم من ماله الخاص دون أن يعرضهم لخسارة ما . وقال إنه مستعد أن يخسر كل شيء فلسوف يبني ثروته من جديد . ولكن لن يستطيع أن يرفع رأسه مرة ثانية إذا خسر الناس البسطاء - الذين يضعون ثقتهم فيه - كل شيء . وحسب نفسه شهياً ، ولكنه كان مذكوراً ، فقد ذابت ثروته الكبيرة ، وأصيب بأزمة قلبية ، وكان في عامه الستين ، وكان يعمل كثيراً ، ويسرف في الأكل والشراب وبعد ألم دام بضع ساعات مات لانسداد الشريان التاجي .

وأصبح جرای يواجه الموقف بمفرده ، وكان قد ضارب بإسراف من غير علم أبيه ، وكان في ضائقة عظيمة ، وفشلت جهوده في محاولة استنقاذ نفسه ، رفضت المصارف أن تعيره نقوداً ، ونصحه ذوو الخبرة في البورصة بالاستسلام . واست على يينة بيقية القصة ، ولكن على قدر ما فهمت أنه أعلن إفلاسه لما عجز عن الوفاء بالتزاماته ، وكان قدره من منزله من قبل ؛ وأسعده أن ينقل ملكيته إلى أصحاب الرهن ، وباع منزل أبيه في ايسكشور درايف ؛ والبيت القائم في مارفن ؛ وباعت إيزابل مجوهراتها ؛ ولم يعدلها غير المزرعة في ساوث كارولينا ؛ ولم يجدا لها مشترياً . وهكذا أصبح جرای خالي الوفاض .

وسألت : . وماذا عنك يا إليوت ؟

فأجاب مازحاً : . أوه إتني لا أشكو فالله يهدي الريح للحمل المهيض . .

ولم أسأله أكثر من هذا فشونه المالية لا تخصني . ولكنني قدرت أنه عانى كما غائنا جميعاً مهما كانت خسائره .

ولم تصب الضائقة الريفييرا بخسائر فادحة في أول الأمر . وقد سمعت بواحد أو اثنين خسرا أموالا طائلة وظلت كثير من الفيلات مقفلة طوال الشتاء . وعرضت غيرها للبيع . ولم تملك الفنادق بروادها . واشتكي كازينو مونت كارلو من فقر الموسم . ولكن الأزمة بلغت ذروتها بعد عامين وأبلغني أحد وسطاء العقارات أن بضعة آلاف من الممتلكات الصغيرة والكبيرة معروضة للبيع على امتداد الساحل من طولون إلى الحدود الإيطالية . وهوت أسهم الكازينو إلى الحضيض . وخفضت الفنادق أسعارها في محاولة يائسة لجذب النزلاء . ولم تشهد الريفييرا من الأجانب غير أوائلك الذين كانوا أقصر من أن يزدادوا فقراً . ولم يكونوا ينفقون مالا لأنهم لا يملكون شيئاً منه . وتملك اليأس أصحاب الحيوانات ولسكن إليوت لم يتصر عدد خدمه أو يخفض رواتبهم كما فعل الكثيرون . ولم

يقدم الطعام المختار . والشراب المعتق كدأ به . لضيوفه من أصحاب الألقاب . واشترى لنفسه سيارة كبيرة استوردها من أمريكا . ودفع عنها رسوما باهظة . وتبرع في سخاء للنيسة الخيرية التي أنشأها الأسقف لتقديم وجبات مجانية لأسر العمال المتعطنين . والحقيقة أنه واصل حياته كأنه لم تكن هناك أزمة طاحنة تركت نصف العالم يترنح من آثارها .

واكتشفت السبب بمحض الصدقة ، وكان إليوت في ذلك الوقت قد كف عن الذهاب إلى إنجلترا فيما عدا مدة أسبوعين كان يقضيها كل عام في شراء الملابس ، ولكنه كان لا يزال ينتقل إلى شقته في باريس لقضاء أشهر الخريف الثلاثة وشهرى مايو ويونيو لأن أصدقاء إليوت كانوا يهجرون الريفييرا خلال تلك المدة . وكان يحب قضاء الصيف في الريفييرا للاستجمام من جهة ، ولكن في الأغلب على ما أظن لأن الطقس الحار كان يتيح له فرصة ارتداء الملابس ذات الألوان البهيجة التي كان الوغار يمنعه من ارتدائها في غير أوقات الصيف . فكان يظهر في سراويل فاقمة اللون ، حمراء وزرقاء ، وخضراء ، وصفراء مع قصان من لون مخالف ، خبازى (١) ، بنفسجى ، الأحيمر الداكن أو المبرقش ، ويتقبل الإعجاب الذى تثيره ملابسه بنفس الطريقة التي تتقبل بها ممثلة الإعجاب عندما تودى دوراً جديداً أداء رانما .

واتفق أنى أمضيت يوماً في باريس لبان الربيع في طريق عودتى إلى كلبفيرا ودعوت إليوت إلى طعام الغداء والتقينا في باريتز ، ولم يكن يمتلى بضجيج الطلبة القادمين من أمريكا ، ولكنه كان خالياً مهجوراً كما يهجر الكاتب المسرحى عقب الليلة الأولى لمسرحية فاشلة . وتناولت مزيجاً (٢) من الأشربة وهى عادة أمريكية ارتضاها إليوت مؤخراً ، ثم طلبنا الطعام . وبعد أن فرغنا من تناول

---

(١) بنفسجى زاه ، موف (٢) الكوكنيل

( م ١٣ — حد موسى )

الطعام اقترح إليوت أن تقوم بجولة في محلات الفرائد الفنية ، وكنت مسرورا بأن أصحبه في هذه الجولة مع أنني لم يكن لدى قعود كما قلت له . وسرنا عبر ميدان فندوم ، واستأذن في أن نمر على محلات شارفيت لأنه كان قد طلب إعداد بعض الأشياء ، ويريد أن يعرف ما إذا كانت قد أعدت . وبدأ أنه قد أمر بصنع بعض القمصان والسرراويل وطلب أن تطرز الحروف الأولى من اسمه عليها .

وكانت القمصان لما تصل بعد ولكن وجدنا السرراويل معدة ، وسأل البائع إليوت إذا كان يود مشاهدتها . وعندما ذهب الموظف المكلف لإحضارها ليشاهدها قال :

— « لقد طلبت منهم صنعها حسب نموذج خاص بي ، . »

وجيء بالسرراويل ، وكانت من الحرير . وكانت تبدو تماما كالسرراويل التي اشتريتها لنفسى من محلات « ماسى » ولكن لفت نظرى تاج الكونت الذى يعلوه أ . ت الحرفين الأولين من اسمه . ولم أقل شيئا .

وقال إليوت : « شىء جميل . جميل جدا . حسن . عندما يتم صنع القمصان أرسلوها إلى ، . »

وغادرنا المحل ، والتفت إلى إليوت ، وعلى وجهه ابتسامة ، ثم قال :

« هل رأيت التاج ؟ الحقيقة أتى لم أتذكره عند ما طلبت منك أن تمر على محلات شارف . وأحسب أن الفرصة لم تسنح لى لأخبرك أن صاحب القداستمره أن يعيد لقب أسرتى القديم لإكراماً لى ، . »

وسأله وقد أخرجتنى المفاجأة عن حد اللياقة : « ماذا ؟ »

ورفع إليوت أحد حاجبيه استنكاراً . وقال :



« ألا تعلم أتى أنحدر من ناحية أمي ، من الكونت دي لوريا الذي جاء إلى إنجلترا في حاشية فيليب الثاني ، وتزوج إحدى وصفات الشرف للملكة ماري ، ؟ »

فألتته : « ماري الدموية ؟ »

فرد علي في جفاء : « هذا ما يطلقه عليها الزنادقة على ما أعتقد ، ولا أحسب أتى أخبرتك أتى قضيت سبتمبر عام ١٩٢٩ في روما . ولكن كان من حسن طالعي أن تغلب شعوري بالواجب على رغبتى في مسرات الدنيا . وأبلغنى أصدقاؤى فى الغاتيكان أن الكارثة قادمة ، ونصحونى ببيع كل سنداتى الأمريكية ، فقد كان للكنيسة الكاثوليكية حكمة عشرين قرناً وراءها ، ولم أتردد فى قبول النصيحة ، فأبرقت إلى هنرى إيماتورين أن يبيع كل شئ ويشتري بثمنه ذهباً ، وأبرقت إلى لويزا أن تفعل الشئ نفسه ، فرد علي هنرى يسألنى ما إذا كنت قد جنتت ، وأضاف إنه لن يفعل شيئاً إلا إذا أكدت تعلياتى السابقة . فأبرقت إليه فوراً مؤكداً بطريقة قاطعة ضرورة تنفيذ ما كلفته به ، طالباً إليه أن يرد علي بما يفيد أنه فعل هذا ، ولم تبال لويزا المكينة بنصيحتى ، فدفعت الثمن غالياً . »

فقلت : « وهكذا عند ما وقعت الواقعة لم تنك بسوء ، أليس كذلك ؟ »

فقال : « هذه روح أمريكية لا تلائمك يا صديق ، ولكنها تعبر عن موقفى بدقة كبيرة . إننى لم أقصد شيئاً ، والحقيقة أتى قتت بما يمكن أن نسميه نوعاً من المراهنة . وقد اشتريت فيما بعد السندات التى بعثها بجزء يسير من ثمنها الأسمى . وما دمت أدين بكل هذا لتدخل العناية الإلهية فقد وجدت أنه من اللائق أن أقدم شيئاً للعناية الإلهية فى مقابل هذا . »

« أوه وماذا فعلت ؟ »

حسن : إنك تعلم أن الدوتشي قد أصلح مساحة كبيرة من الأرض في مستنقعات بوتتين ، وبدأ لي أن البأبا يؤله كثيراً تقصود العباداة للذين استوطنوا هذه الأرض ، وبالاختصار بنيت كنيسة صغيرة على الطراز الروماني ، وهي نسخة مطابقة لكنيسة عرفتها في مقاطعة بروفاس ، وهي تكاد تكون ددة من دور الفن المعماري . وقد دشنها باسم سان مارتن ، لأنني كنت محظوظاً إذ عثرت على قطعة من الزجاج المنقوش تمثل سان مارتن وهو يهيم بشق عباةته إلى نصفين ليعطى نصفها لشحاذا عار ، ولما بدا لي الرمز مناسباً فقد اشتريت القطعة ، ووضعتها فوق المذبح العالي . .

ولم أقطع إليوت لأسأله عما رآه من علاقة بين فعل القديس المشهور وبين ما جناه من كسب حرام من بيع سندات في اللحظة الأخيرة ، وبدأ أنه يريد أن يدفع العمولة لقوة علياً ، ولكن الرمز يبدو غالباً غامضاً لمن يشتغل بكتابة النثر مثلي . ومضى إليوت يقول :

« ولما حظيت بشرف عرض الصور على الأب المقدس ، تفضل بإبلاغني أنه يستطيع أن يرى من النظرة الأولى ، أتى رجل ذو ذوق لا يخطئ ، وأضاف أنه يسعد أن يمد في أخريات أيامه رجلاً يجمع بين إخلاصه للكنيسة وهذه المواهب الفنية النادرة . وهذه تجربة لا تنسى ، يا صديقي ، تجربة لا تنسى ولكن لشدة ما كانت دهشتي عند ما أبلغت بعد ذلك بقليل أن قداسة سره أن يمنحني لقباً ، وشعرت باعتباري مواطناً أمريكياً بأنه ينبغي ألا أستخدام هذا اللقب إلا في الفاتيكان بطبيعة الحال . ولذلك منعت رئيس خدمي جوزيف من مخاطبتي . بسيدى الكونت ، وأرجو أن تحفظ سري . فلا أريد أن تلوكه الألسنة في الخارج ، ولكنني لا أريد . في الوقت نفسه ، أن يعتقد قداسة أتني لا أقدر الشرف الذي خلعه علي . ولذلك فقد أمرت بتدريز التاج على ملابس الخاصة تكريماً له خاصة وأتني أستطيع أن أقول لك إنني أعتر ياخفاء نقي تحت وقار السيد الأمريكي . .

واقترقنا . وأبلغني إليوت أنه سيذهب إلى الريفييرا في نهاية شهر يونيو ، ولكنه لم يفعل . وكان قد تقل خدمه من باريس على أن يلحق بهم بالسيارة حتى يكون كل شيء معداً لدى وصوله ، ولكنه تلقى برقية من إيل تبتنه فيها أن صحة والدتها قد ساءت فجأة . وكان إليوت إلى جانب جبه لاخته يشعر بواجباته العائلية شعوراً قوياً . وركب أول باخرة غادرت شيربورج ، ومن نيويورك قصد شيكاغو وكتب يقول لي إن السيدة برادلي مريضة جداً ، وأنها نحلت نحولاً أذهله ، وأنها قد تعيش بضعة أسابيع ، أو حتى بضعة أشهر ، ولكنه شعر بأن من واجبه أن يبتني إلى جوارها حتى تحين نهايتها . وقال إنه وجد الطقس الحار محتملاً أكثر مما كان يتوقع ، ولم يضايقه إلا يجد المجتمع الذي يأنس إليه ، فهو لم يكن راغباً فيه . وقال إن طريقة مواجهة مواطنيه للأزمة الحارقة أصابته بخيبة أمل ، فقد كان يأمل أن يتماثلوا أنفسهم في مواجهة الكارثة . ولم أجد إليوت محملاً في قسوته على نبي وطنه وهو الآن أغنى مما كان في أي وقت آخر ، وليس أسهل من التظاهر بتحمل مصائب الغير بجلد وصبر . وأنهي رسالته إلى بتحصيلي عدة رسائل إلى عدد من أصدقائه ، ورجاني أن أفسر لكل من التقي به لما إذا كان يحب أن يهجر منزله في الصيف .

وبعد أقل من شهر تلقيت رسالة أخرى منه يبلغني فيها بوفاة السيدة برادلي وكانت رسالته مفعمة بالإخلاص والحب ، ولم أكن أحسب أنه يستطيع أن يعبر عن نفسه بجد وشعور صادق وبساطة كما فعل ، ولم أدرك إلا مؤخراً أن إليوت رجل شريف عطوف وكريم على الرغم من تعاليه وتكلفه . وأخبرني في سياق رسالته أن شؤون السيدة برادلي بدت مضطربة بعض الشيء . ولم يكن ابنها الأكبر يستطيع ترك عمله في طوكيو وكان قائماً بالأعمال في غيبة السفير . وكان ابنها الثاني تمبلتون الذي يشغل منصباً محترماً في وزارة الخارجية قد أسرع إلى شيكاغو هو وزوجته عند ما قطع الأمل في والدته ، ولكنه كان مضطراً إلى العودة إلى

واشطنن عقب تشييم الجنازة ، ووجد إليوت ، وسط هذه الظروف ، أنه مضطر للبقاء في أمريكا حتى تستقر الأمور . وكانت السيدة برادلي قد قسمت ثروتها بين أولادها الثلاثة بالتساوي ، ولكن بدا أن خسارتها في أزمة السنة التاسعة والعشرين كانت جسيمة . ولحسن الحظ وجدوا مشترياً لمزرعة مارفين ، التي أشار إليها إليوت في رسالته بأنها بيت لويزا العريضة الريني .

وكتب يقول : « إنه من المحزن دائماً أن تهجر الأسرة بيت الأجداد ، ولكن حدث هذا لكثير من أصدقائي الإنجليز في السنوات الأخيرة ، مما جعلني أشعر بأن أبناء أختي يجب أن يقبلوا هذا المحم بشجاعة وإذعان ، والنبل يقضى بهذا ، .

وحالفهم الحظ أيضاً في التخلص من منزل السيدة برادلي لإقامة مجموعة من المساكن الجديدة على أرضه ، ولكنها أصرت على أن تموت في البيت الذي عاشت فيه . ولكن ماكدت تلفظ أنفاسها الأخيرة حتى تجدد العرض وقبله الورثة في الحال ، وإن كانت إيزابل قد ظلت دون أن تمياً لها أسباب اليسر بعد ذلك .

وبعد الأزمة حاول جراي أن يجد عملاً ، حتى ولو كاتباً في أحد مكاتب الأعمال كما فعل غيره ممن حطمتهم العاصفة ، ولكن لم توجد أعمال . وتقدم إلى أصدقائه القدامى طالباً أن يجد لديهم عملاً له ، ولكن بلا فائدة . وانتهى الأمر إلى الانهيار العصبي نتيجة لجهوده اليائسة لمواجهة الكارثة التي غلبته ، وقلقه والعزلة التي عاشها ، وأصبح يعاني من نوبات من الصداع الشديد كانت تتركه خائر القوى ليوم كامل . وتركة رخوياً كالخرقة المبتلة بعد أن تزايله . وبدا لإيزابل أن من الخير أن تذهب مع الأطفال إلى مزرعة ساوث كارولينا حتى يستعيد جراي صحته . وكانت المزرعة تغل مائة ألف دولار من محصول الأرز ، ولكنها أصبحت يرى تغطها الأعشاب الطويلة يجد فيها هواة صيد البط يفيتهم

ولم تمكن من الحصول على مشتر للزراعة فهناك قد عاشوا من قبل . ومنذ حلت الكارثة المالية بهم اقترحوا العودة إليها والبقاء بها حتى تحسن الأحوال ويجد جرای عملاً .

وكتب إليوت إلى يقول : د إتي لن أسمح بهذا ، إنهم يعيشون عيشة الخنازير فايزابل من غير وصيفة ، والأطفال من غير مربية ، وايس ثمة تخيير خادمين زنجيتين تقومان بالخدمة . ولذلك فقد عرضت عليهم أن يزلوا في شقتي في باريس حتى يتغير الحال في هذا البلد المتقلب . وسأمدهم بالعدد الكافي من الخدم وسأتولى الإنفاق على شئون البيت ، وأترك دخول إيزابل الضئيل لتنفقه على ثيابها ومطالب البيت الصغيرة . ويصني هذا بالطبع أن يطول مكثي في الريفييرا بما يتيح لي فرصة اللقاء بك أطول مما كان يتاح لي في الماضي أيها السديت العزيز ، ولم تعد الإقامة تطيب لي في لندن أو باريس كما تطيب لي في الريفييرا ، فهي المكان الوحيد الذي ألتقي فيه بأناس يتكلمون لغتي . وسأذهب إن باريس من وقت لآخر أفضى فيها بضعة أيام ، ولكنني عند ما أفعل لن أضيع وقتي في الريتز وقد استطعت إقناع جرای أن تقبل إيزابل دعوتي ، وسيحضرون عند ما تم الإجراءات الضرورية . وقد باعوا الأثاث والصور ( وهي ضئيلة القيمة مشكوك في أصالتها ) وقد حبيت إليهم الإقامة معي في دريك ، حتى يحين وقت رحيلنا لأنني وجدت أنه من المؤلم لهم البقاء في البيت . وعند ما نصل إلى باريس سأبقي معهم ريثما يستقر بهم الحال ثم أنحدر إلى الريفييرا . لا تنسى أن تذكرني عند جيتك الأمام .

من ينكر أن إليوت ، وهو المثال من أكرم الناس وأنهلهم شعوراً ؟

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

## الفصل الرابع

(١)

وعاد إليوت إلى الريفييرا في نهاية العام بعد أن أشرف على نزول أسرة ماتيورين في شقته الرحبة في باريس ، فقد نسق بيته لراحته هو ، ولا يتسع له ولأسرة من أربعة أفراد ، هو لا يستطيع أن يعيش معهم حتى ولو أراد ذلك ، وأحسب أنه لم يبال بهذا . وكان يعلم أنه كرجل يعد مرغوباً فيه أكثر مما لو كان بصحبة أبناء شقيقته ، ولا يستطيع تنظيم حفلاته الصغيرة الممتازة (وهو أمر كان يهتم له شديد الاهتمام) لو عمل حساباً لحضور ضيفين من الأسرة .

وقال : : : من الأفضل لهم الإقامة في باريس ، وتعود على الحياة ، المتحضرة وقد حان وقت دخول المدارس للبنين ، وقد وجدت لهم مدرسة لا تفتقر لبيئة بعيدة عن شقي ، .

ونجم عن هذا أنني لم أر ليزابل إلا في الريح ، لأنه كان لدى بعض الأعمال الذي، يستدعي ذهابي إلى باريس ، ونزلت في فندق قريباً من ميدان فاندوم ، وقد تعودت النزول في هذا الفندق للموقع المريح لحب ، ولكن لطيب هوائه أيضاً . وكان الفندق بيتاً كبيراً من الطراز القديم بني حول فناء ، وقد كان غاناً لما يقرب من مائتي سنة . ولم يكن الحمام فاخراً ، ولا مجاربه مرضية ، غرفة النوم فيه بأسرتها الحديدية البيضاء ، والملاءات البيضاء القديمة الطراز ومراياها الضخمة ، هذه الغرف توحى بالفقر؛ ولكن دهاليزه زودت بقطع الأثاث الرائع على قدمه، والكتب والمقاعد التي يرجع تاريخها إلى عهد نابليون الثالث ، ولا أستطيع أن أقول إنها مريحة ؛ ولكن جاذبيتها لا تنكسر . وفي هذا الفندق عشت في ما عني

الروائيين الفرنسيين . وكنت عند ما أنظر إلى الساعة الإمبراطورية تحت صندوقها الزجاجي كنت أتخيل امرأة جميلة في ثوبها الموشى ، وخصلات شعرها المجددة وهي تراقب عقرب الدقائق وهو يتحرك في ببطء منتظرة زيارة من راستناك المغامر ذى المولد الكريم الذى خلده بلزك ؛ وتبعب حياته من بدايتها المتواضعة إلى قمة المجد والعظمة في رواية إثر رواية . وأتخيل الدكتور يياتشو وهو يدخل غرفة يتحسس نبضه ، أرملة نفيطة جاءت من الأرياف إلى باريس لمقابلة أحد المحامين بشأن قضية ، واستدعت طبيباً لعارض ألم بها . والدكتور يياتشو شخصية من شخصيات بلزك خلع عليها من الواقعية ما جعله هو يتصور وجودها ويقول وهو على فراش الموت : « يياتشو وحده هو الذى يستطيع إقناذى » . وعلى هذا المكتب لا بد أن امرأة عاشقة موهبة كتبت رسالة عاطفية ملتجة إلى حبيبها الخائن . أو أن سيداً محترماً فى ردائه الرسمى الأخضر كتب رسالة غاضبة إلى ولده المسرف .

وفي اليوم التالى لوصولى اتصلت بإيزابل واستأذنتها فى تناول فوجان شاي فى الخامسة . وكان قد مضى على رؤيتى لها لآخر مرة عشر سنوات . وعندما كانت تقرأ رواية فرنسية فى غرفة الاستقبال ، وعندما أعلن قدومى لها القيم (١) الرابط الجاش ، نهضت وأخذتني من يدي وعلى شفيتها ابتسامة ترحيب خارة ولم أكن قد رأيتها أكثر من عشر مرات . مرتين منهما على انفراد ، ولكنها أشعرتني بأنا صديقان قديمان . وكانت العشر السنوات قد ضيقت المسافة التى تفصل بين الفتاة الصغيرة وبين الرجل فى أواسط العمر ، ولم أعد أشعر بالفاق بين عمرينا وجعلتني أشعر بمعاملتها الرقيقة المنهدة أتى من جيلها ، وبعد خمس دقائق كنا نثرثر بروح ودية وانطلاق كما لو كنا رفيق صبا تعودا أن يلتقيا دائماً . وكانت قد اكتسبت ثقة بالنفس وطمأنينة واقتداراً .

(١) كبير المخدم .



ولكن فاجأني فيها التغير الذي طرأ على مظهرها ، فأنا أذكرها فتاة جميلة تنفجر حيوية ، وتميل إلى السمرة . ولم أكن أدري هل قامت بإجراءات بطولية لإتقاص وزنها ، أو حدث لها هذا نتيجة للحمل والولادة ، فهي الآن نحيفة كما تمنحني أية امرأة أن تكون ، وكانت مرتدية السواد ، ومن النظرة الأولى أدركت أن فتاتها على بساطته ، قد خاطه واحد من أحسن مصممي الأزياء في باريس وكانت ترتديه في ثقة المرأة التي في طبعها أن ترتدي فاخر الثياب . ومنذ عشر سنوات مضت ، وعلى الرغم من نصائح إليوت لها آنئذ ، كانت ثياب (الفروك) التي ترتديها زاهية هونا ما ولم تكن تبدو مرتاحة فيها . أما الآن فإن ماري لوبز دي فلوريموند ، ما كانت تستطيع أن تنتقد أناقتها ، لقد بدت أنيقة حتى أظافر يديها المطلية بطلاء وردي ، وقد استمدت ملاحظها ، وأصبح لها أنف لم أر أجل منه على وجه امرأة . ولم تعرف الغضون طريقها إلى جبهتها أو إلى ماتحت عينيها العسلتين ، وكانت بشرتها صافية وإن فقدت طراوة الصبا ، وكان من الواضح أن شيئا من بناضة بشرتها يرجع إلى الفسول والتدليك ولكن شفافية بشرتها ، بالرغم من هذا كانت جذابة بشكل فريد ، وكانت حمرة خفيفة تسمغ وجنتيها الرقيقتين أما شفاتها فظليتا براءة . ولقد قصت شعرها الأسود اللامع حتى أصبح قصيرا ، وجههته عن الطراز الشائع في ذلك الوقت . لم تكن تمنع خواتم في أصابعها ، واندت ذكرت ما قاله لي إليوت من أنها قد باهت مجوهراتها . ويداها ، على الرغم من أنها لم تكونا صغيرتين بقدر يلفت النظر ، أبدع الله صنعهما . وفي هذه الفترة كانت النساء ترتدي القساتين القصيرة في الصباح فرأيت أن ساقها في الجوارب التي بلون الشمبانيا متسقتان ، طويلتان ونحيلتان ، وكثيرا ما تفسد البيقان جمال الحسان ، وساقها اللتان لم تكونا صفة أسعدها بهما الحظ وهي فتاة ، أصبحتا جميلتين على غير المألوف ، وحقا لقد تفتحت الفتاة المليحة التي امتلأت صحة وعافية وفاضت سعادة وانبساطا وتوردت لونا فأشاعت حوالها البحر والجاذبية والفتنة . تفتحت امرأة مكتملة الحسنى والجمال . وبدأ أنه لم

يكن يهم أنها تدين بحسنا وجمالها إلى حد ما إلى الفن والنظام الدقيق وقع الشهوات ، فكانت النتيجة مرضية إلى حد كبير جدا . وربما كانت قد اكتسبت رشاقة حركاتها وسكناتها من أنها كانت تحرص على ذلك وتهتم له ، ولكن كانت تبدو فيها الأصالة التامة . وأدركت أن هذه الأشهر الأربعة في باريس قد وضعت اللسات النهائية في عمل من أعمال فن واع ظل سنوات في دور التكوين . فإن إليوت ، في أكثر حالاته وعياً وإحساساً ، لم يستطع سوى أن يرضى عنها كل الرضى أما أنا ، بوصنى شخصا ليس من الصعب إرضاءه ، فقد كنت أراها بارعة الحسن عارمة الفتنة .

ذهب جراى إلى موريسفوتين ليلعب الجولف ، ولكنها أخبرتنى أنه لا يلبث أن يعود سريعا .

« ويجب أن ترى ابنتى . فقد ذهبتا إلى حدائق التويلرى ، ولكن الوقت قد حان لعودتهما حالا . وإنهما عذبتان حلوتان ، .

تجاذبنا أطراف الحديث في شئون شتى . لقد أحببت الحياة في باريس ، وكانوا يشعرون بالراحة في شقة إليوت . وقبل أن يتركهم عرفهم بلفيف من أصدقائه الذين ظنهم يحبون عشرتهم ، وسرطان ما أصبح لهم محبة من المعارف الذين تسر لهم النفس . وألح عليهم أن فى يولموا كثيرا كما اعتاد هو أن يفعل .

« أنت تعرف أنه لما يثيرنى حتى الموت أن أظن أننا نعيش عيشة أصحاب الثراء الواسع ونحن فى الواقع مفلسون ، .

« هل بلغ الأمر هذا السوء ؟ »

ضحكت فى سرها . وهنا تذكرت الضحكة الرقيقة المرححة التى عهدتها فيها مشرقة سارة منذ عشر سنوات خلتى ،

« إن جراى خاوى الوفاض ، وأما أنا فيكاد يكون دخلى هو الدخل الذى كان يملكه لارى بالضبط عندما طلب منى الزواج به فأبيت ذلك عليه لآنى ظننت أنه ليس من المحتمل أن نعيش على مثل هذا المبلغ ، والآز وأنا أم لطفلتين أعيش عليه . إنه لأمر مضحك أليس كذلك ؟ » .

« إنى مسرور ، إذ أنك فهمت ما فى ذلك من هذل . »

« أية أخبار لديك عن لارى ؟ »

« لدى أنا ؟ لم يقع بصرى عليه منذ أن كنتم فى باريس آخر مرة . وعرفت معرفة عابرة بعض من كان قد عرفهم ، وقد سألتهم فعلا عما جرى له . ولكن كان ذلك منذ سنين مضت . ولم يبد أن أحداً عرف شيئاً عنه . لقد اختفى تماماً . »

« إننا نعرف مدير المصرف فى شيكاغو حيث يودع لارى أمواله ، ولقد أخبرنا أنه بين الفينة والفينة تصله سفتيجة (١) من بعض الأماكن الغربية من الصين وبورما والهند ويبدو أنه يجول فى تلك الربوع لا يقر له قرار . »

« لم أتردد فى توجيه السؤال الذى جاء على طرف لسانى ، فعلى أية حال من الأحوال إذا رغب الإنسان فى معرفة شىء ما فالسؤال عنه أفضل وسيلة لمعرفة . هل تسمين الآن لو أنك كنت قد تزوجته ؟ »

« بقسمت ابتسامه خلافة :

« لقد كنت دائماً سعيدة مع جراى ، فقد كان دائماً زوجاً رائعاً . فلقد ظلنا كما تعلم نتمتع بالحياة حتى وقع الانهيار المالى . فعن نحب أولئك الأشخاص

---

( ١ ) حوالة مالية

أنفسهم ونفضل عمل الأشياء نفسها ، إنه خلاب جداً ، وإنه لجليل أن أحمل له كل مشاعر الإعزاز والحب . إنه على عهد الهوى تماماً كما كان عند زواجنا ، وهو يعتقد أنى أروع فتاة في الوجود ، ولا يمكنك أن تتصور كم هو شفيق ورصين : وأنت ترى أن كرمه معى قد بلغ حداً غير معقول ، فهو يظن أنه لا يوجد شيء في العالم يليق بى مهما كان عظيماً . فهل تعرف أنه ما قال لى قط شيئاً قاسياً أو جافاً طوال هذه السنين منذ تزوجنا حتى الآن . آه ، لقد كنت دائماً سعيدة الحظ . ،

لقد تساءلت عما إذا كانت قد أجابت عن سؤالى . فغيرت موضوع الحديث .

« حدثينى عن بنتيك الصغيرتين . »

وإذ بدأت تتحدث دق جرس الباب .

« لقد حضرنا وسوف تراهما بنفسك . »

وفي برهة وصلتا تبعمهما المريية ، وقدمتى أولاً إلى جون ، الكبرى ، ثم إلى ريسكلا فأعطينى كل منهما بدورها قبلة صغيرة مهدبة وهى تصافى . كانت إحداهما فى الثامنة ، والأخرى فى السادسة . كاتتا أطول بن فى مثلى سنهما فقد كانت إيزابل فارعة القوام طبعاً . وتذكرت أن جراى كان ضحماً ، ولكن الطفلتين كاتتا جميلتين فقط بالصورة التى نرى فيها كل الأطفال ذوى جمال ، بدتا نحيفتين ، كان لهما شعر أبيض والأسود وعينا أمهما العسليةتان . لم يورثهما وجود أجنبي خجلا أو نفوراً ، وتحدثتا فى شوق إليهما عما فعلتا فى الحدائق . ألقنا نظرات مشوقة على الأطايب التى أعدها طاهى إيزابل من أجل الشاى . ولكن لما لم يكن أحد منا قد قرب منها بعد ، ولم تسمح لهما أمهما إلا بتناول لون واحد فقط منها ، فقد أسقط فى أيديهما . واستبدت بهما حيرة شديدة من انشك فى أيهما يختاران . ولقد

كان ساراً وجميلاً أن ترى جبهما الظاهر الذي توأمانه أمها وقد تجمع الثلاث في طاقة كونت صورة بالغة الفتنة . وبعد أن أكلت كل منهما قطعة الكمكة الصغيرة التي اختارتها . صرقتها إيزابل ، فذهبتا دون أن تفوها بكلمة عتاب ، فانطبع في ذهن أنها قد نشأتها على أن تفعل كما تومران .

وبعد انصرافهما قلت ما يقوله كل شخص لكل أم عن أطفالها ، وتقبلت إيزابل المديح بسرور باد وإن كان عابراً هوناً ما . وسألتهما عن قدر حب جراى لباريس .

و بما فيه الكفاية تماماً . لقد تخلى لنا العم إليوت عن سيارة وبذا يتمكن جراى من أن يذهب ويلعب الجواف كل يوم تقريباً . ولقد انضم إلى ( ترافيلرزكاوب ) ويلعب البريدج هناك ، وطبعاً لقد كان عرض العم إليوت بأن يكفنا في هذه الشقة هبة من السماء . لقد تحطمت أعصاب جراى وما زال يعاني حتى الآن من نوبات الصداع الآلية ، وحتى إذا ما تمكن من الحصول على عمل فهو في الحقيقة لا يصلح لتحمل أعبائه ، وذلك من الطبيعي يقض مضجعه . فهو يريد أن يعمل لأنه يحب أن لزاماً عليه أن يعمل ، ويشعر بالمدلة والمهانة حين لا يرغب فيه أحد . وهو كما ترى ، يشعر بأن من واجب الرجل أن يعمل ، فإذا لم يكن العمل بمقدوره لم يبق أمامه غير الموت . فهو لا يحتمل الإحساس بأنه سلعة بائرة ، ولم يتمكن من حمله على الجحى إلى هنا إلا باغرائه بأن الراحة والتضيق سوف يعيدانه إلى حاله السوية . ولكنني أعلم أنه ان يعد إلا بعد أن يعود إلى عمله .

و أخشى أن تكون أوقات عصية تدهرت بكما في العامين ونصف العام الأخير . .

« حسناً ، أنت تعرف أنه عندما وقع الانهيار المالى لم أصدقه في أول الامر ، لقد بدا لي أن دمارنا أمر يفوق تصوري ولا يدركه عقلي . كنت أفهم أن الآخرين يمكن أن يفعلوا . ولكن نحن نفلسر حسناً ، بدا ذلك أمراً مستحيلًا لي . وظل الأمل يداعبني بأن أمراً ما قد يقع فينقذنا من الخراب في اللحظة الأخيرة . وحينئذ وقعت الضربة القاضية فشعرت أن الحياة لم تعد تستاهل أن نعيشها ، وظننت أنه لم يعد باستطاعتي أن أواجه المستقبل ، فقد كان مظلماً حالكا أمامي . وبلغت بي التعاسة منتهاها خلال أسبوعين . يا إلهي ( لقد كان فظيماً جداً أن أتخلى عن كل شيء . ، وأدركت أنه ان تكون لنا متعة في الحياة بعد ذلك . وعلى أن أستغنى عن كل شيء . أحببته . وحينئذ وفي نهاية الأسبوعين قلت : « لينذهب كل شيء . إلى الشيطان ولن أفكر في هذا مرة أخرى ، ، وإني أؤكد لك أني ما فكرت فيه قط ثانية ، وأني لست آسفة على شيء . وقد توفرت لي متع كثيرة في أثناء ذلك ، والآآن لقد ولي ، لقد أدبر ، ،

« من الواضح أن من الأسهل للانسان أن يحتمل الإفلاس في شقة توفرت بها أسباب النعيم والرفاهية في حي راق ويقوم بالخدمة فيها قيم عظيم الكفاية وطاه ممتاز بدون أجر ومن غير مقابل ، ويسترسا كثيرا عظامه الخاسفة (١) بثوب من صنم بيت شانل للأزياء . أليس كذلك ؟ ،

فهمتهت وقالت : « إني أرى يالافتن ، إنك لم تتغير كثيراً في غضون عشر سنوات ولا أظن أنك ستهدتي وقد غدوت ساخرًا هتكماً ، ولكنني واثقة كل الثقة من أني ما قبلت عرض العم إليوت إلا من أجل جراي والأطفال . فقد كان بوسعنا أن ندبر شئوننا تماماً في حدود ألفين وثمانمائة ، دخل السنوي ونحن في المزرعة ، ولكننا أيضاً قد زرنا الأرز والشوفان والقمح وورينا الخنازير .

---

( ١ ) الخاسفة : الهزيمة .

وعلى أية حال من الأحوال قد ولدت ونشأت في زرعة في إينوى ، .

هكذا تحدث ، فابتسمت لأنى أعرف أنها ، في الحقيقة ، قد ولدت في عيادة مرتفعة التكاليف في نيويورك .

وعند هذه النقطة حضر جراى . من المحقق أنى سبق أن رأيت مرتين أو ثلاث مرات منذ اثنتى عشرة سنة ولكنى قد رأيت أيضاً صورة ضوئية له مع عروسه ( كان يحتفظ بها إليوت في إطار نغم فوق المعزف (١) مع صور ضوئية أخرى للملك السويد وملكة أسبانيا والدوق دى جيز (٢) مهوراً بأسمائهم ) وأحتفظ بذكرى لا بأس بها له . لقد ذهلت . فإن شعره قد انحسر عن فؤديه كما وجدت بقعة صلعاء في هامته . كان وجهه سمينا متوردا ، وله ذقن مزدوجة . لقد زاد وزنه كثيراً فى سنى العيشة الرغدة والإسراف فى الشراب ولم ينقذه من أن يكون بدينا مفرطاً فى البدانة غير طاول قامته العظام ، ولكن التعبير الذى فى عينيه كان هو أكثر ما لفت نظرى فيه تذكرت جيداً جداً الصراحة الواضحة فى زرقتهما الإيرلندية عندما كانت الدنيا تبسم له والمجد ينتظره ، ولم يكن فى الدنيا ما يهيمه أو يقلقه ، والآن بدالى أنى أرى فيهما لوناً من الملح الحائر ، وحتى إذا لم أكن قد عرفت الحقيقة فأظن أنى ربما أكون قد حدثت أن حدثاً ما قد وقع له حطم فيه ثقته بنفسه وفى مجريات الحوادث المادية . شعرت بلون من التيب والتواكل فيه ، كما لو كان قد ارتكب جرماً ، ولو سهواً ، فكان خجلاً من نفسه كمن واضحاً جلياً أن أعصابه قد ارتجت وتزعزعت . حيانى يا خلاص سارمفرح .

---

(١) اليانو

(٢) الطالب جرش درنا

وحقاً لقد بدا مسروراً للقاء سروره للقاء صديق قديم ، ولكن ألقى في روعى أن  
مرحه الصاخب نوعاً ما كان عادة لا ترتبط بشعوره الداخلي .

أحضرت المشروبات ومزج لنا كأساً من الكوكتيل لقد لعب جولتين من  
الجولف وكان راضياً عن لعبته . وغاض في حديث مفصل شيئاً ما عن الصعوبات  
التي واجهته وهو يسدد ضربة إلى الكرة ليدخلها في إحدى الحفر ، وكانت إيزابل  
تصنى إلى حديثه ويبدو عليها الاهتمام الشديد . وبعد لحظات قليلة ، وبعد أن حددنا  
موعداً لاصطحابهم إلى العشاء ولمشاهدة مسرحية ، انصرفت .

## ( ٢ )

اعتدت الذهاب للقاء إيزابل ثلاث أو أربع مرات كل أسبوع بعد الظهر  
بعد انتهاء عملي اليومي . وفي ذلك الوقت تكون وحيدة غالباً ويسرها أن تثرثر .  
وكان الأشخاص الذين قدمهم إليها ليوت يكبرونها سناً ، واكتشفت أن أصدقاءها  
الذين من عمرها قليلون ، ومعظم أصدقائي لا يفرغون من أعمالهم حتى وقت  
العشاء . وجدت أن الحديث مع إيزابل أمتع من الذهاب إلى النادي ولعب  
البريدج مع الفرنسيين العابسين نوعاً ما ، والذين لا يرجون خاصة بوجود دخيل  
بينهم وأسلوبها الساحر في معاملتي ، كما لو كنا من عمر واحد ، جعل الحديث سهلاً  
فكنا نمزح ونضحك، ويفيظ أحدهنا الآخر ونحن نتحدث آناً عن أنفسنا ، وعن  
معارفنا المشتركين آناً آخر ، وآناً ثالثاً عن الكتب والصور . وهكذا كان الوقت  
يمر في أنس ولطف . إن إحدى النقائص في خلقي أني لا أستطيع أن آنس إلى  
من عطلوا من الجمال وحرموا من الحسن ، فهما كان صديقي ودوداً لطيف الحلال  
فإن سنوات التآلف والصدقة الوثيقة بيننا لا تفيضي إطلاقاً أسنانه القبيحة  
أو أنفه المشوه . ومن جهة أخرى فإنني لا أحجم إطلاقاً عن الابتهاج بجماله



وحسنه ، وبعد مرور عشرين عاماً من العشرة والصحة أراى ما أزال قادراً على السرور بحاجب مزجج أو أسارير عظم وجنى رقيق . وهكذا فلم أوجد قط فى محضر إيزابل إلا وشعور متجدد بهزة سرور طفيفة تملؤنى لكآل وجهها البيضى ورقة أديم بشرتها وكآنها الزبد ، وللدفة الزاهر لعينها اللتين بلون البندق .

ثم وقع أمر لم يكن فى الحسبان .

### ( ٣ )

يوجد فى كل المدن الكبيرة جماعات منطوية على نفسها تعيش دون أن تتبادل الصلات مع بعضها البعض ، فهى عوالم صغيرة فى داخل عالم أعظم وأكبر ، تعيش حياتها الخاصة بها ويعتمد أعضاؤها على بعضهم البعض فى صحبتهم وكآتهم يقطنون جزراً يعزل كلا منها عن الأخرى ( بوغاز ) غير صالح للراحة . لا ينطبق هذا الوصف ، حسب تجربتى ، على مدينة كما ينطبق على باريس ، فالجتماع الرفيع فيها نادراً ما يسمح للتطفائين عليه بالدخول فيه ، فرجال السياسة يعيشون فى دائرتهم الفاسدة الخاصة بهم . والبرجوازيون ، كبيرهم وصغيرهم ، يتزاورون فيما بينهم ، ويجتمع الكتاب بالكتاب ( وإنه لاما يلفت النظر فى يوميات أندريه جيد أن ترى كيف كان يبدو على صلة وثيقة بفئة قليلة من ناس لا يتمون إلى مهنته ) — والمصورون ينضمون إلى المصورين ، والموسيقيون إلى الموسيقيين . وما يقال عن باريس فى هذا الشأن يقال عن لندن ، ولكنه أقل بدرجة ملحوظة . فهناك لا تقع الطيور على أشكالها إلا قليلاً جداً . وهناك عشرات من البيوت تلقى فيها على مائدة واحدة دقة ومثلة ، ورساماً ، وعضو برلمان ، ومحامياً ، وصانع ثياب ومؤلفاً .

إن أحداث حياتى قد ساقتنى كثيراً ، آناً بعد آن إلى السكنى المؤقتة فى كل

أحياء باريس ( حتى عن طريق إليوت ) . سكنت حتى بوليفار سانت جرمان المزدحم ولكن الحى الذى أفضله على غيره . والذى يفضل الدائرة التى يتوسطها الآن مايسمى أفنيوفوش ، والذى يفضل الزمرة العالمية التى ترعى مطعم لارو والكافيه دى باريس ، والذى يفضل مرح موتيارتر الصاحب الحفير ، هذا الحى الذى أفضله على غيره هو القطاع الذى شريانهو بوايفار موتبارناس . فنى شبانى قضيت عاماً فى شقة صغيرة قرب ايون دى بلفورت ، فنى الطابق الخامس كانت تطل على منظر فسيح للقبرة . ومازال موتبارناس يوحى لى بهدوء الريف الذى كان من خصائصه فى ذلك الوقت . فعندما أجوس خلال ريوى دى أودسا القدر أتذكر — والفصة فى حلقى — المطعم الرث حيث اعتدنا أن نلتقى على العشاء ، مصورين ورسامين ونحاتين . وكنت باستثناء أرنولد بنت (١) فى بعض المناسبات — كنت الكاتب الوحيد وكنا نبقى حتى ساعة متأخرة من الليل نناقش تارة فى حماس وانفعال ، وفى سخرى وغضب تارة أخرى ، التصوير والأدب ، ومازال مبعث سرور لى وممتعة أن أطوف بالشارع وأنظر إلى الناس الذين كانوا فى مثل عمرى عندما كنت أقيم هناك آنئذ . وأصوغ الفحص حولهم لى . وعندما لا يكون لى شىء أفضل من هذا عمله كنت أستقل سيارة أجرة وأذهب إلى الكافية دودوم العتيقة وأجلس هناك . لم تعد كمهدنا بها فى ذلك الوقت ، فقد أصبحت وقفاً على ملقى البوهيميين وصغار التجار من الأماكن المجاورة الذين اعتادوا التردد عليها ، وغرباء من الجانب الآخر من نهر السين يقدون إليها بنية مشاهدة دنيا لم تعد فى الوجود . ومازال الطلاب — يقدون إليها ، وطبعاً ، المصورون والكتاب ، ولكن غالبيتهم من الأجانب ، وعندما تجلس هناك تسمع حوالبك الروسية والأسبانية والألمانية والإنجليزية

( ١ ) كاتب إنجلىزى ( ١٨٦٧ — ١٩٣١ ) كتب عدداً كبيراً من الرويات فى شتى الألوان .

كما تسمع الفرنسية ولكنى أظن أنهم يتناولون الأحاديث نفسها التي كنا تناوّلها منذ أربعين عاماً خلت مع فارق واحد ، ألا وهو أنهم يتحدثون عن بيكاسو (١) بدلا من مانيه (٢) وعن أندريه برتون (٣) بدلا من غليوم أبولينير (٤) . إن قلبي ليتجه إليهم .

وعند ما كنت في باريس منذ قرابة أسبوعين ، كنت أجلس في إحدى الأمسيات في مقهى الدوم . ونا كانت الشرفة مزدحمة فقد اضطررت إلى الجلوس إلى منضدة في الصف الأمامي . كان الطقس جميلا ودافئا . وكانت أوراق أشجار الحسق قد بدأت في الظهور ، وكان الإحساس بالراحة والدعة يوضع المكان الذي يسوده الطرب والسرور اللذان تنفرد بهما باريس . فاستشعرت السلام والطمانينة ، لا في سبات ولكن طرباً وحبوراً . ولجأة توقف عن السير رجل كان أمامي وابتسم ابتسامة عريضة كشفت عن أسنان بيضاء كالثلج وقال : هـ هـ هـ ، فنظرت إليه دهشاً . كان طويل القامة نحيلاً . عارى الرأس ، شعره الأسود الفاحم في حاجة شديدة إلى يد الحلاق . وكانت لحية الكشيفة السمراء تخفي شفته العليا وذقنه وقد حال لون جبهته ورقبته أسمر داكناً . كان يرتدى قميصاً قد تهرأ بدون رباط رقبة ، وسترة سمراء مهلهلة ، وسراويل رثة رمادية واسعة مسترخية ، فبدأ كأنه متسكع . وإنى لعل اعتقاد عميق أنى لم أراه من قبل قط ، وأخذته على أنه شخص ناه قد سلك سبيل الشيطان في باريس ، وتوقعت أنه سيقص على قصة

---

(١) بابلو بيكاسو ولد عام ١٨٨١ أعظم مصور معاصر .

(٢) إدوارد مانيه (١٨٢٤ - ١٨٨٣) صاحب فكرة معرض الرغونات في عام ١٨٦٣ .  
• بعد أن رفض المحققون أعماله .

(٣) شاعر فرنسي ارتبط بالفنانيين الشيكليين ويعتبر الأب الروحي للفن السريالي .

(٤) شاعر ناقد ومؤرخ الفن الحديث في روما ١٨٨٠ ومات في باريس ١٩١١ .

حظه العائر ليلبني بضعه لرنكات ليتناول بها عشاءه وينام . وقف أمامي ويدها في جيوبه ، ويكشف عن أسنانه البيضاء ، وقد سبحت في عينيه السوداوين نظرة لاهية .

قال : « ألا تذكرني ؟ »

« لم يقع بصري عليك قط في حياتي . »

كنت على استعداد لأن أقتده عشرين فرنكاً ، ولكنني لم أكن مستعداً لأن أدعه ينصرف بتلك الخدعة وهي أن كلامنا يعرف الآخر .

قال : « أنا لارى . »

« يا إلهي الصالح ! تفضل بالجلوس . فضحك ضحكة مكبوتة وتقدم وأخذ المقعد الخالي عند منضدتي . تفضل بطلب شراب . وأشارت إلى النادل . كيف كنت تتوقع مني أن أتعرف عليك وهذا الشعر كله يغطي وجهك ؟ »

جاء النادل فطلب شراب البرتقال . وحينئذ نظرت إليه فتذكرت تلك الخصائص التي تفردت بها عيناه والتي كان مبهتها أن القزحية كانت سوداء كإنسانها سواء بسواء فأضني ذلك عليهما قوة وعمقا وعموضاً .

سألت : « كم من الزمن لك في باريس ؟ »

« شهر . »

« وهل تزمع المكث ؟ »

« بعض الوقت . »

وبينما كنت أوجه له هذه الأسئلة كان عقلي مشغولاً ، ولاحظت أن أطراف

صراويله بالية ، وأن الثقوب تتخلل أكمام سترته عند المرهقين ، فبدأ كجوال يملق من هؤلاء الذين يرون في الموانئ الشرقية . كان من العسير أن يتناسى الإنسان الكساد ، وعجبت مما إذا كان الإفلاس الذي ساد عام ١٩٢٩ قد تركه حاوي الوفاض ، ولما كنت لا أميل إلى هذا الرأي ، كما إنى لم أكن الشخص الذى يحوم حول الأمر فقد سألته :

« هل أنت معتل الصحة ، حاوي الوفاض ، فقدت الصحاب ؟ »

« لا : وإنى لعلى خير ما يكون . ما الذى حملك على هذا الظن ؟ »

« حسناً ، يبدو أنك تعيش فقط على ما يقيم أودك وبمسك عليك حياتك — وأما ثيابك فلا تليق إلا بصندوق النفايات ، .

« هل تبدو ثيابى على هذا الحال الزرية ؟ إنى لم أفكر فى ذلك قط . ففى الحقيقة كنت أقصد توفير بعض المال ولكن يبدو أنى لم أتمكن من ذلك ، .

ظننت أنه إما خجل أو صلف ، ولم أر سبباً يمحلى على احتمال هذا الهراء .

« لا تكن أحمق يا لارى . لست مليونيراً ، ولكنى لست معدماً فإذا ما كان ينقصك المال فدعنى أقرضك بضعة آلاف فرنك ، وهذا لن يضيرنى ، .

ضحك ملء فيه .

« شكراً وافراً ، ولكن لا ينقصنى المال ، فلدى من المال أكثر مما أنفق ، .

« على الرغم من الخراب المالى الذى حل بك ؟ »

« آه ، إن ذلك لم يؤثر على ، لقد كانت كل ثروتى فى السندات الحكومية ولا أظن أن قيمتها قد هبطت ، فلم أكلف نفسي عناء الاستفسار ، ولكن

لا أدرى إذا كان العم سام<sup>(١)</sup> يقوم باستمرار بسداد الكوبونات المستحقة كما هو  
المأثور عنه من قديم . ففى الواقع أنى كنت أنفق قليلاً جداً فى السنوات القليلة  
الماضية ، فلا بد أن يكون قد توفر لى بعض المال ، .

« ومن أين جئت الآن ؟ »

« الهند ، . »

« آه : لقد نى إلى أنك كنت هناك . لقد أخبرتنى إيزابل بذلك ، ومن  
الواضح أنها تعرف مدير المصرف الذى تتعامل معه فى شيكاغو ، . »

« إيزابل ؟ ومتى رأيتها آخر مرة ؟ »

« بالأمس ، . »

« أليست فى باريس ؟ »

« هى فى باريس حقاً . وهى تقيم فى شقة إليوت تمبيلتون ، . »

« إن هذا عظيم ، وإنى أود لقاءها ، . »

وعلى الرغم من أنى كنت أرقب عينيه عن قرب نوعاً ما ونحن نتبادل هذه  
الملاحظات فلم أتبين سوى دهشة وسرور طبيعى فقط ، ولم يكن بهما شعوراً أكثر  
اختلاطاً أو تعقيداً .

---

(١) يطلق هذا الاسم على الحكومة الأمريكية وسبب ذلك أن أحد رؤساء الولايات المتحدة  
كان يومه بالفرنسين U.S أعنى United Statee وهما الحرفان الذى يبدأ بها Uncle Sam .

« إن جرای هناك أيضاً . هل تعلم أنهما قد تزوجا ؟ »

« نعم ، فإن الم بوب-دكتور نلسن ، الوصى على قد كتب إلى وأخبرني بذلك ولكنه قد وافاه القدر المحتوم منذ عدة سنوات . »

خطر بيالى أنه قد انقطع ما بدا أنه الصلة الوحيدة التي تربطه بشيكاغو وأصدقائه هناك فلم يدر بالأحداث التي جرت هناك . فأخبرته بمولد ابنتي لإيزابيل وموت هنرى ماتيورين ولويزا برادلي ، وإفلاس جرای وكرم إليوت .

« وهل إليوت هنا أيضاً ؟ »

« لا . »

« لأول مرة خلال أربعين عاماً لم يكن إليوت يمضى الربيع في باريس . وعلى الرغم من أنه كان يبدو أصغر سناً وهو في السبعين من العمر حينئذ ، وكانت تمر به كما هي العادة مع الرجال في هذه العمر أيام يشعر فيها بالتعب والمرض حتى أقطع شيئاً فشيئاً عن كل رياضة ما عدا السير على الأقدام ... كان قلقاً على صحته فكان طبيبه يعود مرتين كل أسبوع ليعطيه حقنة تحت الجلد وهي عادة كانت قد نفشت في ذلك الوقت . وفي أثناء كل وجبة سواء أكانت في البيت أم في الخارج ، كان يخرج من جيبه صندوقاً ذهبياً صغيراً يتناول منه قرصاً يتعلمه في تحفظ من يؤدي شميرة دينية . ولقد أوصاه طبيبه بالعلاج في مونتنيكاتيني ، وهي مشفى ماني في شمالي إيطاليا ، وبعد ذلك ارتأى أن يذهب إلى فنسيا ليجت عن جرن للعمودية (١) من طراز مناسب لسكنيته التي هي على الطراز الروماني ، وكان أقل كرهاً في الرحيل دون زيارة باريس ، إذ وجدها عام بعد عام غير مرضية أكثر فأكثر .

---

(١) حوض العمودية .

فلم يحب الشيوخ ، وكان يضجر إذا دعى إلى لقاء أشخاص من سنه فقط ، كما كان يرى الشباب تافهين لا حياة فيهم ، وأصبح تزين الكنيسة التي بناها شغله الشاغل الآن في حياته ، ففيها يمكنه أن يشبع شغفه المتأصل في اقتناء الأعمال الفنية وهو يشعر بشعور الراحة الأكيد من أنه يفعل ذلك من أجل مجد الله . ووجد في روما مذبحاً قديماً من الحجر العسلي اللون ، وظل يقايرض في فلورنسا ستة أشهر على مكتب ثلاثي (١) الطيات من المدرسة السيانية (٢) ليضعه فوقه .

وحينئذ سألتى لارى عن كيف أحب جراى باريس .

أخشى أن يكون يشعر بأنه مضيق هنا نوعاً ما ، .

وحاولت أن أشرح له كيف أدهشنى جراى . وأصغى إلى وعيناه مثبتان على وجهى وهو يرمقنى بنظرة متأملة وبعين لا تطرف ، أوحى إلى ، ولا أعرف لذلك سبباً بأنه كان يعنى إلى لا بأذنيه ، ولكن بعضو سمع داخلي أكثر حساسية كان وضعا غريباً وليس مريحاً جداً .

أنهيت الحديث قائلاً ، ولكنك سترى بنفسك ، .

نعم : إنى أود رؤيتهما . وأظن أنى سأعثر على العنوان من دليل التليفون ، .

ولكن إذا كنت لا تريد أن تفرعهما فزراً يوردهما موارد الجنون ويدفع بالطفلتين إلى نوبات هستيرية من الصراخ فإنى أظن أنه من الحكمة أن تذهب إلى الحلاق ليحس لك شعرك ويحلق لك لحيتك ، .

(١) له طيطان تطويان على ثلاثة .

(٢) نشأت بمدينة سينا بإقليم توسكانا في إيطاليا . خصائصها التمدك بأهداب المسحبة ٢



ضحك .

« لقد كنت أفكر في ذلك ، فليس ثمة ما يدعو إلى أن أسلك سلوكاً يلفت إلى الأنظار » .

« وما دمت قد أزمنت هذه الزيارة فلا بد أن تزود نفسك بثياب جديدة » .  
« أظن أني رث الهيئة قليلاً ، فإنتى عند ما هممت بمغادرة الهند وجدتني لأملك من الثياب إلا ما أرتديه » .

نظر إلى الحلة التي كنت أرتديها وسألني عن كون الخياط الذي يحيك ملابسى فأخبرته به ، ولكنني أضفت أنه في لندن ، ولذا فلا فائدة ترجى منه ..  
وتركنا الموضوع وبدأ يتحدث مرة ثانية عن جراى وإيزابل .

قلت : « لقد رأيتهما كثيراً وهما سعيدان جداً معاً . ولم تتح لى فرصة الحديث مع جراى على انفراد ، وعلى أية حال من الأحوال ، فإنى أظن أنه لا يميل إلى أن يحدثني عن إيزابل ، ولكنى أعلم أنه مخلس لها ، ووقف حياته عليها . إن وجهه يبدو جهماً في وقت الراحة وعينيه قلقتان ، ولكنه عند ما ينظر إلى إيزابل تظهر فيهما تلك النظرة الحانية الرحيمة ، وهى نظرة تحرك المشاعر وتثير الوجدان . وإنى لعلى يقين من أنها كانت تقف بجواره تسانده كالصخرة وهما يجتازان المحنة التي عصفت بهما . وهو لن ينسى هذا الدين الذي طوقت به عنقه ، وسوف تجد أن إيزابل قد تغيرت . » لم أخبره أنها صارت أجمل مما كانت في أى وقت مضى . لم أكن واثقاً من أن لديه الحصافة ليدرك كيف أن الفتاة الجميلة المشوقة قد تطورت إلى امرأة رشيقة رشاقة تدعو إلى العجب ، رقيقة فائقة الحسن . فن الرجال من يسوءهم أن يروا المساعدات التي يمكن أن يقدمها الفن للطبيعة النسائية ، إنها خير معوان لجراى وهى تبذل جهوداً عظيمة لتعييد إليه ثقته بنفسه . »

ولكن الوقت كان قد تأخر بنا ، فألت لارى عما إذا كان يتفضل بالذهاب  
معى إلى البوليفار ليتناول العشاء معى . .

فأجاب : « لا ، فلا أظن أنى سأفعل . شكراً لك . ويجب أن أنصرف  
الآن . .

نهض وأوما برأسه بودوحب ، وارتقى الطوار ، وانطلق إلى حال سبيله .

( ٤ )

رأيت جراى وإيزابل فى اليوم التالى وأخبرتةما أنى قد رأيت لارى . قالت  
منها الدهشة مثلما نالت منى من قبل .

قالت إيزابل : « سيكون بديعاً أن تراه ، هلبوا لتستدعيه فوراً .

وحيثتذ تذكرت أنى لم أفكر فى أن أسأله عن مقامه . أنحت على إيزابل  
باللائمة الشديدة :

فاعترضت ضاحكاً : « إنى متأكد أنه ماكان ليخبرنى إذا ما سألته عن مقامه ،  
ومن المحتمل أن يكون لعقلى الباطن دخل فى هذا . ألا تذكرين أنه لم يجب قط  
أن يخبر أحداً ابن كان يعيش . لقد كان ذلك إحدى غرائبه . وقد يأتى إلى هنا  
فى أية لحظة . .

قال جراى : « سيكون ذلك لارى الذى نعرفه ، وحتى فى الأيام الماضية لم  
يكن فى مقدور أحد أبداً أن يعتمد على عنوانه الذى يتوقع أن يجده فيه . فهو  
هنا اليوم وفى غد يكون قد رحل . تراه فى حجرة وتفكر فى لحظة أن تذهب

لترحب به فما تصل إلى هناك حتى تكشف أنه قد اختفى . .

قالت إيزابل : « لقد كان دائماً الم غضب المحقق . وليس من الخير إنكار ذلك وأظن أنه ليس علينا إلا أن نتركه وشأنه حتى يرى لنفسه أنه من المناسب له الحضور . .

لم يحضر في ذلك اليوم ، ولا في اليوم التالي . ورميت إيزابل بتهمة تفتيق القصة لمضايقتها ، فأكدت لها أنني لم أفعل ذلك . وبجئت عن أعذار أعطيها لأبرر عدم حضوره ، ولكن تلك الأعذار لم تلق منها قبولا . وفي قرارة نفسي كنت أعجب من أنه إذا ما كان بعد أن تدبر الأمر قد قطع بالرأى في أنه لا يرغب في رؤية جراى وإيزابل ، وأنه ترك باريس ليجول هنا وهناك بعيداً عنها . وكان يشعور سابق أنه لا يستقر به مقام في مكان ما ، ولكنه كان مستعداً دائماً وفي أية لحظة لسبب قد يبدو وجيهاً له أو مجرد نزوة طارئة ... كان مستعداً دائماً لأن يحمل عصا الترحال .

وجاء أخيراً . وكان يوم مجيئه مطيراً ، لم يذهب جراى إلى موريسيفوتتين . وكنا نحن الثلاثة معاً . كنت مع إيزابل يشرب كل منا قدهاً من الشاي ، ويرشف جراى الوسكى مخلوطاً بماء بريه ، عند ما فتح الساق الباب ودخل لارى ، فقفزت إيزابل من مقعدها صائحة ، وألقت بنفسها بين ذراعيه وقبلته على خديه ، أما جراى الذى زاد وجهه الأحمر احمراراً فقد صالحه بحرارة .

قال : « إنى سعيد لرؤيتك ، يا لارى ، وقد غص صوته بعاطفة قوية . عشت إيزابل شفقتها ورأت أنها تكبت نفسها لتحول بينها وبين الانخراط في البكاء . قال جراى بصوت متهدج : « تفضل بقبول كأس من الشراب أيها الصديق القديم ، .

لقد تأثرت تأثراً بالغاً حين رأيت سرورهما للقاء هذا الجوال ، فلا بد وأن يكون السرور قد غمره عندما رأى قدره ومكاته عندهما . ابتم ابتسامة السعادة وقد وضع لي أنه ، على كل حال ، كان مسيطراً على نفسه سيطرة تامة . وقد لاحظ أدوات الشاي .

قال : « سأتناول قديحاً من الشاي » .

قال جرای صائحاً : « لا عليك . أنت لا ترغب في الشاي . فدعنا نحضر زجاجة من الشمبانيا » .

ابتم لارى وقال : « لاني أفضل الشاي » .

كان لهدوته واطمئنانه الأثر الذي قصده على الآخرين فتطامنت أنفسهم ، وسكنهم ظلوا ينظرون إليه نظرات ولوعة ، ولا أقصد أن أوحى بأنه قد تجاوز مع سورة عواطفهم بفتور فظ ، بل على التقيض ، لقد كان ودوداً فاتناً كأعظم ما يكون الود والفتنة . ولكني كنت أحس في سلوكه بشيء لم أتمكن من وصفه إلا بأنه البعد ، وعجبت ماذا عساه أن يكون ؟

صاحت إيزابل متصنعة الغضب : « ولماذا لم تحضر لمرانا فوراً أيها المروع ؟ لقد ظلت متدلية خارج النافذة طيلة الخمة الأيام الماضية لأراك وأنت في طريقك لإينا ، في كل مرة دق فيها الجرس كان قلبي يقفز من مكانه إلى في ، وكان كل ما وسعني أن أفعله هو أن أبتلعه ثانية » .

ضحك لارى ضحكة مكتومة .

« لقد أخبرني مستر م . أني كنت أبدو عريداً مشاغباً خشن المظهر بدرجة

لا تدع رجلك يسمح لي بالدخول من الباب . فطرت إلى لندن لأحصل على بعض الثياب . .

فابسمت قائلاً : « لم تكن ثمة حاجة لأن تفعل ذلك . إذ كان يمكنك أن تحصل على ما يؤدى الغرض من ( البرتقمب ) أو ( البل جلودنيير ) ،

لقد فكرت في الأمر وانتهيت إلى أنى مادمت أريد الحصول على الملابس فلتكن على الطراز الذى أبقيه . فإني لم أشتري ملابس أوروبية ما مدى عشرة أعوام لقد ذهبت إلى الخياط الذى يحيك ثيابك وقلت إنى أريد حلة فى ثلاثة أيام . فأجاب بأن حياكة الحلة تقاضاه أسبوعين ، وأخيراً اتفقنا على أربعة أيام . وعدت من لندن منذ ساعة . .

كان يلبس حلة من الصبرج (١) الأزرق ، تناسب قوامه الأهيف دقة وإحكاماً ، ويرتدى قميصاً أبيض ذا ياقة طرية ، ورباط رقبته حريرى أزرق اللون ، ويتعلم حذاء أسمر . شعره قصيراً ، وحلق كل الشعر الذى على وجهه . فلم يبد أنيقاً لحسب ، بل متقن الهندام . لقد كانت استحالته (٢) . فقد كان نحيلاً جداً ، وعظام وجناته أكثر بروزاً ، وكان صدغاه أعنى غوراً ، وعيناه فى محجريهما الفاترين أكثر اتساعاً مما كنت أذكرهما ، ولكنه بدا على الرغم من ذلك ، حسناً جداً ، فقد بدا حقاً ، بوجهه الذى أحالته الشمس أسمر داكناً وخلا من التجاعيد ، شاباً شاباً منهدلاً . كان يصغر جرائى بعام واحد ، فقد كان كلاهما فى الثلاثينات المبكرة من العمر ، ولكن بينما كان جرائى يبدو وكأنه أكبر عشر سنوات من سنه ، كان لارى يبدو أصغر منه عشر سنوات . وكانت حركات

(١) كلة معربة وهو ضرب من القماش يكون من صوف لصناعة ملابس الرجال .

(٢) كلة مجتمعة معناها تنبير الشكل .

جرأى — لضخامة جرمه العظيم — متأنية وثقيلة هوناً ما ، وحركات لارى خفيفة سهلة . وكان سلوكه صيبانياً ، ومرحاً ولطيفاً ، ولكنه كان أيضاً رزيناً رزاة كنت أشعر بها بصفة خاصة، ولم أكن أذكرها في الفتى الذى عرفته من قبل. ولما كان الحديث يستمر مناسباً دون صعوبة أو عسر كما هو مألوف في قدامى الأصدقاء الذين يدخرون كثيراً من الذكريات المشتركة ، وتتفأ من الأخبار عن شيكاغو يدلى بها جراى وإيزابل والثروة المألوفة — وذكر شئ. يؤدي إلى آخر، والحديث ذو شجون — في ضحك خفيف لطيف . . . كان أثر ذلك في نفسى يلح على بأنه على الرغم من أن لارى كان يضحك في صراحة ويصنى بسرور واضح إلى ثرثرة إيزابل الخفيفة الروح إلا أنه كان في عزلة عجيبة جداً عن كل ما حوله . فلم أشعر أنه كان يصطنع ذلك ، فقد كان طبيعياً جداً في ذلك ، وكان إخلاصه واضحاً ، وأحسست أن بداخله شيئاً ، لأعرف ما إذا كنت أسميه وعياً أو حساسية أو قوة بقيت في عزلة عجيبة .

جاءوا بالطفلتين وقدموهما إلى لارى فقبلته كل منهما قبلة رقيقة مهدبة . فمد يده وهو ينظر إليهما وفي عينيه الشفيقتين حنان فائن ، فتناولتا يده وهما تحملتان في وجهه بهيبة . وأخبرته إيزابل وهي فرحة مرحة بأنهما يسيران سيراً مرضياً في دروسهما ثم أعطتهما قطعتين صغيرتين من الحلوى وصرفتهما .

• سأجىء وأقرأ لكما عشر دقائق عندما تأويا إلى الفراش ، .

لم ترد في تلك اللحظة أن يقطع عليها أحد سرورها برؤية لارى . واتجهت الطفلتان إلى أبيهما لتقديم تحية المساء وترجوان له ايلة طيبة . كان جميلاً ساحراً أن ترى الحب الذى أضاء وجه ذلك الرجل البدين الأحمر وهو يأخذها بين ذراعيه ويقبلهما ، ولم يكن يخفى على أحد أنه كان يحبها حب العبادت والافتخار، وعندما انصرفتا اتجه إلى لارى وقال وعلى شفثيه ابتسامة حلوة وثيدة :

« إنهما طفلتان ، أهما لطيفتان ؟ »

رمقته إيزابل بنظرة حب وحنو .

« لو تركت جراى وشأنه فى تربيتهما لأفسدهما حتى الموت . سوف يتركنى أموت جوعا ، هذا الوحش العظيم ، ليطعم الطفلين الكافيار وفطائر الكبد الدسمة . »

فنظر إليها مبتسما وقال : « أنت كاذبة وتعرفين أنك تكاذبين ، فىنى أعبد الأرض التى تطئونها . »

لمت ابتسامته فى عيني إيزابل متجاوبة مع ابتسامته ، إذ كانت عليه بذلك وسعيدة به . لقد كانا سعيدين .

أصرت على بقائنا للعشاء . ولما كنت من جانبي أعلم أنهما يفضلان أن يكونا وحيدين ، فقد قدمت اعتذاراى ولكنها لم تصغ إليها .

« سوف أخبر ماري أن تضع جزيرة أخرى فى الحساء ، وبذلك يتوفر قدر كبير لأربعة أشخاص . وتوجد دجاجة ، ويمكنك أن تأكل الساتين مع جراى وياكل جراى معى الجناحين ، ويمكنك أن تزيد طبق (السوفليه) (١) بحيث يكفيننا جميعا . »

وبدا أن جراى يريدنى أيضا على البقاء ، ولذا أغريت نفسى بتحقيق ما أردته .

وبينما نحن فى الانتظار أخبرت إيزابل لارى فى إسهاب ما كنت قد أخبرته

---

(١) لون من الطعام يتكون من البيض والابن المنفوق ومثل بلكيكولانة والجن ثم يدخل الفرن .

( م ١٥ — حد موسى )

به في اختصار وعلى الرغم من أنها روت القصة المحزنة في مرح ما وسعها الجهد إلا أن سحابة من حزن كظيم خيمت على وجهه . وحاولت أن تدخل السرور على نفسه .

« على أية حال فقد مرت العاصفة الآن . لقد سقطنا على أقدامنا وما زال المستقبل أمامنا ، فبمجرد ما تحسن الأحوال سيكون لجراي عمل عظيم يجني من ورائه الملايين . »

وجاء الكوكتيل ، وكان قدحان منه كافيين لرفع معنويات الفقى المسكين . ولاحظت أن لارى أخذ قدحا واكته نادرا ما كان يقربه ، وعندما قدم له جراي وهو غير ملتفت ، كأسا أخرى اعتذر عن عدم قبولها . ثم غسلنا أيدينا وجلسنا إلى مائدة العشاء وطلب جراي زجاجة من الشمبانيا واكن عندما بدأ الساقى يملا قدح لارى ، أخبره أنه لا يريدھا .

صاحت إيزابل : « آه ، ولكن يجب أن تشرب قدرا منها . إنها أفضل مالمى العم إليوت ، وهو لا يقدمها إلا لضيوفه الانخفاء جدا . »

« إنى أقول لك الحق إنى أفضل الماء . فبعد أن عشت في الشرق طويلا أصبح شرب الماء القراح متعة وهذا أسلم عاقبة . »

« هذه مناسبة سعيدة . »

« حسنا ، فلا شرب قدحا . »

كان العشاء ممتازا ولكن إيزابل لاحظت كما لاحظت أيضا أن لارى لم يأكل إلا قليلا جدا . لقد أدهشها على ما أظن ، إنها كانت تتحدث كل الوقت ولم تعط لارى فرصة لأن يفعل أكثر من أن يصفى ، ولذا بدأت تسأله عن أعماله في



السنوات العشر التي مرت منذ أن رآته لآخر مرة . كان يجيب بصراحته المهدبة ولكن في تحفظ حتى لا يفضى بالكثير .

« آه ، لقد كنت أجول هنا وهناك ، كما تعلمين ، فقد أمضيت سنة في ألمانيا ، وبعض الوقت في أسبانيا وإيطاليا ، وجيت في الشرق لفترة قصيرة ،

« ومن أين جئت أخيراً ؟ »

« الهند . »

« كم من الزمن مكثت هناك ؟ »

« خمس سنوات . »

سأل جراي : « هل استمتعت بالحياة . واصطدت النمر . »

ابتسم لاري وقال : « لا . »

سألت إيزابل : « ماذا كنت تفعل بحق السماء في الهند طوال خمس سنوات ؟ »

فأجلب بابتسامة رقيقة ساخرة : « كنت أتزه في ربوعها . »

سأل جراي : « ماهي (خدعة الجبل) (١) ؟ هل رأيتها ؟ »

« لا ، لم أرها . »

« ماذا رأيت إذن ؟ »

« رأيت الكثير . »

« وحينئذ ألقيت عليه سؤالا . »

---

(١) يقال إن الفقيه الهندي يعرف على المرار حنا يجعل الجبل يتحرك كالتمبان .

« هل حقيق أن ممارسى رياضة اليوجا(٢) يكسبون قوة تبدو لنا غارقة للطبيعة ؟ »

« لا أدرى . ولكن كل ما أستطيع أن أقوله هو أن ذلك هو المعتقد الشائع في الهند ، ولكن أكثر الناس حكمة وعقلا لا يعلقون أهمية كبيرة على القوى التي من هذا النوع . وإنى لأذكر أن أحدهم أخبرنى عن أحد ممارسى اليوجا أنه جاء إلى ضفة النهر ولم يكن معه نقود ليدفع الأجر لصاحب الزورق النهري لكي يعبر به النهر ، ورفض صاحب الزورق أن يعبر به دون القابل ، فإكان من اليوجى إلا أن خطا إلى الماء وسار على صفحته إلى الضفة الأخرى . اقدم اليوجى الذى روى لى هذه القصة كتفيه مستهزئا بعض الاستهزاء وقال : « إن أعوبة مثل هذه لا تستحق أكثر من الدرهم الذى يتقاضاه صاحب الزورق لقاء ركوب زورقه . »

سأل جراى : « ولكن هل تظن أن اليوجى قد مشى حقا فوق الماء ؟ »

« إن اليوجى الذى أخبرنى بذلك كان يصدقها خبنا . »

كانت متعة أن تستمع إلى لارى متحدثا ، فقد كان صوته رخيما يأخذ بمجامع الألباب ، جهورا فيه رقة وخصوبة دون أن يكون قويا مجلجلا ، وكان متعدد النغمت فرغنا من العشاء وعدنا إلى حجرة الاستقبال لتناول القهوة . لم أكن قد زرت الهند قط ، وكنت متشوقا لسماع المزيد عنها .

سألت : « هل كان لك اتصالات بأى من الكتاب أو المفكرين ؟ »

قالت إيزابل وهى ترمى إلى معاكسى . « أرى أنك تميز بين الاثنين ؟ »

---

(٢) رياضة تقليدية خاصة فى الهند .

قال لارى : « لقد كان شغلي الشاغل أن أجرى هذه الاتصالات » .

« وكيف كنت تتفاهم معهم ؟ هل كان ذلك بالإنجليزية ؟ »

« إن أم مافي الموضوع أنهم كانوا إذا ما تحدثوا بها أصلا ، لم يتكلموها جيدا جدا ، وكان فهمهم إياها أقل . فتعلت الهندوستانية . وعندما ذهبت إن الجنوب تعلمت من لغة التامل (١) ما يكفي لأن أتحدث بها جيدا إلى حد ما ، » .

« كم لغة تعرفها الآن ، يا لارى ؟ »

« آه ، لا أعرف ، قد تكون ستا ، » .

قالت إيزابل . « أريد أن أعرف المزيد عن اليوجيين . هل كنت على اتصال وثيق بأحد منهم ؟ »

ابتسم قائلا : « صلة وثيقة بالقدر الذي يسمح لنا أن نعرف أشخاصا يقضون أفضل أوقاتهم في اللانهاى . ولقد أمضيت عامين في ( أشراما ) (٢) أحدهما ، » .

« عامان ؟ وما عسى أن تكون الأشراما ؟ »

« حسنا ، أظن أنه من المحتمل أن تسميها المنسك . فهناك رجال مقدسون يعيشون بمعزل عن العالم ، في مبيد ، في غابة أو على منحدرات جبال هيمالايا . وهناك آخرون يجذبون إليهم الحواريين . والكى يظفر رجل البر بالثواب فهو يبني غرفة كبيرة أو صغيرة يسكن بها يوجى أثر فيه صلاحه وتقواه ويعيش الحواريون معه . ينامون في الفرايدة أو في المطبخ إن وجد أو تحت شجرة .

( ١ ) النار ، قبيلة هندية من جنس يمش في جنوب الهند - ميلان ولنتهم أيضا التامل .

( ٢ ) اخلوة أو الصومعة أو المنسك .

وكنت أمك كوخا صغيرا في فناء يضم أكواخاً أخرى . وكان يستوعب خيمة فراش ومقعداً ومنضدة ورف كتب .

فسألت مستفسرا : « أين كان ذلك ؟ »

في ترافسكور ، وهديف من التلال الحضر والوديان وتجري بها أنهار هادئة . وفي أعالي الجبال توجد النور والفهود والفيلة والبيسون (١) ؛ ولكن الأشرا ما ( الصومعة ) كانت تقع على خورنمت حوله من جميع الجهات أشجار الكاكا والبلوط ، وكانت على مسيرة ثلاثة أو أربعة أميال من أقرب بلدة ، ولكن الناس كانوا قد اعتادوا الحجى من هذه البلدة بل من بلدان أبعد منها بكثير سيراً على الأقدام أو قتلهم عربات تجرها الثيران ، ليستموا إلى اليوجى وهو يتحدث عندما يميل إلى الحديث ، أو ليجلسوا عند قدميه ويتقاسمون بعضهم مع بعض السلام والسعادة التي كانت تشع من وجوده كما تنبعث الرائحة الذكية في الهواء من زهر الياسمين البحرى .

تلمل جراى فى مقعده . وحدثت أن الحديث قد اتجه اتجاها مضجرا مـلاـه .

قال لى : « تناول قدحاً من الشراب . »

« لا ، شكرالك . »

« حسنا ، سأناول واحدا . وأنت يا إيزابل ، هل ترغبين فى كأس ؟ »

رفع جسمه الضخم العظيم من مقعده وذهب إلى المنضدة حيث وضع الوسكى وزجاجات ماء بيريه .

---

(١) نور الملاء - وهو حيوان برى أمريكى يشبه النور .

« هل كان يوجد رجال يبعث آخرون هناك ؟ »

« لا ، فقد كنت الوحيد . »

صاحت إيزابل : « وكيف أمكنك احتمال هذه الحياة مدى عامين ؟ »

« لقد مضيا كومضة البرق . و قضيت أياماً بدت وكأنها - لاشعورياً - أطول ، »

« وماذا كنت تفعل طوال الوقت ؟ »

« كنت أقرأ ، وأمشي مسافات طويلة واستقل زورقاً في النهر و كنت أتأمل ، عمل شاق جداً ، فبعد ساعتين أو ثلاث ساعات من التأمل تغفو منهوك القوى وكأنك قد قدت سيارة مسافة خمسمائة ميل ولم يبق لك سوى أن تستريح . »

عبست إيزابل قليلاً . فقد تحيرت ولست متأكداً من أنها لم تفزع . أظن أنها بدأت تفكر في أن لاري الذي دخل الحجرة منذ ساعات قليلة منعت على الرغم من أنه لم يتغير في ظاهره ويبدو صريحاً ومحبباً كما كان دائماً ، لم يهد لاري نفسه ، الأمين الأنيس المرح ، العنيد في نظرها ، ولكنه المتع الذي عرفته فيما مضى . لقد فقدته قبل ذلك وعندما رأته ثانية — وقد ظنته لاري القديم — خامرها إحساس بأنه مهما تغيرت الظروف فما زال ملكها ، والآن ، وإنها حاولت أن تمسك بشعاع الشمس في يدها فانساب من خلال أصابعها عندما قبضت عليه ، فقد ارتفعت قليلاً . لقد نظرت إليها ملياً في تلك الأمسية وكان النظر إليها متعة دائماً ، و - رأيت الإعزاز في عينيها وهما تقعان على رأسه الأنيق ذي الأذنين الصغيرتين الملاصقتين بلجمته رأسه . وكيف كان التعبير في عينيها يتغير عند ما كان يقع بصرها على صدغيه الجوفين ووجنتيه النحيلتين . نظرت إلى يديه النحيلتين الطويلتين ، وكاتتا على الرغم من هزالهما وضمورهما قوينين

تفيضان بالرجولة . ثم طافت نظراتها مستأنية بفعه المتحرك الحسن التكوين  
الممتلئ من غير أن يكون شهوياً ، وكذا طافت بجبينه الهادئ الرصين وأنفه  
البديع الخلق . كان يرتدى ملابسه الجديدة لا في أناقة صندوق القبعات كما يفعل  
إليوت ؛ ولكنه كان يرتديها في إهمال طلق كما لو كان يرتديها كل يوم مدة عام .  
شعرت بأنه قد أثار في إيزابل غرائز الأمومة التي لم أحسها في صلاتها مع أطفالها .  
كانت امرأة مجربة محنكة ، وكان هو ما يزال يبدو قتي غريراً ، وبدأت أقرأ في  
هيتها كبرياء الأم من أجل ابنها الشاب لأنه يتحدث حديثاً ذكياً والآخرين  
يصنون إليه إذا ما كان معقولا . ولا أظن أن مغزى ما قاله نفذ إلى وعيها .

ولكنني لم أتتبعه بعد من أسئلتى .

« ماذا كان يشبه الیوجی الذي تحدثت عنه ؟ »

« هل تعرف شخصه ؟ حسناً . لم يكن طويلاً ، ولا نحيلاً أو بدينياً . لونه  
أسمر مائل إلى الشحوب وحليق اللحية تماماً وشعر رأسه قصير جداً وأبيض ، ولم  
يكن يلبس شيئاً قط سوى مئزر ، ومع ذلك فقد تمكن من أن يبدو أنيقاً حسن  
الهدام والرداء ككتاب في مؤسسة إخوان بروكس للإعلان . »

« وماذا كان يجذبك فيه بصفة خاصة ؟ »

نظر إلى لاري دقيقة كاملة قبل أن يجيب عن سؤالی ، وبدت عيناه في  
محجريهما الغائرين وكأنهما تحاولان النفاذ إلى أعماق روحي .

« القدسية . »

لقد شوشت إجابته فكراً قليلاً ، ففي تلك اللحظة بأناؤها الجميل والرسوم  
البديعة على الجدران ، هبطت الكلمة كما يتسرب الماء خلال السقف من  
حمام متدقني .

« لقد قرأنا جميعاً عن القديسين ، من أمثال القديس فرنسيس والقديس يوحنا الصليبي ؛ ولكن كان ذلك منذ مئات خلت من السنين . ولم أفكر قط في أن ألتقي قديساً بين الأحياء الآن . فبذ أن رأيتَه للمرة الأولى لم أشك لحظة واحدة في أنه قديس . لقد كانت تجربة مذهلة . »

« وما الذي ربحته منها ؟ »

قال عرضاً وهو يبتسم : « السلام » ثم نهض فجأة على قدميه . « يجب أن أنصرف الآن . »

صاحت إيزابيل : « إياه ، إن الوقت لم يحن بعد يا لارى . فإ يزال الوقت مبكراً جداً . »

قال وما زالت الابتسامة على شفثيه : « طابت ليلتكم ، وهو لا يميز عتابها اقتباها . وقبلها على خديها . وأضاف قائلاً : « سأراكم في غضون يوم أو يومين ،

« وأين تقيم ؟ فسوف أستدعيك . »

« لا تهتسي بذلك ، فأنت تعلمين أية صعوبة تعترض من يريد الاتصال بأخر في باريس وعلى كل حال فإن الهاتف عندنا محتل عادة . »

ضحكت في قرارة نفسى من اللباقة التى تمكن بها لارى من أن يفلت من طلب عنوانه . لقد كانت عقدة عجيبة من عقده أن يجعل من ممكنه سراً . فاقترحت عليهم أن يتناولوا معى جميعاً العشاء فى المساء التالى لغد ، فى مطعم غابة بولون . فقد كان مبهماً للسرور فى ذلك الطقس الربيعى العطرى أن تتناول العشاء فى الخلاء تحت الأشجار ويمكن لجرأى أن يأخذنا فى سيارته الصغيرة إلى هناك . انصرفت مع لارى ، وكان يودى لوسرت مع ليه من الطريق ؛ ولكن ما إن دلفنا إلى الشارع

حتى صالحي وسار في طريقه مسرعاً لا يلوى على شيء. واستقلت سيارة أجرة .

( ٥ )

لقد اتفقنا على أن نلتقي في الشقة ونشرب الكوكتيل قبل ذهابنا . ووصلت قبل لارى . كنت سأخدم إلى مطعم أنيق ، وكنت أتوقع أن تكون إيزابل قد ازينت لهذه المناسبة ، فالنساء جميعاً قد ارتدين أنفخنيا بهن ، كنت واقفاً من أنها لن ترضى بأن يتفوقن عليها . واصلتها جاءت في ثوب من الصوف العادي .

قالت : « لقد أصابت جراى نوبة من نوبات الصداع التي ظم به بين آن وآخر وهو يعاني ألماً مبرحاً ، ولم يكن من الجائز أن أتركه وحيداً على هذه الحال . فأخبرت الطاهية أن بوسعها أن تنصرف بعد أن تتناول الطفلتان عشاءهما ، وكان لزاماً على أن أعد له شيئاً وأحمله على تناوله . إن الأفضل أن تذهب مع لارى وحيداً ، » .

« هل جراى ملازم الفراش ؟ »

« لا ، فإن جراى لا يلزم فراشه عندما يلزمه الصداع . والله يعلم أن الفراش هو المسكان الوحيد الذي يلائمه ولكنه يرفض . وهو الآن في المكتبة ، » .

كانت هذه حجرة صغيرة حوائطها مكسوة بألواح خشبية بنية ومذهبة ، كان لإليوت قد عثر عليها في قصر قديم وقد تحصنت الكتب من يريدون قراءتها بنوافذ شبكية مموهة بالذهب وأحكم رتاجها بالأقفال ، وربما يكون ذلك لأن أغلب محتوياتها من أعمال مصورة فاحشة من القرن الثامن عشر ، وكانت في جلودها المراكشية المعاصرة ذات تأثير جميل جداً ، على كل حال . صحبتني إيزابل ليلاً الداخل . وكان جراى قد جنس مهالماً محدودب الظاهر في مقعد كبير من



الجلد وقد انتشرت حوله على أرض الحجر أوراق مصورة. كانت عيناه مغمضتين ووجهه الأحمر عادة شاحبا أغمبر. كان من الواضح أنه يعاني آلاماً مبرحة. حاول النهوض ولكن منعه .

سألت إيزابل : هل أعطيتهم أقراصاً من الأسبرين ؟ ،

و إن ذلك لا يجدي نفعاً أبداً . وعندي وصفة دواء أمريكية ولكن هذا لا يفيد أيضاً ،

قال جراي : لا يعزيتي ، فسوف أتحسن في غد . ، وحاول أن يتسّم : إني آسف إذ أغدو مصدر تعب . ، وقال لي : اذهبوا جميعاً إلى بواه ،

قالت إيزابل : لن أحلم بذلك . فهلى تظن أنى أستمتع وأنا أعرف أنك تقاسى عذاب من يصلون نار جهنم ؟ ،

قال جراي وهو مغمض العينين : يا لها من امرأة . مكينة . أظن أنها تجبني ، ،

ثم قلص وجهه فجأة ، وأصبح يمكنك أن ترى الألم الذي يمزقه وهو يخرق رأسه . وانفتح الباب بهدوء ودخل لارى فأخبرته إيزابل بما كان يجري .

قال وهو ينظر إلى جراي نظرة عطف وحنان :

، ألا يمكننا أن نفعل شيئاً لنخفف من آلامه ؟ ،

قال جراي وهو مازال مغمض العينين : لا شيء . إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله أحدكم من أجلى هو أن يتركني وشأني . انصرفوا وتمتعوا واقضوا وقتاً طيباً بدوني ،

ظننت أن هذا هو الطريق الوحيد الذي يجب أن نسلكه ولكن ما كنت  
أظن أن إيزابيل ترضاه وهي مرتاحة الضمير .

قال لارى : « هل تؤذني لي أن أجرب ما إذا كان بوسعي أن أساعدك ؟ »

قال جراى ضجراً : « ليس بمقدور أحد أن يساعدي . إن الداء يقتلني تماماً ،  
وفي بعض الأحيان أتمنى من الله أن يمنع حداً لحياتي ، .

« لقد أخطأت عند ما قلت أنه ربما كان بوسعي أن أساعدك . إن ما عينته  
أنه ربما كان بوسعي أن أساعدك لتساعد نفسك ، .

فتح جراى عينيه في بطة ونظر إلى لارى .

« وكيف يتأتى لك ذلك ؟ »

أخرج لارى ما بدا أنه عملة فضية من جيبه ووضعها في يد جراى .

أقبل أصابعك عليها بإحكام ، واجعل راحة يدك إلى أسفل ولا تصارع ضدي ،  
ولا تبذل جهداً ، ولكن اقبض على العملة في قبضة يدك . وقبل أن أعد عشرين  
ستفتح يدك وتسقط العملة منها ، .

فعل جراى كما أمر ، وجلس لارى إلى منضدة الكتابة وبدأ يعد ، وظللت  
أنا وإيزابيل واقفين . واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة . عندما وصل إلى خمسة  
عشر كانت يد جراى دون حراك ، ثم بدا أنها ترتعش قليلاً ثم استولى على  
إحساس : أكاد أقول إنى رأيت الأصابع المقبوضة بدأت تتراخى ، وأبعدت  
الإبهام عن قبضة اليد ، ثم رأيت في وضوح وجلاء أن الأصابع ترتعش .  
وعندما وصل لارى إلى تسعة عشر سقطت قطعة العملة من يد جراى وتدحرجت  
إلى قدمي . فالتقطتها ونظرت إليها . كانت ثقيلة ومشوهة التكوين ، وعلى أحد

وجيها رسم بالنقش البارز لرأس شاب هو رأس الإسكندر الأكبر كما تعرفت عليه . لخلق جرای في يده حائراً مشدوهاً .

قال : « ثم أسقط قطعة العملة من يدي اختياراً . فقد سقطت من تلقاء نفسها » .

كان يجلس وقد اعتمد بذراعه اليمنى على مسند المقعد الجلدي .

سأل لاري : « هل أنت مرتاح تماماً في ذلك المقعد ؟ » .

« قدر ما أكون مرتاحاً عند ما يكون رأسي يعذبني عذاباً ألماً » .

« لا عليك . استرخ تماماً ولا تأت حركة ما ولا تقاوم . وقبل أن أعد عشرين سوف ترتفع ذراعك اليمنى من على مسند المقعد حتى تصير يدك فوق رأسك . واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة . . . »

كان ينطق الأعداد في ببطء بجرس صوته الفضي الرخيم ، وعندما وصل إلى تسعة رأينا يد جرای ترتفع ، بما تسكاد تحمه فقط ، عن السطح الجلدي الذي كانت تعتمد عليه حتى أصبحت ، من المحتمل ، على ارتفاع بوصة منه . وتوقفت لمدة دقيقة .

« عشرة ، أحد عشر ، اثنا عشر »

ثم عرته هزة . وحينئذ وفي ببطء بدأت الذراع كلها تتحرك إلى أعلى . لم تعد تعتمد على المقعد ثانية . وهنا أمسكت إيزابل بيدي ، وقد داخلها قليل من الخوف . استولى تأثير عجيب علينا . فلم يكن هناك أدنى شبه بين هذه الحركة والحركة الإرادية . لم أر في حياتي رجلاً يمشی في نومه ؛ ولكنني الآن يمكنني أن

أتصور أنه يفعل ذلك بالطريقة نفسها التي تحركت بها ذراع جراى . فلم تبد وكأن الدافع فيها قوة الإرادة ؛ إذ أنى أظن أنه كان من الصعوبة بمكان أن ترتفع الذراع بمثل هذا البطء استواءً بجهد واحد . فكانت توحى بأن قوة لاشعورية مستقلة عن العقل كانت ترفعها . كانت الحركة شبيهة بتلك الحركة نفسها التي يؤديها مكابس ببطء شديد وروحة وجيئة في اسطواناته الشغل .

خمسة عشر ، ستة عشر ، سبعة عشر .

هبطت الكلمات بطيئة ، بطيئة ، مثل قطرات الماء من صنوبر به عطب . ارتفعت ذراع جراى وارتفعت حتى غدت يده فوق رأسه وعندما وصل لارى إلى العدد الذي قاله سقطت ذراعه من تلقاء نفسها على مسند المقعد .

قال جراى : لم أرفع ذراعى . ولم يكن بوسعى أن أتحامى ارتفاعها على هذه الصورة . لقد ارتفعت من تلقاء نفسها .

ابتسم لارى ابتسامة باهتة .

« إنه لأمر عديم الأهمية ، فقد ظننت أنه يكسبني ثقتك . أين العملة الافريقية ؟ »

فأعطيتها له .

« اقبض عليها في يدك ، أخذها جراى . ونظر لارى في ساعته . إنها الثامنة والدقيقة الثالثة عشرة . وفي مدى ستين ثانية سوف يثقل جفناك حتى تضطر إلى إغماضهما وحينئذ تنام . سوف تظل نائماً ست دقائق ، وفي الثامنة والدقيقة العشرين سوف تستيقظ ويزايلك الألم . »

لم تنطق إيزابل ببنت شفة بل لومت الصمت ، فقد كانت أبصارنا مركزة على لارى . لم يزد على ما قال شيئاً . ثبت ناظره على جراى ، ولكن لم يبد أنه ينظر إليه ، بدا أنه ينظر خلاله . كان فى الصمت الذى خيم علينا شيء مفرع ، كان الصمت شديهاً بصمت الزهر فى بستان عند ما يخيم ظلام الليل . ولجأة أحسست بقبضة يد إيزابل تشدد ، فنظرت إلى جراى . كانت عيناه مغمضتين ، وكان تنفسه ثقيلارتيباً ، لقد كان يغط فى نومه . ووقفنا هناك بعض الوقت ، خيل إلينا أنه لانهاى . كنت فى حاجة شديدة إلى لفافة تبغ ، ولكنى لم أحجب أن أشعل واحدة . كان لارى ساكناً لا يريم ولا يتحرك ، وكانت عيناه تنظران فى مدى لم أدرك ما هو ، ما عدا أنهما مفتوحتان وهو فى غيبوبة . ولجأة بدا أنه يسترخى ، واستردت عيناه تعبيرهما الأوف ونظر إلى ساعته ، وإذ هو يفعل ذلك ، فتح جراى عينيه .

قال : « بالله ، أعتقد أنى قد استسلمت للنعاس . ثم نهض واقفاً ولاحظت أن وجهه قد زايله شحوبه الفظيع .

« لقد ذهب ما كنت أشكوه من صداع . »

قال لارى : « هذا جميل . هاك لفافة تبغ وعللوا بنا جميعاً نذهب إلى العشاء . »

« إنها لمعجزة . إنى أشعر بأنى مكتمل القوة . كيف فعلت ذلك ؟ »

« إنى لم أفعل ذلك بل أنت الذى فعلته . »

ذهبت إيزابل لتغير ثيابها ، وفى أثناء ذلك شربت الكوكتيل مع لارى . وعلى الرغم من أنه كان وانحماً أن لارى لا يريد التحدث فيما قد حدث إلا أن

جراى قد أصر على ذلك فلم يكن بوسعه أن يفهمه مطلقا .

قال : « لم أكن أعتقد أن بمقدورك أن تفعل شيئا . لقد استسلمت لأنى شعرت فقط بأنى فى حالة يرثى لها لا تمكننى من الجدل ، » .

وراح يصف نوبة الصداع التى ألمت به ، والألم الذى عاناه ، والحطام الذى انتهى إليه عند ما هدأت نوبة الصداع وسكنت . ولم يتمكن من أن يدرك كيف أنه آتئذ تماما قد أحس بوجوده القوى المعتاد . عادت إيزابل وكانت مرتدية ثوبا لم أره من قبل ، كان يصل إلى الأرض ، ويتكون من ردايين أحدهما فوق الآخر ، الداخلى من ( الماروكان ) كما يسمى على ما أظن يعلوه آخر من قماش التل ولم يكن بمقدورى سوى الظن أنها ستكون موضع نظر لنا .

كان الجو مرحا فى مطعم شاتودى مدريد ، وكنا جذلين منشرحين الصدور . فدكان لارى يتحدث لغوا مسليا لم أسمعه من قبل يتحدث بمثله ويبعثنا على الضحك ، وحدثت أنه يفعل ذلك ليصرف أذهاننا عن عرض قوته غير المتوقعة . ولكن كانت امرأة حازمة . كانت على استعداد لأن تلعب معه بالكرة طالما كان ذلك يلائمها ، ولكن لم يرغب عن نظرها قط رغبتها الشديدة فى إرضاء فضولها . وربما كانت قد حدثت ونحن نشرب القهوة ونمتدى ( اللىكبير (١) ) بعد أن فرغنا من تناول العشاء أن الطعام الجيد ، والكأس الواحدة من النبيذ التى شربها لارى ، والحديث الودى الذى خاض فيه ، قد أضعفت وسائل دفاعه ، فثبتت عينها البراقطين عليه .

---

( ١ ) كلمة معربة معناها شراب حلو مقطر

« والآن فلتخبرنا كيف شفيت صداع جرائ ، » .

أجاب مبتسماً : « لقد رأيت بنفسك ، » .

« هل تعلت أن تفعل مثل ذلك باهتد ؟ »

« نعم ، »

« إنه يقاسى عذاباً أليماً . هل تظن أن بمقدورك أن تشفيه شفاء دائماً ؟ »

« لأدرى ، وقد يكون ذلك بمقدورى ، » .

« سيكون لذلك تأثير عظيم في حياته كلها . فهو لا يتوقع أن يشغل عملاً محترماً  
وبه علة قد تقعه عن العمل ثمانى وأربعين ساعة إذا ما ألمت به . وإن يذوق طعم  
السعادة إلا إذا كان في عمله ثانية ، » .

« لا يمكننى فعل المعجزات ، كما تعلمين ، » .

« ولكنها كانت معجزة ، لقد رأيتها بعيني رأسى ، » .

« لا ، لم تكن معجزة . وكل ما فعلته أنى أودعت في رأسه فكرة ، وفعل هو

الباقى بنفسه . » ثم اتجه نحو جرائ . « ماذا ستفعل غدا ؟ »

« سألعب الجوائف ، »

« سأحضر فى الساعة السادسة وسيكون لنا حديث ، » . وحينئذ ابتسم لإزابيل

ابتسامته الآسرة : « لم أرقص معك منذ عشر سنوات ، يا إيزابيل . هل تفضلين

بذلك إذا كنت ما زال أعرف ؟ »

( م ١٦ - حد موسى )

( ٦ )

كثيراً ما رأينا لارى بعد ذلك . ففى الأسبوع التالى كان يجىء إلى الشقة كل يوم، وكان يعتكف مع جراى مدة نصف ساعة فى المكتبة. بدأ أنه أراد إغراءه - هكذا عبر عنها مبتسماً - على التخلص من نوبات الصداع المدمرة ، وأحسن جراى فيه بثقة كثقة الأطفال . ومن القليل الذى قاله جراى فهمت أنه يحاول زيادة على ذلك أن يعيد إليه ثقته المحطمة فى نفسه . وبعد مرور عشرة أيام تقريباً ألمت به نوبة صداع أخرى وحدث فى هذه المرة أن لارى ما كان ليحضر إلا فى المساء ولم تكن نوبة قاسية جداً ، ولكن جراى أصبح الآن يؤمن بقوة لارى الحارقة إلى حد جعله يظن أنه إذا ما أمكن العثور على لارى فبوسعه أن يشفيه فى دقائق معدودة . ولكنى ، وقد استدعتنى إيزابل على الهاتف ، وكذلك هم ، لم تتمكن من معرفة مسكنه . وعندما جاء لارى فى النهاية وأراحه من آلامه ، سأله جراى عن عنوانه حتى يمكنه فى حال احتياجه إليه أن يستدعيه فوراً . فابتم لارى .

« اتصل بالأميركان اكسبرس واترك لى رسالة . وسوف أتصل بهم كل صباح . »

وسألتنى إيزابل فيما بعد عن السبب الذى من أجله جعل لارى من عنوانه سرا مغلقاً . لقد فعلت ذلك من قبل ووضح أنه يعيش عيشة لاختفاء فيها ولا أسرار فى فندق من الدرجة الثالثة فى الحى اللاتينى .

قلت مجيباً : « لافكرة لدى مطلقاً . ولكن بوسعى أن أفترض أمراً خيالياً ، ربما يكون فيه شيء من الصحة . من المحتمل أن غريزة عجيبة تمنزه إلى أن ينقل إلى مقر سكنه بعض سر روحه . »

صاحت محنقة : « ماذا ، بالله عليك ، تعنى بذلك ؟ »

« ألم يسترح اقتباهك أنه عندما يكون معنا على الرغم من هدومه ولين عريكته فى مجاراته لنا ، وعلى الرغم من وده وأفته - يحس الإنسان فيه لونا



من العزلة والانفصال ، وكأنه ايس بكليته معنا ، ولكنه حبس في مكان خفي  
من روحه ، شيئاً ، لا أدري ما كنهه - توتر ، سر ، أمل ، معرفة - يجعله  
بمزل ؟

قلت نافذة الصبر : « لقد عرفت لاري طيلة حياتي . »

« إنه يذكرني في بعض الأحيان بمثل عظيم يلعب دوراً بنجاح تام في  
تمثيلية نافذة كدور إيزورا ديوز في مسرحية صابنة النزل . »

فكرت إيزابل تفكيراً عميقاً في ذلك برهة .

« أظن أنني أفهم ما تعني . إن ثمة شخصاً يستمتع بالحياة وهو يظن أنه على  
شاكلة أي منا تماماً مثل أي شخص آخر ، وحينئذ وعلى حين غرة يستولى  
عليك إحساس بأنه قد أفلت منك كما تفلت من أصابعك دائرة من الدخان تحاول  
أن تمسك بها في يديك . فإتقان يكون هذا الذي يجعله غريب الأطوار ؟ »

« من المحتمل أن يكون شيئاً مألوفاً للغاية بدرجة تجعل الإنسان لا يلاحظه . »

« مثل ماذا ؟ »

« الصلاح والتقوى مثلاً . »

« قطبت إيزابل حاجبها . »

« أود لو أنك لا تفوه بمثل هذه الأشياء ، فهي تصيني بشعور مغت في صميم  
معدني . »

« وقد يكون المأ طفيفاً في أعماق قلبك ؟ »

حدجتي إيزابل بنظرة طويلة وكأنها تحاول قراءة أفكاري ، وتناول لفاقة  
تبغ من المنضدة التي بجوارها وبعد أن أشعلتها أسندت ظهرها إلى ظهر المقعد .  
وراحت ترقب الدخان متصاعداً في حلقات في الهواء .

سألها : « هل تحبين أن أنصرف ؟ »

« لا ، . »

ظللت برهة صامتاً أرقبها ، ورحت من جانبي أستمع بالتأمل في أنفها المنسق  
وأسارير فكها الفائق الحسن .

« هل تهوين لارى هوى مفرطاً ؟ »

« لعنة الله عليك . فإني لم أحب أحداً غيره في حياتي كلها ، . »

« لماذا تزوجت من جراى ؟ »

« كان على أن أتزوج بأية حال ، وقد جن حباً بي ، وأرادتني أمي على الزواج  
منه ، وقال لي الجميع إنني أحسنت الخلاص من لارى . وكنت مفرمة بجراى ،  
ومازلت مفرمة به حتى الآن . أنت لا تدرك مقدار رقتي وعذوبتي ، ولا يوجد من  
يعد له في الدنيا عطفاً وحكمة . وهو يبدو كأنه ذو مزاج مروع . ألا يبدو كذلك ؟  
لأنه معي الملك الكريم دائماً . لما كان انا المال كان يطلب مني أن أطلب أشياء حتى  
تكون له السعادة التي يتذوقها وهو يعطينيها . واقد تلت ذات مرة إنها لمتمة أن  
يكون لنا نخت نطوف به حول العالم ؛ وما لم تقع تلك الكارثة المالية لأشترى  
واحداً ، . »

تمت قائلًا : « في حديثه لهجة الصلاح والتقوى لا رجة تجعله غير حقيقي ، . »

« لقد استمتعنا بوقت رائع معاً ، وسوف أقر له هذا الجميل ما حبيت . لقد  
جرعت كأس السعادة مترعة من يديه . .  
نظرت إليها ولكنى لم أفه بكلمة .

« أظن أنى لم أحبه حقاً ، ولكن يمكن الإنسان أن يعيش عيشة مرضية من  
غير حب ، إنى فى أعماق قلبى كنت أتوق إلى لارى وأصبوا إليه ، ولكن طالما  
كانت ثمة فرقة بيننا وامتنع علينا اللقاء ، فم أكن لأهزم الأمر . هل تذكر ما قاله  
لى بأن ثلاثة آلاف ميل من مياه المحيط بيننا كفيلاً بأن تجعل غصص الحب أمراً  
متملاً ؟ لقد ظننت هذا القول ملاحظة ساخرة حينئذ ، ولكنها صادقة طبعاً . .

« إذا كانت رؤية لارى مبهمة لم لك ، أفلا تظنين أنه أكثر حكمة  
الآتية ؟ »

« ولكنه الألم الذى تكمن فيه السعادة والذميم ، وزيادة على ذلك ، فأنت  
تعلم خلاصته . فى أى يوم يمكن أن يتوارى كالظلل عند ما تنيب الشمس ونعود  
لأنراه لسنين عديدة . .

« ألم تفكرى أبدأ فى طلب الطلاق من جراى ؟ »

« لم يكن لدى سبب فى يوم من الأيام للطلاق منه . .

« ولكن هذا لا يمنع بنات جنك من طلاق أزواجهن عند ما يرغبن فى  
ذلك ، ضحك . .

« ولماذا تظنين يطلعن ؟ »

« ألا تعلمين لأن النساء الأمريكيات يتوقعن أن يجدن فى أزواجهن

الكمال الذي تأمل الإنجليزيات أن يجدنه في كبار خدمهن وحدهم . .

هزت إيزابل رأسها هزة مشاعخة عنيفة عجبت كيف لم يدق لها عتقها .

« لأن جراي لا يفصح عن ذات نفسه فإنك تظن أن الأمر لا يهمه . .

قاطعتها على عجل : « إنك لعل خطأ في ذلك الموضوع . فإني أظن أن ثمة ما يبعث على العطف عليه . لقد حياه الله منذكة عجيبة للحب فما على الإنسان إلا أن ينتظر إلى وجهه وهو ينظر إليك فيرى مبلغ ما يحمل لك من حب عميق وما يربطه بك من وشائج الثقة بس والولاء . وهو يحب أطفاله أكثر مما تفعلين . .

« أظن أنك توشك أن تقول الآن إنني لست أمأً صالحة . .

« على النقيض ، فإني أظن أنك أم ممتازة . فأنت ترين أنهما في صحة جيدة سعيدتان ، فأنت تشرفين على طعامهما ، وتعنين بأن تعمل أمأوهما في نظام وتعلمينهما السلوك الحميد ، وقرئين لهما ، وتعلمينهما على الصلاة . فإذا ما مرضتا استدعيت الطبيب فوراً وتمرضينهما بعناية ، واسكنك لست منقطعة لهما مثلاً يفعل جراي . .

« ليست ضرورة ملحة أن أقطع لهما ، فإني بشر ، وأعاملهما كبشر . إن الأم تؤذي أطفالها فقط عندما تجعلهم كل شغلها الشاغل في حياتها . .

« أظن أنك على صواب تام . .

« وتظل الحقيقة الثابتة وهي أنهما تبجلاتي . .

« لقد لاحظت ذلك . فانت المثل الأعلى لهما في كل ما هو رشيق لطيف جميل خليق بالإعجاب ، ولكنهما ليستا أنيقةتين في حالتها هذه ، فالتعب عليك مثل جرای سواء بسواء . إنهما تبهجانك ولكنهما تبهجانه . »

« إنه جدير بالحب جداً . »

لقد أحببتها لهذا القول ، فقد كانت إحدى شبيها المحببة أن الحقيقة الباردة لا تغيظها إطلاقاً .

« لقد تحطم جرای بعد الانهيار المالي الذي وقع . فقد دأب على العمل إلى ساعة متأخرة من الليل في المكتبة لمدة أسابيع . واعتدت البقاء في البيت يتقاسمني عذاب المخاوف . وكنت أخشى أن يظن الرصاص على نفسه فيتهشم رأسه ، فقد كان يشعر بالخزي والعار لما حصل به من دمار . فكما ترى كان جرای ووالده يمتازان بالمؤسسة ويفخران بها كثيراً . كان يمتازان بتمازكهما ونزاهتهما وسلامة وصدق حكمهما . لم يكن ليجبا كثيراً لو أنه قد خسر كل ما لنا من مال . إن ما لم يكنه التغلب عليه هو أن هؤلاء الذين عهدوا إليه بكل ثرواتهم لاسألهن قد خسروا أموالهم . وشعر بأنه كان قصير النظر ، ولم يكن بوسعي أن أقدمه بأنه لم يكن ملوماً . »

أخرجت إيزابل طلاء الشفاة الأحمر من حقيبتها وصبغت شفيتها .

« ولكن ذلك ليس هو ما أردت أن أدل به إليك . إن الشيء الوحيد الذي بقي لنا هو المزرعة ، وشعرت أن الفرصة الوحيدة التي أمام جرای هي أن نرحل . وهكذا تركنا الأطفال في كنف أمي ونهنا إلى تلك المزرعة . لقد أحببتها دائماً ولكننا لم نذهب إليها قط بمفردنا ، فقد أخذنا حشداً منا وأمنينا وقتاً طيباً جداً ، فإن جرای صياد ماهر ، ولكن لم تكن له آنيذ شجاعة للصيد . واعتاد

أن يستقل قارباً ويخرج إلى الأجمة وحيداً لساعات متصلة وهو يرقب الطيور . وكان يسبح فوق سطح مياه القنوات ذهاباً وإياباً ، وليس على جانبيه سوى نبات سمار الحصر الشاحب . ولا يظلل رأسه سوى السماء الزرقاء . وكانت زرقة مياه القنوات في بعض الأيام كزرقة مياه البحر الأبيض المتوسط . وكان من عادته حينئذ ألا يقول الكثير عند عودته ، فلا يقول إلا إنها كانت عظيمة ، ولكن كان باستطاعتي أن أدرك ما كان يشعر به . عرفت أن قلبه كان يتأثر بالجمال والفضاء المتسع والهدوء . إن في لحظة ما قبيل الغروب تماماً يبلغ جمال الضوء على الأجمة غايته ، ولقد دأب على الوقوف هناك والنظر إليه . وكانت السمادة تملؤه ، وكان يمخر بقاربه هذه الآجام المنعزلة الغامضة وهي شبيهة بالآجام التي وصفها ميترلنك في إحدى مسرحياته ، فهي رمادية تماماً ، ويخيم عليها سكون شامل يكاد يبلغ حد الخطر . وفي الربيع تأتي فترة تسكاد لا تدوم أكثر من أسبوعين ، عند ما تزهر نباتات القرانيا وتورق أشجار الصمغ ، وتكون الأوراق الخضراء الناضرة وخلفها الطحلب الطويل الرمادي كأنشودة سرور ، ويكسو الأرض بساط عظيم من الزنبق والفار الشيجي البري . لم يكن بمقدور جراي أن يفسر معنى كل ذلك عنده ، ولكنه كان يعنى الدنيا بأكلها . وكان ثملاً نشوان بجماله وسحره ، إنني أعلم بقصوري في التعبير جيداً عنه ، ولكن لا يمكنني القول كم هو مؤثر عمرك للعواطف أن ترى هذا الرجل الجسيم وقد حلفت به انفعالات صافية وأحاسيس جميلة جعلتني أود البكاء . فإذا ما كان في السماء إله فإن جراي كان قريباً جداً منه حينئذ ،

استسلمت لإيزابل هوذا ما لعواطفها وهي تقص على هذا فأخذت منلايد صغيراً وجففت بمناية دمة تلاللات في ركن كل عين من عينها .

فقلت مهتماً : ، ألسنت خيالية تملقن في عالم الأحلام ؟ بخامزني الشك في

أنتك تنسبين إلى جرای أفكاراً وعواطف كنت تؤملين أن تكون له . .

« كيف كان يتأتى لي إدراك هذه الأفكار وتلك العواطف إذا لم تكن فيه ؟  
أنت تعرف ما أنا عليه من صفات . فلا تتوفر لي المادة الحقيقية ما لم أحس  
ملاط الطوار تحت قدمي ، وتكن هناك نوافذ ذات صفائح من البلور على طول  
الشارع وخلفها القبعات التي تنظر إليها ، ومعاطف الفراء ، وأساور من ماس ،  
وصناديق الزينة المرصعة بالذهب . .

ضحكت ، ولفنا الصمت برهة من الزمن ثم عادت إلى وصل ما انقطع  
من حديثنا .

« لن أطلق جرای . لقد بلونا الكثير من أحداث الحياة معاً وهو يعتمد  
اعتماد كلياً علي ، وهذا لإطراء يرضى الكبرياء ، كما تعلم ، ويمنح الإنسان إحساساً  
بالمسئولية وفضلاً عن ذلك . . . . .»

« وفضلاً عن ذلك ، ماذا ؟ »

« حدثني بنظرة جانبية ، وتأتى في عينيها ضياء خبيك ، ولاح بخاطري خيال  
بأنها لم تكن تنرك تماماً كيف سألتني ما برأسها من حديث ترمح الإفضاء به .

« إنه لخليق بالإعجاب . فقد تزوجنا منذ عشر سنوات مضت وما يزال  
كهمدي به في الليلة الأولى عائداً مشبوب العاطفة . ألم تذكر في إحدى مسرحياتك  
أن الرجل لا يرغب في المرأة نفسها أكثر من خمس سنوات ؟ حسناً ، إنك لم  
تخبر ما كنت تتحدث عنه . إن جرای ما زال يرغبني كما كان عند ما تزوجنا .  
لقد أسعدني كثيراً بهذه الوسيلة ، على الرغم من أنك لا تظن ذلك إذا ما نظرت  
إلي ، فإنني امرأة مشبوبة العاطفة . .

« إنك صغيرة تماماً ، علي ما أظن . .

« حسناً ، إنها سمة محببة ، أهي ؟ »

رمقتها بنظرة فاحصة وقلت : « على العكس . هل تأسفين لأنك لم تزوجي لارى منذ عشر سنوات مضت ؟ »

« لا . وإلا لمددته ضرباً من الجنون . ولـكنتي طبعاً لو عرفت حينئذ ما أعرفه الآن لذهبت وعاشته ثلاثة أشهر ثم نفضته من حياتي إلى الأبد . »

« أظن أنه من حسن ظالمك أنك لم تقدمي على هذه التجربة ، إذ كان من المستحيل أن تجدى نفسك مرتبطة به بوشائج لا يمكنك فصمها . »

« لا أظن ذلك . فقد كانت رغبة مجردة ، وأنت تعرف ، فغالباً ما تكون أفضل وسيلة للتغلب على الرغبة هي إشباعها . »

« هل استرعى انتباهك يوماً أنك امرأة ذات قدرة بالغة على التملك ؟ لقد أخبرتني أن جراي يتمتع بأرومة عميقة لإحساس شاعري . كما أخبر أنه عاشق غيور وبوسعي أن أومن بأن الاثنين على أهمية بالغة لك ، ولـكنتي لم تخبريني بما هو أكثر أهمية لك من هاتين الصفتين مجتمعتين معاً إنه إحساسك بأنك تقبضين عليه في تجويف ياك الجميلة هذه ، والتي ليست بالصغيرة . إن لارى كان دائماً على أهبة الحرب منك . هل تذكرين أنشودة كيتس (١) ؟ أيها العاشق الجسور لن ، لن تستطيع أن تقبلني ، على الرغم من أنك ظافر قاربت الهدف . »

قالت محددة قليلاً : « غالباً ما نظن أنك على معرفة تفوق بكثير ما تعرفه حقاً . توجد وسيلة واحدة يمكن للمرأة أن تقبض بها على الرجل ، وأنت تعرفها

---

(١) جون كيتس . ١٧٩٥ - ١٨٢١ ) شاعر إنجليزي رومانسي مات في ريعه الصبا وكتب له شهره الخلود .



ودعني أقل لك هذا : إنه ليس اللقاء الأول بل اللقاء الثاني هو المهم . فإذا ما استحوذت عليه آنئذ فسيبتني في قبضتها إلى الأبد . .  
« إنك حقيقة تعثرين على أكثر المعلومات غرابة . .  
« إنني أجرى هنا وهناك وأصيحخ تسمى وأفتح عيني . .  
« هل لي أن أستفسر عن كيفية حصولك على هذه المعلومات ؟ .  
فابتسمت لي أكثر ابتساماتها لإغاظة .

« حصلت عليها من امرأة صادقتها في عرض أزياء . أخبرتني البائعة أنها أبرع امرأة تعيش في باريس ، فعددت الخناصر على أن أتعرف إليها . إن اسمها أدريين دى تروى . هل سمعت عنها ؟ . .  
« أبدأ . .

« لقد أغفلوا تعليمك وتربيتك ! إنها في الخامسة والأربعين ، وليست جميلة أيضاً ، ولكنها أكثر امتيازاً من أية واحدة من دوقات عمى إميوت . جلست بجانبها واتحلت خلال الفتاة المثيرة الصغيرة الأمريكية . أخبرتها أنني يجب أن أتحدث إليها لأنني لم أقابل أحداً قط أكثر قننة منها في حياتي ، وقلت لها إنها في كمال جوهرة إغريقية محلاة بالنقوش . .  
« وأعصابك التي تتمتعين بها ؟ . .

كانت جافة جافة نوعاً ما في البداية ومترزمة نفورة ، والكني اندفعت بأسلوبى البسيط الساذج ، فرعان ما استسلمت تماماً ، وحينئذ دخلنا في ثرثرة قصيرة لطيفة . وعند ما انتهى العرض سهلتها عما إذا كانت تفضل بتناول الغداء معي في مطعم الرز يوماً ما . وعرفتها أنني كنت دائماً أمتدح أناقتها . .

« هل كنت رأيته من قبل ؟ »

« مطلقاً . رفعت تناول الغداء معي ، وقالت إن الناس ذوو ألسنة حداد في باريس وسوف يعرضني ذلك للهوان . ولكنها سرت لدعوتي لها . وعند ما رأته في يرتعش بالخيبة . أتيتي عما إذا كان بمقدوري الذهاب معها لتناول الغداء في منزلها ، وربت على يدي عند ما رأته أن توددها قد طغى علي ، . »

« وهل ذهبت ؟ »

« طبعاً ذهبت . إنها تلك منزلاً صغيراً جميلاً على مشارف أفينوفوش ، وقام علي خدمتنا ساق (١) هو صوره ثانية من جورج واشنطن . ومكثت عندها حتى الساعة الرابعة . وخلصنا عنا البراقع وخصنا في حديث الفتيات دون تحفظ . تعلمت الكثير الذي يكفي لتأليف كتاب في عصر ذلك اليوم ، . »

« ولماذا لم تزلي هذا الكتاب ؟ إنه الموضوع الذي يلائم ( لا يد زهوم جورنال ) (٢) ، . »

ضحكت وقالت : « يا لك من ماجن مخرج ! »

صمت برهة من الزمن كنت أتبع فيها أفكارى .

وبعد لحظة وجيزه قلت . « إنى لأعجب مما إذا كان لارى قد وقع أسير هواك حقاً في يوم الأيام ، . »

---

(١) الساق - الخادم المنوط بالطعام والشراب

(٢) مجلة نسائه مشهورة ،

اعتدلت في جلستها ، وزايلت وجهها إشارة المسرور التي كانت تعـلوه ،  
وتطالير شرر الغضب من عينيها .

• ما هذا الهراء الذي تقول ؟ لقد كان طبعاً يهوانى . هل تظن أن الفتاة  
لا تعرف عند ما يكون رجل يحبها ؟

• اه ، ربما كان يحبك بصورة ما ، وإن كان ليس بصورة مرضية . فهو لم يعقد  
أواصر صلة قوية مع أية فتاة أخرى كما فعل معك . فلقد نشأتما معاً منذ كنا  
طفلين تمرحان معاً ، وكان يؤمل أن يقع أسير هواك ، فقد كانت تكن فيه غريزة  
الجنس الكامنة في كل البشر ؛ وبدأ لكما أمراً طبيعياً أن تزوجا . ولم يكن يوجد  
أى فارق معين في صلاتكما معاً غير أن تعيشا في مسكن واحد وتناما في  
فراش واحد .

وبعد أن هدأت ليزابل هوائاً ما ، انتظرت منى أن أوالى حديثي . ولما كنت  
أعرف أن النساء يسرن دائماً أن يصغين إذا تحدث الإنسان حديث الحب  
استمرت في حديثي .

• إن كتاب المذهب الآيينى ( ) يعملون على إقناعنا بأن الغريزة الجنسية ليست  
بذات شأن يذكر في الحب . وهم عرضة للحديث عنها وكأنها ظاهرة لاحقة ، .

• ما الذى تقول بحق السماء ؟

• حسناً : يوجد علماء نفسانيون يفتنون أن الوعى يصاحب العمليات الذهنية  
التي تحدثه ، وإنه يشبه ظل شجرة  
على سطح الماء : لا يمكن أن يوجد بدون الشجرة وإنه لا يؤثر على الشجرة

بصوره أو بأخرى في أية حال من الأحوال . وأظن أنه افتر باطل وهراء  
لا معنى له أن تقول بإمكان وجود الحب دون هوى . فعند ما يقول الناس بأن  
الحب يستمر ويبقى بعد أن يموت الهوى فهم يتحدثون عن شيء آخر : المودة ؛  
أو العطف ؛ أو جماعة الأذواق والمصالح والعادات . والعادات على الخصوص .  
إذ يمكن لشخصين أن يتعاشرا بحكم العادة تماما كما يشعران بالجوع في الساعة التي  
اعتادا تناول وجبات الطعام فيها ؛ ومن الطبيعي أنه يمكن أن توجد الرغبة دون  
أن يكون هناك حب ؛ فالرغبة ليست الهوى : الرغبة هي النتيجة الطبيعية للغريزة  
وايست بذات أهمية أكثر من أية وظيفة أخرى للحيوان البشري ؛  
وهذا هو السبب الذي من أجله تدايش النساء فينطلقن يغبين ويرتصن إذا ما ثار  
أزواجهن عرضا عند ما يكون الزمن مناسبا والسكان ملائما .

• وهل ينطبق ذلك على الرجال أيضا ؟ •

ابسمت •

• وإذا كنت تصرين فيني أصرح بأن المملوحة (الصلصة) التي تصنع لذكر الأوز تصلح  
للأوزة ؛ والاعتراض الوحيد على ذلك القول أنه في حال الرجل لا يكون الاتصال  
العابر الذي من هذا النوع ذا أهمية عاطفية ؛ ولكنه في حال المرأة هام  
عاطفياً .

• إنه يعتمد على المرأة . •

لم أكن مستعداً لاسمح لأحد بمقاطعتي •

• ما لم يكن الحب عاطفة فانه لا يكون حباً وإنما شيئاً آخر ؛ والماطفة

تنمو وتشتد لاعلى الإرضاء وإمكن على المنع . ماذا تظنين كان كيتس  
يعنى عند ما قال للحب فى « أنشودة الوعاء الإغريقى ، ألا يحزن ؟ سوف  
يبقى حبك إلى الأبد وسيدوم جمالها انماذا ؛ لأنها كانت مستحيلة المثال ؛ وكلما  
جد فى طلبها أفلتت منه . لأنهما كانا سجينى الرغام الذى أشك فى أنه كان عملا  
فنيا عديم المبالاة . إن حبك للارى وحبك لك كان ساذجاً وطبيعياً كما كان حب  
باولو وفرانسكا أروميو وجوليت ولحسن حظكما لم تنته قصة حبكما نهاية  
فاجعة ؛ فقد تزوجت رجلاً غنياً ولارى يجوب العالم بحثاً عن أغنية السيرانة (١)  
والهوى لا دخل له فيها .

« كيف تعرف ؟ » .

« الهوى لا يعنى بالثمن . فقد فال بسكال إن للقلب أسباباً لا تدخل فى حساب  
العقل ؛ فإذا كان يقصد ما أظنه فإنه عنى أن الهوى عند ما يمتلك القلب ينتحل  
المعاذير التى لا تبدو مستحسنة فحب بل يقدم البرهان القاطع على أن الدنيا  
ضاعت للحب ، ويقنعك بأن الشرف يضجى به ، وأن الحفر ثمن بخس ندفعه له .  
والهوى هدام ؛ فقد هدم أنطونيو وكليوباترا وترىستان ولإيزولد ؛ وبارنل وكيتى  
أوشيا . وإذا لم يهدم فإنه يموت . وربما واجه الحب فى تلك الحال الحسرة عند ما  
يتبين أنه قد أهدر سنى حياته وأضاعها سدى ؛ وأنه جلب لنفسه العار ؛ وأنه  
قاسى فحوص الغيرة المروعة واجترع القمع المرير . وأنه قد استنفد كل عطفه  
ورقته وسكب كل ثراه روحه على امرأة تافهة حمقاء ، وقف عليها كل أحلامه وهى  
لا تستأهل شروى فقير .

---

(١) حورية بحرية قبل إنهما كانت تها . أغنية ساحرة تجذب به البحارة إلى العتور حيث

يلقون حتفهم .

وقبل أن أنتهى من هذه الخطبة الرنانة عرفت جيداً أن إيزابيل كانت لاتعيرنى  
أى التفات . بل كانت غارقة فى تأملاتها . وَاكُن ملاحظتها التالية أدهشتنى .

« هل تعتقد أن لارى بتول ؟ »

« لا : يا عزيزتى فهو فى الثانية والثلاثين من العمر . »

« إنى واثقة من أنه بتول . »

« وكيف يتأتى لك أن تتأكدى ؟ »

« هذا هو الشئ الوحيد الذى تعرفه المراه بالغريزة . »

« لقد عرفت شابا كان ذا حياة ناجحة جداً لسنوات عدة فى هذا المضمار .  
فأفزع حسناء بعد أخرى بأنه لم يعرف غيرها من قبل وقال: إن ذلك كان له فعل  
السحر عليهن . »

« أنا لا أهتم لما تقول فىأتى أو من بلفاتى(١) . »

كان الوقت قد تأخر . وكان جراى وإيزابيل على موعد للعشاء مع بعض  
الأصدقاء . وكان عليها أن ترتدى ملابس السهرة . ولم يكن لدى ما يشغلنى .  
فشيت فى ذلك المساء الربيعى الجميل فى بوليفار واسبل . لم أكن قد آمنت من  
تبل بلفاتة المرأة . فلفاتتها تناسب تناسباً دقيقاً مع كل ما يردن الاعتقاد  
به لإقناعى بأنه جدير بالثقة . وكالما فكرت فى نهاية حديثى المسهب مع إيزابيل  
لم أتمالك نفسى من الضحك . لقد ذكرنى ذلك بسوزان روفير . وخطر ببالى أنى  
لم أرها منذ أيام عدة . وتساءلت عما إذا كان لديها ما يشغلها . فانها إذا لم تكن  
مشغولة . فربما مالت إلى العشاء معى . ثم نذهب معا إلى السينما . فأوقفت  
سيارة أجرة طوافة وأعطيت السائق عنوان شقتها .

( ٧ )

ذكرت سوزان روفير في فاتحة هذا الكتاب . لقد عرفنا مدى عشرة أعوام أو اثني عشر عاماً . وفي التاريخ الذي وصلته الآن لا بد وأن تكون قد قاربت الأربعين . لم تكن جميلة ، فقد كانت في الواقع دميعة إلى حد ما . كانت طويلة القامة بالنسبة للفرنسيات ذات جسم قصير وساقين وذراعين طويلين ، كانت تتماك بطريقة خرقاء وكانها لا تعرف كيف تتكافأ مع طول أطرافها . وكان لون شعرها يتغير بتغير زواتها ، ولكنه في غالب الأحيان كان أسمر نازهاً إلى الحمرة . وكان لها وجه صغير سوى بارز عظم الوجنت كثيرأ . وقد اصطبغت بالطلاء الأحمر الزاهي ، وكان لها فم متسع ، أما شفتاها فقد صبغتتهما بإسراف ، وليس في هذا ما يبدو جذاباً ولكنه كان جذاباً ، فقد كانت بشرتها ذات رواء وأسنانها بيضاء قوية كبيرة وعيناها زرقاوين زرقه واضحة ، وكاتأروع ملاحظها ولقد أفادت منها إلى أبعد حد بطلاء أهدابها وأجفانها . وكان لها نظارة ناعبة هائلة حانية . وقد جمعت بين الرقة ودماثة الخلق مع قدر لائق من الصلابة والعناد فقد كانت في حاجة إلى أن تكون صلبة عنيدة في الحياة التي عاشتها ، فقد عادت أمها وهي أرملة لموظف صغير في الحكومة عند موت زوجها إلى موطنها في القرية في أنيو لتعيش على معاشها ، وعند ما بلغت سوزان الخامسة عشرة من عمرها تلبذت على حائكة ثياب في البلدة المجاورة التي كانت من القرب بحيث تسمح لها بزيارة أمها كل خمسة عشر يوماً في أيام الأحاد . ولقد كان في إحدى الإجازات نصف الشهرية ، وعند ما بلغت السابعة عشر عاماً - أن أغواها فان كان يقضي الصيف في القرية لرسم المناظر الخلوية . كانت قد عرفت جيداً جداً أن فرصة الزواج بدون المال الذي يسعدها كانت بعيدة عنها . وعند ما عرض عليها المصور في نهاية الصيف أن يحملها إلى باريس قبلت دون تردد . أخذها لتعيش معه في مراسم هي أرض طراد الأرانب في مونتارتر ، فأضمت سنة جميلة في صحبته .

( م ١٧ - حد الموصى )

وفي نهاية هذه السنة أخبرها أنه لم يبع لوحة واحدة ، وأنه لم يعد بمقدوره احتمال ترف معايشة خلية . كانت تتوقع هذه الأخبار وتنتظرها من زمن ، فلم تجزع لها ، وسألها عما إذا كانت ترغب في العودة إلى بيت أمها ، وعند ما أجابت بالنفي أخبرها أن فناذاً آخر في العارة نفسها يسره أن تكون له . وكان الرجل الذي ذكر اسمه قد حاول التقرب إليها مرتين أو ثلاث مرات ؛ وعلى الرغم من أنها ردتته خائبا فقد كانت تعرض عنه بحيا طلق بحيث إنه لم يكن ليقتاظ أو ليستاء . لم تكن تذكره فقبلت العرض في هدوء واطمئنان ، وكان الأمر ملائماً مريحاً حتى أنها لم تكلف نفسها مؤونة إكتراء سسيارة أجرة لنقل حقيبتها الكبيرة . وقام عشيقها الثاني وكان يكبر الأول بكثير ، ولكنه ما يزال مقبولا وجيها — برسمها في كل وضع يدرك ، في ثيابها أو مجردة منها ، وقضت عامين سعيدين معه . وكانت تفخر بأنه عندما عملت نموذجا له — أحرز أول نجاح حقيقي له وأرثت صورة طبق الأصل منتزعة من صحيفة مصورة لتلك اللوحة التي جاءت به بالنجاح . اشتراها متحف صور أمريكي . وكانت صورة عارية بالحجم الطبيعي وهي مستلقية في وضع يشبه وضع صورة أولمبيا التي رسمها مانيه (١) وأدرك الفنان بسرعة أن شيئا حديثاً ممتعا يمكن في تكوينها الجسماني ، ولما كان جسدها قد رق واستدق لدرجة التحول ، فقد أطال ساقها وذراعها وأبرز ارتفاع العظام الوجني عندها وجعل عينيها الزرقاويين متسعين اتساعا بلغ حد الإسراف . ومن الصورة الثانية لم أستطع بالطبع أن أعرف ماذا كانت عليه الألوان ، ولكنني أحسست برشاقة الرسم وانسجامه وقد جاءت هذه الصورة بشهرة كافية مكنته من الزواج بأرملة معجبة ذات مال . ولما كانت سوزان تعي جيدا أن على الرجل أن يفكر في أمر مستقبله فقد قبلت قطع صلوات الود بينهما من غير جفاء أو حدة .

---

(١) إدوارد مانيه (١٨٦٢ - ١٨٨٣) رسم صورة أولمبيا عام ١٨٦٥ وهي محفوظة بمتحف اللوفر.



عرفت عند ذلك الوقت قيمتها وأحبت الحياة الفنية ، وكان يسرها أن تجلس أو ترقد في أوضاع للرسم . وبعد انتهاء عمل اليوم كانت تجد متعة في الذهاب إلى المقهى والجلوس مع الفنانين وزوجاتهم وخليلاتهم ، وهم يناقشون الفن ويسجون تجار الصور ويقصون القصص الفاجر . وفي هذه المناسبة وعند ما رأت العاصفة مقبلة أعدت لها العدة . فاختارت شاباً لم يكن مرتبطاً بأحد . وكان ، كما ظنت ، صاحب ذكاء وموهبة وتميزت الفرصة عند ما كان يجلس وحيداً في المقهى ، وبدون مقدمات شرحت ظروفها واقترحت عليه أنهما يجب أن يعيشا معاً .

« إنى فى الحادية والعشرين ومدبرة منزل جيدة ، وسوف أوفر لك اذال هناك ، وأوفر لك تكاليف النموذج التى تجلس أمامك لرسمها . أنظر إلى قيصك ، إنه معرفة ومرسلك فوضى ؛ وإنك لنى حاجة إلى امرأة تعنى بك وتدبر شؤوك . »

عرف أنها امرأة عليبة وسره عرضها ورأت أنه يميل إلى قبول ما عرضت عليه . قالت : « وعلى أية حال فلا ضرر فى التجربة ، فإذا لم تنجح فنن يكون أحدنا أسوأ حالا مما هو عليه الآن . »

كان فنا نا غير معبر ، رسم صوراً شخصية لها فى مربعات ومستطيلات . كما رسمها بيمين واحدة ولا فم لها ، رسمها فى خطوط هندسية منتظمة بالألوان : الأسود والبني والرمادى ورسمها فى خطوط متقاطعة يرى الناظر من خلالها وجهاً إنسانياً غامضاً . مكثت معه عاماً ونصف عام وتركته من تلقاء نفسها .

سألها : « ولماذا تركته ؟ ألم يرق فى عينيك ؟ »

« نعم ، كان بقى لطيفاً . ظننت أنه لن يتقدم خطوة واحدة ، فقد كان يكرر نفسه . »

لم تجد صعوبة فى العثور على من يخلفه . وظلت وفية للفنانين .

قالت : « كنت دائماً أعيش في التصوير ، وذات مرة عملت مع مثال مدة ستة أشهر ، ولكن لسبب لا أعرفه لم أرتح إليه . »

وكان يسرها أن تظن أنها لم تفصل عن عاشق في جو من الشحناء أو البغضاء . فلم تكن نموذجاً طيباً لحسب ولكنها كانت مدبرة منزل جيدة . كانت تحب العمل في الرسم الذي يتصادف لها أن تعيش فيه لبعض الوقت والذي كانت تعنى بنظامه عناية فائقة . كانت طاهية بارعة وبوسمها أن تظهر وجبة شبيهة بأقله تكاليف ممكنة . كانت ترتق جوارب خلانها وتخيظ الأزرار في أقصمهم .

« لم أكن أدري لماذا لا يكون الرجل أنيقاً حسن الهندام إذا كان فناناً ؟ . »

لم تلق فاشلاً إلا مرة واحدة . كان شاباً إنجليزياً له من المال أكثر مما كان لأي فنان عرفته من قبل وكان له سيارة .

قالت : « ولكن علاقتي به لم تدم طويلاً . كان يسرف في الشراب . ويفقد حينئذ مملاً مضجراً . كان من الممكن ألا أهتم لذلك . ولا أعبأ به لو كان مصوراً مجيداً ولكن يا عزيزي ، كانت أعماله لوزاً من - جروتسك (١) وأخبرته أنني راحلة وسأتركه ، فانخرط في البكاء وقال إنه أحبنى . »

قلت له : « يا صديقي المسكين سواء أحببتني أم لم تحبني فليس لذلك أية أهمية إن المهم في الموضوع أنك لم توت ذكاه . عد إلى وطنك واعمل في تجارة البقالة فهذا هو ما تصلح له . »

سألتها : « وماذا كان رده على ماقلت ؟ »

« طار طائرته واستشاط غضباً وأمرني بالخروج ، ولكنها كانت زسيحة

---

(١) ضرب من الرسم يجمع النقوش والزخرفة وجسم الإنسان والحيوان كما كان يوجد في الكهوف .

صديقة أمينة تلك التي أعطيتها له ، كما تعلم ، وآمل أن يكون قد عمل بها . لم يكن  
فتى رديئاً ولكنه كان فناناً رديئاً لحسب .

إن الإدراك ودمائة الخلق خير زاد يجعل رحلة الحياة الطويلة ليست شاقة  
جداً على امرأة في عباب الحياة تتقاذفها الأمواج ، ولكن المهنة التي اتخذتها  
سوزان كانت تحفل بتصارييف الزمان كأية مهنة أخرى ، فقد كان هناك  
الاسكندنافى مثلاً ، وكانت من الغفلة أن تهواه .

قالت لي : « لقد كان إلهماً ، ياعزيزي ، كان مسرفاً في الطول . كان طويلاً مثل  
برج إيفل ، وذا كتفين عظيمين عريضين وصدر بديع وخصر يمكنك أن تطوقه  
بيديك ، وبطن مستو ولكنه مستو كراحة يدي ، وعضلاته تشبه عضلات  
رياضي محترف ، وكان له شعر ذهبي متموج وبشرة من رحيق الشهد . لم يكن رسمه  
رديئاً وأحببت أعماله التي بالفرشاة فقد كانت جريئة جسورة وكان له ملون (١)  
فاخر خصيب . »

عقدت العزم على أن يكون لها منه طفل . وهو يعارض في ذلك ، ولكنها  
أخبرته أنها ستحمل المسئولية .

« لقد أحبها كثيراً عندما ولدت . ما أجل هذه الطفلة ! فقد كانت متوردة  
الوجه وعيناها زرقاوين كعيني أبيها . فقد كانت بتاً . »  
عاشته سوزان ثلاث سنوات .

« كان — غنياً أخرق قليلاً ومضجراً في بعض الأحيان ، ولكنه كان حلو  
المعشر جميلاً بحيث إنني لم أهتم لحماقه أو خرفه حقاً . »

---

(١) لوح به ثقب يوضع فيه إبهام الفنان ليرج الألوان عليه ( إبهانه )

وتلقى برقية من السويد تقول إن أباه يعاني سكرات الموت وعليه أن يعود لغوره . وعدها بالعودة ولكنها في داخلها أحست أنه لن يتمكن من ذلك . ترك لها كل ما يملك من نقود . وانقطعت أخباره عنها شهراً ثم تسلمت منه رسالة لحواها أن والده قد توفي ، وترك شتوته من بعده في اضطراب فحسر أن واجبه يحتم عليه أن يبقى بجوار أمه وأنه سيشتغل بتجارة الأخشاب ، وأرفق برسالته سفتجة ( حوالة مالية ) بمبلغ عشرة آلاف فرنك . لم تكن سوزان المرأة التي تسلم لليأس واتخذت قراراً سريعاً جداً بأن الطفلة سوف تعرقل نشاطها فحملتها إلى أمها وتركها هناك مع العشرة الآلاف فرنك في رعايتها .

د لقد تمزقت نياط قلبي ، إذ كنت أعبد الطفلة ولكن في الحياة على الإنسان أن يطرح العواطف جانباً ويكون عملياً واقصياً .  
سألها : د وماذا حدث حينئذ ؟  
د آوه ، لقد انطلقت في سبيل . ووجدت صديقاً .

ولكن حمى التيفود أصابتها حينئذ ، وكانت تتحدث دائماً عنها بقولها (مرضى بالتيفود) كما يتحدث صاحب الملايين عن (قصرى في بلم بيتش) أو (الطيهوج<sup>(١)</sup>) المراكشى عندي) . وأوشكت على الموت بها ولزمت المستشفى ثلاثة أشهر . وعندما غادرتها كانت جلدأ وعظاما واهنة كالفأرة فاقدة الأعصاب لا تقوى على شيء سوى البكاء . لم تكن ذات فائدة لأحد آنئذ فلم تكن من القوة بحيث يمكنها الجلوس في أوضاع الرسم وكانت تقودها ضئيلة .

قالت : د آوه لا ، لا . لقد مرت في أوقات عصبية ، ولحن حظى كان لى أصدقاء ولكنك تعلم ما الفنانون . إنهم يكالون ليجعلوا دخلهم يغطي نفقاتهم بأية حال من الأحوال . لم أكن امرأة جميلة في يوم من الأيام . كان لى شيء جميل

( ١ ) مآثر من نصيلة انطوانة

طبعاً ، ولكنى لم أعد بنت العشرين ربيعاً فأسرعت إلى الفنان التكعبي (١) الذى كنت أعمل معه . وكان قد تزوج ثم طان زوجته منذ عشنا معا . كان قد نبذ التكعبية وأتبع السيربالية (٢) وظن أنه يمكنه الإفادة منى وقال إنه وحيد ، إنه سيفرلى المأكل والمشرب والممكن . وأصدقك القول بأنى كنت سعيدة لقبول هذا العرض .

مكثت معه سوزان حتى قابضت صاحب المصنع ، وكان قد جاء به صديق إلى الاستوديو على أمل أنه ربما يشتري إحدى صور الفنان التكعبي ، ولما كانت سوزان متشوقة إلى عقد صفقة بيع فقد بذلت قصاراها لتكون مقبولة عنده بقدر ما وسعها عليها وخبرتها . لم يستطع أن يقطع برأى لتوه ولكنه قال إنه سيعود لي شاهد الصور مرة أخرى . ويز بوعده بعد خمسة عشر يوماً ، ولقد شعرت فى هذه المرة أنه جاء ليراها لا يشاهد الأعمال الفنية . وعند ما انصرف بغير شراء ضغط يدها بجرارة لا داعى إليها . وفى اليوم التالى ترصد لها الصديق الذى جاء به وهى فى طريقها إلى السوق لتشتري مئونة اليوم وأخبرها أن صاحب المصنع قد مال إليها وأراد أن يعرف ما إذا كانت تقبل تناول العشاء معه فى المرة التالية عند ما يأتى إلى باريس لأن لديه اقتراحاً بود عرضه عليها .

---

( ١ ) اتفق التكعبي أب لجميع الأشكال الفنية التجريدية وقد نما بفضل محاولات يكالوا وبراك ليحل عن التأثيرة . كان سيزان نقطة البدء فى هذا الاتجاه ولكن المدرسة التكعبية حققت للحد بعيد فكرة وحدة سطح الصور ذات البعدين . فالتكعبيون نبذوا تقديم الأشياء كما نبذوا بقصد إعطاء وصف للبناء العظمى لأى جسم ووضعها فى الفضاء . ومعنى هذا أن الفن التكعبي كان يمزج عدة مناظر لجسم الواحد فهو عن فكرة الجسم بدلاً من أن تعلى منظراً واحداً له .

( ٢ ) فى سنة ١٩١٤ اتخذ الفن سمة جديدة وأصبح له أهمية عظيمة فى توجيه الحركة الفنية والآدية وعرف باسم « السيربالية » أى ما فوق الواقعية . ولجأ الفنان السيربالي إلى الخيلة لا ليبتكر جديداً عن طريق التأمل إنما يراه من حقائق لتصل بها إلى مراتب أعلى ، بل لينقل إلى عالم المراتب صوراً من عقله الباطن مدنياً أنها ما فوق الواقع .

سألت : « ماذا يرى في علي ما تظن ؟ »

« إنه من هواة الفن الحديث . ولقد رأى صوراً شخصية لك ، فأنت تثيرين  
تفضوله واهتمامه ، فهو ريفي ورجل أعمال ، وأنت تمثلين في نظره باريس وكل  
ما يفتقده في ليل . »

وسألت بطريقتها المعقولة : « وهل عنده مال ؟ »

« عنده مال وافر . »

« حسناً ، سأتناول العشاء معه . فلا ضرر يخشى من سماع ما يود أن  
يقوله . »

أخذها إلى حانة ماكسيم ، التي تركت بنفسها أثراً طيباً ، ارتدت ثيابها  
بسرعة عظيمة ، وشعرت وهي تنظر إلى النساء من حولها أن من الممكن أن تجوز  
بنجاح جيد جداً كامرأة متزوجة محترمة . أمر النادل بإحضار زجاجة من الشمبانيا  
فأقنعها هذا بأنه سيد ميسور الحال . وعند ما جاءت القهوة وضع مقترحه أمامها  
ورأت فيه عرضاً جميلاً . أخبرها أن من مألوف عاداته أن يحضر إلى باريس بانتظام  
مرة في كل أسبوعين ليحضر اجتماع مجلس إدارة ، وأن مما يضجره ويتعبه في المساء  
أن يتناول عشاءه وحيداً ، وأنه إذا ما افتقد صحبة النساء كان ينشدها أينما يجدها .  
ولما كان رجلاً متزوجاً وله ولدان فقد رأى أن هذه التصرفات غير مرضية لرجل  
في مثل مكاتته . إن صديقيهما المشترك قد أخبره كل شيء عنها ، وعرف أنها امرأة  
ذات تبصر وحكمة وهو لم يعد شاباً ولا يرغب في أن يتورط مع فتاة طائشة . كان  
أحد هواة جمع تحف المدرسة الحديثة ، وكان اتصالها بهذه المدرسة الفنية يستهويه  
وحينئذ دخل في التفاصيل . كان على استعداد لأن يتخذ لها شقة ويؤثثها ويجري  
عليها دخلاً قدره ألفا فرنك شهرياً . وفي مقابل هذا كان يرغب في أن يستمتع

بصحبته مرة كل أسبوعين — لم تتح لسوزان فرصة إنفاق هذا القدر من المال في حياتها فسرعان ما أدركت أنه يمثل هذا المبلغ سوف لا تتوفر لها الحياة والمالبس كما يتطلب في وضوح مثل هذا التقدم في الدنيا لحسب ، ولكنها تتمكن أيضاً من أن تكفل ابنتها وتدخر شيئاً ليوم مطير ولكنها تريث لحظة ، فقد كانت دائماً في الرسم ، كما عبرت عنها ، ولم يكن يخامرها شك في الهبوط بمسئولها أن تصير حظية رجل أعمال .

قال بالفرنسية : « لك أن تقبلي هذا العرض أو أن ترفضى ،

لم تنفر منه . وكان اللجيون دونور (١) الذى يزين عروة سترته يقطع بأنه رجل يمتاز فابتسم .

وأجاب بالفرنسية : « إنى أقبل عرضك ،

## (٨)

على الرغم من أن سوزان عاشت دائماً في حى مونتبارتر إلا أنها قررت أن تقطع حلاتها بالماضى، ولذا أخذت شقة في مونتبارناس في منزل على مشارف البوليفار تماماً . كان يحتوى على حجرتين ومطبخ صغير وحجرة حمام ، كان في الطابق السادس ولكن كان هناك المصعد ، ولو أنه كان لا يتسع إلا لشخصين - بطيئاً كالقوقعة ولا يستعمل للهابطين ، على الرغم من هذا كاه فقد كانت الشقة تمثل لا الترف لحسب بل طرازاً أيضاً .

وفي الشهور القليلة الأولى من اتحادهما كان ميو أشيلي جوافان ، فقد كان هذا

---

(١) وسام جوقة الشرف الفرنسى

اسمه ، يقيم في فندق في أثناء زيارته النصف الشهرية لباريس ، وبعد قضاء جزء من الليل مع سوزان ، يعود إليه لينام وحيداً حتى يحين وقت الاستيقاظ لينتق بالقطار عائداً لأعماله المالية والمتع الوفيرة في حياة الأسرة . ولكن سوزان أشارت حينئذ إلى أنه ييثر ماله دون هدف ، وأن ما يوفر لها المال والراحة معاً أن يبتى بالشفقة حتى الصباح . أقنعت قوة حجتها فزل عندها . ولقد سحره تبصر سوزان واهتمامها بأمر راحته . ولقد كان ذلك حقاً ، فلم يكن أمراً مرضياً أن يخرج إلى عرض الطريق ليجد سيارة أجرة في ليلة شتاء بارد . ووافق على عزوفها عن تكليفه مئونة نفقات لا فائدة ترجى منها . إنها امرأة طيبة تلك التي لا تحصى بنساتها لحسب ولكن بنسات صديقتها أيضاً .

اجتمعت الأسباب لدى مسيو أشيللى ليرضى عن نفسه . كانا عادة يذهبان لتناول العشاء في أحد المطاعم التي تتفوق على غيرها في مونتبارناس . ولكن سوزان كانت تعد له عشاء بين الفينة والفينة في الشقة . وكان الطعام الشهي الذي تقدمه له محبباً جداً له . وفي الأمسيات الدافئة كان يذهب للعشاء في قيس قصير الأكام وهو يشعر في لذة ومنتعة أنه طرب بهيمي . كان يميل دائماً إلى شراء الصور ، ولكن سوزان لم تكن تسمح له بشراء شيء منها لا يروق لها ، وسرعان ما وجد من الأسباب ما يدعو إلى الثقة في صدق حكمها ، لم تكن لتتركه يساوم التجار ، ولكنها كانت تأخذه إلى مراسم المصورين فأتاحت له شراء صور منها بنصف الثمن الذي كان يجب أن يدفعه للتجار . كان يعرف أنها تدخر شيئاً للزمن وعند ما أخبرته أنها بعد عام اشترت قطعة أرض في قريتها سرت فيه هزة الزهو . كان يدرك الرغبة التي تملك قلب كل شخص تجرى في عروقه الدماء الفرنسية في أن يملك قطعة أرض فزاد تقديره لها لأنها تملك هذه الرغبة أيضا .

وكانت سوزان من جانبها راضية كل الرضا . لم تكن وفيه له كما لم تكن غير وفيه . بمعنى أنها كانت تحرص على ألا تقيم علاقات دائمة مع رجل آخر ، ولكنها



إذا ما التقت مصادفة برجل أعجبها لم تكن اتحجم عن الذهاب معه . وإن كان من مقتضيات الشرف ألا تدعه يقضى الليلة عندها . وشعرت أنها كانت مدينة بذلك إلى الرجل الذي يملك المال والجاه ، والذي أقر حياتها على أسس ثابتة بمثل هذه الوسيلة الأكيدة المحترمة .

تصادف لي أن عرفت سوزان عند ما كانت تعيش مصوراً ظهر مصادفة أنه أحد معارفي وكثيراً ما جلست في مرسمه ، وهي تجلس أو ترقد في وضع ليرسمها واستمرت أراها من حين لآخر في فترات متقطعة ، ولكن لم تصبح صلتى وثيقة بها حتى انتقلت إلى مونتبارناس لقد ظهر في ذلك الوقت أن ميو أشيللي - فقد كانت هكذا تتحدث عنه دائماً ، وهكذا كانت تخاطبه - ظهر أنه قد قرأ كتاباً أو كتابين من تأليني في ترجمة بالفرنسية ، وذات مساء دعاني لتناول العشاء معهما في مطعم . كان رجلاً قميء الجسم ، يقصر سوزان بنصف رأس . له شعر بلون الحديد الرمادي ، وشارب أنيق أشيب . كان أميل إلى الامتلاء ، وله كرش ، ولكن بالقدر الذي يضفي عليه جو الغنى والثراء . وكان يمشي بخطوات الرجل القصير البدين وكان واضحاً أنه راض عن نفسه . قدم لي عشاء فاخراً ، وكان مؤدباً جداً وأخبرني أنه سعيد لأنني صديق لسوزان ، وأدركت بنظرة عجيبي أنني كنت ( كما يجب ) قالها بالفرنسية . وأنه لما يسره أن أعنى بها بعض العناية . فإن أعماله ، وبالأسف ! تجمله مرتبطاً بمدينة ليل وأن الفتاة المسكينة تعاني الوحدة أغلب أوقاتها ، وأنه لما يميزه أن يعرف أنها على صلة بفنان ؟ ذى تربية وعلم . فقد كان رجل أعمال ولكنه كان دائماً يعجب بالفنانين .

• ياسيدي العزيز ، إن الفن والأدب قد كانا دائماً المجدنين التوأمين لفرنسا جنباً إلى جنب مع قوتها الحربية طبعاً . ولاني بوصفي صاحب مصنع للنسوجات الصوفية لا أتردد في القول بأنني أضع المصور والكاتب على قدم المساواة مع القائد والسياسي .

لم يكن باستطاعة أحد أن يقول أجل من هذا القول .

لم تكن سوزان تحتمل سماع أحد يتحدث عن أن يكون لها خادم تقوم بأعمال البيت اقتصاداً في النفقات من جهة أخرى (ولأسباب معروفة لديها جيد المعرفة) لم ترد أحداً يمس أنفه في شئون لم تكن لتعنى أحداً غيرها . وحافظت على الشقة الصغيرة التي تأثنت على أحدث طراز في العصر ، نظيفة أنيقة ، وحاكت لنفسها كل ملابسها الداخلية . ولكن حتى في ذلك الوقت الذي لم تعد تجلس فيه أمام المصورين كان الفراغ يمضها فقد كانت امرأة مجدة فرعان . ماخطرت ببالها الفكرة ، فبعد أن عملت طويلاً نموذجاً للفنانين لماذا لا تكون هي نفسها فنانة مصورة . فاشترت القماش السميك والفرش والألوان وهكذا بدأت تعمل . وفي بعض الأحيان — عندما كنت أصحها خارجاً لتناول العشاء — كنت أذهب إليها مبكراً فأجدها مرتدية السمق (١) وقد استغرقتها العمل ، وكما أن الجنين في الرحم يلدخض باختصار تطور الأجناس ، هكذا كانت سوزان تلدخض تطور أساليب عشاقها . فصورت المناظر الخلوية كما يرسمها المصور الخلوي والتجريدات كما يرسمها المصور التكميبي . كما صورت ، بالاستعانة بتذاكر البريد ، القوارب الشراعية راسية في الميناء كما كان يفعل المصور الإسكنديناوي . لم تكن تستطيع الرسم ، ولكن كانت ذات إحساس مرض بالألوان ، وإذا لم تكن صورها جيدة جداً فقد كانت تخرج منها بكثير من اللهو والمزاح .

كان مسيو أشيللي يشجعها دائماً ، وكان يمتليء رضا لأن حظيته سوف تغدو فنانة . وكان نتيجة لإصراره أن أرسلت لوحة إلى صالون الخريف ، وقدم لهما الزهور والفخار معاً عند قبلك وعرضت وأسدى إليها نصيحة واحدة .

(١) ضرب من قضان السيدات (كلمة معربة)

قال لها : « لا تحاولي التصوير كما يفعل الرجال ، ياعزيزتي لا يكن هدفك القوة وليكن هدفك السحر والفتنة . وكوني أمينة . إن التمرين ينجح في الأعمال المالية الصارمة ، ولكن في الفن ليست الأمانة هي أحسن سياسة فقط ولكنها السياسة الوحيدة . »

في هذه الفترة التي أكتب عنها كانت الصلة بينهما قد دامت خمس سنوات وكل منهما راض عنها كل الرضا .

قالت سوزان : « من الواضح أنه لا يهز مشاعري . ولكنه ذكي وصاحب مركز مرموق ولقد وصلت سناً من الضروري فيها أن أفكر في موقفي ، »

كانت لطيفة ، وعلى فهم وإدراك . وكان مسيو أشيللي يقدر حكمها كل التقدير فكانت تعيره أذناً صاغية وهو يناقش معها شئونه المالية والأمور المنزلية ، وحزنت معه عند ما فشلت ابنته في امتحان لها ، وتهلكت فرحاً عند ما تمت خطبة ابنه على فتاة ذات مال . فهو نفسه قد تزوج الابنة الوحيدة لرجل يزاوول مثل عمله وتنج عن اندماج المؤسستين المتنافستين أن أصبحتا مصدراً لربح وفير لـكليهما . وكان من الطبيعي له أن ابنه كان من العقل بحيث يرى أن أسلم الأسس التي يقوم عليها زواج موفقي سعيد هو اجتماع المصالح المالية فأسر إلى سوزان بطموحه إلى أن يزوج ابنته من رجل من الأرستقراطية .

قالت : « ولماذا لا ، ولها ثروة طائلة ؟ »

ويسر مسيو أشيللي لسوزان مهمة إرسال ابنتها إلى أحد الأديرة حيث تلتقي تربية طيبة ، ووعده بأنه سوف ينفق عليها عندما تصل إلى السن المناسبة لتتدرب على أن تكسب معاشها بالعمل على الآلة الكاتبة وفي الاختزال .

قالت لي سوزان : « سوف تكون فاتنة عندما تكبر ، ولكن من الواضح

أنه لن يفيدنا أن نحصل على قط طيب من التربية والتعليم ويكون بمقدورها أن تفخر بأنها ناسخة على الآلة الكاتبة . وهي حديثة السن بحيث لا يمكنها أن تقول ؛ ولكن من المحتمل ألا يكون لها مزاج طبيعي لذلك .

ولقد كانت سوزان رقيقة دمثة فتركت لي استنباط معنى ما قالت ولقد فعلت ذلك تماماً .

وبعد أسبوع أو قرابته من لقائي مصادفة مع لارى ، وفي ذات ليلة بعد أن تناولت مع سوزان طعام العشاء وذهبنا إلى السينما ، كنا نجلس على مقهى ( سيلكت ) في بوليفارموتبارناس نشرب كوباً من البيرة إذ جاء لارى يمشى على مهل ، قنهدت . واشدة دهشتي نادته بصوت مرتفع لجاء إلى مائدتنا ، وقبلها وصالحني بكلمات يديه ، ولقد أدركت أنها تسكاد لا تصدق عينها .

قال : هل تأذنان لي بالجلوس ؟ فإنني لم أتناول عشاء . ما وسوف أطلب ما آكله . قالت وعيناها تالقاتان : آه ، ولكنه جميل أن نراك ، يا صغيرى من أين قفرت ؟ ولماذا لم تعط ما يدل على أنك على قيد الحياة كل هذه السنين ؟ يا إلهى ، ما أنحك ! إن كل ما عرفته أنك ربما قد مت .

فأجلب وعيناها تالقاتان : حسنا ، فإنني لم أمت : كيف حال أوديت ؟ .

كان ذلك هو اسم ابنة سوزان .

لقد نمت وترعرعت وصارت فتاة يانعة وجميلة . وما زالت تذكرك . .

قلت لها : لم تخبريني أبداً أنك عرفت لارى . .

طلب لارى بيضاً ولحم خنزير ، وأخبرته سوزان بكل شيء عن ابنتها ثم عن

نفسها . وأصغى إليهما بطريقته الباسمة الساحرة وهي تثرثر . وأخبرته أنها قد استقرت وأنها تمارس التصوير ثم اتجهت إلى .

« إنى أتقدم . ألا تظن ذلك ؟ إنى لأدعى أنى عبقرية ولكن لى من المواهب مثل ما لكثير من المصورين الذين أعرفهم . »

سأل لارى : « وهل تبعين صوراً ما ؟ » .

أجابت بخفة : « ليس لزاماً على أن أفعل هذا . فلى مواردى الخاصة . »

« إنك فتاة حسنة الحظ . »

« لست حسنة الحظ : ولكنى ماهرة ، يجب أن تجىء . وتشاهد سورى . »

كتبت عنوانها على قصاصة من الورق وحملته على الوعد بالذهاب ، وطفقت سوزان وهى مهتاجة نائرة ، تتحدث طوال الوقت تقريباً . ثم طلب لارى قائمة الحساب .

صاحت : « لست ذاهباً ؟ » .

ابتسم : « إنى ذاهب . » .

دفع الحساب ثم لوح بيده وسار لايلى على شىء . ضحك فقد كان لعمري ضحكى دائماً فأنت تكون معه لحظة ثم يتركك وينصرف فى اللحظة التالية من غير تفسير . ولكن ذلك يحدث مفاجأة دائماً فيخيل إليك أنه قد اختفى فى الهواء .

سألت سوزان متبرمة : « ولماذا آثر الانصراف هكذا سريعاً ؟ »

أجبت ساخراً : « ربما كانت هناك فتاة فى انتظاره . »

« هذه فكرة معروفة ، ثم أخرجت صندوق زينتها الصغير من حقيبتها

ووضعت المسحوق على وجهها ، إلى أرثى لأية امرأة تقع في حبه . آه ، لا ، لا ، لا ، .  
« لماذا تقولين ذلك ؟ »

نظرت إلى لحظة في جد وصرامة لم أعتدها فيها غالباً من قبل .

« كنت على وشك أن أحبه ذات مرة . فن المحتمل أن تعشق طيفاً في الماء  
أو تهوى شعاعاً من الشمس أو سحابة في السماء . ولقد نجوت بأعجوبة ، وحتى الآن  
وأنا أفكر في ذلك ترتعد فرائصي للخوار الذي حاق بي ، .

قد تطيش الحكمة أحياناً . وإنه ليس في الإنسان إلا يريد أن يعرف لأي  
سبب كان ذلك كله فهزأت نفسي لأن سوزان كانت امرأة ليس لديها فكرة  
عن الکتبان .

سألتها : « كيف حدث لك بحق السماء أن عرفته ؟ »

« لقد كان ذلك منذ سنوات مضت . قد تكون ست سنوات أو سبباً .  
لقد غاب عني . كانت أوديت في الخامسة من عمرها لحسب . عرف مارسيل عندما  
كنت أعائشه . كان من عادته أن يجيء إلى المرسم ( الاستوديو ) وأنا متنخدة  
وضعاً خاصاً أمام الفنان . وكان يأخذنا لتناول العشاء في الخارج في بعض الأحيان ،  
ولم يكن باستطاعة أحد أن يعرف متى يحضر . ففي بعض الأحيان كان ينقطع  
لعدة أسابيع . ثم يتردد علينا يومين أو ثلاثة أيام متوالية وكان مارسيل يحب  
وجوده هناك ، ويقول إنه كان يرسم في وجوده أحسن مما كان يفعل في أي وقت  
آخر . ثم مرضت بالتيفود ومررت بوقت عصيب عندما غادرت المستشفى .  
وهزت كتفها . « ولكنني قد أخبرتك بكل ذلك من قبل . حسناً ، وذات يوم  
كنت أحوم حول المراسم محاولة الحصول على عمل ولم يرغب في أحد ، ولم

«كن أتناول شيئاً سوى كوب من اللبن ولقمة الهلال (١) طول اليوم ، ولم أكن أدري كيف سأتمكن من الوفاء بإيجار غرفتي وقابلته مصادفة في البوليفاركايشية . أوقفني وسألني عن أحوالي ، فأخبرته عن حمى التيفود التي أصابتنى ، وحينئذ قال لي : « يبدو أنك في حاجة إلى وجبة شبع . » وكان في صوته وفي نظراته ما أضعفتني فأنخرطت في البكاء .

« كنا بجوار مطعم لامير ماريت فأخذني من ذراعي وأجلسني إلى منضدة . وكنت جوعانة بحيث لم أكن أتورع عن أن أطمع حذاء باليا ، ولكن عندما جاءت عجة البيض شعرت بصدوف تام عن الطعام ، وأرغمتني على أن أتناول قليلاً منها ، وقدم قداماً من النيذ البرغندي . فشعرت بتحسّن حينئذ وأكلت بعض الهليون (٢) وأفضيت إليه بكل متاعبي . كنت من الضعف بحيث لم أتمكن من أن أجلس أمام ميسور . كنت عظماً مكسواً بجلد وكان منظري مربعاً ولم أكن أطمع أو أتوقع أن أظفر برجل . فسألته عما إذا كان يوسعه أن يقرضني قهوداً لأعود إلى قريتي ، فعلى أضعف الإيمان سوف تكون معي ابنتي الصغيرة هناك ، وسألني عما إذا كنت أرغب في الذهاب ، وأجبت أنني لا أريد بالطبع ، فأمرى لا تريدني وهي تعيش بالكاد على معاشها ، والأسعار مرتفعة ، والنقود التي بعثت بها إلى أوديت ، نفذت كلها ، ولكنني إذا ما طرقت بابها فلن تردني خائبة ، وسوف ترى كم سيئة هي حالتي ، فنظر إلى ملياً ، وظننت أنه قائل لي إن ليس بمقدوره إقراضني قهوداً ما ، ثم قال :

« هل ترغبين في أن آخذك إلى مكان صغير أعرفه في الريف ، أنت والطفلة ؟  
فإني في حاجة إلى أجازة ، »

(١) الكرواسون - نوع من الفصائر على شكل هلال

(٢) نبات يؤكل

« كدت لا أصدق أذنى . فقد عرفته زمناً طويلاً لم يحاول التودد إلى فيه إطلاقاً . قلت : « في الظروف التي كنت فيها لم أتمالك نفسى من الضحك ، وقلبت « يا صديقى المسكين ، لا فائدة ترجى منى لرجل ، في تلك الحال التي أنا عليها الآن ، « ابتسم إلى . هل لاحظت كم هي جميلة ابتسامته ؟ إنها عذبة حلوة كالشهد المعنى . قال : « لا تكونى حقا . فأنا لا أفكر في ذلك ،

« كنت أجهش بالبكاء حينئذ ، وأنا أكاد لا أستطيع الكلام . أعطاني قوداً لأذهب وأخضر الطفلة - ثم ذهبنا جميعاً إلى الريف معاً . آه لقد كان فاتناً ذلك المكان الذي أخذنا إليه .

وصفته لى سوزان . كان على بعد ثلاثة أميال من بلدة صغيرة نسيت اسمها وأخذوا سيارة إلى المنزل الذي كان بناؤه جديراً بالملاحظة ويطل على نهر ، وله مرجة تمتد حتى تصل إلى ماء النهر وكان في المرجة أشجار الدلب حيث كانوا يتناولون وجباتهم في ظلها . وكان الفنانون يذهبون إلى هناك في الصيف للرسم ولكن كان الوقت مبكراً لذلك حينئذ ، فاستأثروا بالمنزل لأنفسهم . كان الطعام مشهوراً . عرف أيام الآحاد اعتاد الناس الذهاب في سياراتهم من كل حذب وصوب لتناول الغداء هناك وقد أطلقوا لأنفسهم العنان . ولكن في باقى أيام الأسبوع ندرما كان يعكر عليهم أحد هدوهم ، وكان بفضل الراحة والطعام الجيد والنيذ الفاخر أن هوت سوزان وكانت سعيدة لوجود ابنتها معها .

« لقد كان وديعاً لطيفاً ، وعذباً رقيقاً مع أوديت ، أما هي فقد اقتنت به حباً ، وكان على أن أمنعها من أن تكون مصدر تعب أو مبعث مضايقة ، ولكن كان يبدو أنه لا يعبا مهما أزعجته ، ولقد كان ذلك يعنى على الضحك فقد كانا كطفلين معاً . .

سألت : « وكيف كنت تمضين وقتك ؟ ،



« لقد كان لدى دائماً شيء أفضل . فقد كان من عادتنا أن نستقل قارباً ونصطاد السمك ، وفي بعض الأحيان نطلب من صاحب الخان أن يعيرنا سيارته ( السقروين ) ونذهب إلى البلدة ، وكان لارى يحب فيها البيوت العتيقة والحصن وكانت هادئة لدرجة أن وقع أقدامك على حصباء الطريق كان هو الأصوات الوحيدة التي تنهى إلى سمعك . وكان يوجد بها قصر من طراز لويس الرابع عشر وكنيهة قديمة . وعلى مشارف البلدة كانت القلعة ذات الحديقة التي من تسيق لوموتتر (١) . فإذا ما جلست في المقهى في الحصن انبعت فيك إحساس بأنك قد عدت إلى الماضي ثلاثمائة عام ، وأن السيارة (ستروين) على الحافة الحجرية للطريق لا تمت إلى ذلك العالم بتاتاً . »

لقد كان في أثناء إحدى هذه النزوات أن أخبرها لارى بقصة الطيار الشاب التي قصتها في فاتحة هذا الكتاب .

قلت : « إني لأعجب لماذا أخبرك بهذه القصة ؟ »

« ليك لدى فكرة ما . كان يوجد مستشفى في البلدة في أثناء الحرب ، وفي ساحة المقابر كانت توجد صفوف وصفوف من الصليبان الصغيرة وذهبنا لمشاهدتها . ولم نمك طويلاً لأن منظرها جعل جسدي يقشع ، هؤلاء الفتيان المساكين الراقدين هناك . وكان لارى صامتاً وكان على رأسه الطير ونحن في طريقنا عائدين إلى البيت . لم يكن يكثر من الطعام وكاد ألا يأكل إطلاقاً في العشاء . وإني لأذكر جيداً جداً ، ذات ليلة جميلة تلالاً نجومها ونحن جلوس على ضفة النهر وكان المنظر جميلاً جليلاً ، وقد انعكست ظلال أشجار الحور على الظلام الناشر جناحيه وهو يدخن غليونته . ولجأة ، ومن غير مناسبة ، أخبرني عن صديقه وكيف أتى

---

(١) مهندس معهور في عهد لويس الرابع عشر .

حتفه وهو يحاول أن ينقذه ، وجرعت سوزان رشفة من الجمعة . « إنه مخلوق عجيبه وان يتأتى لي فهمه . كان من عادته أنه يفضل أن يقرأ لي ، في بعض الأحيان في النهار ، وأنا أحبك بعض الملابس للطفلة الصغيرة ، وفي المساء بعد أن أكون قد أرقدتها في الفراش .

« وماذا كان يقرأ ؟ »

« كل أنواع المعركة ، خطابات مدام دي سيفينيه (١) وشذرات من سيمون . تصور أتى — أنا التي لم تقرأ شيئاً ألبتة من قبل ما عدا الصحيفة اليومية ، ومن آن لآخر رواية عندما كنت أسمعهم يتحدثون عنها في المراسم ، ولم أرد أن يظنوا بي الحماقة لم تكن عندي فكرة أن القراءة يمكن أن تشير الاهتمام هكذا ، وأن هؤلاء الكتاب القدامى لم يكونوا حتى كما يظن بهم . »

قتهت : « من يظن ذلك ؟ »

« ثم جعلني أقرأ معه قرأنا فيندر وبيربسينس (٢) . كان يأخذ أدوار الرجل وكنت أضطلع بأدوار النساء . ليس بوسعك أن تفكر كم كانت جميلة وسارة ، ثم أضفت في سداجة : « لقد اعتاد أن ينظر إلى نظرات غريبة جداً عندما كنت أبكي في المواقف الشجية . وطبعاً لم يكن ذلك إلا لأنني لم أكن في كامل قوتي ، وأنت تعرف ، فازلت أحفظ بالكتب . وحتى الآن لا أقدر أن أقرأ بعض رسائل مدام دي سيفينيه التي قرأها لي ، بدون سماع صوته الجميل ، وبدون أن أرى النهر السارى في هدوء عظيم وأشجار الحور على الضفة المقابلة . وبهذه الأحيان

---

(١) كاتبة وأديبة وصاحبة صالون أدبي فرنسية من القرن السابع عشر وأشهر أعمالها خطاباتها إلى ابنتها .

(٢) مسرحيات كتبها راسين

لا يمكنني الاستمرار ، فنهى تعصر قلبي احتصاراً ، وأنى أدرك الآن أن هاتيك  
الإناسيع التي قضيتها بصحبته كانت أسعد أيام الحياة قاطبة . ذلك الرجل ، إنه  
علاك الرقة واللفظ . . .

وشعرت سوزان أنها تستلم لعواطفها وخشيت (على خطأ منها) أنى سأضحك  
منها . فهزت كتفها وابتسمت .

و أنت تعرف ، إنى قد عقدت العزم دائماً على أنه عندما أبلغ السن القانونية ،  
وعندما لا يعود الرجال يرغبون في ، سوف أقيم السلام بينى وبين الكنيسة ، وأندم  
وأثوب عن خطاياى . ولكن الخطايا التي ارتكبتها مع لارى لا يوجد في العالم  
ما يغرينى بالتوبة منها أبداً . أبداً ، أبداً .

ولكن حياتك معه كما وصفتها لى ليس فيها ما يستلزم الندم عليه  
والتوبة منه . . .

أما النصف الثانى فاحتفظ به في ذكرياتى إنه بداية غرام عفيف وحب جلوف  
لم يصف الحظ بتمامه .

لقد كان لارى عاشقاً عجبياً . لطيفاً جداً ، حنوناً ورقيق القلب أيضاً ، عارم  
الرجولة وإن كان في غير عصف . إذا كنت تفهم ما أعنى ، كما كان منزهاً عن الرذيلة  
تماماً . كان يبدو كتليد فائر الدماء ، وكان ذلك مضحكاً ومؤثراً أيضاً . وعندما  
تركته شعرت أنه ينبغي لى أن أكون شاكرة له أكثر مما هو شاكر لى . . .  
بدأت أضحك .

قالت وهى تعبر قليلاً : . إنى مسرورة لأن نصى أفكتهك ، ولكن لم  
يكن حديثها ليخلو من الفكاهة وضحكات : . وكان دائماً ظريفاً . وبالاحتصار ،  
قد كانت له الفرائز الطبيعية البشرية ولكنه كان يملك كرجل مشغول البال

بجيت إنه كان ينسى أن يتناول طعامه . ومع ذلك فإنه إذا ما وضعت وجبة جيدة أمامه يأكل بشهية . إنى أدرك متى يجبنى الرجل ، ولا بد أن أكون مجنونة أو حقا . إذا كنت اعتقدت أن لارى قد أحبنى ، ولكنى كنت أنه سيألف . شرتى ويمتادها . والواجب أن نكون عمليين فى الحياة ، وقلت لنفسى : إنه سيكون ملاماً جداً لى عندما نعود إلى باريس أن يأخذنى لأعيش معه . كنت أعلم أنه سيسمح لى ببقاء الطفلة معى وكنت أحب ذلك . لقد جعلتى غريزتى أدرك أنها حماقة أن أعشقه . وأنت تعرف أن النساء سيئات الحظ جداً ، فإنهن غالباً عندما يجبن لا يعود أحد يجبن ، وإنى قد عقدت العزم على أن آخذ لذلك اليوم عدته وأتأهب له . .

استنشقت سوزان دغان سيجارتها ونفخته من خلال أنفها . كان الوقت قد تأخر بنا ، وكان كثير من الموائد قد هجرها شاغلوها ، ولكن قلة كانت ما تزال تقوم حول المشرب ( البار ) .

ذات يوم وبعد الإفطار ، كنت جالسة على شاطئ النهر أحبك الثياب وأوديت تلعب ببعض القوالب التى اشتراها لها ، جاءنى لارى .

قال : « لقد جئت لأقول لك إلى اللقاء . . »

قلت وقد تملكتنى الدهشة : « هل أنت ذاهب إلى مكان ما ؟ »

« نعم . . »

قلت . « ليس إلى الأبد ؟ »

« إنك بصحة جيدة الآن وما هو ذا قدر كاف من النقود يكفىك حتى نهاية

الصيف . وتبدئين به حياتك عندما تعودين إلى باريس . . »

« تولانى الارتباك لحظة ولم أدر بماذا أجيب . ووقف يتبسم أمامى تلك

الابتسامة الصادقة التى عرفت عنه .

سأله . هل فعلت ما أغضبك ؟

« لا شيء . ولا تظني ذلك لحظة . ولكن لدى عملا أريد إنجازهم . لقد استمتعتنا بوقت طيب هنا . تعالى يا أوديت وقولي لعمك إلى اللقاء . »

« كانت حادثة بحيث لم تستطع أن تفهم . وحلها بين ذراعيه وقبلها ، ثم قبلنا وعاد إلى المنزل ؛ وفي دقيقة واحدة سمعت صوت السيارة وهي تبتعد عنا . نظرت إلى أوراق النقد في يدي . كانت اثني عشر ألف فرنك . ولقد وقع كل ذلك بسرعة فلم يكن له رد فعل . قلت لنفسى . « لا يهم ، فعلى أقل تقدير لدى ما أشكر الله عليه ، ألا وهو أني لم أحم به حياً . ولكنني في الوقت نفسه لم أستطع إدراك كنه ما حدث ولم أجد له تفسيراً . »

أرغمت على الضحك .

« أنت تعطين أتي في يوم قد أحرزت بعض الشهرة بوصني كاتباً هازلاً ، وذلك بقول الحق بأسلوب بسيط . ولقد كانت دهشة الناس كبيرة عندما ظنوا أنني أمزح . »

« لا أرى الصلة بين ما فعلت وما قلته لك : »

« حسناً ، إن لاري هو الشخص الوحيد ، المخمض والمنزه عن الغرض ، الذي قابلته في حياتي . وذلك ما يجعل أفعاله تبدو غريبة عجيبة فنحن لم نعتد مقابلة الناس الذين يأتون أفعالاً لا شيء . إلا من أجل عجة الله الذي لا يؤمنون به ، »

حلفت سوزان في وجهي :

« يا صديق العزيز ، لقد أسرفت في الشراب . »

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

## الفصل الرابع

( ١ )

تمهلت في عملي في باريس ، فقد كان الجو ملائماً جداً في فصل الربيع ، وقد  
أزهرت أشجار القسطل في الشانزليزيه - وكان النور في الشوارع مبهجاً جداً .  
كانت المتعة في كل مكان ، متعة عابرة سريعة . متعة جسية و لكن بغير إسراف  
تجعل خطواتك أكثر خفة ، وذكائك أكثر توقداً - وكنت سعيداً في رفقي  
المتعددة مع صحابي ، وقد أفهم قلبي بذكريات الماضي الحبيبة . فاستعدت ، روحياً  
على الأقل ، بعضاً من تورد الشباب . وحسبت أنه من الحماقة أن أترك العمل  
يتدخل في سروري في تلك اللحظات العابرة . فن الجائز جداً ألا تتاح لي فرصة  
الاستمتاع بها متعة كاملة مرة أخرى .

ذهبت مع إيزابل وجراي ولاري في نزوات في أماكن على مسافات مناسبة  
ذهبنا إلى شاتلي وفرسايل وسانت جرمان والفوتنبلو ، وحيثما ذهبنا كنا تناول  
غداء جيداً وافياً ، وكان جراي يأكل كميات كبيرة ترضى جسمه الضخم ، وكان  
يميل إلى الإسراف قليلاً في الشراب ، وكانت صحته ، سواء أكان لعلاج لازي  
أم بمرور الزمن لحسب ، قد تحسنت بكل تأكيد فتوقفت نوبات الصداع التي  
كانت تعذبه ، وزايلت عينيه نظرات الحيرة والذهول التي كانت تعضيه كثيراً حين  
رأيته لأول مرة عند مجيئه إلى باريس ، ولم يكن يتحدث كثيراً ، ماعداً بين الفينة  
والفينة ، ليروي قصة طويلة متقطعة وهو يقهقه بصوت مرتفع عظيم للهراء الذي  
كانت إيزابل وأنا نقوله ، لقد استمتع بحياته . وعلى الرغم من أنه لم يكن ساراً  
فقد كان مرحاً وسهل الرضا بحيث أصبح من المستحيل ألا يحبه من يعرفه ، كان

من طراز الرجال الذى يتردد الإنسان في قضاء أمسية وحيدة معه ، ولكنه يتشوف في بهجة وسرور إلى قضاء ستة أشهر .

كان حبه لإيزابل متعة جذيرة بالمشاهدة ، فقد كان يعبد جمالها ، وكان يظهر أنها أذكي مخلوق على سطح الأرض وأكثر الناس طراً سحراً وقتة - وكان وفاءه الذى يشبه وفاء الكلب ، للارى ، مؤثراً حقاً . وبدا أن لارى يستمتع بالحياة أيضاً ، وكنت أرى أنه يعتبر تلك الفترة عطلة يتروح في أثنائها بما لديه من مشروعات ، وكان يفيد منها في هدوء كل الفائدة . وهو أيضاً لم يكن يتحدث كثيراً ، ولكن هذا لم يكن ليهم ، فقد كانت صحبته فيها غناء عن الحديث ، فقد كان هادئاً لين العريكة متهللاً في رضا بحبك لاتبأله أكثر مما أعطاك . وإني أدرك أنه إذا كانت الأيام التي قضيناها معاً سعيدة فإن تلك السعادة تعزى إلى وجوده معنا . وعلى الرغم من أنه لم يقل أبداً شيئاً ذكياً أو فكماً ، فإن حياتنا بدونك كانت تغدو ثقيلة كشيبة .

ولقد كان عند عودتنا من إحدى هذه الرحلات القصار أن شهدت منظرأً أفرغنى إلى حد ما . كنا في شارتر ، وكنا في طريق عودتنا إلى باريس . كان جراى يقود السيارة ، ولارى يجلس بجواره ، وكنت مع إيزابل نجلس في المقعد الخلفي . كنا متعبين بعد ذلك اليوم الطويل . وكان لارى يجلس وذراعه ممدودة فوق أعلى المقعد الأمامى وقد انداح كم قيصة في وضعه هذا فكشفت عن معصمه النحيل القوى والجزء السفلى من ذراعه السمراء ، وقد غطتها بخنفة شعيرات دقيقة ، وسطمت الشمس فوقها ذهباً نضاراً . واسترعى انتباهى شيء ما في سكون إيزابل ، فنظرت إليها نظرة سريعة . كانت ساكنة لا تريم ولا تتحرك ولا تسمع لها ركراً بحبك تحبها قد نومت تنوياً مغناطيسياً . كانت مبهورة الأنفاس وقد نبتت بصرها على المعصم القوى والشعيرات الذهبية تغطيه وتمتد على تلك اليد



الطويلة الدقيقة، ولكنها قوية ولم أر في حياتي على وجه بشر رغبة جامحة كذلك التي رأيتها أتشد على وجهها . لقد كانت قناعاً من الرغبة ، ولم يعاف بخاطري في يوم ما أن قسامتها الجميلة يمكن أن تعبر عن مثل هذه الرغبة التي لا تكبح . لقد كانت رغبة حيوانية أكثر منها إنسانية . لقد نزع الجمال من وجهها ، وجعلتها النظرة التي تملؤه بشمة ومفرعة . كانت نظرة توحى في بشاعة رغبة أنثى الكلب في أعنف حالاتها ، فشرعت بنغيان . وذات لا تحس بوجودي ، ولم تكن تحس بشيء سوى تلك اليد الممدودة دون اهتمام على حافة المقعد ، والتي ملاتها بالرغبة الثائرة . وحينئذوكان تشنجاً اختلج بوجهها ارتعشت فأغمضت عينها وغاصت في ركن السيارة .

قالت بصوت كدت لا أتميزه ، قد كان صوتاً غليظاً أجش :  
« اعطيني سيجارة » .

أخرجت سيجارة من حافظة سجائري وأشعلتها لها ، فدخنتها في نهم . وظلت بقية الرحلة تنظر من نافذة السيارة ولم تنطق بكلمة واحدة .

وعندما وصلنا إلى منزلهم طلب جراي من لاري أن يعود بي في السيارة إلى الفندق ، ثم يأخذ السيارة إلى الجراج ، . جلس لاري في مقعد السائق وجلت بجانبه وإذا هما بعبور الطوار أخذت إيزابل ذراع جراي ، ولما سكنت إليه نظرت إليه نظرة لم أتيناها ، وإن لم يفب عن معناها وحدست أنه سيحظى تلك الليلة برفيقة مشبوبة العاطفة ، ولكنه ان يعرف إلى أي تأنيب للضمير كان يدين بحماسها .

كان شهر يونيو يقترب من نهايته ، وكان على أن أعود إلى الريفييرا . واعر

أصدقاء إليوت ، الذاهبون إلى أمريكا ، آل ماتيورين فيلتهم في دينار دليذهبوا إليها جمع الطفلين بمجرد أن تقفل المدرسة أبوابها . وكان لارى سيقم في باريس ليعمل ، ولكنه كان سيشتري لنفسه سيارة ستروين مستعملة ووعدهما بقضاء أيام قليلة معهما في شهر أغسطس . وفي آخر ليلة قضيتها في باريس دعوتهم الثلاثة لتناول العشاء معي .

وكان في تلك الليلة أن قابلنا صوفي مكدونالد .

## ( ٢ )

كانت يايزابل رغبة من قبل ، في زيارة المشارب التي يرتادها حثالة القوم يلعبون القمار أو يشربون الخمر ، ولما كنت على بعض المعرفة بهذه الأماكن فقد طلبت مني أن أكون دليلهم في هذه الزيارة . لم ترق لي الفكرة كثيراً ، ففي أماكن من هذا السيل في باريس يكونون عرضة لإظهار امتعاضهم من متفرجين يتسمون إلى عالم آخر في وضوح غير مرضي ؟ ولكن يايزابل أصرت على تنفيذ رغبتها . وحذرتها من أن هذه الزيارة ستكون مضجرة وعملة جداً ، ورجوتها أن ترتدي ملابس محتشمة . تناولنا عشاءنا في وقت متأخر ، وذهبنا إلى الفولي برجير ، ودمكثنا هناك ساعة ، ثم انطلقنا في سبيل بغيقتنا . أخذتهم أولاً إلى قبو قرب كنيسة نوتردام ( العذراء مريم ) يكثر التردد عليه من قطاع الطرق مع زوجاتهم ، وكنت أعرف صاحبه الذي أفسح لنا مكاناً بجوار منضدة طويلة كان يجلس إليها بعض سيئي السمعة جداً ، ولكني طلبت خمر لهم جميعاً وشربنا في صحة بعضنا البعض . كان المكان حاراً ومملوئاً بالدخان وقذراً . ثم أخذتهم إلى الإسفنكس ( أبي الهول ) حيث النساء عاريات تحت ثياب السررة الزاهية ، السمجة المزركشة ، التي كشفت عن الصدر كله وكن يجلسن في صف واحد على مقعدين طويلين متقابلين ، وعندما تعزف الموسيقى يرقصن معاً في فتور وعيونهم تبحث عن

الرجال الذين يجلسون في حلبة الرقة إلى مواثد ذات أسطح رخامية . طلبنا زجاجة شيبانيا ساخنة ودمت بعض النسوة إيزابل بنظراتهن عندما مررن بنا ، وإني لأعجب بما إذا كانت قد فهمت مغزى هذه النظرات .

ومن ثمة ذهبنا إلى شارع دي لاب ، وهو شارع قذر ضيق ، وحتى وأنت تلج هذا الشارع تتدحج في ذهنك الشهوات الدنيئة . ودخلنا مقهى ، وكان هناك ، كالعادة ، الشاب الشاحب النحيل يعزف على البيانو ، ورجل آخر هرم ومتعب كان يصدر صريراً من كمانه ، وثالث يخرج أصواتاً ناشزة على آلة الكسوفون . كان المكان مكتظاً بالحاضرين ، وبدا وكأنه لا توجد به مائدة خالية ، ولكن صاحب المقهى حين رأى أننا زبائن بملكون تقوداً جاءوا لينفقوها ، أتصى اثنين عن مقعديهما وجعلهما يحتلان مقعدين بجوار منضدة كانت مشغولة برواد آخرين ثم أجلسنا مكاتهما . ولم يرتح الاثنان اللذان أبعدهما صاحب المقهى عن مكاتهما لما فعل ، فراحا يديان ملاحظاتهما علينا . وكانت ملاحظات بعيدة كل البعد عن الإطراء أو المديح . كان جمع حاشد من الناس يرقصون : بحارة يزيفون قبعاتهم بخصلات من الشعر أو الريش الأحمر ، ورجال أغلبهم يلبسون « الكسكتات » على رؤوسهم ويضعون المناديل حول رقابهم ، ونساء بلغن سن الضجج ، وقتيات يانعات ، وقد أغرقن جميعاً في طسلاء وجوههن وحسرن رؤوسهن ، وارتدين نطاقات ( جونلات ) قصيرة ، وبنوزات ملوثة . كلن ثمة رجال يرقصون ، ونساء هزيلات شاحبات صارمات القسبات يراقصن أخريات مكنتزات الأجساد مصبوغات الشعر ، ورجال يراقصون نساء . كانت رائحة الدخان والشراب وعرق الأبدان تملأ المكان ، وانطلقت الموسيقى إلى ما لا نهاية . وهذا الحشد المسيخ من الدهماء يدور حول الحجره ، والعرق يلدغ فوق وجوههم

في صرامة جادة فيها رعب وفضاعة ، وكان هناك فئة قليلة من رجال طوال عراض يتم منظرهم عن الوحشية ولكن الغالبية كانت قصاراً ناقصي النمو سيئ التغذية . واقتبت الثلاثة العازفين : كانوا أقرب إلى الإنسان الآلي ، وكان أداؤهم آلياً مثلهم . وتساءلت عما إذا كان من المحتمل أنهم قد فكروا في وقت ما عندما بدءوا حياتهم في أنهم سوف يكونون موسيقيين يهرع إليهم ويصفق لهم استحساناً . وحتى ليعرف الإنسان عزفاً رديئاً على السكّان يجب أن يتلقى دروساً في العزف ويتدرب عليه : فهل جثم هذا العازف على السكّان نفسه العناء لجرد أن يعزف أنغام ( الفوكس تروت ) الراقصة حتى الساعات الأولى من النهار في هذه القنطرة الكريهة الرائحة ؟ توقفت الموسيقى ، وجفف عازف البيان وجهه بمنديل قذر . وعاد الراقصون إلى مواثدّم متراخين أو في حركة جانبية مائلة أو متلوين ولحاة سمعنا صوتاً أمريكياً .

« يا إلهي ،

نهضت امرأة من إحدى المواثد عبر الحجر ، وحاول الرجل الذي كان يجالسها أن يمنعها ؛ ولكنها دفعته عنها جانباً وترنحت واقفة على أرض الحجر . كانت ثملة جداً . جاءت إلى مائدتنا ، ووقفت أمامنا ، وهي ترنح قليلاً وتبتسم في بلاهة ابتسامات عريضة تكشف عن أسنانها ، فقد بدا أنها ترى في منظرنا ما أضحكها كثيراً ، فنظرت إلى رفاقي ، وحملت إيزابل فيها حائرة ذاهلة ، وتجهّم وجه جراي عابساً وحملت لاري وكأنه لا يصدق عينيه .

قالت : « هالو ،

قالت إيزابل : « صوفي ا ،

أجاب في صوت أجش : « ومن ظننت أن أكون بحق الجحيم ؟ ، وأمسكت بالبادل الذي كان يمر حينذاك وقالت : « أحضر لي مقعداً يا فنسنت ،

قال وهو ينتزع نفسه بعيداً عنها :

، أحضري واحداً انفسك ، .

قالت وهي تبصق عليه : ، يالك من قدر ، .

، لا تهتمى له يا صوفى ، قالها صوت فتى ضخم بدين قد ضيخ شعر رأسه بالدهون . وكان يجلس تلونا في قيس قصير الأكام . ، ها هو ذا مقعد ، .

قالت وما زالت تترنخ : ، تصورووا أنى أقابلكم جميعاً هكذا . هالو لارى . هالوا جراى . ، غاست فى الكرسي الذى وضعه خلفها الرجل الذى تحدث إليها . وصاحت صارخة : ، أحضر لنا جميعاً شراباً يارئيس ، .

ولقد لاحظت أن صاحب الحان كان يرقبنا طوال ذلك الوقت ، وحينئذ جاء إلينا ورأى أنها مخاطباً إياها بصيغة المخاطب المفرد (دون كلفة) : ، هل تعرفين هؤلاء القوم يا صوفى ؟ ،

ضحكت سكرى : ، إنهم أصدقاؤ طفولتى . وسأشترى لهم زجاجة شمبانيا ، وأرجو ألا تضع لنا بها بول الخيل . أحضر لنا شراباً يمكننا أن نجرعه من غير أن نتقيأ ، .

قال : ، إنك ثملة أينها المسكينة صوفى ، .

، فلتذهب إلى الجحيم ، .

ذهب فى حال سبيله وهو جد سعيد لأنه باع زجاجة شمبانيا — ونحن لكى تضمن لأنفسنا السلامة كنا نشرب البراندى الممزوج بماء الصودا — وحلقت فى صوفى بيلادة وفى تراخ لحظة .

« من عساه أن يكون صديقك يا إيزابل ؟ »

أخبرتها إيزابل باسمي

« أوه ، إنى أتذكر ، فقد جئت إلى شيكاغو مرة . إنك حمير تافه . الست .  
كذلك ؟ »

قلت مبتسماً : « من الجائز . »

لم أكن أذكرها ، ولكن ذلك لم يكن موضع الدهشة ، إذ أنى لم أذهب إلى شيكاغو منذ أكثر من عشر سنوات ، وقابلت عدداً كبيراً من الناس حينئذ ، وعدداً كبيراً أيضاً منذ ذلك الوقت .

كانت طويلة القامة جداً ، وإذا ما وقفت بدت أطول ، فقد كانت نحيلة وضامرة جداً . كانت تلبس بلوزة حريرية خضراء زاهية ، ولكنها كانت مفضنة وملطخة ، وتلبس معها نظائراً قصيراً أسود . كانت قد قصت شعرها حتى غداً قصيراً ، وأرسلته مجمداً محلولاً ولكنه كان أشعث ، مصبوغاً بخضاب الحناء . كانت زينتها صارخة ، فقد طلت وجنتيها بالأحمر حتى عينها وجفنيها العلوي والسفلي بالطلاء الأزرق الثقيل ، وكانت تغطى حاجبيها وأهدابها ( المسكرة ) (١) الكشيفة ، ويصبغ فيها أحمر الشفاه القرمزي . وكانت يداها وأظافرهما المطالية قنرة . وكانت تبدو ساقطة أكثر من أية امرأة هناك ، وشككت في أنها ليست سكرى لحسب ، بل مخدرة أيضاً . ولكن لا يمكن لمن يراها أن يذكر أن حولها كانت تطوف فتنة أثيمة وهي تشمخ برأسها في زهو وخيلاء . وكانت زينتها تؤكد وتبرز خضرة عينها المذهلة . ولما كانت الخمر تفيض منها ، فقد تجرد وجهها من الحياء بحيث أمكنتني أن أتصور جيداً كيف أنه يستصرخ كل ما هو دنى . خسيس في الرجال . وعانقتنا بابتسامة متكلفة .

(١) الطلاء الخاص بالأهداب والحاجبين

قالت : « لا يمكنني أن أقول إنكم سررتكم كثيراً لرؤيتي . »  
قالت إيزابل بفتور ، وابتسامة باردة تطوف بوجهها : « لقد سمعت أنك  
كنت في باريس . »

« كان من الواجب عليك أن تتصل بي فإن اسمي في دفتر التليفونات . »  
« لم نكن هنا منذ مدة طويلة . »

وتدخل جراي في الحديث بقصد إنقاذ إيزابل من التورط .

« هل تقضين هنا وقتاً طيباً ، يا صوفي ؟ »

« إنني أقضي وقتاً جميلاً . لقد أفلتت يا جراي . ألم تفعل ؟ »

اصطغ وجهه بحمرة داكنة .

« نعم ، »

« إنه لأمر قاس عليك ، وأظن أن الوقت عصيب جداً في شيكاغو الآن ،  
ولأنه لمن حسن حظي أن نجوت عندما غادرتما . لست أدرى ، بحق المسيح ، لماذا  
لم يحضر لنا هذا النادل النفل حتى الآن شيئاً نشربه ؟ »

قلت وقد بصرت به يشق طريقه بصعوبة بين الموائد ، ويحمل صينية عليها  
أكواب وخر :

« ها هو ذا قادم . »

ولفتت ملاحظتي نظرها إلى .

« إن صهرى العطوفين أبعدانى عن شيكاغو وقالوا لاني ألتخ سمعة . . .  
الأسرة . » قالت ذلك ونجحت في همجة .

« إني رجل متساح . »

جاءت الشمبانيا وصبت في الأقداح . ورفعت قدحها بيد مهتزة إلى شفيتها .  
قالت : « إني الجحيم بالتافهين . » وأفرغت كأسها وودت إلى لاري . « يبدو  
أنه ليس لديك ما تقول يا لاري . »  
كان ينظر إليها بوجه جامد ولم يحول بصره عنها منذ ظهرت . فابتسم  
بوداعة ولطف .

« لست ثرثاراً بالطبع . »

وصدحت الموسيقى ثانية وجاء رجل إلينا ، كان قتي طويلاً بهنث الشيء .  
حتين البنيان ، ذا أنف كبير معقوف وشعر غزير أسود لامع وشفيتين شهوانيتين .  
وبدا مثل سافونا رولا شريراً ، وكان كعظم الرجال هناك لا يلبس ياقة وقد  
زود سترته اللاصقة بإحكام على جسمه لتبرز خصره .

« هلى يا صوفي فإننا سنرعى . »

« انصرف فإني مشغولة . ألا ترى أن بصحبتى أصدقاء ؟ »

قال بالفرنسية : « إني لا أعجب بأصدقائك . وإني الجحيم أنت وأصدقائك ،  
وسوف ترقصين معي . »

وأمسك بذراعها ولكنها انزعجتا منه .

صاحت في عنف مفاجئ . : « اتركنى في سلام ، قالتها بالفرنسية أيضاً .

ولما كان الحديث البذيء بين النادل وصوفي قد جرى بفرنسية سوقية فإن  
جراى لم يفهم ما كانا يقولان ، والكنى رأيت أن إيزابل ، بمعرفة البذاءة العجيبة



التي يبدو أن معظم السيدات الفاضلات يتمتعن بها ، قد فهمت تماماً ما سمعت ، فارتد وجهها صارماً جهماً وقد ارتسم عليه الاشمزاز والتقرز . رفع الرجل ذراعه ويده مفتوحة وهي يد العامل المتحجرة الصلبة وهم بصفعها عندما نهض جراى نصف واقف من مقدمه .

صاح بلهجة الممقوتة : «أغرب من هنا . .»

توقف الرجل ورمى جراى بنظرة حاقة .

قالت صوفى بضحكة لاذعة : «خذ حذرك يا كوكو فإنه سوف ينقيك جثة حامدة خارجاً في العراء . .»

أدرك الرجل عظم ارتفاع جراى وجرمه وقوته فهز كتفيه عابساً وقذفنا بكلمة قدرة ، وانصرف يجرر أذيال الخزي والعار . فقهرت صوفى ضحكات سكرى ثملة . وكانت بقيتنا صامتة ، وأعدت ملء قدح صوفى .

سألت بعد أن أفرغت كأسها : «إنك تعيش في باريس الآن ، يا لارى ؟»

«في الوقت المحاضر . .»

من العسير أن يدخل الإنسان في حديث مع مخمور ، وإنه لأمراً لا يمكن إنكاره أن المساحين الواعين يدخلون الممركة عزلاً من السلاح إذا تحدثوا معه . وحينئذ دفعت صوفى مقعدها إلى الخلف .

«إذا لم أعد إلى صديقي فسوف يشور كالسعير ، فهو وحش عابس ، ولكنه وقسا يافه ، الحريس ممسك . . وترنحت واقفة . «إلى اللقاء يا قوم . تعالوا ثانية فأنا هنا كل ليلة» .

وشقت لنفسها طريقاً بين الراقصين وغابت عن أنظارنا في الزحام . وكادت أضحك من الاحتقار الثلجي الذي يرسم على ملاح وجه إيزابل الكلاسيكية ولم ينبس أحداً بينت شفة .

قالت إيزابل على حين لجأة : « هذا مكان قدر فدعونا ننصرف . »

دفعت حساب ما شربنا هو والشمبانيا التي طلبتها صوفي ، وخرجنا معا . كان الناس في حلبة الرقص وخرجنا دون أية إشارة . كانت الساعة قد تجاوزت الثانية وكان رأى أن وقت النوم قد أذف ، ولكن جراى قال إنه جوعان ولذا اقترحت أن نذهب إلى مطعم ( جراف ) في مونتمارتر حيث نجد ما نأ كاه . وصمنا والسيارة قلنا ، وجلست بجوار جراى لأرشده إلى الطريق — وأخيراً وصلنا إلى المطعم الباهر للبصر — كان بعض الناس مازالوا جالسين في الشقة ، فدخانا وطلبنا قديد لحم الخنزير ، وبيضاً وجمعة — وكانت إيزابل ، ولوظاهرياً على الأقل ، قد استعادت هدوءها . وهنأتى فى تمكّم لاذع نوعاً ما على معرفتى بأكثر الأما كن سوء سمعة فى باريس .

قلت : « لقد طلبت ذلك . »

« لقد استمتعت حقاً وقضيت أمسية عظيمة . »

قاز جراى : « إنه الجميم . كانت تفوح منه الرائحة الكريهة . وزادت صوفي الطين بلة . »

مزت إيزابل كتفها فى استخفاف .

سألنى : « ألا تذكرها بالمرّة ؟ كانت بجوارك فى أول ليلة جمعت فيها تناول

العشاء معنا . لم يكن لها ذلك الشعر الأحمر المخيف ، في ذلك الوقت . فإن لونه الطبيعي يبيح دخن . ،

عدت بذكرياتي إلى الماضي . كنت أحتفظ بذكريات لفتاة صغيرة جداً ذات عيون زرقاوين كادت تكونان خضراوين . وكان رأسها يميل قليلا . لم تكن جميلة ولكنها كانت نضرة سليمة النية حنة الطوية تجمع بين الحياء والجرأة وكانت لطيفة مسلية .

« طبعا أتذكر ! لقد أحببت اسمها ، إذ كانت لي عمه تسمى صوفي . ،

« تزوجت ولداً يدعى بوب ماكدونالد . ،

قال جراي : « فتي ظريف : ،

« لقد كان من أجل من رأيت من الفتيان . ولم أفهم مطلقاً ماذا رأى فيها . وتزوجت بعد زواجي مباشرة . كان والداها مطلقين ، وتزوجت أمها من رجل يعمل في شركة استاندرد لآبار الزيت في الصين . وكانت تعيش مع أهل أبيها في مارفن ، وكثيراً ما كنا نراها في هذه الفترة ، ولكن بعد أن تزوجت لم تكن تفشى مجتهدنا كثيراً . كان بوب ماكدونالد محامياً ولكنه لم يكسب من مهنته الكثير حينئذ — وكانت لها شقة مجاورة في حي ( نورث سايد ) وكان ذلك كل ما في الأمر . فقد عزفوا عن مقابلة الناس أجمعين . ولم أرفى حياتي زوجين جنا حباً بعضهما ببعض مثلاً فعلاً ، وحتى بعد أن مضى عامان أو ثلاثة أعوام على زواجهما ورزقا طفلاً كانا يذهبان إلى السينما ويجلسان وهو يطوق بذراعه خصرها وتسد رأسها إلى كتفه تماماً كما يفعل العشاقون . كانا أضحكوا في شيكاغو . ،

أصنى لارى لما قالت إيزابيل : ولكنه لم يعلق بشيء . وكان وجهه غامضاً  
مهما لا يفصح عن دخليته .

سألت : « وماذا حدث إذن ؟ »

« ذات ليلة كنا عائدين إلى شيكاغو في سيارتهما الصغيرة المكشوفة ، وكان  
معهما الطفل ، فقد كان لزاماً عليهما أن يأخذاً معهما دائماً ، لأنه لم يكن لهما  
خدم ، وكانت صوفي تعمل كل شيء بنفسها ، وعلى كل حال فقد كانا يجبانه حب  
العبادة ، وكانت جماعة من السكارى في سيارة سيدان (١) ضخمة تسير بسرعة  
ثمانين ميلاً في الساعة ، اصطدمت بهم صدمة مباشرة في الصميم ، فلقى بوب حتمه  
مع الطفل في التو واللحظة ، ولكن صوفي أصيبت بارتجاج في المخ ، وكسر ضلع  
أو اثنين من أضلاعها . وأخفوا الخبر عنها أطول وقت مستطاع ، خبر أن بوب  
والطفل قد ماتا . ولكنهم في النهاية اضطروا لأن يصارحوها بالحقيقة ، وقيل  
إن وقع الصدمة عليها كان عنيفاً ، وكادت أن تجن ، وراحت تصرخ صرخات  
تزلزل المكان ، وأرغموا على أن يقيموا الحراسة عليها أثناء الليل وأطراف النهار ،  
فقد حاولت وكادت أن تلتقي بنفسها من النافذة . وكان من الطبيعي أن عملنا كل  
ما في وسعنا ، ولكن بدا أنها كانت تكرهنا . وبعد خروجها من المستشفى  
وضعوها في مصحة الأمراض العقلية حيث بقيت شهوراً . »

« يا لها من مخلوق تعس . »

« وعندما سمحوا لها بالخروج بدأت تدمن الشراب ، وكانت إذا ما سكرت  
تأق أعمالا منكورة . وكان هذا أمراً مروعاً لههريها . وكانا شخصين هادئين  
رقيقين ، وكانا ينحشيان الفضيحة ويكرهانها . ولقد حاولنا جميعاً في أول الأمر

(١) نوع من السيارات الكبيرة يتعمل في السفريات

مساعدتها ، ولكن كان ذلك مستحيلا ، فكنا إذا ما وجهنا إليها الدعوة لتناول العشاء جاءت ملطخة بالمساحيق ، وكان من المحتمل جداً أن تتركنا وتصرف قبل أن ينتهي المساء . ثم صاحبت زمرة من الفاسدين . فوجب علينا أن نتخلى ونبتعد عنها . ولقد أتى القبض عليها ذات مرة لأنها كانت تقود سيارة وهي مخورة : كانت مع أسباني التقطه من عرض الطريق بسهولة ، وتبين فيما بعد أنه طريد العدالة .

سألت : « ولكن هل كانت تملك نقوداً ؟ »

« كان بوب مؤمناً على حياته . كما كانت السيارة التي حطمت سيارتهم مؤمناً عليها ، لحصلت بذلك على بعض النقود منهم ، ولكن هذه النقود لم تبق طويلاً . فقد أنفقتها كما ينفق البحار الخمر تقوده . وفي غضون عامين كانت قد أفلست تماماً ، ولم تسمح لها جدتها بالعودة إلى مارفن ، وحينئذ عرض صهرها أن يعطيها راتباً منتظماً إذا ما غادرت البلاد وعاشت في الخارج . وهذا هو ما تعيش عليه الآن على ما أظن . »

قلت ملاحظاً : « لقد دارت العجلة دورتها . لقد أتى حين من الدهر كانت فيه الأسر في بلادى تقذف بالمشردين من أفرادها إلى أمريكا ، وواضح أن المشردين الآن يجيئون من أمريكا إلى أوروبا . »

قال جراي : « لا أملك سوى أن أرتي لحالها . »

قالت إيزابل بفتور : « ألا تملك ؟ إنى أملك الرئاء لها . طبعاً لقد كانت صدمة ولم يعطف أحد على صوفي أكثر مما فعلت ، فقد كنا نعرف بعضنا بعضاً دائماً . إن الشخص السوي يمكنه أن ينهض من كبوة مثل هذه ، فإذا ما كانت قد ذهبت ببدأ ، فما ذلك إلا لأن الفساد كان أصيلاً فيها . كانت عتلة فاقدة

التوازن طبيعياً ، حتى أن حبها لبوب كان حباً مفرطاً ، فإذا ما كانت على خلق  
قوى قويم استطاعت أن تفيد من الحياة بصورة أو بأخرى . ،

مهمت متسائلاً : ، ألت قاسية في حكمك ، يا إيزابل ؟ ،

، لا أرى رأيك ، ولى إدراك . ولا أرى سبباً يدعوني لأن أكون عاطفية  
مفرطة فيما يخص صوفي . والله يعلم ، إنه لن يوجد من يفوقني إخلاصاً ووفاء  
لجراى والطفلتين ، فلو أنهم لقوا حتفهم في حادث سيارة لفقدت عقلى . ولكنى  
إن عاجلاً أو آجلاً أنهض وأسترد قوتى وأتماسك أمام الأحداث . أليس هذا  
ما تريدنى على فعله ، يا جراى ؟ أم تريدنى أن أفقد بصرى كل ليلة وأذهب إلى  
الفراش مع كل الأباشة (١) في باريس ؟ ،

كاد جراى أن يبدى ملاحظة فكهة لم أسمعه ينطق بمثلها من قبل .

، طبعاً ، إنى أفضل أن تندفعى إلى حفل إحراق جثتى في ثوب من صنع بيت  
موالينيه للأزياء ، ولكن لما كانت عادة إحراق جثث الموتى قد بطلت فإنى أظن  
أن خير ما يمكنك عمله أن تنسكبى على لعب البردج . وإنى أود أن أذكرك  
ألا تقدمى على اللعب بورقة غير رابحة أصلاً إلا إذا كان بيدك ثلاثة نقاط ونصف  
قطعة مقابل أربعة فقط من الحيل السريعة . ،

لم تكن هذه هى المناسبة التى أستبجح فيها لنفسى أن أبين لإيزابل أن حبها  
لزوجها وأطفالها ، على الرغم من أنه حب صادق خالص الصدق ، يكاد لا يرقى  
إلى مرتبة الهيام والشغف . ربما تكون قد قرأت الفكر الذى يمر بخاطرى ،  
لأنها خاطبتنى فى جفوة وغلظة إلى حد ما .

---

(١) الأخلاط من الناس

« ماذا تريد أن تقول ؟ »

« إنى مثل جرائى أرئى لحان هذه البنت . »

«إنها ليست بتنا صغيرة فهى فى الثلاثين من عمرها . »

« أظن أنها قد رأت فى موت زوجها وطفلها نهاية حياتها ، وأظن أنها لم تهتم مطلقاً لما يحل بها بعد ذلك ، فقدفت بنفسها فى هذه الحماة المروعة من صلات مشوشة لتساير فى هدوء الحياة التى قسمت عليها . لقد كانت تعيش فى الفردوس ، فلما فقدته لم تستطع احتمال الحياة على أرض البشر ، بل ألقى بنفسها . وهى فى غمرة ياسها فى الجحيم . وبوسعى أن أتصور أنها إذا لم تتمكن من أن تشرب رحيق الآلهة القدسي بعد فقد ظنت أنه لا بأس بها من أن تشرب خمرة الميزاب . »

« هذه هى الأشياء التى تكتبونها فى الروايات ، وهى هراء ولفو باطل . وأنت تعرف أنها هراء ولفو باطل . فإن صوفى تتمرغ فى الوحل لأنها تحب ذلك . فكثير من النساء الأخريات فقدن أزواجهن وأطفالهن . وليس ما حل بها هو ما صيرها شريرة ، فالشر لا ينبثق من الخير ، ولكن الشر كان دائماً كامناً فيها : فعندما دكت السيارة خطوط دفاعها حررتها لتكون على سجيتها ، فلا تبدد شفقتك عليها ، فهى الآن ما كانت فى حقيقتها دائماً . »

بقى لارى طوال ذلك الوقت صامتاً . وبدأ أنه غارق فى تأملاته . وظننت أنه يكاد لا يسمع ما كنا نقول . ولقد أظننا علينا صمت قصير بعد ما قالته إيزابل . وبدأ الحديث ، ولكن بصوت غريب خال من النبرات ، وكأنه لا يتحدث إلينا ولكن يتحدث إلى نفسه ، وبدأ أن عينيه تنظران فى الماضى السحيق المظلم .

« وإنى أذكرها عند ما كانت فى الرابعة عشرة من عمرها بشعرها الطويل المرجل إلى الخلف بعيداً عن جبينها وقد ربطت ( فيونكة ) سوداء فى نهايته

وبوجهها الصارم ذى النمش . لقد كانت طفلة حبيبة نبيلة مثالية . وقرأت كل ما وصل إلى يدها ، وكان من عادتنا أن نتحدث عن الكتب . .

سألت إيزابل وقد عبست قليلا : متى ؟

« آه ، عندما كنت تخرجين لتزاولي نشاطك الاجتماعي مع أمك . اعتدت أن أذهب إلى منزل جدها وأجلس معها تحت شجرة دردار ضخمة كانت لهم هناك ، ويقرأ كل منا للآخر . كانت تحب الشعر ، وقرضت الكثير منه . .

« كثير من الفتيات يفعلن ذلك في هذه السن . إنه شعر تافه جداً . .

« طبعا لقد كان ذلك منذ زمن طويل مضى ، وأظن أني لم أكن حكما فيصلا

حينذاك . .

« لم تكن أنت نفسك قد بلغت السادسة عشرة حينئذ . .

« طبعا لقد كان تقليداً . وكان فيه كثير من سمات الشاعر روبرت فروست (١) . ولكن كان من رأيي أنه شعر جدير بالملاحظة لمن كانت فتاة صغيرة جداً مثلها . كان لها أذن رقيقة وإحساس بالإيقاع كما كان لها شعور بالأصوات وشذى الريف العطر ، وأولى سمات الربيع الهادئة الرقيقة ورائحة الأرض اليابسة بعد هطول الأمطار . .

« قالت إيزابل : « لم أعرف أبداً أنها كانت تنظم الشعر . .

« كانت تحتفظ بذلك سرا ، فقد كانت تخشى أن تسخروا منها . وكانت شديدة

الحياء تفيض خفراً . .

---

(١) أمير شعراء أمريكا ( ١٨٧٤ - ١٩٦٣ )



« ولكنهما لم تعد كذلك الآن . »

« عندما عدت من الحرب كانت قد نمت وترعرعت وأصبحت على أعتاب الشباب . وقد قرأت كثيراً عن أحوال الطبقات العاملة ، وشاهدت بنفسها طرفاً من هذه الحياة في شيكاغو ؟ ونجحت في الوصول إلى كارل ساندبرج . وكانت تكتب بعنف ووحشية بالشعر المطلق عن يؤس الفقراء واستغلال الطبقات العاملة . من المحتمل أن ما كتبت كان غمماً تافهاً ، ولكنه كان مخلصاً صادقاً ، وكان فيه من روحها ، عطف وأمانى . وكانت في ذلك الوقت ترغب في أن تكون باحثة اجتماعية ، وكانت رغبتها في التضحية تميز الشاعر . وأظن أنها كانت قادرة على أن تنجز الكثير جداً . لم تكن خرقاء أو مكروهة ، ولكن كان من يراها يشعر بالثناء المحبوب وثناء الروح العجيب وكثيراً ما كنا نلتقي في تلك السنة . »

كان بوسى أن أرى أن إيزابل كانت تصفى إليه بضغظ متزايد ، ولم يفتن لارى إلى أنه كان يغمد خنجرأ في قلبها ، وأنه بكل كلماته كان يديره في الجرح ، ولكنها عندما تحدثت كانت الابتسامة ترف على وجهها .

« كيف حدث أن اختارتك موضعاً لثقتها ؟ »

نظر إليها لارى بعينه الواثقين .

« لا أعرف . لقد كانت فتاة مضيعة بينكم جميعاً وأتم تملكون المال الوافر . كما أنى لم أكن أتمنى إليكم ، وكان الذى دفع بى إلى محيطكم هو أن عمى بوب كان يمارس عمله في مارفن . أظن أنها أحست بأن شيئاً مشتركاً يربط بيننا . »

لم يكن للارى أوارب ، ولكن معظمنا كان له على الأقل أبناء عمومة نكاد لا نعرفهم ، واسكنهم على الأقل يجعلوننا نحس بأننا جزء من الأسرة الإنسانية ، فقد كان والد لارى وحيد أبويه كما كانت أمه الابنة الوحيدة لأبويها . وكان خلفاً

لأبيه ، وهو من جماعة الكوكريين (١) فقد في البحر عندما كان شاباً — ولم يكن لجدّه الآخر أخ أو أخت . لم يكن أحداً أكثر وحدة في الحياة من لارى .

سأله إيزابل : « هل خطر ببالك يوماً أن صوفى تحبك ؟ »

ابتم : « أبدأ . »

« حسناً ، كانت نجبه . »

قال جراى بطريقته الجافية المتعاطفة : « عندما عاد لارى من الحرب بطلاً جريحاً اندفعت نحوه نصف بنات شيكاغو . »

« كان هذا أكثر من اندفاع . لقد كانت تعبدك ، يا عزيزى المسكين لارى . هل تقصد أن تقول إنك لم تعرف أنها أحبتك ؟ »

« بكل تأكيد لم أعرف ولا أصدق ذلك . »

« أظن أنك فكرت أنها كانت نبيلة . »

« مازال بوسى أن أرى هذه الفتاة النحيلة الصغيرة ذات ( الفيونكا ) في شعرها ووجهها الصارم ، التي كان يهتز صوتها وتسبح الدموع في عينيها عندما كانت تقرأ أنشودة الشاعر الإنجليزي جون كينس ، لأنها قصيدة رائعة جميلة وأنا لأعجب أين هي الآن . »

أجفلت إيزابل قليلاً ورمته بنظرة مرتابة فاحصه .

---

(١) ويسمون الصاحبين أو الأصناف ، وهم جماعة مسيحية أسسها جورج فوكس (١٦٤٨ - ١٦٥٠) يعارضون الحرب بشدة ، ولذا يطلق عليهم دعاة السلام . لباسهم بسيط وحدثهم واضح مخلص .

« لقد تأخر بنا الوقت جداً وإنى لجد متعبة ولا أدري ماذا أفعل فدعونا نذهب . . »

( ٣ )

وفي المساء التالى أخذت القطار الأزرق إلى الريفيرا وبعد مرور يومين أو ثلاثة أيام ذهبت إلى أتتيب لمقابلة إليوت ولأقل إليه أخبار باريس . كان بعيداً كل البعد عن الصحة ولم يفده العلاج في مونتكاتيني الفائزة المرجوة . كما أن جولاته التى تلت هذا العلاج قد أرهاقته . وجد جرن المعمودية فى فينيسيا ( البندقية ) ومن ثم شخص إلى فلورنسا ليشتري المكتب الثلاثى الطيات الذى كان يتفاوض بشأنه . ولما كان قلقاً ومتشوقاً إلى أن يرى هذه الأشياء قد وضعت فى أماكنها فى الوقت المناسب فقد ذهب إلى بوتين مارشز ونزل فى حان حقير حيث كانت الحرارة قاسية بحيث لم يتمكن من احتمالها . استغرقت مشرواته الثمينة وقتاً طويلاً فى الطريق ولكنه أصر على عدم مغادرة المسكن حتى ينجز مهمته . فظل مقياً بهذا النزول وقد سر للأثر الطيب الذى تركه فى نفسه أخيراً وضع كل شئ فى مكانه المطلوب ، وأرانى فى زهو واقتخار الصور الشمسية التى أخذها . فعلى الرغم من أن الكنيسة كانت صغيرة فقد كانت تحيط بها العظمة ويحفها الجلال ، وكانت النفائس الثمينة فى الداخل دليلاً قاطعاً على ذوق إليوت الجميل .

« لقد رأيت تابوتاً مسيحياً من العصور الأولى فى روما فاستهوانى . ولقد تبصرت طويلاً فى شرائه ولكن فى النهاية قرعنى على الحصول عليه . »

« ولماذا بحق السماء تريد تابوتاً من العصر المسيحى الأول . »

« لأرقد فيه ، يا صديقى العزيز . لقد كان عابئاً نسبة جيد جداً ، وظننت أنه

يتعادل مع جرن المعمودية في الجانب الآخر لدخل الكنيحة ، ولكن هؤلاء  
المسيحيين الأوائل كانوا قصاراً مكنزى الأجسام فلم يكن ليلائمني ، ولم يكن  
يوسعى أن أرقد فيه حتى ينفخ في الصور . وقد وضعت ركبتى بجوار ذقني كجنين  
في بطن أمه . إنه لأمر متعب إلى أقصى حد .

ضحكت ، ولكن إلبوت كان جاداً .

« إن لدى فكرة أفضل ، لقد عملت بعض الترتيبات ولكن بصعوبة ، وهذا  
ما وجب أن أتوقعه ، أن أدفن أمام المذبح عند قاعدة درجات الهيكل ، فإذا  
هاجله الفلاحون الفقراء من نوتين مارشز لتناول القربان المقدس فسوف  
يدلفون فوق عظامي بأحذيتهم الثقيلة ، وهذا وجيه نوعاً ما ، ألا تظن ؟  
وسأكتفي بلوحة حجرية بسيطة تحمل اسمي وكذلك تاريخ الميلاد والوفاة ،  
والعبارة اللاتينية ( إذا أردت العثور على مشواه ، فانظر حولك ، تعرفه ) ، ثم  
كررها بالإنجليزية ،

قلت في حدة : « إن معرفتي باللاتينية كافية ، يا إلبوت ، بحيث تتمكني من  
فهم مقتبس دارج ، »

« استمحك عذراً يا صديقي العزيز ، لقد اعتدت الجهل السمج الذي تميزت  
به الطبقات العليا في المجتمع وسهوت عن أني أتحدث إلى كاتب ، »

لقد فاز .

« ولكن ما أردت أن أقوله لك كان هذا ، قال ذلك وأردف ، لقد تركت  
تعليمات واضحة في وصيتي ، ولكن أريد منك أن تتولى الإشراف على تنفيذها  
بنفسك فإني لا أرغب في أن أدفن في الريفييرا بين أميراليات متقاعدین  
وفرنسيين من الطبقة المتوسطة ،

« طبعا سأفعل ما تريد ، يا إليوت ، ولكن لا أرانا في حاجة إلى وضع  
مخطط لشيء من هذا القبيل لسنوات طويلة مقبلة . »

« إنى أشعر بأن منيتى تقترب ، وإنى أصدقك القول إنى لن آسف لذلك .  
ما الأبيات التى قالها لاندور (١) ؟ التى تحوى : « لقد أدفأت كلتا يدي . . . »

وعلى الرغم من ضعف حافظتى فإن القصيدة قصيرة جداً وكان بوسعى  
أن أتلوها .

« لم أحاصم أحداً ، لأن أحدا لم يستأهل خصامى .

أحبيت الطبيعة ، وبعد الطبيعة الفن ،

أدفأت كلتا يدي أمام نار الحياة ،

ها هى ذى الحياة تفيض ، وقد تاهبت للرحيل . . . »

قال : « هذه هى القصيدة . »

لم أتمالك نفسى من التفكير إنه بشطحة من شطحات الخيال العنيفة خُـب  
يمكن لإليوت أن يطبق هذه الحكمة الشعرية على نفسه .

قال : « إنها تعبر عن عاطفتى تماماً ، على أية حال . والشيء الوحيد الذى  
يمكننى أن أضيفه إليها هو أنى كنت دائماً أعيش فى أرق مجتمع فى أوروبا .

« إن من الصعوبة أن تزحم هذه العبارة فى تلك الرباعية .

« إن المجتمع ميت . كنت فى يوم ما أأمل أن تأخذ أمريكا مكانة أوروبا  
وتخلق أرستقراطية يحترمها الجميع ، ولكن الانهيار المالى الذى أصابها قضى على

(١) ولتر سانج لاندور شاعر إنجليزى (١٧٧٥ - ١٨٦٤)

كل فرصة لذلك . وسوف لاتصدق ، يا صديقي العزيز ، ولكن ذلك ما حدث ،  
ففي آخر مرة كنت في أمريكا نادائي سائق سيارة الأجرة بقوله : « يا اخي . »

وعلى الرغم من أن الريفييرا كانت ، وما زالت ، تزرع تحت الانبيار الذي  
وقع في ١٩٢٩ ، فإنها لم تكن كما عهدناها من قبل ، فإن إليوت استمر يولم  
ولائمه ويذهب إلى الولايم أيضاً ، ولم يكن يذهب لإطلاقا إلى اليهود باستثناء  
أسرة روتشيلد . ولكن كان اليهود هم الذين يقيمون أعظم المآذب في ذلك الحين -  
وإذا ما أقيمت مأدبة فإن إليوت لم يكن يحتمل التخلف عنها . كان يجول خلال  
هذه التجمعات وهو يوافق هذه في رشاقة ويقبل يد تلك ، ولكن كل ذلك كان  
في لون من العزلة الحزينة كتلك التي يعيشها ملك في المنفى يشعر بالضيق أو القلق  
قليلا إذ يجد نفسه في صحبة مثل هذه . والمنفيون المملكون قد عاشوا واستمتعوا  
بحياتهم في وقت ما ، وأصبح لقاء نجم سينائي غاية ما تصبو إليه نفوسهم . ولم  
ينظر إليوت مطلقاً بعين الرضا إلى السلوك العصري مع العالمين في الحقل المسرحي  
بوصفهم من الشخصيات التي يلقاها في المجتمع الرفيع ، ولكن ممثلة متقاعد  
كانت قد شيدت لنفسها مقاماً فخماً في جواره تماماً ، وفتحت أبواب منزلها  
للوافدين . وجاء وزراء في الحكم ونبلاء يحملون لقب الدوق وسيدات عظيمات  
لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في ضيافتها . وأصبح إليوت زائراً مستديماً لها .

أخبرني : « طبعا أنهم أخلاط من الناس ، ولكن ليس هناك ما يضطر  
الإنسان إلى التحدث إلى أناس لا يود هو الحديث إليهم . إنها مواطني وأشعر  
بأن واجبي يحتم علي مساءتها ، فلا بد أن ضيوفها يشعرون بالارتياح إذا  
ما وجدوا شخصا يتكلم لفهم . »

وكان يبدو في بعض الأحيان عليلاً جداً فكنت أسأل . لماذا لا ياخذ  
الأمور هوناً ما ؟

• يا صديقي العزيز ، لنتي في مثل سني لا يمكنني أن أتخلى عن مكاني لغيري ،  
فأنت لا تظن أني قد غشيت أرفع الدوائر ما يقرب من خمسين عاماً دون أن أتحقق  
من أني إذا لم أظهر في كل مكان فسرعان ما يفساني الناس ، ، .

لقد عجزت بما إذا كان قد تحقق إذن من الاعتراف المحزون الذي صرح به ولم  
تعدني الشجاعة لأضحك منه ، وبدلاً لي أنه شخص جدير بالشفقة العميقة ، فقد  
كأن المجتمع هو الغرض الذي يستهدفه ، والحفل هو النعمة التي يتنفسها . وكان  
ينظر إلى عدم دعوته إلى إحدى هذه الحفلات على أنه إهانة ، وإلى العزلة على أنها  
موت ، ولما كان قد أصبح شيخاً حينئذ فقد كان غائفاً .

هكذا انصرم الصيف وإليوت ينتقل من مكان في الريفيرا إلى آخر يتناول  
الغداء في كان ، والعشاء في مونت كارلو ، ويستخدم كل ما حباه الله من عبقرية  
وذكاء ليجد نفسه حفلة شاي هنا وحفل كوكتيل هناك ، ومهما كان يشعر  
بالتعب أو يعاني من نصب ، فقد كان يبذل جهده ليكون أنيساً لطيفاً ومحدثاً  
ومسلياً . كان يمينه من القيل والقال لا ينضب ، وبوسعك أن تثق من أنه على  
علم بتفاصيل آخر فضيحة قبل أي شخص آخر ، ماعدا الأطراف المعنية مباشرة .  
فاذا ما ألمت إليه بأن حياته قد غدت باطلة حلق فيك في زهول ودهشة ، وظن  
بك السوقية المحزنة .

## ( ٤ )

جاء الخريف وقرر إليوت الذهاب إلى باريس لفترة محدودة : لرؤية إيزابيل  
وجراي والطفلتين ، وكيف تسير الأمور معهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى  
ليقوم باثبات حضوره في العاصمة - كما كان يسميه - ومن ثمت كان يتسوى  
الذهاب إلى لندن ليوصي بصنع بعض الملابس الجديدة ، وبهذه المناسبة لكي يقابل  
( ٢٠٢ - حد الموصى )

بعض الأصدقاء القدامى ، أما خطاى فقد كانت الذهاب مباشرة إلى لندن ، ولكنه طلب منى أن أذهب فى سيارتى معه إلى باريس ، ولما كان ذلك أمراً محبباً إلى نفسى فقد نزلت عند رغبته وقبلت دعوته ، ولذلك لم أرسبياً بمنعنى من أن أقضى ، على الأقل ، بضعة أيام فى باريس - وقتنا برحلتنا فى مراحل سهلة هينة - وكنا نوقف فى بعض الأماكن حيث يكون الطعام جيداً . وكان لإليوت يشكو من كليته ، لا يشرب شيئاً سوى ماء فيشى ، والسبب فيه كان يصر دائماً على أن يختار لى نصف زجاجة النبيذ وكان سليم النية حسن الطوية ، فلم يغمطنى السرور الذى لم يتمكن من أن يتقاسمه معى . وكانت متعته الأصيلة فى أن يرانى أستمتع بالنبيذ الفاخر الجيد . وكان كريماً إلى حد جعل من الصعوبة على بمكان أن أغريه بالسباح لى بدفع نصيبى من النفقات . وعلى الرغم من أنى ضقت ذرعاً إلى حد ما بصحة من العظاماء الذين كان قد عرفهم فى الماضى فقد أحببت الرحلة . وكان معظم الريف الذى اخترقناه بسيارتنا جميلاً جداً بعد أن لمست طلائع جمال فصل الخريف . ولما كنا قد تناولنا غداءنا فى فوتنبلو فإننا لم نصل إلى باريس إلا بعد الظهور . وأنزاتى إليوت عند الفندق المتواضع العتيق الذى أقيم فيه ثم ذهب هو إلى الريتز .

وكنا قد أخطارنا إيزابل بموعد وصولنا ، ولذا لم أدهش حين وجدت عجالة منها فى انتظارى ، ولكنى دهشت لمضمونها .

ه تفضل بالحضور فور تسلمك هذه العجالة ، فقد حدث أمر جليل . لا محضر العم إليوت معك . واستحلفك بالله أن محضر بأهوى ماوسعتك السرعة .

لست أقل حبا للاستطلاع من غيرى ، ولكن كان على أن أغتسل ، وأن أرتدى قيصاً ، ثم أخذت سيارة أجرة أذلتنى إلى الشقة فى شارع سانت غليوم وهناك أدخلت إلى حجرة الاستقبال ونهضت إيزابل واقفة .



« أين كنت طول ذلك الوقت ؟ لقد ظلت أنتظرك ساعات متصلة ، » .

وكانت الساعة الخامسة، وقبل أن أتمكن من الإجابة كان كبير الخدم قد أحضر أدوات الشاي . وكانت إيزابل ترقبه وهي مقبوضة اليدين نافذة الصبر . لم يكن بمقدورى أن أتصور ماذا عسى أن يكون الأمر .

« لقد وصلت لتوى ، فقد تمهلنا فى تناول غدائنا فى فوتتلو ، »

وقالت إيزابل : « يا إلهى ، ياله من لكأة بطىء . إنه يقود إلى الجنون ا ، »

وضع الرجل الصينية وعليها إبريق الشاي والسكرية والفناجيل على المائدة ، وفى حال من التعمد المثير حقاً راح يرتب حولها أطباق الخبز والزبد والحلوى والفطائر ، ثم خرج وأغلق الباب من خلفه .

« إن لارى سوف يتزوج من صوفى ماكدونالد ، » .

« ومن عساها أن تكون ؟ »

صاحت إيزابل وشرر الغضب يتطاير من عينيها : « لاتكن غيباً . إنها تلك الفاجرة الخمورة التى قابلناها فى المقهى القدر الذى أخذتنا إليه . لأأدرى لماذا قد أخذتنا لمكان . مثل ذلك . لقد امتعض جراى منه ، » .

قلت لها وأنا أتجاهل لومها الظالم لى : « هل تعنين صديقتك التى من شيكاغو؟ وكيف عرفت ذلك ؟ »

« وكيف تظان أنى قد عرفت ؟ لقد جاء بنفسه وأخبرنى بالأمس عصرأ . ولقد جن جنونى منذ ذلك الوقت ، » .

« تفضلى بالجلوس وقدمى لى قدها من الشاي ، وأخبرني بتفاصيل الموضوع .»

« تفضل .»

جلست خنف مائدة الشاي ، وراحت ترقبني وهي نائرة مهتاجة ، وأنا أصب  
لنفسى قدها من الشاي . ثم جلست مستريحاً في أريكة بجوار المدةأة .

لم نزه إلا قليلاً جداً في المدة الأخيرة ، منذ عودتنا من رينارد . إني أعنى  
أنه جاء إلى هنا لأيام قليلة ، واكنه لم يقم معنا . بل أقام في فندق . وقد اعتاد  
الزول إلى الشاطىء . واللعب مع الطفلةين وهما تجبانه حب الجنون . ولقد لعبنا  
الجولف في سانت بريك ، وسأل جراى ذات مرة عما إذا كان قدرأى صوفى ثانية ،

قال : « نعم ، لقد رأيتها عدة مرات ، .»

سألت : « لماذا ؟ »

قال : « إنها صديق قديم ، .»

قلت : « لو كنت في مكانك لما أضعت وقتى سدى معها . وحينئذ ابقسم وأنت  
تعرف كيف يتسم ، وكأنه ظن أننى قلت شيئاً مضحكاً ، على الرغم من أنه ليس  
مضحكاً مطلقاً .»

قال : « ولكنك لست أنا ، .»

« هزرت كتنو وغيرت مجرى الحديث . ولم أعر الأمر اهتماماً مرة أخرى .  
وبوسعك أن تصور فرعى عندما جاء إلى هنا وأخبرني أنهما سوف يتزوجان .»

قلت : « لا يمكنك بالارى . لا يمكنك .»

قال في هدوءه وكأنه يقول إنه سوف يتناول قدرآ آخر من البطاطس ، وأريدك أن تكوني لطيفة جداً معها يا إيزابيل . .

قلت ، إن هذا لاكثر مما أحتمل وأنت مجنون . فهي فاسدة ، فاسدة ، فاسدة .  
قاطعتها ، وما الذي يجعلك تظنين هذا الظن ؟ ،  
نظرت إلى إيزابيل بعينين يتطاير منهما الشرر .

، إنها مخمورة من الصباح إلى الليل ، وتسمح أى سوق يدأ لها ذلك ، :

، إن ذلك لا يرضى أنها فاسدة ، إذ يوجد عدد كبير من أكثر المواطنين احتراماً يحتمون الخمر ويسكرون ، ويمارسون كل تجارة خسنة ، وهذه عادات مبتذلة مثل قضم الأظافر ، ولكنى لا أعرف أنها أسوأ من ذلك . إنى أصف شخصاً بالسوء عندما يكذب ويفش ويقسو . ،

، إذا كنت ستتحاز إليها فداقتك ،

، كيف قابلها لارى ثانية ؟ ،

، وجد عنوانها في دليل التليفون . وذهب لمقابلتها . كانت مريضة ، ولا غرابة في ذلك وهي تعيش عيشتها تلك . أحضر لها الطبيب ومعرضة لتعني بشئونها ، وهكذا بدأت القصة . وهو يقول إنها قد أفلحت عن عادة شرب الخمر . إن هذا الأحمق المأفون يعتقد أنها قد برئت من علتها ،

، هل نسيت ما فعله لارى من أجل جراى ؟ لقد شفاه . ألم يشفه ؟ ،

، إن ذلك أمر مختلف ، فإن جراى أراد الشفاء قتاله ، أما هي فلا . .

، وكيف تعرفين ؟ ،

، لأنني أعرف النساء . فإن المرأة إذا تحطمت مثل ذلك التحطم قتل عليها

العفاء ، إذ لا يمكنها أن تصالح من شأنها وتعود إلى سابق عهدها . فإذا ما كانت صوفي سيئة كما هي الآن ، فما ذلك إلا لأنها كانت كذلك دائماً . هل تظن أنها سوف تخلس للارى ، طبعاً لا . فإن عاجلاً أو آجلاً سوف تتركه . إن الفدر في دمائها . إنها تريد وحشاً ، لأن الوحش وحده هو الذى يستثيرها ، وإنه الوحش هو الذى تنشده دائماً ، وسوف تذيب لارى حياة السعير ،

د أظن أن ذلك محتمل جداً ، ولكنى لا أدري ماذا يمكنك عمله في هذه الحال . إنه مقدم على ذلك وهو مفتوح العينين .  
د ليس بوسمى أن أفعل شيئاً ، ولكن بوسمك أن تفعل .  
د أفا ؟

د إن لارى يحبك ويصنى إلى ما تقول . إنك الشخص الوحيد الذى له عليه تأثير . وأنت تعرف الدنيا . إذهب إليه وقل له إنه ينبغي عليه ألا يرتكب حماقة كهذه . وقل له إن زواجاً كهذا سوف يحطم حياته ،

د إن كل ما هنالك هو أنه سوف يخبرنى أن ذلك أمر لا يضيئى ، وسوف يكون على حق فيما يقول ،

د ولكنك تحبه ، وعلى الأقل فأنت تهتم له ، فلا يمكنك أن تبتى ساكناً مكتوف اليدين وتتفرج عليه وهو يجعل من حياته مأزقاً للأمل في الخلاص منه .

د إن جراى أقدم أصدقائه وأصدقهم به ، وعلى الرغم من أننى أظن أن الحديث إليه لا يجدى قليلاً ، إلا أننى أرى أن جراى هو أفضل شخص يمكن أن يتحدث إليه في هذا الشأن ،

قالت نافذة الصبر : د آه ، جراى ا ،

د إنك تعلمين أن الأمر قد لا يكون سيئاً كما تصورين ، فقد عرفت شابين

أو ثلاثة : أحدهما في أسبانيا والآخرا في الشرق تزوجوا من بنات الهوى  
وجعلوا منهن زوجات صالحات جداً . فقد كن شكورات لأزواجهن لما وفروا  
لهن من أمان،:

« إنك تضجرتي ، فلا تظن أنني ضحيت بنفسى لأدع لارى يسقط فريسة في  
يدى خليعة »

« كيف ضحيت بنفسك ؟ »

« لقد تخليت عن لارى لسبب واحد ووحيد ، ألا وهو أنني لم أرد أن  
أكون حجر عثرة في سبيله »

« دعك من هذا القول يا إيزابل ، فانك تخليت عنه من أجل مائة مربعة  
ومعطف من فرو السمور » .

ما كدت ألفظ هذه الكلمات حتى تطاير طبتن من الخبز والزبد إلى رأسى .  
ولحسن الحظ الخالص أمسكت بالطبتن ، ولـكن الخبز والزبد تناثرا على أرض  
الحجرة . فنهضت وأعدت الطبق إلى مكانه على المائدة .

« ما كان عمك إايوت لبشكرك لو أنك كسرت أحد أطباقه التي من صنع  
كروان داربى ، فقد صنعت هذه الأطباق خاصة من أجل دوق دورست الثالث ،  
وهى أطباق تكاد لا تقدر بـشمن . »

قاطعتنى في خشونة : « التقط الخبز والزبد . »

قلت لها وأنا أعود إلى الجلوس على الأريكة : « التقطها بنفسك . »

فنهضت وهى مستحالة غضباً ، ثم جمعت القطع المعثرة :

«صاحت بصوت مرتفع في وحشية : « وتسمى نفسك جنتلماً؟ إنجليزية؟ »  
« لا ، فهذا هو الشيء الوحيد الذي لم أفعله في حياتي إطلاقاً . »  
« أخرج من هنا ولتذهب إلى جهنم ، فلا أريد أبداً أن أراك ثانية . إنني  
أمقت منظرك . »

« إنني آسف لذلك ، فرؤيتك تمنحني متعة وسروراً . هل قال لك أحد إن  
أنفك يشبه تماماً سيكي<sup>(١)</sup> (الروح الجمجمة) في متحف نابلي ، وهو أجمل عمل  
فني بصور الجبال العذرى الذي وجد على الأرض ، وإن ساقيك متناهيان في  
الإبداع ، فهما طويلتان ومتقتان ، وإن دهشتي لهما لا تنتهي ، لأنهما كاتتا  
ممتلئتين مكتزتين . وأنت صبية ، ولا يمكنني أن أتصور كيف نجحت في ذلك . »

« قالت غاضبة : « بفضل إرادتي الحديدية ونعمة الله علي . »

« ولكن يديك طبعاً هما أشد ملامحك فتنة وسحراً ، فهما نحيلتان جداً  
ورشيقتان جداً . »

« لقد كنت دائماً أشعر أنك تأخذ علي أنهما كبيرتان جداً . »

« ليس لمن كان في مثل طولك وقوامك . لقد كان يذهلني دائماً الرشاقة المتناهية  
التي تستعملين يديك بها ، وسواء أكان طبيمة فيك أم فذاً ، فما من إشارة تصدر  
عنك دون أن تخفي عليهما مزيداً من جمال . فهما كزهرتان في بعض الأحيان ،  
وكطائر من مخلقين في السماء أحياناً أخرى . وهما أكثر تعبيراً من أية كلمات يمكنك

---

(١) في الميثولوجية الإغريقية تشخص الروح في صورة عنقاء جيلة يحبها أيروس (كوبيد)

النطق بها . لإنهما شبيهتان بالأيدي التي رسمها الجريكو (١) في الصور الشخصية التي أبدعها ، وإني في الحقيقة حين أنظر إليهما أجد نفسى ميالا لتصديق قصة إليوت البعيدة عن كل احتمال ، ألا وهي أن أحد أسلافكم كان نبيلاً إسبانياً .

نظرت إلى غاضبة .

« عم تحدث ؟ هذا كلام أسمع لأول مرة . »

قصصت عليها حكاية الكونت دي لوريا ووصيفة شرف الملكة ماري التي انحدر من سلالتها النسائية إليوت ، والتي إليها يمتد نسبه . وفي الوقت نفسه كانت إيزابل تتأمل أصابعها الطويلة ، وأظافرها المنمقة المصبوغة بالطلاء ، في رضخاء .

قالت : « يجب على الإنسان أن يكون سنبل شخص ما . » ثم بضحكة قصيرة عاقلة — وهي تحدثني بنظرة خبيثة لا أثر فيها لغل أو حقد — أضافت قائلة :

« إنك نذل قذر ! »

« إنه لمن السهولة بمكان أن تتمتع المرأة إذا ما قلت الصدق وحده . »

قالت إيزابل : « تمر بي لحظات لا أكرهك قطعاً فيها . »

جاءت وجلست على الأريكة إلى جوارى . ووضعت ذراعها في ذراعى ، ومالت على لتقبلي . فأبهدت وجنتي عنها .

---

(١) دومينيكوس نيوكوبولوس ( ١٥١١ — ١٦١٤ ) ولد في كريت التي كانت تتبع قنصيا حينئذ ولكنها كانت مركزاً للحركة إحياء الفن البيزنطي .

قلت : « لا أريد أن تلتصخي وجهي بأحمر الشفاه . »

فهمت ضاحكة ويدها تدير وجهي نحوها ، وضغطت طبقة رقيقة من الطلاء فوق شفتي .

« الآن وقد فعلت ذلك ، فربما أردت أن تخبريني ما الذى تريدينه . »

« النصيحة ! »

« إنى شديد الرغبة فى إسداء النصيحة إليك ، و لكنى لا أظن أبدا أنك ستقبلينها ، إذ يوجد شيء واحد يمكنك عمله ، ألا وهو إنقاذ ما يمكن إنقاذه . »

تميزت من الغيظ ثانية ، وابتزعت ذراعها بعيداً عني ، ونهضت ، ثم ألقت بنفسها على مقعد فى الجانب الآخر من المدفأة .

« إن أقعد مكتوفة اليدين وأترك لارى يحطم نفسه . لن أترك وسيلة مانعه من زواج هذه الساقطة . »

« لن يكتب لك النجاح فى هذه الجولة ، فهو كما ترى - أسير عاطفة من أقوى العواطف التى تكمن فى القلب الإنسانى . »

« ألا تريد القول إنك تظن أنه يعشقها ؟ »

« لا . فإن ذلك يكون تافهاً إذا قورن بما أريد أن أقول . »

« حنا . »

« هل قرأت العهد الجديد ؟ »



« أظن ذلك ! »

« هل تذكرين كيف — أصعد (١) يسوع إلى البرية من الروح ليجرب من إبليس ، فبعد ما صام أربعين يوماً وأربعين ليلة جاع أخيراً ، فتقدم إليه الجرب وقال له : إن كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة تتحول خبزاً ، فأجاب ، وقال : مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، بل بكل كلمة تخرج من فم الله ، ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل ، وقال له : إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك ، فعلى أيديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك ، قال له يسوع : مكتوب أيضاً : لا تجرب الرب إلهك ، ثم أخذه إبليس أيضاً إلى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها . وقال : أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي ، حينئذ قال له يسوع : انهب يا شيطان ، لأنه مكتوب : للرب إلهك تسجد ، وإياه وحده تعبد . ثم تركه إبليس . هذه هي نهاية القصة كما يرويها في إنجيله تلميذ المسيح ، متى الصالح البسيط ، ولاكنها لم تكن النهاية فإن الشيطان كان ما كرأ ، وجاء إلى المسيح مرة أخرى وقال : إذا كنت تقبل الخبز والمار ، والجلد ، وإكليل شوك ، والموت على الصليب ، فسوف تخلس الجنس البشري ، لأنه لا يوجد إنسان يحمل أعظم من هذا : ان يضحى الإنسان حياته من أجل أصدقائه ، وسقط يسوع ، وضحك الشيطان حتى كاد ينفجر جنبا ، لأنه عرف الشر الذي يفعله الناس باسم مخلصهم ! »

نظرت إلى إيزابل نظرات مغيظة !

« من أين جئت بهذا ، بحق السماء ؟ »

---

(١) إنجيل متى — الإصحاح الرابع — ١ : ١١

« ماجئت به من أى مكان ولكنى أخرعه رهن الساعة ا ،

« أظن أن ذلك عته وكفر ؟ ،

« لقد أردت فقط أن أبين لك أن تضحية النفس عاطفة قوية ، ومسيطرة ، حتى إن الرغبة والجروح يتغنا لان بجانبها ، فهى تلف شخصيتها فى دوامة حتى تحطه فى أسى تأكيد لشخصيته ، والهدف لايمهم ، فقد يكون ذا قيمة وقد لا يكون ، فلا توجد خمر تسكر أكثر ، ولا حب يشظى (١) أشد ، ولا رذيلة تذل ، أنسكى من فضيلة تضحية النفس ، لحينما يضحي الإنسان بنفسه ، فهو يغدو فى هذه اللحظة أعظم من الوجود .

« قالت إيزابيل : « آه ، أذت تعنى المسيح ، إناك تضجر فى ا ،

لم أهرها التفاتاً ا

« كيف تظنين أن الإدراك أو الفطنة ستكون ذات تأثير على لارى وهو فى برائن سورة مثل تلك ؟ إنك لاتعلمين عما كان يبحث كل هذه السنين . وأنا أيضاً لأعرف ، ولكنى أشك فقط . فكل هذه السنين من الكد والسعى ، وكل هذه الخبرات التى اخترتها ، لاتساوى شيئاً إذا ما وضعت الآن فى كفة ميزان إزاء رغبته ، أو إنها أكثر من رغبة ، إنها الحاجة المأخوذة للمساخرة ليخطس روح امرأة ضلت كان قد عرفها وهى طفلة غريبة ساذجة . أظن أنك على صواب فهو يقوم بعمل لأمل فيه ولا رجاء منه ، وسوف يقاسى بحساسيته الحادة عذاب من حقت

(١) بكـو الهى ، شظايا

عليه اللعنة ، وسيبني عمل حياته . مهما يكن هذا العمل ، دون إنجاز . إن باريس السافل قتل آخيل (١) بأن أطلق عليه سهماً في عقبه . إن لارى في حاجة إلى لمسة من هذه القسوة التي يحتاج إليها القديس أيضا لكي يظفر بالهالة التي تجلله ،

قالت إيزابيل : « إني أحبه ، والله يعلم أني لأريد منه شيئاً ، ولا أنتظر منه شيئاً ، ولا يمكن لأحد أن يحب آخر ، دون أثره ، أكثر مما أحبه ، وسوف يغدو نعتاً جداً . »

وانخرمات في البكاء ، ولما كنت أظن أنه سيفيندها ، فقد تركتها تبكي ماشاء الله لها أن تبكي ، ورحمت أتلهى متراخياً بالفكرة التي ومضت في ذهني دون أن أتوقها ، فتلاعبت بها ، ولم أستطع إلا أن أخمن أن الشيطان وقد نظر إلى الحروب الضارية التي غاضتها المسيحية ، والعذاب والاضطهادات التي أنزلتها بالمسيحيين ، وكذلك الجور والكفر والتعصب ، يجب أن يتأمل ( الشيطان ) في حساب السزور والانتزاح . وحين يتذكر ( الشيطان ) أنه قد ألقى على نبي الإنسان حمل الإحساس بالخطيئة الذي أظلم جمال الليلة المتلألئة بضياء النجوم ، وألقى ظلاً مشثوماً على المسرات العابرة التي يستمتع بها العالم ، حينئذ يجب أن يفقه بضحكاته المكتومة ، كما يهمهم قائلًا : أعط الشيطان نصيبه .

وبعد لحظة وجيزة أخرجت إيزابيل منديلها من حقيبتها ومراة ، نظرت إلى نفسها وجففت بعناية أطراف عينيها .

قالت محتدة : « إنك عطوف لعين ، أأست كذلك ؟ »

---

٣ - بل إن غريفي مشترك في حرب ماروادة ولم يكن لأي سلاح تأثير عليه إلا في عقبه .

نظرت إليها متأملاً ، ولكنى لم أجب . ذرت المسحوق على وجهها وطلت شفيتها .

« لقد قلت لتوك إنك حدثت ماذا كان يستهدفه بعد كل هذه السنين . ماذا كنت تعنى ؟ »

« بوسى أن أحدهم فقط ، وأنت تعرفين أنى ربما كنت على خطأ تام فيما أحدهم . أظن أنه كان يبحث عن فلسفة ، أو ربما كان ينشد ديناً ، وقاعدة الحياة ترضى عقله وقلبه معاً . »

فكرت إيزابل في هذا القول لحظة ثم تهتت .  
« ألا تظن أنه من الغرابة بمكان أن تقى ريفياً من حى مارفن فى إمينوى ، يكون له مثل تلك الفكرة ؟ »

« ليس أغرب من لوثر بيربانك الذى ولد فى مزرعة فى ولاية ماساتشوستس قد استنبط برتقالة عالية من البذور ، أو أن هنرى فورد الذى ولد فى مزرعة فى ولاية ميشيجان قد اخترع أداة قتح المخلبات . »  
« ولكن هذه أشياء عملية . وذلك تقليد ماثور عن الأمريكين . ضحكت .

« وهل يمكن لشيء فى العالم أن يكون عملياً أكثر من تعلم وسيلة للحياة نعطه . الإنسان فرصة ليفيد منها أعظم فائدة ؟ »

أنت إيزابل بمركات تدل على الكلال والأعياء .

« وماذا تريد منى أن أعمل ؟ »

« لا تريد أن تفقدى لارى إلى الأبد . هل تريد أن ؟ »

هزت رأسها .

« أنت تعرفين قدر وفائه ، فإذا كنت لا تريد أن تكوني على صلة بزوجه فلن يريد أن يكون على صلة بك . فإذا كان عندك ذرة من العقل فعليك عقد أواصر الصداقة مع صوفي ، ولتُنسى الماضي ، وكوني لطيفة معها قدر طاقتك عندما تجبين ذلك . إنها على أهبة الزواج ، وأظن أنها ستشترى بعض الثياب ، فلماذا لا تعرضين عليها مساعدتها في شرائها ؟ أظن أنها سوف ترحب بهذا العرض لفورها ،

أصفت إيزابل إلى بعينين مضيقتين ، وبدا أنها تفكر فيما كنت أقول ، وظلت غارقة في تفكيرها لحظة ، ولكن لم يكن بوسعي أن أخمن ما الذي كان يطوف بخيالها ، ثم فاجأتني

« هل تدعوها إلى الغداء ؟ فإنه لارج لي هوناً ما أن أدعوها بعد الذي قلته للاربي بالأمس ،

« وهل تسلكين سلوكاً مرضياً إذا دعوتها ؟ ،  
فأجابت وقد ارتسمت على شفقتها أكثر ابتساماتها سحراً وأسراً . سأكون مثل ملك من نور . .

« سوف أحدد موعداً معها الآن ،  
كان التليفون في الحجرة ، وسرعان ما عثرت على رقم صوفي ، وبعد التأخير الذي اعتاده هؤلاء الذين يستخدمون التليفون الفرنسي ، وبعد أن تعلوا كيف يتحملونه في صبر ، تمكنت من الاتصال بها . وذكرت اسمي .

قلت : « لقد وصلت لتوي إلى باريس ونمي إلى أنك أنت ولاري سوف تتزوجان ، وأريد أن أرف إليكما تهنئتي وأرجو لكما كل سعادة » ثم حبست صرخة كادت تنطلق مني ، إذ أن إيزابل ، كانت واقفة بجواري ، قرصتني في

( سماعة ) ذراعى قرصة حقودة . هانى مقيم هنا لفترة قصيرة جداً ، ولى لأعجب بما  
إذا كنت مع لارى تفضلان بالجمى . لتناول الغداء . هى بعد غد فى مطعم الريفز  
ولقد دعوت جراى وإيزابل واليوت تملتون ،

، سأسال لارى فهو هنا الآن ، ثم تلت فترة صمت . ، نعم ، سوف نسعد  
بتلبية دعوتكم ،

وحددت ساعة ، وأبدت ملاحظة مهذبة ، ثم أعدت سماعه التليفون إلى  
الحامل ، وأريت فى عينى إيزابل تعبيراً أثار الشك فى نفسى ا

سألها : ، فيم تفكرين ؟ فانى لا أحب نظارتك تلك ا ،

، إنى آسفة . لقد ظننت أن تلك النظارة هى الشئ الوحيد الذى أحبه فى ا ،

، أليس لديك خطة قبيحة ندرينها ، ياإيزابل ؟ ،

فتحت عينها إلى أقصى اتساعها ؟

، أقسم لك أن ليس لدى ، فى الحقيقة والواقع أى متذوقة لأن أرى كيف  
تبدو صوفى وقد أصلحها لارى ، وكل ما أرجوه هو ألا تجىء إلى الريفز وقد  
غطت وجهها بقناع من الأصباغ . ،

( ٥ )

لم يكن بالحفل الصغير الذى أفته شائبة تعكر صفوه . وصل جراى وإيزابل  
أولاً ، ولارى وصوفى ما كدونا لد بعد هما بخمس دقائق . وقبلت إيزابل وصوفى  
كل منهما الأخرى بحرارة ، وهنأتها إيزابل وجراى على خطبتها ، وتكشفت  
لى النظارة الشاملة التى أحاطت إيزابل بها صوفى لتهويها ، ولقد ذعرت لها

لحين رأيته في تلك الحماة في رى دى لايب ، في أصباغها المقدعة وشعرها المصبوغ بالخصاب ، وهي ترتدى المعطف الأخضر الزاهى ، فعلى الرغم من أنها كانت تبدو فاضحة مشينة ، وكانت سكرى جداً ، إلا أنه كان بها شيء مشير وخطاب وإن كان دنيئاً . وكانت تبدو امرأة قنرة ، وتكبر لإزابل كثيراً ، وعلى الرغم من أنها كانت تصفرها بعام أو عامين . كانت ما تزال شاحخة الرأس حينئذ . ولكنها الآن ولا أرى لذلك سبباً — تبعث على الأسى والفجعة . كانت قد تركت شعرها يعود إلى لونه الطبيعي ، فبدت عليه السمة القنرة ، التي تكون للشعر إذا ما أصبغ ثم ترك لينمو . وباستثناء خط بالطلاء الأحمر على شفيتها لم تكن بها زينة أخرى . كانت بشرتها خشنة ، وتكسوها صفرة العلة . فتذكرت كيف كانوا يبدو خضرة عينها النضرة ، ولكنهما كاتنا حينئذ شاحبتين مغبرتين . كانت ترتدى ثوباً أحمر واضح أنه جديد ، وتلبس قبعة وحذاء ، وتحمل حقيبة تطابقه . ولا أدعى أنى علم ما يلبس السيدات ، ولكنى شعرت أنها كانت مشيرة ومتقنة جداً لهذه المناسبة . زينت صدرها برصيبة زاهية من الخلي المقلد ، مثل تلك التي نحصل عليها من شارع ريفولى ، فبدت بخسنة زرية المنظر بجانب إيزابل في ثوبها الأسود المريرى ، وقد أحاطت جيدها بقلادة من اللؤلؤ المهنّب ، ووضعت على رأسها قبعة أنيقة .

أمرت بإحضار الكوكيتيل ، ولكن لارى وصوفى رفضا الشراب . وحينئذ وصل إليوت ، وكان يعوق تقدمه في القاعة الكبيرة — على أية حال من الأحوال — كثرة من يصالحهم أو يقبل أيديهم ، كلما رأى شخصاً بعد آخر يعرفه . وسلك وكان الريتز بيته الخاص به ، وهو يؤكد لضيوفه سروره من أنهم تمكنوا من تلبية دعوته . لم تقل له شيئاً عن صوفى غير أنها فقدت زوجها وطفلها في حادث سيارة ، وأنها ستقترن بلارى الآن . وحين وصلنا أخيراً هناهما بالرة الفاتحة التي كان يتقما ، ودخلنا حجرة المائدة ، ولما كنا أربعة ( م ٢١ - حد الموصى )

رجال وامراتين فقد اجلسك إيزابل وصوفي متقابلتين إلى المائدة المستديرة ، وكانت صوفي بين جراي وبينى ، ولكن المائدة كانت صغيرة بحيث جعلت الحديث عاماً مشتركاً ، كنت قد طلبت الغذاء من قبل وجاء نادل النيذ حاملاً بطاقته .

قال إليوت : « أنت لاتعرف شيئاً عن النيذ ، يا صديق العزيز . أعطنى بطاقة النيذ يا ألبرت . وأخذ يقلب الصفحات ، « أنا لا أشرب شيئاً غير ماء خيشى ، ولكنى لا أطيق رؤية أناس يشربون نيذاً رديئاً . »

كان هو وألبرت نادل النيذ ، أصدقاؤه قدامى ، وبعد مناقشة حامية قرأيهما على النيذ الذى يجب أن أقدمه لضيوفى ، ثم اتجه إلى صوفي .

« وإلى أين ستذهبان لقضاء شهر العسل ، يا عزيزتى ؟ »

نظر إلى ثوبها نظارة سريعة ، وحركة إلى أعلى تكاد لاترى من حاجبيه ارتقى أنه قد كون رأياً ليس فى الهه .  
« سوف نذهب إلى اليونان ، »

قال لارى : « لقد ظلت أحاول الذهاب إلى هناك عشر سنوات ، ولكنى علم أية حال لم أفلح فى محاولتى ، »

قالت إيزابل متظاهرة بالحماسة : « لا بد وأن تكون جميلة راتحة فى هذا الفصل من السنة ، »

تذكرت كما تذكرت أن اليونان كانت المكان الذى اقترحه لارى ليأخذها إليه حين أرادها على الاقتران به ، وبدا أن الذهاب إلى اليونان فى شهر العسل كان فكرة راسخة فى ذهن لارى .

تعثر الحديث ، وكان من العسير على أن أدبر الأمر مالم تخف إيزابل لنجدتى ،



فقد كانت في أروع سلوكها . فكلما استبان أن الصمت سيرين علينا ، وأننى  
أشخذ قريحى بغية الوصول إلى شيء جديد تتحدث عنه ، رأيتها تبدد الصمت  
بثرثرة سهلة لينة . وكنت شكوراً مقراً بالجميل لها . أما صوفى فقدر أن تفوهت  
بكلمة ما لم يتحدث إليها أحد ، وحينئذ كان يبدو الحديث جهداً جهيداً عليها . لقد  
لقد زابتها روحها . ولو رأيتها لقلت إن شيئاً قد مات فيها ، وتساءلت عما إذا لم  
يكن لارى قد كلفها من الجهد ما فاق طاقتها . فاذا كان الأمر كما ظننت أنها  
تعاقر الخمر وتعاطى المخدرات ، فإن الحرمان المفاجيء قد مزق أعصابها ببدأ .  
وفى بعض الأحيان كنت أرى نظرة متبادلة بينهما . ففى نظره كنت أرى  
الحنان والتشجيع ، وفى نظرتها استغائة مفاجئة ومن المحتمل أن جراى بما  
أوتى من مزاج رقيق شعر بفطرته بما ظننت أنى قد رأيت . لأنه بدأ يخبرها  
كيف أن لارى قد شفاه من الصداح الذى أعجزه ، واستمر يقول إنه كان يعتمد  
عليه اعتماداً كبيراً وأنه مدين له بالكثير .

ووالى حديثه فقال : « والآن ، فانى خفيف الحركة كالبرغوث ، وحالما أتمكن  
من الحصول على وظيفة فسأعود إلى العمل . فلدى مشروعات كثيرة معدة فى  
وقت واحد ، وإنى آمل أن أحقق أحدهما قريباً . يا إلهى ! إنه لجميل أن أعود  
إلى الوطن مرة أخرى . »

كان جراى حسن النية ولكن ربما كان ما قاله غير ابقى جداً ، فانه كما  
حدثت ، كان يعنى أن لارى سيشفى صوفى من إدمانها المفرط فى الشراب بطريقة  
الإيحاء نفسها ، لأن ذلك ، كما فهمت ، كان ناجحاً مع جراى .

سأل إليوت : « هل توقفت نوبات صداعك تماماً الآن يا جراى ؟ »

« لم تصبى إحداها منذ ثلاثة أشهر مضت حتى الآن ، وإذا ما شعرت

باحداها في طريقها إلى رأسى فاني أمسك بتمويذتي فأصبح على خير ما يكون .  
وأخرج من جيبه العملة القديمة التي أعطاهما له لارى .

« لن أبيعها مقابل مليون دولار . »

فرضنا من غداثنا ، ثم قدمت القهوة . وجه نادل النيذ وسأل عما إذا كنا  
في حاجة إلى مشروبات . ورفضنا جميعا ما عدا جراى ، الذى أبدى رغبته في  
طلب البراندى .

وحين أحضر النادل الزجاجة أصر إليوت على النظر إليها

« نعم ، بوسى أن أوصى بتلك الخمر فلا ضرر يخشى منها ، »

سأل النادل : « هل أحضر زجاجة صغيرة لك ياسيدى ؟ »

« آسف ، فإنها محظورة على . »

وأخبره إليوت في إسهاب لا بأس به بما يعانى من كليته ، وبأن طبيبه حرم  
عليه شرب الخمر تحريماً باتاً .

« ولكن قطعة من شراب زوبروفسكا (١) لا ضرر فيها ألبتة على السيد ، ومن  
المعروف جيداً أنها مفيدة جداً للكليتين ، لقد وصلتنا أخيراً شحنة  
من بولندا . »

« هل ذلك حق ؟ إنه لمن الصعوبة بمكان الحصول عليها الآن ، دعنى ألقى  
نظرة على الزجاجة . »

---

( ١ ) الشراب القوي عند البولنديين .

وذهب نادل الخمر ، وهو رجل ذو شخصية (١) ، مبجل ، أحاط وقبته بسلسلة فضية طويلة ، ذهب ليحضر النبيذ ، وقال إليوت موضحاً إنها ( الفودكا ) البولندية ولكنها تتفوق عليها في كل صفاتها .

• لقد اعتدنا شربها في رادزويلز عندما كنت أقيم معهم ( البولنديين ) في موسم الصيد . . يجب أن تشاهد هؤلاء الأمراء البولنديين وهم يحقنونها . ولست أغالى في القول حين أقول لك إنهم يشربونها بالكأس الكبيرة دون أن تتحرك شعرة في رؤوسهم . إنهم كرام المحند ، طبعاً ، وهم الأرستقراطيون حتى أطراف أناملهم . ولا بد أن تجربها يا صوفي ، وأنت أيضاً ، يا إيزابل . إنها تجربة لا ينبغي أن تفوت أحداً . .

• أحضر نادل الخمر الزجاجية ، ورفض لاري وصوفي وأنا إغراء إليوت ، ولكن إيزابل قالت إنها تجربها ، فدهشت ، لأنها كانت مقلة جداً عادة في الشراب ، وكانت قد شربت من قبل قدحين من الكوكتيل ، وكأسين أو ثلاثاً من النبيذ ، وصب النادل كأساً من سائل أخضر شاحب ، ونشقت إيزابل :

• يا لها من رائحة جميلة !

صاح إليوت : • إنها رائحة جميلة حقاً ، إنها الأعشاب التي يضعونها فيها ، إنها تعطيه مذاقها الرقيق ، سأتناول قطرة لا كون نديماً لكم ، فلا يمكن أن يؤذي شربها مرة !

قالت إيزابل • إنها باذخة المذاق ؟ إنها تشبه لبن الأم ، وإن لم أذق في حياتي ما هو أحلى منها طعماً !

( ١ ) مبيب النظر وتتل الجثة معاً .

### رفع إايوت كأسه إلى شفتيه !

« إنها تعود بي إلى الأيام الخوالي من الماضي ! وأنتم الذين لم تقيموا مع آل زادزويلز (١) أبداً ، لا تعرفون ما الحياة ؟ لقد كانت الحياة طرازاً أسنى : إلا قطعاً ، كما تعرفون ، فلو عايشتم هؤلاء الناس لظننتم أنكم في العصور الوسطى ، كانت تنتظركم في المحطة مركبة ذات ستة جياد ، وهادى الجياد (٢) ، وفي أثناء تناول العشاء كان يقف ساق في زيه الخاص خلف كل طاعم ! »

واستمر في حديثه يصف بذخ البيت ، ونظامه ، وتأتق الحفلات ، وساورتنى الريبة ، وهي ريبة تظهر ألبا غير لائقة ، في أن كل القصة كانت تديرأ بين إايوت وبين نادل الخمر ليتيح هذا فرصة لإايوت ليشبع رغبته في الحديث عن عظمة هذه الأسرة الأرستقراطية ، والجمع الكبير من الأرستقراطيين البولنديين الذين يخالطهم في قصورهم ، لم يكن هناك مجال للحيلولة دونه وما أراد !

« هل ترغبين في كأس أخرى ، يا إيزابل ؟ »

« لا أجتريء ، وإن كانت ممتازة جداً ! إني سميدة جداً لمعرفتي بها ، ويجب علينا أن نحصل على بعض منها . »

« سأمر بإرسال بعض منها إليكم في شقتكم . »

صاحت إيزابل في حماس : « يا عمه إايوت ، هل سترسل لنا حقاً ؟ إنك عطوف جداً علينا . يجب أن تجربها ، يا جراي . إن رائحتها تشبه رائحة

---

( ١ ) الامراء البولنديون

( ٢ ) سائس يركب أقرب جواد لمركبة يجرها عدة من الجياد .

قت (١) حصد حديثاً ، أو شذى زهر الربيع ، من الصعتر والخزامى ، وهي واح  
خفيفة الروح على الذوق ، ومرمحة للغاية ، إنها تشبه عزف الموسيقى في  
ضوء القمر .

« لم يكن من شيم إيزابل أن تنفجر بالحديث المتطرف هكذا . ففجبت بما  
إذا لم تكن قد نمت قليلاً . انفرط عقد الجماعة وصاغت صوفى .

وسألتها : « متى ستزوجين ؟ »

« في الأسبوع الذي سيلي الأسبوع القادم ؛ وإنى آمل أن تحضر الزفاف . »

أخشى ألا أكون في باريس آتئذ ، فإني سأرحل إلى لندن غداً . »

وبينما كنت أودع بقية الضيوف اتحت إيزابل بصوفى جانباً وتحدثت إليها  
برهة قصيرة ، ثم اتجهت إلى جراى :

« جراى ، لست ذاهبة إلى البيت الآن إذ يوجد عرض أزياء في بيعة  
مولينكس وسأصحب صوفى إليه ، إذ يجب عليها مشاهدة الأزياء الجديدة . »

قالت صوفى : « إنى أحب ذلك . »

اقتربنا ، وأخذت سوزان روفير إلى العشاء في تلك الليلة ، وفي صباح اليوم  
التالى شخصت إلى لندن .

( ٦ )

وصل إليوت إلى فندق كلاريدج بعد أسبوعين ، وبعد مدة قصيرة ذهبت

---

( ١ ) البرسيم أو القريس

لزيارته . وكان قد أوصى بحياكة عدة حبل له ، وفي حديث ظننته مستهياً إلى حد ما ،  
عما قد أتتني ، وعن سبب هذا الالتقاء ، وعندما استطعت أن أقول كلمة سألته  
: كيف جرى الزفاف ؟ . .

أجاب عابسا : إن الزفاف لم يتم . .

• ماذا تعني ؟

• لقد اختفت صوفي قبل موعد إتمام الزواج بثلاثة أيام ، ويبحث لاري في كل  
مكان عنها .

• يا له من حدث غارق للعادة ! هل حدث صخب بينها ؟

• لا إن الأمر أبعد مما يكون عن ذلك . لقد رتب كل شيء ، وكنت سأقدم  
لها هدية ، وكاناسياً أخذان قطارا كبيرا إلى كبرى الشرق فور انتهاء مراسم الزواج ، وإذا  
سألتني رأيي فإن لاري لا يدلّه في الموضوع . .

حدثت أن إيزابل قد أخبرت إليوت كل شيء .

• سألت : ما الذي حدث بالضبط ؟

• حسناً ، إنك تذكر ذلك اليوم الذي تناولنا فيه غداءنا في مطعم الريتز معك ،  
لقد أخذتها إيزابل إلى بيت مولينيكس للأزياء . هل تذكر الثوب الذي كانت  
ترتديه صوفي ؟ لقد كان مدعاة للحزن والأسى . هل لاحظت الكتفين ؟ فهكذا  
يمكنك الحكم بما إذا كان الثوب جيد الصنع بالصورة التي يتناسب فيها مع الكتفين  
وهي طبعاً فتاة خاوية الوفاض فلم يكن بمقدورها أن تدفع الأثمان التي يطلبها بيت  
مولينيكس للأزياء وإيزابل — وأنت تعرف مقدار كرمها . كما أنهما يعرفان

بعضهما بعضاً منذ كانتا طفلتين — قدمت (إيزابل) إليها ثوباً حتى يكون لها في زفافها ، على الأقل ، شيء لائق محترم تزوج فيه . وكان من الطبيعي أنها تلقفته . حسناً ولكي لأطيل الحديث ، فقد طالبت منها إيزابل الحضور ذات يوم في الساعة الثالثة حتى يمكنهما أن يذهبا معاً من أجل عملية الملامة النهائية . ولقد وصلت صوفي في الموعد المضروب ولكن لسوء الحظ كان على إيزابل أن تأخذ إحدى الطفلتين إلى طبيب الأسنان ، ولم تعد إلا بعد أن جاوزت الساعة الرابعة وكانت صوفي قد انصرفت . وظننت إيزابل أن صوفي قد ملت الانتظار وذهبت بمفردها إلى بيت مولينيكس ولذا فقد ذهبت فوراً إلى هناك ولكنها لم تكن قد ذهبت . وأخيراً ينست من العثور عليها وعادت إلى المنزل ثانية . كانوا قد أعدوا العدة ليتناولوا جميعاً العشاء في الخارج ووصل لاري في وقت العشاء وكان أول سؤال وجهته إليه هو : « أين صوفي ؟ » .

« لم يكن بوسعهم أن يفهم جلية الأمر ، واتصل هاتفياً بشقتها ، ولكنه لم يتلق رداً ، ولذا قال إنه سيذهب إلى هناك . وانتظروا ما وسعهم الانتظار ولكن لم يظهر أحد منهما ، ولذا فقد تناولوا العشاء وحدهما . وأنت تعرف . طبعاً . فإذا كانت عليه حياة صوفي قبل أن تلقاها مصادفة في رى دى لاب ، لقد كانت فكرتك في أن تأخذهم إلى هناك غير موفقة على الإطلاق . حسناً ، لقد قضى لاري طوال ليله في الذهاب إلى الأماكن التي اعتادت التردد عليها . ولكنه لم يعثر لها على أثر في أي منها . وذهب إلى الشقة مرة ثلثي ، ولكن حارسة الباب قالت إنها لم تأت . وقضى ثلاثة أيام في البحث عنها ، لقد اختفت تماماً ثم ذهب في اليوم الرابع إلى الشقة ثانية ، فأخبرته الحارسة بأنها قد حضرت إلى الشقة ، وحومت حقيبتها ، وذهبت إلى حال سبيلها في سيارة أجرة ،

« هل ارتبك لاري كثيراً لذلك ؟ »

« لم أره . وأخبرتني إيزابيل أنه ارتبك إلى حد ما ،  
« ألم تكتب لكم ، أو تعمل أي شيء من هذا القبيل ؟ ،  
« كلا . . »

ظننت أن الأمر قد انتهى .

قلت : « وما الذي تفهمه من ذلك ؟ »

« يا صديقي العزيز إنني أفهم من ذلك ما تفهمه أنت تماماً ، إنها لم تستطع  
الامتناع عن الخمر وعادت إلى الشراب ثانية . »

كان ذلك واضحاً ؛ ولكنه على الرغم من ذلك غريب ، فلم يكن بوسعي أن  
أدرك السبب للذي من أجله اختارت ذلك الوقت نفسه لتختفي .  
« وما موقف إيزابيل من الأمر ؟ »

« إنها آسفة بالطبع ، ولكنها فتاة واعية مدركة . ولقد أخبرتني أنها كانت  
دائماً تظن أن زواج لاري من امرأة مثل هذه كارثة . . »

« وما موقف لاري ؟ »

« لقد حنت إيزابيل عليه كثيراً ، وهي تقول إن ما يجعل الأمر عسيراً أنه  
لا يقبل نقاشاً فيه ، وسوف يندو بخير ، فدعنا نعرف ، تقول إيزابيل إنه لم يكن  
يهوى صوفي قط في يوم من الأيام ، وأنه كان سيتمزوجها بدافع من الفروسية  
الضليلة وحدها . . »

ولقد رأيت إيزابيل تواجه تطور الموقف بشجاعة جعلتها راضية كل  
الرضا ، وعرفت جيداً أنها حين تقابلني ثانية إن يفوتها أن تقول لي إنها كاذبة-  
قد عرفت ما حدث فعلاً .



ولكن ما يقرب من العام مضى قبل أن ألقاها مرة أخرى . وعلى الرغم من أنه كان بوسعي ذلك الوقت أن أخبرها طرفاً من أبناء صوفي يحفزها على التفكير ، فإن الظروف لم تكن مواتية ، فلم أجد من نفسى ميلاً لذلك . وأقت في لندن حتى عيد الميلاد تقريباً ، وحينئذ ، وقد داعبتى الرغبة في العودة إلى بيتي ، شخصت مباشرة إلى الريفييرا دون التوقف في باريس ، وعكف على كتابة رواية طويلة ، وعشت الشهور القليلة التالية في عزلة . وكنت أرى إليوت بين الفينة والفينة . وكان واضحاً أن صحته آخذة في التدهور . ولقد آلمنى أنه — على الرغم من ذلك — كان يصر على أن يحيا الحياة الاجتماعية . ولقد غضب منى لأنى لم أقدم سيارتى بسرعة ثلاثين ميلاً في الساعة لأذهب إلى المآدب المستمرة التي يقيمها . وكان يعتبر مكثي في البيت للعمل غروراً منى .

أخبرنى : « إنه لموسم وضاء على غير المألوف . يا صديقي العزيز . وإنما لجريمة لا تقتصر أن تبيع في عمر دارك ، وتوصد دونك الأبواب ، وتحرم نفسك متعة كل ما يجري الآن . أما لماذا تلزم نفسك باختيار جزء معين من الريفييرا تعيش فيه — وهو مكان قد عفا على طرازه الزمن — فلن يسعنى أن أفهم ذلك السبب ولو عشت مائة عام . »

لقد كان واضحاً أن المسكين إليوت الظريف لن يعمر مثل ذلك العمر .

وعندما قارب شهر يونيو نهايته كنت قد أنجزت مسودة روايتي الطويلة . ورأيت أتى أستحق إجازة ، فخرمت حقيبة وأقلتنا سفينة ذات محرك واحد كنا قد اعتدنا الاستحمام من على ظهرها في الصيف في خليج فوش — وأقلعت السفينة بمحاذاة الشاطئ . ميممة شطر مرسيليا . كانت نسائم الصيف تهب في فترات متقطعة لحب ، وكان علينا في معظم الوقت ، أن نستخدم المحرك الاحتياطي لنخرج عباب البحر . وقضينا ليلة في مرافأ كان ، وليلة أخرى في سانت ماكسيم .

وليلة ثالثة في ساتارى ثم وصلنا إلى طولون . وكنت دائماً أحمل الحب لهذا الثغر : فوجود الأسطول الفرنسى به يضئ عليه جواً رومانسياً ترتاح إليه النفس ، ولم أكن آمل الجولان خلال شوارعها القديمة . فبوسعى أن أتوقف ساعات على الرصيف ، أرقب البحارة على الشاطئ . وهم يغادرون المرءة أزواجاً ، أو برقعة صويجاتهم ، أو المدنيين الذين يطوفون ذهاباً وإياباً وكأنهم لا هم لهم في الدنيا غير أن يستمتعوا بأشعة الشمس السارة . وبسبب كل هذه السفن والزوارق النهرية التي تحمل الجماهير الكثيرة المحركة والضوضاء إلى أماكن مختلفة من الميناء الواسع ، بسبب ذلك كله تلتق طولون في روعك أنها محطة تنهى إليها جميع طرق العالم الفسيح ، وإذا جلست في مقهى بهر بصرك قليلاً تلالو البحر والسماء ، وذهب خيالك برحلات ذهبية يطوف إلى أقصى أطراف الأرض فترسو في القارب الأكبر على شاطئ مرجاني مطرز بأشجار جوز الهند ، في المحيط الهادى ، وتهفز من قاربك على المحالة (١) إلى حوض السفن في رانجون وتركب الركشة (٢) ، وترقب من أعلى السفينة جماهير الزوج الصاخبة الكثيرة الإشارة والإيماءات ، إذ تسرع سفينتك إلى الرصيف في ميناء الأمير .

وصلنا متأخرين في الصباح وفي منتصف الأصيل هبطت إلى الشاطئ . وسرت على الرصيف ، وأنا أنظر إلى الحوانيت والناس الذين يمرون بي ، وإلى الجالسين تحت المظلات في المقاهى . ولجأة بصرت بصوفى ، وفي الوقت نفسه رأتهى ، فابتسمت ، وقالت : أهلاً . فتوقفت وصاغت لها . كانت وحيدة تجلس إلى منضدة صغيرة عليها كأس فارغة أمامها .

( ١ ) الصقالة

( ٢ ) كلمة معربة هي عجلة ركوب يجرها رجل وأصاها بالبانى .

قالت : « اجلس واشرب كأساً . »

قلت وأنا أتناول مقعداً : « اشربي كأساً معي . »

كانت ترتدي ( الجرسى ) (١) ذا الخطوط البيض والزرق الذي يلبيه البحارة الفرنسيون ، وسراويل حمراء زاهية ، وفي قدميها « صندل » أطلت من فتحاته أطراف قدميها الكبيرتين وقد صبغتها بالطلاء . لم تكن تضع قبعة على رأسها ، قصت شعرها قصيراً جداً ، وصففته في حلقات فبدأ ذهبياً باهتاً حتى كاد أن يكون فضياً . وأسرفت في الزينة كما كانت عليه عندما رأيناها مصادفة في رى دى لاب . كانت قد احتست كأساً أو اثنتين ، كما فهمت من الأطباق التي على المائدة ، ولكنها كانت واعية . ولم تبد أنها غير راضية عن لقائي .

سألت : « وكيف حال القوم جميعاً في باريس ؟ »

« أظن أنهم جميعاً على خير ، ما يكون ، فإني لم أر أحداً منهم منذ ذلك اليوم الذي تناولنا فيه الغداء معا في مطعم الريتز . »

نفخت سحابة عظيمة من الدخان من منخريها وأخذت تضحك .

« إنني لم أتزوج من لارى في النهاية . »

« أعرف ذلك ، ولكن ما السبب ؟ »

« يا عزيزي ، لقد رأيت أنني لست قادرة أن أكون معه كما كانت مرية

المجدلية (٢) مع يسوع المسيح . لا يا سيدي . »

« وما الذي جعلك تغيرين رأيك في اللحظة الأخيرة ؟ »

---

( ١ ) قميص صوف .

( ٢ ) امرأة ذات ماضٍ قابلت السيد المسيح فدفعت عنهما ماضيها كله وتبته مؤمنة ظاهراً .

نظرت إلى في استهزاء وهي تميل برأسها شاحخة في جراءة . وبصدرها الصغير وردفها الضامر . وفي تلك الثياب بدأت كولد شرير ، ولكن يجب على أن أعترف بأنها كانت إذ ذاك أكثر فتنة منها في ثوبها الأحمر ذي الطابع الكثيب والرشاقة للريفية ، الذي كانت ترتديه في آخر لقاء لنا . كانت أشعة الشمس قد لوحت وجهها وكانت رقبتها سمراء داكنة . وعلى الرغم من أن سمرة بشرتها جعلت الأحمر الذي على وجنتيها ، وسواد حاجبيها ، أكثر طفياًناً ، فإن تأثيرها ( السمرة ) في صورتها المستبدلة لم يكن يخلو من سحر وقتنه .

هل تريد مني أن أخبرك ؟ ،

أومات برأسي . وجاء النادل بالجمعة التي طلبتها لنفسي ، وبالبراندي وماء سلزور ١١١ لها . وأشعلت لفافة من أخرى كانت قد انتهت منها لفورها .

كان قد مضى على شهران لم أذق فيها طعم الشراب ، ولم أذخن فيهما أيضاً ، رأت نظرة الدهشة الباهتة في عيني وضحكك قائلة : « لاني لم أقصد السجائر ولكنني أعني الأفيون . وكانت حالي مريئة . وإنك لتعلم أني كنت إذا ما خلوت بنفسى أصرخ صرعات تمزق الفضاء حيث كنت أقيم ، مرددة : « ليس بمقدورى الاستمرار على هذه الحال ، ليس بمقدورى الاستمرار على هذه الحال . ولكن الال كانت تصبح أحسن من ذى قبل إذا ما كان لارى بجوارى ، ولكنها كانت تتحول إلى السعير إذا ما ابتعد عنى . »

كنت أنظر إليها ، وعندما ذكرت كلمة أفيون أمعنت فيها النظر بشدة أكثر ، فلاحظت إنسان عينيها المدبب كالدبوس والذي أظهر الآن أنها تدمن الأفيون — وكانت عيناها خضراوين إلى درجة مذهلة .

كانت إيزابيل قد قدمت إلى ثوب الزفاف وإني لأعجب بما حل به الآن . كان بلون الخوخ . وقد رتبنا الأمر بحيث أمر عليها ونذهب معاً إلى بيت مولينكس للأزياء . وإني لأقول ذلك من أجل إيزابيل ، إن مالاً تعرفه عن الثياب لا يستأهل المعرفة . فعندما ذهبت إلى شقتهم قال خادمهم لها اضطرت لأن تأخذ الطفلة جون إلى طبيب الأسنان وأنها قد تركت لي رسالة تقول إنها سوف تعود لفورها . فذهبت إلى حجره الجلوس كانت أدوات القهوة مازالت على المائدة وسألت الخادم عما إذا كان بالإمكان أن يجيئني بقدر منها ، فقد كانت القهوة الشيء الوحيد الذي يبقى على حياتي . وأجاب بأنه سيحضر لي بعضها ، وحمل الأقداح الفارغة وابتريق القهوة وانصرف . وترك زجاجة على الصينية فنظرت إليها ، وكانت تلك الخمر البولندية التي تحدثم عنها جميعاً في الريتز .

« زروفكا . إني أذكر أن إيبوت قد قال إنه بعث لي إيزابيل ببعض منها . »

« لقد تكلمت جميعاً بحماسة عن طيب رائحتها مما ملأني الفضول . فزعت السدادة ونشقت عبيرها . لقد كنتم على حق تماماً ، فقد كانت رائحتها طيبة جداً ، فأشعلت سيجارة وعاد الخادم بعد دقائق قليلة حاملاً القهوة ، وكانت جيدة أيضاً ، إن الناس يتحدثون كثيراً عن القهوة الفرنسية ، فلتكن لهم ، وأعطيت القهوة الأمريكية فهي الشيء الوحيد الذي أفتقده هنا ، ولكن قهوة إيزابيل كانت لا بأس بها ، وكنت أشعر بالملق ، وقد شعرت بالتحسن بعد أن تناوت قدرها منها ، ونظرت إلى تلك الزجاجات القائمة هناك ، لقد كانت إغواء فظيماً ، ولكنني قلت ، فلتذهب إلى جهنم ، فلن أفكر فيها ، « وأشعلت سيجارة أخرى ، ظننت أن إيزابيل قد تعود بين لحظة وأخرى ؛ ولكنها لم تعد ، وغدوت عصبية جداً ، فإني أمقت أن يبقيني أحد في الانتظار ولم يكن بالحجرة شيء أقرؤه وبدأت أجول في الحجرة وأشاهد

الصور ، ولكنى ظلت ألاحق هذه الزجاجة الملعونة بنظراتي وحينئذ فكرت في أن أسكب كأساً وأنظر إليها في القدرح . لقد كان لها لون جميل ، .

« أخضر باهت ، .

« هذا صواب . إنها ممتعة ولونها مثل رائحتها . إنها تشبه الخضرة التي نراها أحياناً في قلوب الوردة البيضاء . وأحسست برغبة قوية في أن أتبين ما إذا كان مذاقها كذلك ، وظننت أن مجرد تنوُّقها لن يؤذيني ، لم أعود سوى أن أتناول رشفة منها ، حينئذ سمعت صوتاً ، وظننت أن إيزابل قادمة واجترعتها حتى الثالثة . لأنني لم أرد أن تمسكني بسقطتي . ولكنها لم تكن إيزابل على أية حال ، يا لله ! لقد أشعرتني بتحسُّن ، ولم أستشعر مثل هذا الإحساس منذ أن توقفت عن معاقررة الخمر . وحقاً لقد شعرت بأن الحياة تدب في من جديد ، وأظن أنه لوجدت إيزابل في تلك اللحظة لتزوجت من لاري حينئذ . وإني لأعجب مما كانت ستسفر عنه الأحداث ، .

« ألم تحضر ؟ ،

« لا ، أنها لم تحضر ، لقد استشطت غضباً منها ، فن عسى كانت تظن بنفسها لتجملني أبقى في انتظارها مثل ذلك الوقت الطويل ؟ وحينئذ رأيت أن كأس اشرب ممتلئة ثانية . وأظن أنه لا بد أن أكون قد ملأتها دون تفكير أو وعي مني ، ولكن صدق ، أو لا تصدق ، انني لم أعرف أنني قد ملأتها . وبدأ لي أنه من الحماقة أن أصبها في الزجاجه ثانية ، فشربتها ، ولا يمكن إنكار أنها كانت لذينة . وشعرت أنني امرأة أخرى ، وشعرت كأنني أضحك ، ولم أشعر بمثل ذلك الإحساس منذ شهور . هل تذكر ذلك (السيبي) العجوز عندما قال إنه قد

رأى الناس في بولندا يشربونها في الأقداح الكبيرة دون أن يشعلوا ؟ حسناً ، لقد ظننت أن بوسعى أن أشرب قدر ما يشربه أى بولندى ، وليكن ما يكون . وهكذا أفرغت بثالة القهوة في المدفأة ، وملأت الكأس حتى فاضت . وحينئذ لأدرى تماماً ما الذى حدث ، ولكن لأعتقد أن قدرأ كبيراً قد تبقّى بالرجاحة في اللحظة التى أفرغت فيها كأسى الأخيرة . وحينئذ رأيت أن من الأفضل لى أن أغادر المكان قبل أن تعود إيزابيل . كادت أن تمسك بى متلبسة بفعلتى ، إذ حين خرجت من الباب الأمامى سمعت صوت جولى الصغيرة . لجريت بسرعة صاعدة السلم وانتظرت ريثما استقر المقام بهما في الشقة ، وحينئذ اندفعت هابطة السلم إلى الشارع ودلفت في داخل سيارة أجرة ، وأخبرت السائق أن يطلق لييارته العنان . وعندما سألتى إلى أى مكان أقصد ؛ انفجرت ضاحكة في وجهه . وشعرت أنى صاحبة ملايين . .

سألتها : « هل عدت إلى شقتك ؟ ، على الرغم من على أنها لم تعد .

« هل تظننى حقا . إلى ذلك الحد ؟ كنت أعرف أن لارى سوف يحضر ليبحث عنى ، فلم أجرؤ على الذهاب إلى أى مكان من الأماكن التى اعتدت ارتيادها ، ولذا ذهبت إلى خان حكيم ؛ فقد أدركت أن لارى لن يتمكن من العثور على هناك . وزيادة على ذلك فقد كنت أتخرق لتسخين الأفيون . .

« وماذا يكون خان حكيم هذا ؟ »

« خان حكيم . إن حكيماً بمقدوره أن يحصل لك على الأفيون في أى وقت تشاء إذا ما كان لك المال الوفير لتدفع الثمن غالباً . كان صديقاً حميماً لى ؛ وهو على استعداد لأن يحضر لك من تشاء ، وله ستة رجال يأترون بأمره في أى وقت شاء . أقت ثلاثة أيام هناك . وعوضت الزمن الذى فاتنى تماماً

(م ٢٢ — حد موسى)

ولكنك تعرف أني كنت فرقة ، ولم أكن أشعر بالأمن والطمأنينة في باريس ، كنت أخشى أن يعثر على لاري . وزيادة على ذلك لم يبق لي شيء من النقود إذ يجب على المرأة أن تستأجر مثل هؤلاء الرجال ، فخرجت وعدت إلى الشقة وقدت حارسه الباب مائة فرنك ، وأخبرتها أن تقول إذا ما جاء أحد بسأل عنى إنى قد رحلت . وحزمت متاعى وفى تلك الليلة ألقى القطار إلى طولون . ولم أشعر بالأمن والطمأنينة إلا بعد أن وصلت إلى هناك ،

« وهل أقت هنا منذ وصلت ؟ »

« وسوف أقيم هنا حيث يمكننى الحصول على كل ما أحتاج إليه من الأفيون ، فإن البحارة يحضرونه معهم من الشرق . وهو نوع جيد غير ذلك الخبث الذى يبيعونه في باريس . ولى حجرة فى فندق وأنت تعرف فندق البحارة والبحرية ، فإذا ما دخلت هناك ليلا وجدت الدهاليز تحتفل بدخانها .، راحت تنشق نفاساً شهوانية . « إنه ذكى وحاد الرائحة ، وليمكن فى عليك أنهم يدخنونه أيضا فى حجراتهم الخاصة . وأنه ييمت فيمن يدخنه شعوراً لطيفاً عجيباً . ولا يعبأ القوم هناك بمن تصحب معك . وفى الصباح يأتى من يدق على الأبواب ليوقظ البحارة ليعودوا إلى سفنهم ، وبذلك يوفرون علينا مشوة الاهتمام بذلك الأمر ، وحينئذ ، ومن غير تمييز فى مجرى الحديث ، لقد رأيت كتاباً من مؤلفاتك فى مخزن الكتب على رصيف الميناء ، فلو أتق عرفت أن سأقابلك لاشرية نسخة منه لتوقعها باسمك . »

« وكنت فى أثناء مرورى بالمكتبة توقفت لأستعرض واجهة الدكان ، فلفت نظرى بين الكتب الأخرى الجديدة ترجمة لإحدى رواياتى قد ظهرت حديثاً .

قلت : « لم يدر بخلقى أنها ستسرك كثيراً . »

« لا أعرف لماذا لا تسرنى ، فأنا أعرف القراءة كما تعلم ، »



« وأعتقد أنك تعرفين الكتابة أيضاً . »

لقد جئتي بنظارة عجيلى وراحت تضحك .

« إيه ! لقد اعتدت قرص الشعر وأنا صبية غريرة غضة الإهاب . وإني أظن أنه كان شعراً مريعاً جداً . ولكنى ظننته جيداً . أظن أن لارى أخبرك بذلك . ثم استأنت لحظة مترددة . إن الحياة سمير على أى وضع من الأوضاع . ولكن إذا ما كان فيها شيء من المتعة فالإنسان أحق أبه إذا لم يحصل عليها . وطوحت برأسها إلى الخلف فى تحد . « إذا اشتريت ذلك الكتاب فهل توقعه لى ؟ »

« إني راحل غداً . فإذا ما كنت ترغيبين فى الحصول عليه حقاً فأجىء إليك بنسخة وأتركها لك فى الفندق . »

« سوف يكون ذلك عظيماً . .. »

وحيث أن وصل إلى الرصيف زورق من زوارق البحرية واندفعت منه جمهرة من البحارة وشملتهم صوفى بنظارة .

لوححت يديها لواحد منهم وقالت لى : « سوف يكون هذا صديقى الليلة . »

« يمكنك أن تعطيه شرباً ثم تصرفين معه . فهو فى كورسيكى وغيسور كصديقنا القديم . »

جاء إلينا شاب ، وترتت قليلاً عند ما رآنى ، ولكنى أشرت إليه يدي ، فتقدم إلينا ووقف أمام المائدة . كان فى فارع القوام ، أكد اللون ، حليق اللحية جيداً ، وذا عيتين بهيتين سوداوين ، وأقف ألقى ، وشعر أسود قاتم لامع متموج . وكان يبدو أنه فى العشرين على أكثر تقدير . قدمتنى صوفى إليه بوصنى صديقاً أمريكياً لها منذ طفولتها .

« قالت لى : « اخرس ، ولكنه جميل . »

« إنك تفضلينهم قساة جفاة ، أليس كذلك ، ؟ »

« إن الأقسى هو الأفضل ، . »

« سوف يقطع أحدهم رقبتك في يوم من الأيام ، . »

ابتسمت مستهزئة وقالت « لن أعجب إذا ما وقع ذلك . وسوف يكون لي طريق الخلاص من الهامة التي أتمرغ فيها ، . »

قال البحار محمداً : « إني أتكلم الفرنسية ألا يوجد أحد يتكلمها ، ؟ »

رغمته صوفى بابتسامة تشوبها السخرية والاستهزاء . فقد كانت تتحدث الفرنسية الدارجة ، بطلاقة وبلهجة أمريكية قوية ، ولكن كان ذلك يضيق على التعبيرات المبتذلة البذيئة التي ألفت استعمالها بصفة عامة ، وقعا مضحكاً بحيث لم يكن في استطاعة من يسمعا إلا أن يضحك .

« لقد كنت أقول له إنك جميل ، ولكن ، لكي لا أخجل تواضعك ، كنت أقولها بالإنجليزية ، ثم خاطبتي ، « وإنه قوى وله عضلات الملائم ، هلم تحسبها ، أزال الإطراء تجهم البحار ، وبابتسامة البرور والانسراح تقي ذراعه فبرزت عضلاته ذات الرأسين . »

قال : « تحسبها ، تقدم وتحسبها ، . »

فتحسبتها وعبرت عن إعجابي الشديد ، وثرثرتنا لدقائق قليلة ودفعت ثمن الشراب ونهضت .

« يجب أن أذهب ، . »

« لقد كانت فرصة لطيفة أن رأيتك ، ولا تنس الكتاب ، . »

« لن أنسى ، . »

صالح كلاً منهما ومشيت على مهل ، وفي طريق توقفت عند المكتبة ،

واشترت الرواية وكتبت عليها اسم صوفي ومهرتها باسمي ، وحينئذ ، ولأن خاطرأ خطر لجأة يبالى . ولأني لم يكن يوسعى أن أفكر في أى شيء آخر ، كتبت البيت الأول من قصيدة الشاعر رونسارد(١) الصغيرة الجميلة وهي موجودة في كل المختارات الشعرية .

و تعالى يا حبيبة قلبي لنشاهد ما إذا كانت الوردة ... ،

تركب الرواية في الفندق ، وهو على رصيف الميناء وكثيراً ما أقت هناك ، لأنه عندما يوقظك البوق الذى يدعو البحارة ، الذين في إجازة ليلية ، للعودة إلى العمل ، فإن الشمس المشرقة المتسرولة بالضباب فوق صفحة الماء الساجى في الميناء تكسو السفن التى تبدو كالأطياف بغلالة من الجمال والحسن . وفى اليوم التالى أبحرنا إلى إكيس ، حيث كنت أبغى شراء بعض النبيذ ، ومن ثمة إلى مرسيليا لأبحر على ظهر سفينة أخرى كنت قد حجزت مكاناً عليها وبعد مرور أسبوع عدت إلى الوطن .

## (٧)

وجدت رسالة من يوسف ، غادم إليوت ، ينهى إلى فيها أن إليوت كان مريضاً وأنه يسره أن يرانى . ولنا قد ذهب في سيارتى في اليوم التالى إلى أقيب . وأخبرنى يوسف ، قبل أن يصعد بي إلى الطابق العلوى لمقابلة سيده ، أن إليوت قد أصابته نوبة من التسمم البولى ، وأن طبيبه كان يرى أن الحال خطيرة ، وأنه قد اجتاز هذه المرحلة بسلام ، وتحسنت صحته ، ولكن كانت كليته مصابته بالداء ، ومن المستحيل أن يبل من مرضه تماماً . كان يوسف قد أمضى أربعين عاماً في خدمة إليوت ، وكان وفياً له . وعلى الرغم من أن حاله كانت تدعو للأسى فقد كان

(١) شاعر فرنسى من القرن السادس عشر .

من المستحيل ألا تلاحظ الرضا الداخلى الذى ملأته به الكارثة فى المنزل ، وكان شأنه فى ذلك شأن كثير من أفراد طبقتة .

تهد وقال بالفرنسية : « هذا المسير المسكين . من الواضح أن له تهوساته ، ولكنه فى قرارة نفسه كان طيباً . وإن الإنسان إن عاجلاً أو آجلاً سوف يموت ، ، .

وكان يتحدث وكأن إليوت يلفظ أنفاسه الأخيرة .

قلت متجهماً : « لى لعل ثقة من أنه قد احتاط لمستقبلك ، يا يوسف ، ، .

قال حزينا : « يجب أن أأمل فى ذلك ، ، .

لقد ذهلت عندما أدخلنى يوسف فى حجرة النوم ، إذ رأيت إليوت نشيطاً جداً . كان شاحباً ، وبدا طاعناً فى السن ، ولكنه كان مرحاً . كان حليق اللحية ، وقد رجل شعر رأسه فى عناية وإتقان . كان يرتدى بيجامة زرقاء باهتة قدوشيت بالأحرف الأولى من اسمه ، يعلوها تاج الكونت ، وهذه الأحرف وهذا التاج قد طرزت ثانية ، ولكن بحجم أكبر ، على الملاة المنشورة على الفراش .  
وسألته عما يحسر به .

قال مرحاً : « على خير . أيرام تماماً . إنها وعكطارثة ، وسوف أغادر الفراش وأعود إلى سابق نشاطى فى مدى أيام قليلة ، فإنى قد دعوت الفرانديوك<sup>(١)</sup> ديمترى لتناول طعام الغذاء معى يوم السبت . ولقد أخبرت طبيبى بأنه لا بد من أن يردنى صحياً معافى فى ذلك الوقت بأى ثمن ، ، .

( ١ ) من ألقاب النبالة والصرف وينجى . فوق الدوق و الترتيب .

قضيت معه نصف ساعة . وفي طريقى إلى الخارج سألت يوسف أن يملق بالأمر إذا ما اتكس إليوت . ولقد كانت دهشتى عظيمة عند ما ذهبت بعد أسبوع لتناول الغداء مع أحد جيراني إذ وجدت إليوت هناك . وكان يبدو وكأنه الموت مجسداً وقد ارتدى ثياباً بمناسبة الحفل .

قلت له : « ما كان يجوز لك أن تغادر دارك ، يا إليوت ، » .

« ليه ، ما هذا الهرم ، يا صديقي العزيز ؟ إن فريدا في انتظار الأميرة ما قالدا . ولقد عرفت الأسرة الملكية الإيطالية منذ سنوات ، منذ كانت المرحومة لويزا في مركزها في روما ، ولا يمكننى ألا أكون عند حسن ظن فريدا المسكينة ، » .

لم أعرف ما إذا كنت امتدح روحه التي لا تقهر ، أم أرتى لحاله وهو في هذه السن ، وقد ألحت عليه علة مردية ، فما زال يحتفظ بحبه القوي للجمع . لم يكن بمقدور من رآه أن يظن أنه رجل مريض . وكأى مثل يحتضر ، وضع الطلاب والأصباغ على وجهه وراح يخطر على خشبة المسرح ، ونسى في ذلك الوقت آلامه وأوجاعه . فإن إليوت قد لعب دور رجل الحاشية المهدب بما عهد فيه من ثقة . كان محبوباً إلى أبعد حد . بولى اهتمامه . ويصانع كل جدير بذلك ؛ ويشيع حوله السرور في تهمك خبيث كان فيه البارع الحاذق . وأظن أنني لم أره قط يظهر موهبته الاجتماعية إلى حد أعظم مما فعل في تلك المناسبة . وعندما انصرفت نحوها الملكي (والرشاقة التي انحنى بها إليوت ، محاولاً أن يجمع بين الاحترام لمكاتها المعظمة وزعجاب الشيخ الهرم بامرأة مليحة ، كانت منظرأ جديراً بالمشاهدة) لم أدهش حين سمعت مضيفتنا تخبره أنه كان حياة الحفل وروحه النابضة .

وبعد أيام قليلة لازم إليوت فراشه ثانية . ومنعه طبيبه من مغادرة حجرته . فاستشاط غضباً لذلك .

« إنه لمن سوء الحظ ونحس الطالع أن يحدث لي ذلك في ذلك الوقت بالذات .  
فالموسم وضاء على الخصوص . »

تلى قائمة طويلة بأشخاص من ذوى المكاتة ممن كانوا يقضون الصيف على  
ساحل الريفييرا .

كنت أذهب لرؤيته كل ثلاثة أو أربعة أيام . وكان يلارم الفراش في بعض  
الأحيان . ولكنه في أحيان أخرى كان يستلني في مقعد طويل ( شيزلونج ) وقد  
ارتدى نشيراً (١) بهياً رائعاً — وكان يبدو أنه يملك منه عدداً لا ينفد ، لأنني  
لا أذكر أني رأيته في النشير نفسه مرتين . وفي إحدى هذه المناسبات ، وكان ذلك  
في مستهل شهر أغسطس ، وجدت إيوت هادناً على غير العادة . وأخبرني يوسف  
حين قادني إلى داخل البيت أن سيده بدأ أحسن قليلاً ، ولذا فقد دهشت عندما  
رأيتة عزوفاً فاتراً هكذا . حاولت أن أدخل عليه السرور بما يتردد على ساحل  
الريفييرا من قبل وقال استقيته من هناك ، ولكن كان من الواضح أنه لا يأبه  
لذلك . كانت بين عينيه عبوسة ضئيلة ، وتجهم في ملامحه . لم يهدأ فيه من قبل .

سألني على حين فجأة : « هل تذهب إلى الحفل الذي تقيمه إدنا نوفيال ؟ »

« لا ، طبعاً لا . »

« هل دعيتك ؟ »

« لقد دعت جميع من في الريفييرا . »

كانت الأميرة نوفيال أمريكية واسعة الثراء ، تزوجت من أمير روماني ،  
ولكنه لم يكن أميراً تافهاً مثل هؤلاء الذين في إيطاليا ، ولكنه كان رأس أسرة

(١) الروب دي شامبر

عظيمة ، وينحدر من سلالة حاكم أسس لنفسه ولاية في القرن السادس عشر . كانت في الستين من العمر ، أرملة ، ومنذ أن قام الحكم الفاشي طلبت مزيداً كبيراً من دخلها الأمريكى يليق بحياتها . تركت إيطاليا ، وبنت لنفسها ، وعلى ضيعة خلف كان ، فيلا على الطراز الفلورنسى . وجاءت من إيطاليا بالرخام لتبطن به جدران قاعات الاستقبال العظيمة ، وأحضرت من الخارج مصورين ليرسموا الأسقف فيها . وكانت صورها ومطربات التحف النحاسية جميلة جمالا نادراً . حتى إن إليوت ، على الرغم من أنه لم يكن يميل إلى الأثاث الإيطالى ، اضطر لأن يعلن أن أثاثها كان فاخراً . وكانت الحدائق جميلة ، وأحواض السباحة قد كلفت أموالاً طائلة . وكانت تصرف في حفلاتها إسرافاً بالغاً . فلم يجلس إلى مائدتها في يوم أقل من عشرين مدعوا . ولقد أعدت العدة لإقامة حفل راقص تنكرى عندما يكون القمر بدرأ في شهر أغسطس . وعلى الرغم من أن ثلاثة أسابيع كانت باقية على موعد إقامة هذا الحفل ، فلم يكن للناس على الريفييرا حديث سواه . كانت ستطلق الألعاب النارية ، وستحضر جوقة موسيقية ملونة من باريس . وكان الملوك المنفيون يقولون بعضهم للبعض الآخر بإعجاب حاسد إن الحفل سيكلفها أكثر مما يقيم أودم في عام .

قالوا : « إنه خليق بالإطراء . »

وقالوا : « إنه جنون . »

وقالوا : « إنه ذوق سقيم . »

وسألنى إليوت : « ماذا سترتدى ؟ »

« ولكنى قلت لك . يا إليوت ، إنى است ذاهباً . فلا أظنك تخال أنى

سأرتدى ثياباً تنكرية بعد أن بلغت هذا العمر . »

قال بصوت أبح : « إنها لم توجه إلى الدعوة بعد . »  
ونظر إلى بعينين حائرتين .

قلت بهدوء : « آه ، إنها ستدعوك . وربما كانت جميع الدعوات لا توجه إلى  
أصحابها بعد . »

تهدج صوته : « إنها لن تدعوني . وإنها لإهانة متعمدة . »  
« آه ؛ يا إيلوت . ليس بوسعي أن أصدق ذلك ، وإنى على يقين من أن ذلك  
كان سهواً . »  
« لست بالرجل الذى يفعله الناس . »

« على أية حال من الأحوال ، فإن اعتلال محتك سيحول بينك وبين النهاب . »  
« طبعاً ، يجب أن أذهب . إنه أعظم حفل يقام في هذا الموسم ، وإذا ما كنت  
أرقد على فراش الموت فسوف أمض من أجله . فان لدى حلة سلفي ، الكونت  
دى لوريا ، التى سأرتديها . »  
لم أدر ماذا أقول تماماً ، ولذا لنت بالصمت .

قال إيلوت على حين غرة : « كان بول بارتون هنا لزيارتى قبل أن تمض . »  
لا يمكننى أن أتوقع من القارىء أن يتذكر من هو هذا الرجل ، إذ أن من  
الواجب أن أعود بالذاكرة إلى الماضى لأرى أى اسم قد أعطيته .

كان بول بارتون هو الأمريكى الشاب الذى قدمه إيلوت فى مجتمع لندن ؛  
والذى أثار حقه بالتخلي عنه عندما لم يعد فى حاجة إليه . لقد تسلطت عليه  
الأضواء نوعاً ما مؤخراً ، أولاً لأنه تجنن بالجنسية البريطانية ، ثم لأنه تزوج



ابنة أحد أقطاب الصحافة الذي كان قد ارتفع إلى مرتبة اللوردات ، وكان من الواضح أنه بمذقه ومهارته من جانب ، وبالنفوذ الذي يظاهاه من جانب آخر سيبلغ شأناً عظيماً . ولقد أحفظ هذا إليوت .

« كلما استيقظت من نومي في الليل وسمعت صوت فأر يقرض إقرين الحائط قلت : « إنه بول بارتون يتسلق . ، وصدقني يا صديق العزيز ، أنه سوف يصل إلى مجلس اللوردات . وإني لأشكر الله وأحمده ، فلن أعيش حتى أرى ذلك .»

وسألت لاني عرفت كما عرف إليوت أيضا أن هذا الشاب لا يفعل شيئا دون مقابل — « ماذا يريد؟ »

قال إليوت مكشراً : « سأخبرك بماذا يريد . أراد أن يستعير حتى التي على طراز حلة الكونت دي لوريا .»

« يا لها من جرأة ! »

ألا تفهم ماذا يعني ذلك؟ إنه يعني أنه عرف أن إدنا لم توجه الدعوة إلى لحضور حفلها ، وأنها لن توجه هذه الدعوة . لقد دفعته إلى ما فعل ، وما كان لها أن تذهب إلى أي مكان بدوني . هذه السكبة المجوز . لقد أقت لها الحفلات ، وقد متهبا إلى كل شخص تعرفه الآن . إنها تعاشر سائق سيارتها الخاص معاشرة الأزواج ، ولقد عرفت ذلك طبعاً . إنه أمر فظيع ! وجلس في مكانه وأخبرني أنها أمرت بإضاءة كل الحديقة ، وأن الألعاب النارية سوف تطلق في السماء . وأنه يجب الألعاب النارية . وأخبرني أن إدنا قد ضاقت بمن يطلبون الدعوات

ذرعاً ، ولكنتها قد رفضت طلبهم جميعاً لأنها تريد لحفلها أن يكون وضاء لا مراً  
حقاً . وتحدث وكان دعوتي لهذا الحفل أمر مفروغ منه .  
« وهل ستعيده تلك الحلة ؟ »

« إني أفضل أن أراه ميتاً قد ذهب إلى جهنم أولاً . إني سأدفن فيها . »  
وراح إليوت وهو جالس في فراشه يتأرجح ذات الشمال وذات اليمين كامرأة  
حائرة يقول : « آه ، إنها لقسوة بالفة . إني أكرههم جميعاً . كانوا يسعدون  
كثيراً عندما وسعهم أن يطنطنوا لي وأنا أقيم لهم الولائم . ولكني الآن كهل  
مرريض ولا فائدة ترجى مني لهم . لم يعدني أكثر من عشرة أشخاص منذ وقفت  
في فراش المرض ، وطول هذا الأسبوع لم تصلني غير باقة ورد هزيلة واحدة .  
لقد فعلت كل شيء من أجلهم . أكلوا طعامي ، وشربوا نبيذى . وكنت أقضى  
لهم حاجاتهم ، واضطلعت بإقامة حفلاتهم لهم ، وبذلت كل مالى لمجاملتهم .  
وما الذى عاد على من كل ذلك ؟ لا شيء ، لا شيء . ليس يوجد واحد من بينهم  
يأبه بى عشت أو مت . ، وبدأ يبكى ، وتحدرت الدموع الغزيرة الكبيرة على  
خديه المجعدين . « كنت أتمنى من الله أنى لم أترك أمريكا قط . »

كان منظرأً محزناً أن ترى ذلك الشيخ الفانى ، والقبر فاخر فاه أمامه ، وهو  
يبكى كطفل لأنه لم يدع إلى حفل . كان منظرأً مفاجئاً . وفى الوقت نفسه يبعث  
فى النفس أسى لا يحتمل .

قلت : « لاتهم يا إليوت . فربما أمطرت السماء فى ليلة الحفل . وحال  
المطر دون إقامة . »

تشبث بكلماتى كما يتشبث الرجل الغريق الذى سمعنا عنه بالقشة ، وراح يقهقه  
خلال دمه المسفوك .

« ما فكرت في ذلك قط . واني لأضرح إلى الله ، كما لم أضرح إليه أبداً من قبل ، أن ينهر المطر مداراً ، وأنت على صواب بأنه سيحول دون إقامته . »

أفلحت في تحويل عقله الأحمق وجهة أخرى ، وتركته ، إن لم يكن مرحاً ، فلي الأقل هادئاً . ولكنني لم أكن راغباً في أن أترك الأمر يظل هكذا ، ولذا فإ وصلت إلى المنزل حتى اتصلت بآدانا نوفيالى تليفونيا . وبعد أن أخبرتها أنني سأذهب إلى كان في اليوم التالي ، سألتها عما إذا كان يمكنني تناول الغداء معها . وردت برسالة تنهى إلى فيها أنها ستسر لذلك ، ولكن سوف لا يكون هناك حفل . ومع ذلك حينما وصلت وجدت هناك عشرة أشخاص غيرها . لم تكن امرأة سيئة ، فقد كانت كريمة ومضيافة . وكان عيبتها الخطير هو لسانها الخفود السليط . لم يكن بقدرتها أن تحامى ذكر أشياء فظيعة عن أقرب أصدقائها إليها ، ولكنها كانت تفعل ذلك عن غباء وبلاهة . ولم تكن تعرف طريقة أخرى تتظرف بها . ولما كانت الألسن تتداول هولاتها ، فقد ساءت علاقاتها غالباً مع هؤلاء الذين كانوا موضع حقدما ، ولكنها كانت تقيم الحفلات الطيبة . ووجد غالبيتهم أن من الأفضل لهم بعد فترة من الزمن أن يغفروا لها . ولم أرد أن أعرض إليوت للنهاتة بسؤالها أن تدعوه إلى حفلها الصاحب . ولذا تريثت حتى أرى ماذا عسى أن يكون الموقف . كانت منفعة نائرة متحمسة لحفلها وجرى الحديث له في أثناء الغداء عنه فقط .

قلت عرضاً بقدر ما أمكنني : « إن إليوت بسره أن تتاح له الفرصة ليرتدى حلة فيليب الثاني التي عنده . »

قالت : « إنني لم أطلب منه الحضور . »

فأجبت مصطنعاً الدهشة : « ولماذا لم تفعل ؟ »

« ولماذا أفعل ؟ ولم تعد له أهمية اجتماعية بعد : وهو ثقيل زنيم ومروج فضائح . »

ولما كانت هذه الاتهامات التي ألصقتها به يمكن إلصاقها بها في صنف عادل أيضاً ، فقد رأت في سلوكها تجاوزاً وإسرافاً . وأنها كانت حمقاء .

أضافت قائلة : « وزيادة على ذلك فيأني أريد من بول أن يرتدى حلة لإليوت ، وسيبدو فيها رائعاً أيضاً ، .

لم أزد شيئاً على ما قلت ، ولكنني عقدت العزم على أن أحصل لإليوت المسكين على الدعوة التي يتلف عليها بطريقة أو بأخرى . صحبت إدنا ، بعد الغداء ، أصدقاءها إلى الحديقة ، وأتاح لي ذلك الفرصة التي كنت أتشوف إليها . فني إحدى المناسبات كنت قد أقت أياماً قلائل في البيت وعرفت نظامه . وحدثت أنه لا بد وأن يكون قد تبقى عدد من بطاقات الدعوة في حجرة أمينة الأسرار ، فدخلت إلى هناك على عجل ، بغية أن أدس إحداها في جيبي ، وأكتب عليها اسم إليوت ، ثم ألقى بها في صندوق البريد . فقد عرفت أن العلة ألحت به بحيث لا يمكنه من الذهاب إلى الحفل ، ولكنها ستعني له الكثير جداً عندما يقبلها . ولقد أجفلت متذهلاً عندما فتحت الباب لأجد كاتمة أسرار إدنا جالسة إلى مكتبها وكنت أتوقع أنها مازالت جالسة إلى مائدة الغداء . كانت امرأة إسكتلندية نصفاً تدعى الآنسة كيث . ذات شعر رملي ووجه منمش ، تضع منظاراً بأعلى أنفها ، وتبدو صارمة البكارة . ثبت إلى رشدي .

« إن سمو الأميرة قد صحبت الجماعة في جولة حول الحديقة ، ولذا فكرت في الجوى . إلى هنا لأدخن سيجارة معك ، .

« مرحباً معك ، .

كانت الآنسة كيث تحدث بنغمة تشبه ضجيج الآلة ، وإذا ما انغمست في مزاحها الجاد الرصين الذي كانت تحتفظ به لأجل أضيائها . ولقد كانت تسهب في هذا المزاح لتجعل ملاحظاتها بالغة الفكاهة ، ولكن إذا غمرت الضحك نظرت

إليه بدهشة متألمة وكأنها قد ظنت بك الجنون لأنك رأيت ما يضحك فيما قالت:

« إنى لا أدري ما إذا كنت واقفة على رأسى أم على عقبى ، .

ولما كنت أعلم أنى يمكننى الثقة بها ، فقد ذكرت الغرض من مجيئى فى

صراحة :

« لماذا لم توجه هذه البنت المعجوز الدعوة إلى مستر إليوت ؟ ،

سمعت الآنسة كيت للابتسامه بالظهور على وجهها الجهم .

« إنك تعرف ماهى . لقد انقلبت عليه وألفت اسمه من القائمة بنفسها . .

« إنه سيموت وشيكاً كما تعلمين . ولن يفادر فراشه ثانية . لقد جرح إغفاله

شعوره جرحاً بالفاً . .

« لو أراد أن يكون على صلوات قوية بالأميرة لكان أكثر حكمة وتغفلاً

بمحيث لا يخبر كل الناس بأنها عشيقه سائق سيارتها الخاص ، وهو الزوج والأب

ثلاثة أطفال . .

« وهل تفعل هى ذلك ؟ .

« نظرت إلى الآنسة كيت من فوق المنظار الذى يعلو أنفها .

« لقد عملت كاتمة أسرار مدى واحد وعشرين عاماً ، ياسيدى العزيز ، ولقد

كانت القاعدة التى سرت عليها أن أعتقد بأن جميع من يستخدمونى على طهارة

وقاء الثلج المتساقط من السماء . وإنى أصرف أنه عندما كانت إحدى من عملت

معهم تجمد نفسها قد سارت فى طريق الأمومة أشهر ، وصاحب الشرف النبيل

متغيب عن البيت يصيد الأسود فى أفريقيا منذ ستة أشهر . كان ضميمى يقع

تحت نير التجربة ، ولكنها كانت تقوم برحلة قصيرة باهظة التكاليف أيضاً ،

وهكذا ينتهى كل شيء بسلام ، وحيث كنت أنا وصاحبة الشرف النيل تنفس الصعداء . . .

« يا آنسة كيك ، إنى لم أحضر إلى هنا لأدخن سيجارة معك ، لقد جئت لأسرق بطاقة دعوة وأرسلها إلى مستر إليوت . . .

« لو أنك فعلت هذا لكان أمراً شائئاً منك . . .

« كوفى راضية طيبة ، يا آنسة كيك ، أعطيتى بطاقة ، فإنه إن يحضر ، وسوف تسعد الرجل العجوز المسكين ، وليس لديك ما يحفظك عليه . هل لديك شيء ؟ . . .

« لا ، ولقد كان دائماً مهذباً معى ، وهو سيد حق ، وإنى أقول ذلك من أجله وهو أكثر مما يمكنك أن تقوله عن معظم الناس الذين يجيئون هنا ويعلمون بطونهم على نفقة الأميرة . . .

إن جميع الأشخاص من ذوى المكاة يقربون إليهم أشخاصاً أدنى مكانة منهم يستمعون إليهم . وهؤلاء الأشياء يكونون عرضة للاحتقار الشديد ، وحينما لا يلقون المعاملة التى يظنون إنهم بها جديرون ، فإنهم — بالتليحات المحكمة اللسديد التى يوالون تكرارها — يسمون عقول ساداتهم ضد هؤلاء الذين أثاروا بغضهم ، ومن الحكمة أن تكون معهم على وئام ، وعرف إليوت هذا أكثر من أى شخص آخر ، وكان دائماً مستعداً بكلمات الصداقة والود يزوجها ، أو الابتسامات الرقيقة يمنحها لذوى القربى المساكين ، أو الخادمة العجوز ، أو كاتمة السر المدفون بها . وكنت دائماً على ثقة من أنه كان يتحادث أحاديث سارة مع

الآنه كيت وفي أعياد الميلاد لم يكن ينسى صناديق الشوكولاته يبعث بها إليها .  
أو المثبتة (١).

« هلى يا آنه كيت ، تشجى . »

ثبتت الآنه كيت المنظار أكثر من ذى قبل فوق أنفها البارز .

« إني على ثقة من أنك لا تريد مني أن أخون سيدتي ، يا مستر موم ، وزيادة  
على ذلك فإن البقرة العجوز سوف تطردني من خدمتها إذا ما اكتشفت أنني لم  
أطعمها . إن البطاقات في الأغلفة على المكتب ، وسأنظر من النافذة لأمدد ساقى  
اللتين أصابهما الشلل من الجلوس وقتاً طويلاً في وضع واحد ، ولكي أشاهد جمال  
المنظر أيضاً . وإن يدينني الله ولا الإنسان لما سيحدث عندما أدير ظهري . »

وعندما عادت الآنه كيت إلى مقعدها كانت البطاقة قد استقرت في جيبي .

قلت وقد مدت يدي : « لقد كانت فرصة جميلة أن أراك ، يا آنه كيت . ماذا  
ستردين في الحفلة التذكارية الراقصة ؟ » .

أجابت : « إني ابنة قسيس ، ياسيدي العزيز . وإني أترك هذه الحفلات للطبقات  
العليا ، وبعد أن أرى أن ممثلي صحيفتي الهراuld والميل قد تناولوا عشاءً فاخراً  
وشرّبوا زجاجة من الشمبانيا التي تلي الأحن منها ، فإن واجباتي تكون قد انتهت  
سألوذني حجرة نومي لأقرأ رواية بوليسية . »

---

(١) حفية يد السيدة

(٨)

وبعد مرور يومين ، عندما ذهبت لرؤية إليوت ، وجدته مشرق الوجه .  
قال : « انظر ! لقد تلقيت بطاقة دعوتي . لقد وصلت هذا الصباح . »  
أخرج البطاقة من تحت الوسادة وأرانيها .  
قلت : « إن الأمر كما أخبرتك . وأنت نرى أن لقبك يبدأ بالحرف «ت» (١)  
ومن الواضح أن كاتمة الأسرار قد وصلت إلى اسمك الآن . »  
« لما أجب على الدعوة بعد وسأقوم بذلك غداً . »  
استولى على الرعب لحظة من أجل ذلك .  
« هل تحب أن أقوم بالرد نيابة عنك ؟ وبوسعي أن ألقى به في صندوق البريد  
عندما أتركك . »  
« لا ، ولماذا تقوم بذلك العمل ، وأنا قادر تماماً على كتابة الرد على بطاقات  
دعوتي بنفسى ؟ »  
ومن حسن الحظ . تأكدت أن الآنسة كيث هي التي ستفرض الغلاف ، وسيكون  
هذا من الإدراك ما يحملها على مصادرتها .  
دق إليوت الجرس .  
« إنى أريد أن أريك حلقى . »  
« لا إخالك تنوى الذهاب ، يا إليوت ؟ »

---

(١) ت في العربية يقابل 'T' في الإنجليزية ويجيء ترتيبه العشرين في الحروف الأبجدية  
الإنجليزية .



طبعاً سأذهب فإنى لم أرتدها منذ أقيم حفل آل بومونت الراقص . . .  
جاء يوسف ملياً نداء الجرس ، وأخبره إليوت أن يحضر الحلة . كانت في صندوق كبير مسطح ملفوف في ورق مزخرف . وكان يوجد أيضاً جوزب طويل من الحرير الأبيض وأحبال من القماش المبطن بالقصب ، والموشى بالأطلس الأبيض وصدرة تلامه ، وعباءة وقباء مخضل (١) رعدى حول الرقبة ، وقلنسوة مسطحة ، وسلسلة ذهبية طويلة يتدلى منها وسام الحصلة الذهبية ، . . . وتعرفت عليها فهى نسخة من الرداء الفاخر الذى كان يرتديه فيليب الثانى فى الصورة التى رسمها له تيسيان (٢) والمحفوطة فى متحف برادو . ولما أخبرنى إليوت أنها كانت تشبه تماماً الحلة التى ارتداها الكونت دى لوريا فى حفل زفاف ملك أسبانيا بملكة إنجلترا ، لم أتمالك نفسى من التفكير بأنه كان يطلق العنان لخياله .

وفى صباح اليوم التالى ، عندما كنت أتناول طعام الإفطار ، استدعيت إلى التليفون . كان المتكلم يوسف ، الذى أراد أن ينهى إلى أن نوبة أخرى قد دهمت إليوت فى أثناء الليل ، وقد جاء الطبيب على عجل وأنه فى شك مما إذا كان سيعيش يومه . أرسلت فى طلب السيارة ، وانطلقت إلى أتيب ، ووجدت إليوت فاقد الوعى وكان قد رفض فى إصرار أن يكون له ممرضة ، ولكنى وجدت واحدة هناك ، استدعاهما الطبيب من المستشفى الإنجليزى الكائن بين نيس وبوليو ، وكان مسروراً لرؤيتها . خرجت وأبرقت لإيزابل . كانت مع جراى والطفلتين تقضى الصيف فى المصيف على شاطئ البحر القليل النفقات فى لا بول . كانت رحلة طويلة ، وكنت أبغى ألا يتكهنوا من الوصول إلى أتيب فى الموعد المناسب وباستثناء أخوى

(١) ماله شبه قرعة من الريش على رقبة

(٢) تيبانوفيل (١٨٨٧ - ١٤٧٦) أعظم المنصورين فى البندقية فى ذلك الوقت .

إيزابل اللذين لم يرهما لسنوات. كانت إيزابل قريبة إليوت الوحيدة على قيد الحياة. ولكن إرادة الحياة فيه كانت قوية ، وربما كانت عقاير الطبيب ذات أثر فعال عليه في أثناء اليوم الذي استرد فيه قوته واستعاد نشاطه فعلى الرغم من أنه كان محطماً فقد خلع برقع الحياء . وأدخل السرور على نفسه بسؤال الممرضة أسئلة معينة عن حياتها . ومكثت معه أغلب وقت الأصيل واليوم التالي . وعندما ذهبت لرؤيته ثانية وجدته على الرغم من ضعفه الشديد مرحباً إلى حد بعيد . ولم تسمح لي الممرضة بالمكث معه غير وقت قصير . وكان عدم وصول رد على برقيتي يقضى مضجعي . لأنى لما كنت لا أعرف عنوان إيزابل في لابل . فقد أرسلت البرقية إلى باريس . وكنت أخشى أن تكون صاحبة المنزل قد أهملت تحويلها إلى حيث أقامت إيزابل . ولم يصلنى رد إلا بعد مرور يومين تقول فيه إيزابل إنهم سوف يسافرون فوراً ؛ إذ أنه لسوء الحظ كان جرائى وإيزابل في رحلة بالسيارة في بريتانى . وكانا قد تسلمنا برقيتي لتوهما . وتصفححت دليل القطارات ورأيت أنهما لن يتمكننا من الوصول قبل مضي ست وثلاثين ساعة على الأقل .

وفي الصباح الباكر لليوم التالى استدعانى يوسف ثانية ليخبرني أن إليوت كان قد أمضى ليلة سيئة للغاية ، وأنه كان يسأل عنى . فأسرعت بالذهاب إليه . وعندما وصلت اتحنى يوسف بى جانباً .

قال لى : « إن المسيو سوف يفقر لى إذا ما تحدثت إليه فى موضوع دقيق محساس . » ثم أردف قائلاً : « لى حر الفكر . وأعتقد أن كل دين ما هو إلا مؤامرة من القساوسة للسيطرة على عقول الناس . ولكن المسيو يعرف من هنه للنساء . إن زوجى والوصيفة تصران على أن يتناول السيد المسكين الأسرار المقدسة الأخيرة ومن الواضح أن الوقت ضيق جداً . » ونظر لى والحجل يكاد

يفضره . . . وتبقى الحقيقة الثابتة . وإن يعرف الإنسان أبدأ . وربما كان الأفضل  
للإنسان إذا ما كان على وشك الموت أن يحسن علاقته بالكنيسة . . .

لقد فهمت دخيلته جيداً . فهما بدا الفرنييون أحرار الفكر فإن غالبيتهم ،  
عندما تأتي النهاية ، يفضلون أن يكونوا على وئام مع الدين الذي هو جوه من  
دماهم وعظامهم .

« وهل تريدني أن أقترح عليه ذلك ؟ »

« إذا ما تفضل المسيو بذلك . . . »

لم يكن ذلك عملاً محبباً إلى نفسي كثيراً ، ولكن على أية حال من الأحوال  
لقد كان إليوت لسنوات كثيرة كاثوليكياً وياً ، وكان من اللائق به أن يتواءم  
مع التزامات دينه . فصعدت إليه في حجرته . كان مستلقياً على ظهره ، متقلصاً  
وشاحباً ، ولكنه كان متهاكاً وعيه تماماً . طلبت من المعرصة أن تتركنا وحيدين .

قلت : « واخشى أن تكون مزهزهاً جداً يا إليوت . إني لأعجب . . . إني لأعجب  
بما إذا كنت ترغب في رؤية الكاهن ؟ »

نظر إلى برهة دون أن يجيب .

« هل تعني أن تقول إني سأموت ؟ »

« آه ، أأمل ألا يكون ذلك . ولكن من الأفضل أن تكون على الجانب

الآمن . . . »

« وإني أفهم ما تعني . . . »

« كان صامتاً . . . لأنه لفظيح أن تتخبر أحداً ما قد أخبرته توأ لإليوت .  
لم أتمكن من النظر إليه ، وجزرت على أن أجزي ، فقد خشيت أن أكون على

وشك البكاء . كنت جالساً على حافة الفراش ، مواجهاً له وقد مدت ذراعي  
لسانده .

رَبِّتْ عَلَيَّ يَدِي .

• لا تزجج ، يا صديقي العزيز ، فهذا مناط الشرف ، كما تعلم .

ضحكت ضحكات هستيرية .

• إنك لمخلوق مضحك ، بالليوت ،

• إن ذلك أفضل . والآن اتصل بالأسقف وقل له إنني أريد أن أودي  
إعترافي وأمسح بالزيت المقدس ، وإنني سأكون ممتناً إذا ما تفضل بإرسال القس  
شارل . فهو صديقي .

• لكن القس شارل وكيل الأسقف في الأبروشية ، وقد ورد اسمه في مناسبة  
ذكرتها من قبل . هبطت إلى الطابق السفلي واتصلت به اتفياً وتحدثت إلى  
الأسقف نفسه .

سأل : • هل الأمر عاجل ؟

• جداً .

• سأتولى الأمر حالا . .

وصل الطبيب وأخبرته بما فعلت . وصعد إلى الطابق الأعلى ليرى إليوت ،  
واتظرت في الطابق الأرضي في حجرة الطعام . إن المسافة من نيس إلى أتيب  
تستغرق عشرين دقيقة بالسيارة . وبعد مرور نصف ساعة أو أكثر قليلاً  
وصلت سيارة سيدان سوداء إلى الباب وجاءني الخادم يوسف .

قال بالفرنسية في اضطراب : « إنه الأسقف نفسه » . ثم أعادها بالإنجليزية  
« إنه الأسقف نفسه » .

نخرجت لاستقباله ، لم يكن مصحوباً كما دعت بوكيله لسبب أجهله كان يصحبه  
قصر شاب حمل علبة احتوت ، كما حدثت ، على الأدوات التي تستعمل في أثناء  
طقس منح الأسرار المقدسة . وتبعه سائق السيارة الخاص بحقيبة رثة سوداء  
صالحني الأسقف وقدم إلى رفيقه .

« كيف حال صديقنا المسكين ؟ »

« أظن أنه مريض جداً يا مونسيور (١) . »  
« هل تفضل بمرافقتنا إلى حجرة حيث يمكننا أن نرتدى ملابسنا الكهنوتية . »  
« إن حجرة الطعام في هذا الطابق ياسيدي المونسيور وحجرة الاستقبال  
في الطابق التالي ، . »

« ان حجرة الطعام مناسبة جداً ، . »

صحبته إليها ، وانتظرت يوسف في البهو . وبعد برهة قصيرة افتتح الباب  
وخرج الأسقف ، يتبعه القس يحمل في كائتا يديه الكأس تطورها صحفة صغيرة  
عليها رقاقة الخبز المقدس ، وكانت مغطاة بمنشفة من القميري (٢) الرقيق  
الدقيق وكانه شفاف . لم أكن قد رأيت الأسقف قط إلا في أثناء حفلات  
الغداء أو العشاء . ولقد كان أكر لا يستمتع بطعامه مع كوب من النبيذ الجيد .  
يروي القمص الساخرة وفي بعض الأحيان البذيئة ، في حماسة . بدالئ أنه رجل

(١) لب الأسقف

(٢) كلمة معربة ضرب من فائن أبيض ناعم من الكتان .

قوى صلبه ككتش الجسم متوسط الطول . والآن وهو يرتدى البطرشيل (ثوب الكاهن) ويتشح بالوشاح الكهنوتي ، لم يبد طويلاً فحسب بل مرتباً جليلاً ، كان وجهه الأحمر ، الذي يتغضن عادة بضحك حقود وعطوف أيضا ، صارماً جهماً ، لم يبق في صياحه شيء من ملاح الضابط الفارس الذي كانه في يوم ما . بدا كما كان هو حقاً ، صاحب مقام رفيع بين رجال الكنيسة . كدبت أذهل عندما رأيت يوسف يرسم على وجهه إشارة الصليب ، وأمسك الأسقف رأسه في انحناءة بسيطة .

قال : وخذني إلى حجرة الرجل المريض .

أفصحت له الطريق ليصمد الدرج أمامي ، ولكنه أمرني بالتقدم أمامه ، وصعدنا في صمت رهيب . ودخلت حجرة إيوت .  
لقد جاء الأسقف نفسه ، بالإيوت .

كافح إيوت لينفض ويجلس .

سأله لفرق عظيم ، ياسيدي المونسنيور ، لم أكن أطعم فيه .  
لا تحرك يا صديق . وأستدار الأسقف نحو المرضة ونحوى .  
ثم نحو القس ، سأدعوك عندما أكون مستعداً .

نظر القس حوله نظرة خاطفة ، وحدث أنه يبحث عن مكان يضع عليه كأس القديس فدفت جانبا الفرش المصنوعة ظهرها من أصداف السلاحف من فوق طاولة الزينة . وهبطت المرضة إلى الطابق السفلي ، وصحبت القس إلى الحجرة الملاصقة التي كان يستخدمها إيوت مكتباً . كانت النوافذ مفتوحة على السماء الزرقاء ، وعبر الحجرة ، ووقف بجانب إحداها . جلست . كان يجري سباق

خباووق ، وكانت أشرعتها تلع متألقة فى اللازوردى بلونها الأبيض الناصع ، وكانت سكوانة (١) سوداء الهيكل ، نثرت شراعها الأحمر ، تضرب فى اتجاه عضاد للهواء فأصدة الميناء . وتعرفت عليها ، كانت سفينة صيد السرطان البحرى ، عائدة بصيدها من جزيرة سردينيا لتزود عشاء المهرجان الذى تقيمه الكازينوهات بوجبة منه . ومن خلال الباب الموحد ، سمعت مهمة الأصوات المسكتومة . كان إليوت بدلى باعترافه . كنت فى حاجة شديدة إلى لفافة تبغ . ولكنى خفت أن يصدم القس إذا ما أشعلتها . وقف لايريم ، ولا يتحرك ، ولا تسمع له بكزاً ، ينظر إلى خارج . كان شاباً نحيلاً ، وكشف عن أرومته الإيطالية شعره الأسود الفاجم الأنيك المتموج ، وعيناه السوداوان الجيلتان ، وبشرته التى بلون الزيتون . كان فى منظره النار المنطلقة التى هى من شيات أهل الجنوب ، وتساءلت عن ذلك الدين الملح ، وتلك الرغبة الأكلة الملتببة التى حملته على نبد مياح الحياة وتمتع شبابه ، وإشباع حواسه ، لى يكرس نفسه لخدمة الله .

ولجأة نحدث الأصوات التى فى الحجر المجاورة ونظرت إلى الباب . الذى  
انفتح وظهر الأسقف .

قال للقسيس بالفرنسية : « تعال . »

بقيت وحيداً ، وسمعت صوت الأسقف ثانية ، وعرفت أنه كان يتلو الصلوات التى فرضت الكنيسة تلاوتها من أجل الذين يسلون الروح . ثم خيم الصوت مرة ثانية ، وعرفت أن إليوت كان يشارك فى التناول . ومن إحساس لا أعلم من أين ودرته ، وأظن أنه من أسلاف الأباعد ، فعلى الرغم من

(١) كلمة «مربة» — ضرب من السفن ذات شراعين و العادة .

أني لست كاثوليكياً ، فلا يمكنني حضور القداس من غير أن يستولي على خشوع  
عظيم حينما تملئي الرثة الصغيرة لجرس القس القائم بالخدمة برفع القربان المقدس ،  
وحيث ، ، ومشابهة لذلك فقد ارتعشت وكان ريحاً باردة قد سرت في جسدي ،  
لقد ارتعشت خوفاً وروعاً . . .

وانفتح الباب مرة أخرى ا

قال الأسقف : « يمكنك الدخول اذا أردت الآن . . »

دخلت ، وكان القس ينثر الفوط المصنوعة من القميري على الكأس والطبق  
المذهب الصغير الذي وضعت عليه الرقاقة المقدسة . ولعت عينا إايوت .

قال : « اصحب السيد المونسنيور الى سيارته . »

هبطنا الدرج ، وكان يوسف ، ومعه الخادماث منتظراً في البهو . وكانت  
الخادماث يتحين ، وكن ثلاثاً ؛ وتقدمن الواحدة تلو الأخرى ، وبعد أن ركنن  
قبلن خاتم الأسقف ، وباركن بأصبعين . أما يوسف فلكرته زوجته مسترعية  
نظرة فتقدم ، وركع على ركبتيه أيضاً وقبل الخاتم فابقم الأسقف ابتسامة خفيفة .

« هل أنت حر الفكر يا بني ؟ »

وتمكنت من رؤية يوسف وهو يجهد نفسه .

« نعم ياسيدي المونسنيور ا ، »

« لا تزعج فإن الله سوف يتغاضى عن أخطاء فمك ا ، »

خرجت معه الى الشارع ، وقتحت باب السيارة ، فانحنى لي وأغرق في الابتسام .  
وهو يدلّف إلى داخلها .



« إن حال صديقنا سيئة للغاية . كانت له قوائم وراكبها سطحية ، كان كريم القلب وباراً بأصدقائه ، »

( ٩ )

ولما كنت أعتقد أن إليوت يؤثر الوحدة بعد هذا الحفل الذي شارك فيه ، فقد صعدت إلى الطابق العلوي وبدأت القراءة ، ولكن ما كدت أستقر في مقعدي حتى بصرت بالمرضة داخلة لتخبرني أن إليوت يريد مقابلتي ، فصعدت الدرجات المؤدية إلى حجرتي . وسواء أكان يفعل جرعة أعطاها له الطبيب ليصينه على احتمال الحكم الإلهي الذي ينتظره أم كان بسبب ما بعثه فيه من سورة انفعال ، كان مرحاً في هدوء وكانت عيناه براقين .

قال : « إنه لشرف عظيم يا صديقي العزيز . سوف أدخل مملكة السماء بخطاب توصية من أمير الكنيسة ، وإنني أعتقد أن جميع الأبواب ستفتح أمامي . »  
ابتسمت قائلاً : « أخشى أن تجد رفاقك هناك أخلاقاً كثيرة جداً . »

« ألا تعرف ، يا صديقي العزيز ، من الكتاب المقدس أن في السماء تميز طبقات ، تماماً كما هنا على الأرض . فهناك الصرافيم والشاروبيم ، ورؤساء الملائكة ، والملائكة . ولقد عشت طوال حياتي في أرفع المجتمعات في أوروبا ، ولا يخامرني شك في أنني سأكون في أرفع مجتمع في السماء . لقد قال السيد المسيح . « في بيت أبي (١) منازل كثيرة .. وسيكون من غير اللائق إلى حد بعيد أن يسكن الله الدهماء بيوتاً لم يألفوها . »

(١) إنجيل يوحنا الإصحاح الرابع عشر - ٢ .

وأعتقد أن البيوت وأى المنازل السماوية في صورة قصر بارون من آل روتشيلد تكسو أفاريز حوائطه الأخشاب الثمينة من طراز القرن الثامن عشر وفيه موائد من طراز بوهل وخزائن بالماركترى ، وأطعم لويس الخامس عشر مكسوة بقماش أصيل ذى غرز دقيقة .

استمر قائلاً بعد وقفة قصيرة : ، صدقى ، يا صديق العزيز ، إن هذه المساواة اللعينة لن يكون لها وجود في السماء ، .

ولجأة راح في إغفاءة . وجلست وفي يدي كتاب . كان نومه متقطعاً . وفي الساعة الواحدة جاءت الممرضة إلى الحجرة لتخبرني أن يوسف قد أعد الغداء لي . كان قد استسلم للأمر الواقع .

، هل كنت تتصور أن السيد المونسينور نفسه يجيء إلى هنا . إنه لشرف عظيم أولاده هذا السيد المكين . هل رأيتني وأنا أقبل غائمه ؟ ،  
، رأيتك ،

، إنه لأمر لم أكن أفعله من تلقاء نفسى . لقد فعلته مرضاة لزوجى المسكينة ، قضيت العصر في حجرة البيوت . وفي هذه الأثناء وصلت برقية من إيزابل تنهى إلى فيها أنها هى وجرأى سوف يصلان بقطار ( بلوترين ) فى صباح اليوم التالى . ولم يكن عندى أمل كبير فى أن يصلا فى الموعد المحدد . جاء الطبيب وهز رأسه . وعندما قارب الغروب استيقظ البيوت وتمكن من تناول بعض الغداء . وبدأ أن ذلك أعطاه قوة مؤقتة .

أشار إلى وعبرت الحجرة إليه فى فراشه ، كان صوته خافتاً جداً : ،  
، لما أجب على دعوة إدنا ، .

، آه ، لا تلتقي بالك بهذا الآن ، يا البيوت ، .

« ولم لا ؟ لقد كنت دائماً رجل الدنيا ، وليس من سبب يدعوني لنسيان أخلاقي وأنا أرحل عنها . أين البطاقة ؟ »

كانت على إطار المدفأة . فوضعتها في يده ولكنني أشك فيما إذا كان قد رآها .  
« تجدد دفتر ورق الخطابات في مكنتي ، إذا تفضلت بإحضاره فيني أُملي عليك ردي . »

ذهبت إلى الحجرة المجاورة ، وعدت بأدوات الكتابة ، وجلست بجوار فراشه .  
« هل أنت مستعد ؟ »

« نعم . »

غمضت عيناه ، ولكن كانت ابتسامة حقود على شفتيه ، وعجبت : ماذا سينجيء بعد ؟

« إن مسرر تملتون يعتذر عن عدم تلبية دعوة الاميرة نوفيالى الرقيقة لارتباطه بموعد سابق مع الرب المبارك . »

ومضك ضحكة دينية مكتومة . وكان وجهه بلون أيمن مشوب بزرقة عجيبة ، وتبعك صفرة الموت التي عليه الرعب والفرح في النفس . وتجشأ تلك الرائحة الكريهة التي يختص بها مرضه . إنه إليوت المسكين الذي أحب أن يضحك نفسه بعطر شانل ونولينكس كان ما زال ممسكاً ببطاقة الدعوة المحتملة . ولما كنت أظن أنها أفلقت ، فقد حارت أن آخذها من يده ولكنه شد قبضته عليها ، وأفرغني أنه تحدث بضوت مرتفع جداً .  
قال : « الكلبة العجوز . »

كانت هذه آخر كلمات نطق بها ، وغاب في غيبوبة . كانت المعرضة قد ظلت

ساهرة معه طوال الليلة الماضية ، وبدأ عليها التعب الشديد ، فصرقتها إلى فراشها بعد أن وعدتها بأن أدهوها إذا ما اقتضت الضرورة ، وبأنى سأسهر بجواره . لم يكن يوجد ما أفعله حتماً . فأضأت مصباحاً ذا مظلة وظلمت أقرأ حتى كلت عيائى ، وحينئذ أطفأت المصباح ، وجلست فى الظلام . كان الليل دافئاً ، والنوافذ مفتوحة . وفى فترات منتظمة كان وميض منار الميناء يغمر الحجره بألق عابر . وكان القمر ، الذى سيطلع فى تمامه على حفل إدنا نوفيالى التنكرى الصاحب المرح ، قد تكبد السماء . وفى ألوان لا حصر لها ولاعد أضاءت النجوم بلالها الخاطفة . وأظن أنى رحت فى نعاس خفيف ولكن حواسى كانت ما تزال صاحبة . ولجأة فرعت ، قننه فى وعى قوى بسبب صوت عاجل غاضب هو أكثر الأصوات إيجاء بالرهبة والهيبه ، الذى بوسع أحد أن يسمعه أنه المخرخرة (١) وعبرت أرض الحجره إلى الفراش وتحسست نبض إليوت على شعاعه المنار فوجدته قد أسلم الروح . أضأت المصباح الذى إلى جانبه ونظرت إليه . لقد تدلى فكها وانفتحت عيناه وقبل أن أنمضهما حملت فيهما دقيقة من الزمن . لقد تأثرت وانحدرت دموع قليلة على خدى . كان صديقاً قديماً عطوفاً ، ولقد أحزنتى التفكير فى حياته البليده المعنومة الفائده والتافهه ، لم يعد يهم إلا قليلاً جداً الآن ، ذهابه الى كثير جداً من الحفلات ، وأنه عاشر جميع هؤلاء الأمراء والدوقات والكوتات ، كانوا قد نسوه من قبل .

ولم أرسبياً لأوقظ الممرضة المجهده ، قدمت الى مقعدى بجوار النافذه ، كنت أغط فى النوم عند ما دخلت الحجره فى السابعة صباحاً ، وتركتهما تفعل ما تظنه مناسباً ، وتناولت إنطاراً ثم ذهبت إلى المحطة لأقابل جراى وإيزابيل . أخبرتهما أن إليوت قد مات . ولما كان منزله لا يتبع لها فقد دعوتهما للإقامة معى ،

---

( ١ ) صوب يحدث عند لاثوت بزائم الخاط فى مسائك الصوت .

والكنهما فضلاً الذهاب إلى فندق . عدت إلى منزلي لأغسل وأحلق لحيتي وأستبدل  
بملابسي غيرها .

وفي أثناء الصباح طلبني جرائ ليخبرني أن يوسف قد سلطه خطاباً موجهاً  
إلي . كان إليوت قد عهد إليه به . ولما كان من المحتمل أنه حوى شيئاً لا يجوز أن  
يطلع عليه غيري فقد قلت إنني سأذهب في سيارتي فوراً ، ولذا فأكاد ينصرم نصف  
ساعة من الزمن حتى دخلت المنزل مرة أخرى ، وكان الضلاف يحمل علامة :  
يسلم فوراً بعدموتى . ولقد تضمن معلومات عن تشييع الجنازة والمآتم . وعرفت  
أنه كان يريد أن يدفن في الكنيسة التي بناها ، وكنت قد أبلغت ذلك لإيزابل من  
قبل . ورغب في أن يخطط جثمانه وذكر اسم المؤسسة التي سيعهد إليها بالمهمة .  
استمر في حديثه : « لقد استفسرت عن الموضوع ، وعلت أنهم يقومون بالمهمة  
خير قيام . وإنني أعهد إليك في أن تتأكد أن المهمة لا تنجز بإهمال ، وإنني أرغب  
في أن تلبسوني حلة سلفي الكونت دي لوريا ، وتضعوا سيفه بجانبى ووسام  
( الحصلة الذهبية ) على صدري ، وإنني أترك حرية اختيار التابوت . يجب ألا يكون  
نافهاً ، بل يجب أن يكون مناسباً لمقامي ، ولنكي لا تسبب لأحد اضطراباً لضرورة  
له ، فإنني أرغب في أن تتولى شركة توماس كوك وولده جميع الترتيبات لنقل جثاتي  
إلى مقره الأخير . »

تذكرت أن إليوت قد أبدى رغبته في أن يدفن وهو مرتد حلته التي كان  
يلتوى ارتداها في الحفلة التنكرية ، ولكن كنت قد اعتبرتها نزوة عارضة . ولم  
أفكر في أنه عني جدياً ما قال . وأصر يوسف على تنفيذ رغبته ، ولم يبد هناك  
سبب لعدم تنفيذها . حنطت الجثة في الوقت المناسب وحيث ذهبت مع يوسف  
للبسها هذه الثياب السخيفة . لقد كانت مهمة بشعة . أدخلنا ساقيه الطويلتين في  
السراويل الحريرية البيضاء ودفننا القماش المقصب عليهما . ولقد كانت مهمة ثقيلة

أن ندخل ذراعيه في أكمام الصديري . ثبتنا القباء المنشى العظيم ، وطرحنا الكاب (١) على كتفيه ، وفي النهاية وضعنا القلنسوة القطيفة المسطحة على رأسه ، وطوق وسام الخصلة الذهبية حول رقبته . وخضب الحانوطى خديه وشفتيه باللون الأحمر . ولما كانت حلة إيبوت فضفاضة جداً على جسده الناحل فقد بدأ كأحد أفراد المجموعة المعنية في إحدى أوبرات فردى (٢) الأولى لقد كان دون كيشوت الحزين الذى عاش لهدف عديم القيمة . وحين وضعه رجال متعهد دفن الموتى في التابوت وضعت السيف على طول جسمه ، بين ساقيه ، ويداه على شعيرته (رمانة السيف) كما رأته محفوراً على جدث أحد الفرسان الصليبيين.

---

( ١ ) كلمة معربة وهو رداء يطرح على التكفين .

( ٢ ) موسيقى إيطالى وهو الذى ألعب أوبرا ماضية .

## الفصل العاشر

(١)

أرى من الصواب أن أنه القارىء إلى أن بالإمكان أن يهمل هذا الفصل دون أن يفقد متابعة مثل هذه القصة كما يجب على أن أسردها ؛ إذ أن هذا الفصل فى الأغلب لا يزيد على حديثى مع لارى ، ويمكننى القول — رغم هذا — أنه لولا هذا الحديث لما كتبت هذا الكتاب .

(٢)

فى ذلك الحريف ، أى بعد مضى شهرين من وفاة إبيوت ، قضيت أسبوعاً فى باريس وأنا فى طريقى إلى إنجلترا ، لقد عادت إيزابل وجرانى بعد رحلة غير موفقة من إيطاليا إلى بريتانى ، ولكنهما استقرا فى الشقة الكائنة بشارع القديس غليوم ، وأخبرتني إيزابل بتفصيلات وصية إبيوت ، لقد ترك مبلغاً من النقود لى تزل القديسات فى الكنيسة التى بناها لإراحة روحه . ومبلغاً آخر من المال للمحافظة على هذه الكنيسة وصيانتها ، وقد أوصى بمبلغ حسن لأسقف نيس ليقوم بإنفاقه فى أغراض الإحسان ، ولقد ترك لى تزاناً مبهماً يتألف من مكتبته الفاخرة التى ترجع إلى القرن الثامن عشر ، ولوحة جميلة لفراجونارد (١) تتكون من ساطير (٢) وحوارية ، ولم يكن من اللائق أن أقوم بوضع هذه الصورة على الجدران ، واست أنا بمن يحلق فى الأشياء

(١) فراجونارد : جان أونوريه ( ١٧٣٢ — ١٨٠٦ ) مصور اشهر فى عصر لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر .

(٢) — ساطير : شخص خرق نصفه الأعلى بشر والأسفل ماءز .  
( م ٢٤ — حد انوسى )

الفاحشة في عزلة — وقد ترك مبلغاً وفيراً لخدمته ، وترك لكل من أولاد أخيه مبلغ عشرة آلاف دولار — أما بقية مزرعته فأوصى بها لإيزابل — ولم يمكنها أن تخبرني عن قيمة هذه المزرعة كما أتى لم أقم بسؤالها ، ولكنني استتجت من حدودها وقناعتها أن المبلغ كان وفيراً . وأصبح جرائ لمدة طويلة — منذ أن استرجع صحته — غير صابر عن العودة لأمريكا ليحصل على عمل هناك . وبالرغم من أن إيزابل كانت تشعر براحة كافية في باريس إلا أن عدم استقرار جرائ أثر عليها أيضاً ، وكان على صلة بأصدقائه لمدة ما ، ولكن أحسن فاتحة أتاحت له كانت تقوم على استثماره مبلغاً ضخماً من رأس المال .

وهذا لم يحصل عليه — ولكن وفاة إليوت جعلت إيزابل تحصل على أكثر مما تحتاج إليه — وقام جرائ بعد موافقتها بمفاوضات بقصد أنه إذا أصبح كل شيء كما يرام — ترك باريس واختار الأمر بنفسه — ولكنه قبل أن يصبح هذا ممكناً كانت هناك أشياء تجب العناية بها — لقد وصلا إلى اتفاق معقول مع وزارة الخزانة الفرنسية حول ضريبة التركات ، وكان عليهما أن يتخلصا من المنزل في أنتيبس ، والشقة الموجودة في شارع القديس غليوم — وكان عليهما أن يستعدا لبيع أثاث إليوت وصوره ورسومه بالمزاد في فندق درو — لقد كانت هذه الأشياء قيمة ، وكان من الحكمة بمكان الانتظار حتى الربيع حيث يحضر الذين يشغفون بجمع هذه الأشياء إلى باريس — ولم تكن إيزابل آسفة لقضاء شتاء آخر هناك ، فالأطفال يمكنهم التحدث بالفرنسية بسهولة تقرب من سهولة التحدث بلغتهم الأصلية . وكانت إيزابل سعيدة بأن تركهم بضعة شهور في إحدى المدارس الفرنسية . لقد شبوا في الثلاث السنوات فطالت أرجلهم وأصبحوا يفيضون بالحياة ، وكان لديهم حينئذ القليل من جمال أهم ، ولكن كانت لديهم صفات حسنة وحب استطلاع غير محدود .

ويكفي هذا في هذا الصدد .



( ٣ )

قابلت لارى بالمصادفة ، وقد سألت إيزابل عنه فأخبرتني أنها منذ عودتها من لا بول لم تره إلا لماماً ، وقد اتخذنا عدداً من الأصدقاء من نفس جيلهم ، وزادت ارتباطاتهم عن ذى قبل في غضون الأسابيع الطيبة — حينما اجتمع شمل الأربعة الأصدقاء — وفي إحدى الأمسيات ذهبت إلى المسرح الفرنسى لمشاهدة مسرحية « برنيس » (١) التي قرأتها من قبل طبعاً ، إلا أتق لم أرها تمثل ، ونظراً لأن هذه المسرحية قلما تمثل لم أكن أود أن أفقد هذه الفرصة — لم تكن هذه المسرحية من أحسن ما كتب راسين لأن الموضوع كان تافهاً بحيث لا يستوعب خمسة فصول ، لكن المسرحية بها كثير من الحركة وتشمل أجزاء مشهورة — والقصة مبنية على فقرة قصيرة لتا كيتس : تيتس أحب برنيس ملكة فلسطين حباً جلوفاً ، ووعدها بالزواج كما هو مفروض ، ولكنه لأسباب تتصل بالدولة أبعدها عن روما في الأيام الأولى من حكمه رغم إرادته ورغم إرادتها لأن مجلس النواب وشعب روما عارضوا معارضة شديدة في أن يتزوج إمبراطورهم ملكة أجنبية . والمسرحية تدور حول الصراع الذى يعتمل في صدر تيتس بين الحب والواجب وحينما يضعف ، فإن برنيس — وهى الواثقة من حبه وتدعم مقصده — تفصل عنه إلى الأبد .

وأعتقد أنه لا يمكن إلا لفرنسى أن يقدر تماماً جمال راسين وعظمته وموسيقى شعره ، ولكن الأجنبي يمكنه أيضاً — إذا ما تعود على شكلية الأسلوب — أن يتأثر برقته البالغة ونبيل عاطفته . لقد كان راسين يعلم جيداً ما يحمله الصوت الإنسانى من الدراما . أما بالنسبة إلى ، فإن تتابع أبيات الشعر المناسب في رقة ،

---

( ١ ) مسرحية من تأليف الشاعر الفرنسى راسين .

والمكون كل منها من اثني عشر مقطعاً تكفي أن تكون بديلاً للحركة في المسرحية كما أتى أجد أن كل جزء من الأحاديث الطويلة التي تصل إلى ذروتها المتوقعة بمهارة - يشبه في إنارته المخاطرة التي يقف لها شعر المشاهد في دار الخيالة .

وكانت ثمة استراحة بعد الفصل الثالث ، وخرجت لأدخن لفافة من التبغ في الغرفة الفسيحة الواقعة عند مدخل المسرح ، والتي تطل على فولتير بإبتسامته الساخرة التي تم عن عدم وجود أسنانه . ولمسني شخص على كتفي ، ونظرت حولي بشيء من المضايقة ، إذ كانت أمنيقي أن أترك وشأني حتى أتمتع بجمال السطور الرنانة التي ملأت سمعي ، وهنا لحسب أبصرت لاري - وكنت مسروراً لرؤيته كشأنى دائماً . لقد انقضت سنة منذ أن رأيت ، واقترحت عليه أن تتقابل في نهاية المسرحية ونحسني قدحاً من الجمرة معاً - ولكن لاري أخبرني أنه جائع ولم يتناول عشاءه واقترح على الذهاب إلى حي مونت مارتر وتقابلنا هناك في الوقت المناسب ، وخرجنا إلى الحلاء . والمسرح الفرنسي له رائحة عطنة يتميز بها . وهو محل برائحة أجسام أجيال لا تعد من النساء اللاتي يمتزجن بوجوه وأجسام قلما تعرف طريقها إلى الماء ، يقدنك إلى مقعدك ويتظنون منك ما تجود به من هبة في إصرار . وكان من الغوث بمكان أن نخرج إلى الهواء النقي ، وبسبب أن الليلة كانت ليلة جميلة مشينا ، وكانت مصابيح الكربون في شارع الأوبرا تضيء متحدية ، حتى أن النجوم في السماء - وكأنها قل أملاها في أن تنافسها - سربلت لمعانها في ظلام المسافة الطويلة التي تفصلنا عنها . وفي أثناء سيرنا تكلمنا عن المسرحية التي رأيناها - لقد كان لاري متضايقاً ، واقترح أن تكون المسرحية أقرب إلى الطبيعة ، وأن تكون السطور مثل الكلمات التي ينطقها الناس وأن تكون الحركات أقرب إلى الحركات الطبيعية . أما أنا فأعتقد أن لاري كان خطأ - لقد كانت المسرحية خطبة ، وخطبة جميلة . وكان اعتقادي أنه يجب أن

يستخدم الأسلوب الخطابي - فإني أحب ضربات القافية المنتظمة والحركات التي تأتي على أسلوب منظم ، والتي ترامت إلينا في تقاليد طويلة بدت لي أنها مناسبة لمزاج ذلك الفن التشكيل - إن هذه هي الطريقة التي أراد بها راسين أن تمثل مسرحيته ، وأعجبت بالطريقة التي حاول فيها الممثلون أن يكونوا طبيعيين متمكين حية ومخلصين للحدود التي قيدوا فيها . والفن يتصر حينها يمكنه أن يستخدم التقاليد كآلة لتحقيق أهدافه .

ووصلنا إلى شارع دى كليشى ، ودخلنا مقهى جرافوكان الوقت بعد منتصف الليل بقليل والمكان مزدحماً ، ولدينا وجداً منضدة وطلبنا بيضاً مع لحم خنزير ، وأخبرت لارى أنني رأيت إيزابيل .

وقال لارى إن جراى سيكون سعيداً إذا عاد إلى أمريكا . إنه هنا كالسمكة خارج الماء ، ولن يكون سعيداً إلا إذا عاد إلى عمله مرة ثانية ، ويمكنني القول إنه سيكسب مالا وفيراً .

« وإذا ما فعل فإنك ستكون صاحب الفضل في ذلك . لقد عاجلته لامن أسقام الجسد لحسب ولكن من أسقام الروح أيضاً - لقد أعدت إليه الثقة بنفسه ، .

قال لارى : « لقد قت بالقليل - لقد بينت له كيف يعالج نفسه ، .

قلت للارى متسائلاً : وكيف تعلمت هذا القليل ؟ .

« وبالمصادفة ، - كنت في الهند - وكنت أعاني من الأرق ، وحدث أن ذكرت هذا لرجل عجوز هندي من اليوجا كنت أعرفه - وأخبرني الرجل أنه سوف يحسم ذلك الأمر حالاً - وقام بما قمت به مع جراى . وفي تلك الليلة نمت وكأني لم أتم لشهور طويلة وبعد ذلك - أو على وجه التحديد بعد انقضاء سنة - كنت في الهملايا مع أحد أصدقائي الهنود ، وكان قد أصيب بألم في راسه قدمه ،

وكان من العسير الحصول على طبيب - وكان الرجل يعاني آلاماً شديدة ، وفكرت أن أعمل ما قام به اليوجا العجوز وقد نجحت التجربة ، يمكنك أن تصدق هذا أو لا تصدقه . لقد استراح من الألم - وهنا ضحك لارى - وأؤكد لك أنه لم يدهش أحد من هذا مثل مدهشت أنا - لا يوجد شيء لهذا في الحقيقة - فهي مقصورة على وضع الفكرة في عقل الشخص المريض .

• إن قول هذه الأشياء أسهل من القيام بها .

• أدهش إذا ارتفع ذراعك عن المنضدة من تلقاء نفسه دون أن تدخل

إرادتك في هذا ؟

• كثيراً جداً . .

• سوف تدهشك - لقد أخبر صديق الهندي الناس عما فعلت حينما عدنا إلى العالم المتحضر وأحضر آخرين لرؤيتي - لقد كرهت أن أقوم بهذا - لاني لا أستطيع أن أفهم هذا تماماً - ولكن الناس أصروا بإصراراً قوياً . وبعكثي القول أني نفعت عدداً كبيراً منهم - لقد وجدت أني قادر على أن أريح الناس لا من الألم لحسب ولكن من الخوف أيضاً - إنه لامرء عجيب أن كثيراً من الناس يتألمون من الخوف - إنى لأقصد بالخوف الخوف من الأماكن المغلقة ، ولا الخوف من الأماكن العالية ، ولكن الخوف من الموت ، والأسوأ من هذا الخوف من الحياة - وغالباً ما يكونون أناساً في أحسن صحة وأحسن حال لا تصادفهم أية مضايقة ولكنهم معذبون ، واعتقدت في بعض الأحيان أن هذا أسوأ نوع من الناس ضيقاً ، وتساءلت مرة عما إذا كان هذا يرجع لغريزة حيوانية عميقة ورثها الإنسان من نوع بدائي عندما شعر بنبض الحياة فيه لأول مرة . .

وكنت أصغى للارى بشيء من الأمل لأنه قلما كان يتكلم بإسهاب ، وقد دهشت

من أنه لأول مرة يريد الإيضاح - وبما لأن المسرحية التي شاهدناها حررة من قيده ، ولأن إيقاع هذا اللحن الرنان تغلب على تحفظه الغريزي - ولجأة تأكدت من أن شيئاً يحدث ليدي - ولم أفكر ثانية في سؤال لاري المضحك نوعاً ما - كنت أشعر بأن يدي لا تستقر على المنضدة ولكنها ارتفعت ما يقرب من بوصة دون أن أرغب في ذلك - لقد أجفنت ، ونظرت إلى يدي ، ورأيت أنها ترتعش قليلاً ، وشعرت برعشة غريبة في أعصاب ذراعي ، وهزة خفيفة وأخذت يدي وذراعي يرتفعان من تلقاء نفسها . وأنا كما أعتقد غير قادر على المساعدة أو المقاومة حتى أصبجا على بعد عدة بوصات من المنضدة وبعدئذ رأيت ذراعي بأكمله يرتفع من عند الكتف .

« إن هذا عجيب ، ، .

وضحك لاري . وقت بمجهود قليل - وسقطت يدي على المنضدة .

قال لاري : « هذا لا شيء ، ولا تعلق عليه أية أهمية ،

« أتملت هذا بوساطة اليوجا الذي تكلمت عنه حينما عدت من الهند مباشرة ؟ »

« لا - لم يكن لديه الصبر لهذه الأشياء - ولا أعلم ما إذا كانت لديه القوة التي يمتلكها الآخرون من اليوجا - ولكنه كان يعتقد أن مواوتها عمل صياني ، - وهنا جاء البيض ولحم الخنزير - وأكلنا هذه الأشياء بشهية وشربنا الجمعة - ولم يتكلم أحد منا - كان يفكر فيما لا أدريه وكنت أفكر في لاري - وانتهينا من الطعام ، وأشعلت نفاثة تبغ وأشعل لاري غليونه .

وسألت لاري لجأة : « ما الذي دفعك إلى الذهاب إلى الهند أولاً ؟ »

« المصادفة أو على الأقل فكرت هكذا في ذلك الوقت . وأنا الآن أميل إلى

الاعتقاد بأن هذا كان النتيجة التي لا يمكن تجنبها للسنين التي قضيتها في أوروبا -  
وأكاد أكون قد قابلت بالمصادفة جميع الناس الذين لهم أعظم الأثر على - كايبدو  
لي - ولكن إذا ما عدت بالذاكرة إلى الماضي لاح لي أنه قدر لي أن أقابلهم -  
لأنهم يلوحدون وكأنهم كانوا في انتظار أن أزرهم إذا ما احتجت إليهم - ذهبت إلى  
الهند لأنني كنت في حاجة إلى الراحة . كنت أعمل بجد ، وكنت أرغب في أن أصنف  
أفكاري . حصلت على عمل كامل على ظهر إحدى السفن التي تقوم برحلات ترفيهية  
بحول العالم - كانت السفينة ذاهبة إلى الشرق عبر قناة بنما في طريقها إلى نيويورك  
وكنت بعيداً عن أمريكا لمدة خمس سنوات وكنت أشعر بحنين إلى الوطن -  
كنت مكتئباً - وإنك لتعلم كم كنت جاهلاً . حينما تقابلنا في شيكاغو منذ سنوات  
لقد قرأت الكثير في أوروبا ورأيت الكثير . ولكن لم أقرب من الهدف الذي  
كنت أهدف إليه أكثر مما بدأت . .

كنت أريد أن أسأل عن الهدف . ولكنني شعرت بأنه سيضحك ويهز كتفيه  
ويقول إنه شيء لا أهمية له . . وسأله سؤالا ، ولكن لماذا سافرت كامل على  
ظهر السفينة ؟ إن لديك الوفير من المال ، .

قال لاري : كنت أحتاج إلى الخبرة - حينما أشعر بالخمود الروحي وحينما  
أشعر بأنني امتصت كل ما يمكن - أجد أنه من المنفعة بمكان أن أفعل شيئاً من  
هذا النوع - في ذلك الشتاء بعد ما فسخت خطوبتي لإيزابل - عملت في أحد  
مناجم الفحم في مدينة لنز لمدة ستة شهور . .

في ذلك الوقت أخبرني عن تلك الحوادث التي سردتها في الفصل السابق

، أكنت متألماً حينما رفضتك لإيزابل ؟ ،

وقبل أن يجيب نظر إلى بعض الوقت بعينه السوداوين سواداً غريباً واللذين  
لاحتا وكأنهما ينظران إلى الداخل أكثر مما ينظران إلى الخارج .

« نعم كنت حدثاً - وقد صممت على الزواج ووضعت الخطط للحياة التي سنجياها معا - وكنت أتوقع أن تكون حياة سعيدة . »

« وضحك لارى بضعف : « ولكن يحتاج إلى اثنين لإتمام الزواج كما يحتاج إلى اثنين للقيام بمشاجرة - ولم يدرك بخلدى أن الحياة التي اقترحها على إيزابل ستكون حياة تملؤها بالضيق - ولو كنت أعلم هذا لما فرضت هذه الحياة عليها - لقد كانت صغيرة ومتحمسة . ولم يكن في استطاعتي أن ألومها ، كما لم يكن في استطاعتي أن أستسلم . »

« وأظن القارى يذكر أنه عند هروبه من المزرعة بعد اللقاء العجيب مع زوجة ابن الفلاح الأرملة . ذهب إلى بون - كنت أود أن أجعله يستمر ولكني ظلت أنه يجب أن أكون حذراً ، وألا أسأله أسئلة مباشرة أكثر مما يمكنني أن أتخاشها .

وقال لارى « إنى أحب بون . لقد قضيت سنة هناك ، لقد حصلت على غرفة في منزل أرملة أحد الأساتذة في الجامعة ، وكانت توجر بعض الغرف لطالين - وكانت المرأة وابنتها - وكانت كل منهما امرأة نصفاً - يقمن بالطهي والأعمال المنزلية - ووجدت أن زميلي في السكن كان رجلاً فرنسياً ، وتضايقت في بادئ الأمر لأنى وددت ألا أتكلم أية لغة غير الألمانية ولكن الرجل كان من الأتراس ويتكلم الألمانية أكثر من إجادته للغة الفرنسية . وكان يرتدى رداء رجل الدين الألماني . ودهشت كل الدهشة حينما علمت أنه راهب من أتباع القديس بند يكت وقد سمح له بإجازة من الدير ليقوم بأبحاث في مكتبة الجامعة . وكان الرجل ضارباً بسهم وافرفي العلم ، ولكن لا يبدو عليه ما يجعلنى أرى فيه أكثر مما أرى في راهب عادى - كان طويلًا وبديناً - وشعره رملياً ، وعيناه جاحظتين زرقاوين . ووجهه أمر مستديراً - وكان خجولاً متحفظاً وبدأ أنه لا يريد أن يكون

بين وبينه شيء ولكنه كان هودباً بصورة متقنة نوجماً ويشترك دائماً في الحديث بأدب عند تناول الطعام . ولم أراه إلا في هذه الفترات — وحالما ينتهي من طعامه يذهب لإتمام عمله في المكتبة . وبعد العشاء حينما كنت أجلس في غرفة الاستقبال محاولاً تحسين لفتى الألمانية مع إحدى البنات التي تقوم بغسل الأواني كان من عادة الراهب الذهاب إلى غرفته .

و دهشت حينما طلب مني مساء يوم بعد اقتضاء شهر في المنزل أن أصطحبه في إحدى الجولات ، وأخبرني أنه سيريني أما كن في جوار المسكن ليس في إمكانني أن أكتشفها وحدي — وكنت أحب التجول كثيراً — ولكنه كان يفوقني دائماً — سألتني عما أعمله في بون وأخبرته أنني جئت لأتعلم الألمانية وبعض الشيء عن الأدب الألماني . كان حديثه يتم عن ذكاء وأخبرني أنه سيكون سعيداً جداً بمساعدتي بأية طريقة في إمكانه — وبعد هذا — اعتدنا الخروج معاً مرتين أو ثلاثاً أسبوعياً . واكتشفت أنه قام بتدريس الفلسفة لبضع سنوات ، وقد قرأت حين كنت في باريس جزءاً معيناً عن سبينوزا وأفلاطون وديكارت . ولكنني لم أقرأ شيئاً عن الفلاسفة الألمان العظام وكنت أسرح حينما يتكلم عنهم — وفي يوم ما كنا قد قمنا بنزهة عبر نهر الرين وكنا نجلس معاً في إحدى حدائق الجمعة نشرب كوباً منها حين سألتني قائلاً : « أنت بروستانتى؟ » ، قلت له : « أعتقد هذا . »

و نظر إلى نظرة سريعة — واعتقدت أنني رأيت في عينيه ابتسامة وأخذ يتكلم عن اسكيلس (١) — إنني درست الإغريقية ولكنه كان يعرف عمداً التراجيديا اليونانية وبدرجة لا يسعني معها أن أصل إلى ما يعرفه . كان ملهماً أن أسمعه — وتعجبت لماذا سألتني هذا السؤال — وكان الوصي على « عم يوب نلسن »

(١) كالم مسرحي يوناني .



مشككا ، ولكنه كان يذهب إلى الكنيسة بانتظام لأن مرضاه كانوا يتوفعون هذا — أما مارتا التي كانت تعمل عندنا فكانت من أتباع الكنيسة المعمدانية وكانت تخيفني في طفولتي بقمصها عن نار جهنم التي سيقتضي الخاطيء فيها طوال حياته . وكانت تجدلنة في وصف الآلام التي يتحملها مختلف الناس في القرية ولسبب أو لآخر سوف يصلونها .

« وعرفت الشيء الكثير في الشتاء عن الأب أنشيم — إنه كان رجلا عجيباً — لم أراه مرة برماً — كان طيباً وعلى سعة كبيرة من التفكير أكثر مما أتوقع — ومسامحا لدرجة العجب . وكان تعليمه عجيبا — ولا بد أنه عرف أنني جاهل — ولكنه كان يكلمني كما لو كنت على درجة من العلم مساوية له — وكان صبورا معي — ولم يرد شيئا مني إلا أن يكون في خدمتي — وفي يوم ما — ولا أدري لذلك سبباً — أصبت بالمباجو وأصرت السيدة جرابو — صاحبة المنزل — على أن أبقى في فراشي ووضعت زجاجات الماء الساخن — ولما علم هذا الأب أنشيم جاء إلى غرفتي ليراني بعد العشاء . وشعرت بأني في حالة طيبة رغم إشعوري بالآلم وأنت تعرف الناس الذين يحبون الكتب — إنهم مدفوعون بحب الاستطلاع إلى الكتب — وحينما وضعت كتابي الذي كنت أقرؤه جانباً أخذه مني ونظر إلى عنوانه — كان كتابا عن السيد إكهارت . وقد وجدته في مكتبة في المدينة وسألني لماذا أقرأ هذا الكتاب ؟ — فأخبرته بأني أقرأ بعض الأدب الصوفي ، وأخبرته عن كيف تمكن كوستي من إثارة اهتمامي بهذا الموضوع — وحدث في بعينه الزرقاوين وكاتتا تحملان نظرة لا يمكن أن أصفها بأنها نظرة رقيقة ، وشعرت بأنه اكتشف أنني سخييف ولكنه كان يشعر بحب وعطف نحوى ولم ينقم حبه لي عن ذى قبل — وعلى كل فلم أكن أهتم إذا اعتبرني الناس أحق بعرض الشيء .

وسألني الأب أنسيم ، ما الذي تبحث عنه في هذه الكتب ؟ .  
فأجبت قائلاً ، لو كنت أعلم هذا لكنت في طريقى إلى العثور عليه .  
أتذكر حينما سألتك : هل أنت بروستاتي ؟ فأجبت قائلاً إنك تعتقد هذا .  
ما الذى تعنيه ؟ .

أجبت قائلاً ، لقد نشأت ، وتستأقياً . .

وسألني الأب أنسيم ، أتؤمن بالله ؟ .

، إنى لا أحب الأسئلة الخاصة ، وكان أول دافع لى هو أن أقول له إن هذا  
ليس من شأنه ؛ ولكن كان هناك الشيء الكثير من الصلاح فى هذا الرجل بحيث  
إنى شعرت بأنه من الصعوبة بمكان أن أسىء إلى شعوره . ولم أعرف ماذا أقول  
له . ولم أرد أن أجيبه لا إيجاباً ولا سلباً . وربما كان الألم الذى أعانيه هو الذى  
مكننى من الكلام أو ربما كان شيئاً فيه ، وعلى كل حال فقد تحدثت إليه عن  
نفسى . .

وتردد لارى كثيراً . وحينما أكمل حديثه شعرت بأنه لا يخاطبني ولكنه  
يخاطب الراهب البنديكتى . لقد نسينى ولم أعرف ما الذى كان فى الزمان أو  
المكان ومكنه من الكلام دون أية إثارة لهذوته الطبيعى الذى أخفاه عنى مدة  
طويلة .

، لقد كان العم بوب نلسن ديمقراطياً ، وأرسلنى إلى المدرسة الثانوية فى مارفين  
وكان هذا بسبب أن لوزا برادلى ضايقتة كثيراً فى هذا الصدد . ولكن فى سن  
الرابعة عشرة سمحلى بالذهاب الى مدرسة القديس بولس ، ولم أكن كفتاً فى أى شيء  
سواء أكن عملاً أم لعباً ولكنى كنت متجاوباً . كنت طالباً عادياً وكنت مفرماً

بالطيران إلى حد الجنون - وكانت هذه هي الأيام الأولى للطيران . وكان العم يوب مهتماً بهذا الموضوع كاهتمامي به وكان يعرف عدداً من الطيارين . ولما أخبرته أنني أريد أن أصبح طياراً وعدني بترتيب هذا لي . وكنت طويلاً بالنسبة لسني ولما جاوزت السادسة عشرة كان يمكن اعتباري في سن الثامنة عشرة . وجعلني العم يوب أهد بأن أحتفظ بهذا السر لأنه كان يعرف أنه لو علم أحد هذا لانهاه عليه كظن من الطوب للساح لي بالذهاب ، ولكنه في الواقع ساعدني فسمح لي بالذهاب إلى كندا وزردي بخطاب لشخص كان يعرفه وكانت النتيجة أنه حينما جاوزت السابعة عشر كنت أطيّر في فرنسا وكانت الطائرات التي كنا نطيّر فيها في حالة سيئة وفي الواقع كنت تخاطر بحياتك في كل مرة ترتفع فيها إلى الجو، والارتفاعات التي كنا نصل إليها تعتبر ترهات إذا ما قيست بمستويات اليوم . ولكن لم تكن نعرف أكثر من هذا واعتقدنا أن هذا عجيب . كنت مغرماً بالطيران ولا يمكنني أن أصف الشعور الذي غمرني به . شعرت بأنني كنت فخوراً وسعيداً ولم أهد بمفردى . بل إن نفسي ملك لي على ارتفاع ألتى قدم - ولا يمكنني كتمان هذا مهما كان من البلاءة بمكان - وحينما كنت أحلق فوق السحب التي لاحت كقطعان من الأغنام تحتي - شعرت بأنني من اللانهاية .

وتوقف لارى قليلاً - ونظر إلى من محاجر عينيه التي لا يمكن النفاذ إليها - ولكنني لم أعرف إلى ماذا كان ينظر .

لقد عرفت أن الرجال يقتنون بمئات الألوف ولكنني لم أرمم يقتلون وهذا لا يعنى الكثير بالنسبة إلى - ولكنني رأيت رجلاً ميتاً وملأني المنظر بالعار ، .

ل بالعار ، قلت هذه الكلمة بدون إرادة .

ل العار لأن هذا الرجل الذي يصفرني بثلاث أو أربع سنوات والذي كان مليئاً بالطاقة والجسارة ، وهو الذي كان قبل هذه اللحظة مليئاً بالحياة ،

والذي كان صالحاً ، قد تحول إلى كومة من اللحم كأنه لم يكن حياً في أى وقت من الأوقات . .

ولم أقل شيئاً . لقد رأيت الموتى عندما كنت طالب طب ، ورأيت أكثر من هذا في مدة الحرب - إن الذى آلمنى كثيراً أنهم كانوا ترهات في الموت - لم يكن فيهم أى شيء يثير الاحترام . مثلهم مثل الدمى التى يلقونها في سلة المهملات رجل المسرح .

و لم أتم تلك الليلة بل صرخت ولم أكن خائفاً على نفسى ، كنت غاضباً ، لقد كان شر هذا الأمر يعترضنى - وانتهت الحرب وذهبت إلى موطنى - وكنت شغوفاً بالأشياء الآلية ، وإذ لم يكن هناك شيء للعمل في حقل الطيران عقدت العزم على أن ألتحق بمصنع للسيارات وأرادوا لى أن أعمل ولم يكن في استطاعتى أن أقوم بالعمل الذى حددوه لى . ولاح لى أن هذا الأمر لا يفيد وكان لدى الوقت الكثير للتفكير ، وكنت أسأل نفسى : ما الغرض من الحياة ؟ أردت أن أصنع شيئاً من الحياة ولكنى لم أدر ماذا ، ولم أفكر كثيراً في الله وبدأت أؤكّر فيه الآن ، ولم أستطع أن أفهم : لماذا يكون شر في العالم ، وعلت أنى جاهل ، ولم أعرف أى شخص يمكنه الالتجاء إليه ولكنى أردت أن أتعلم ، لذلك بدأت أقرأ كل شيء . يقابلنى مصادقة .

وحينما أخبرت الأب أنشيم بهذا سألتنى : فهل ظللت تقرأ لمدة أربع سنوات ؟ إلى أى شيء وصلت ؟ .

أجبت قائلاً : ولم أصل إلى شيء . .

ونظر إلى نظرة مليئة بالرحمة لدرجة أننى ارتبكت - ولم أدر ماذا فعلت حتى

أثرت هذا الشعور فيه — وقر الأب أنشيم المنضدة بأصابه كأنه يقبل  
هكرة في عقله .

وقال حينئذ ، لقد اكتشفت كنيستنا الحكيمة القديمة أنه إذا عملت كما تعتقد  
تختال الإيمان ، أما إذا صليت بشك ولكن بإخلاص فإن الشكوك التي تساورك  
يقضى عليها — وإذا سلمت نفسك لجمال تلك الطقوس الدينية والتي ثبتت على مر  
الآزمان قوة تأثيرها على الروح الإنسانية فوف بملوك السلام — سأعود إلى  
ديري بعد وقت قصير — لم لا توافقني وتقضى بعض الأسابيع معنا — يمكنك  
العمل مع الأخوة العلمانيين في الحقول — ويمكنك القراءة في المكتبة —  
إن هذه الخبرة لا تقل ذاتها عن العمل في منجم فحم أو حقل من الحقول  
الألمانية . .

قلت سائلًا ولماذا تقترح هذا ؟

« كنت أرقبك منذ ثلاثة أشهر — وربما أعرفك أكثر مما تعرف نفسك  
والمسافة التي تفصلك عن الإيمان لا يزيد سمكها عن سمك ورقة لفافة التبغ ، .

ولم أعلق على هذا بكلمة — لقد سرى في شعور غريب كأن أحداً تمكن من  
الإمساك بنباط قلبي دافعاً إياي — وأخيراً قلت له ، سأفكر في هذا ، . وترك  
الموضوع جانباً — ولم تتكلم في المدة التي أقامها الأب أنشيم في بون عن أي شيء له  
صلة بالدين ، ولكنه عندما كان على وشك الرحيل أعطاني عنوان ديره ،  
وأخبرني أن أكتب إليه إذا عقدت العزم على الذهاب إليه وسيقوم بعمل  
الترتيبات . وفي الواقع اقتعدته أكثر مما كنت أتوقع وانتهت السنة . وكان منتصف  
التصيف ، وأحببت الحياة في بون وقرأت لجوته (١) وشيلر (٢) وهيي (٣) — وقرأت

(١) جوهان دلفانج جوته : ولد في مرزيبورج بألمانيا في ٢٨ أغسطس ١٧٤٩ وتوفي في  
مارس ١٨٣٢ وأهم أعماله « دكتور فاوست » التي أتمها في أغسطس ١٨٢١ .

(٢) هنريش هيي خريستوف شيلرفون : شاعر ألماني وكان مسرحي وولد في ١٠/١١/١٧٥٩  
وتوفي في ١٧ / ٢ / ١٨٥٦ .

(٣) هنريش هيي : أعظم أديب ظهر في ألمانيا منذ جوته وشيلر ولد في ٣/١٢/١٧٩٧  
وتوفي في ١٧/٢/١٨٥٦ .

لهولد ولين (١) وريلكه (٢) ورغم هذا لم أصل إلى شيء - وأخيراً فكرت كثيراً فيما قاله الأب أنشيم وصحمت على أن أقبل عرضه .

« وقابلني في المحطة ، وكان الدير يقع في الألازاس . كان الريف جميلاً وقدمني الأب أنشيم إلى رئيس الدير ، وبعد هذا راققني إلى الغرفة المخصصة لي - وكان لي سرير ضيق من الحديد - وصليب عليه المسيح مصلوباً . معلق على الجدران ، أما من جهة الأثاث فلم يكن بالغرفة إلا الأشياء الضرورية . ودق ناقوس العشاء ، وذهبت إلى مكان تناول الطعام ، كانت غرفة ضخمة كالتقو ، ووقف رئيس الدير عند المدخل مع راهبين - أحدهما يحمل حوضاً والآخر منشفة ورش رئيس الدير القليل من الماء على أيدي الضيوف لفصلها وتجفيفها بالمنشفة التي يسلبها له أحد الرهبان وكان هنالك ثلاثة ضيوف بالإضافة إلى قسيسين كانا في طريقهما وتوقفا لتناول العشاء ، ورجل فرنسي في متوسط العمر وصل إلى الدير لقضاء أجازته .

« وجلس رئيس الدير والرهبان ، الرئيس والمرءوس في طرفي الحجرة . وكل منهما إلى مائدة منمعملة ، وجلس الآباء بجانب الجدران ، وجلس الجدد والعلبانين والضيوف في الوسط وأقيمت صلاة الشكر وتناولنا طعامنا . وأخذ أحد الرهبان الجدد مكانه بجوار باب المطعم ، وفي صوت رتيب قرأ فصلاً من

---

(١) هوندرلين : شاعر وجداني الماني ولد في مدينة برينبرج بألمانيا في ١٧٧٠/٣/٢٠ وتوفي في ١٨١٣/٦/٧

(٢) راينماريا ريلكه . شاعر الماني ولد في براغ في ١٨٧٥/١٢/١ وكتب أيضًا كتباً من المسرحيات والقصص .

كتاب عظات . ولما اتبيننا من تناول الطعام أقيمت الصلاة مرة أخرى . وذهب رئيس الدير ، والاب أنشيم ، والضيوف ، والراهب المختص إلى غرفة صغيرة حيث تناولوا القهوة وتحدثوا في شئون عارضة . وبعد هذا ذهبنا إلى صومعتي .

وأقت هنالك ثلاثة أشهر ، كنت فيها سعيداً . وراقنتي الحياة تماماً ، فقد كانت المكتبة حافلة ، وقرأت الكثير من الكتب . لم يحاول أحد الأيام التأثير علي ، ولكنهم كانوا يسعدون بمحادثتي . ولقد أذهلني عليهم ، وأدهشتني تقوam ، وتأثرت لوهدم في متاع الدنيا . ولا تظن أن حياتهم كانت حياة نخول وتواكل ، فهم في عمل دائم يفلحون الأرض ، ويعنون بأنفسهم وكانوا يسعدون حينما أمد يد المساعدة لهم . وتمتعت بجلال الخدمة الدينية . ولكن الخدمة التي أحببتها أكثر من سواها كانت خدمة الصباح الباكر . كانت هذه الخدمة في الساعة الرابعة صباحاً ، وكان الجلوس في الكنيسة والليل يحيط بك مشيراً جداً . والرهبان الغامضون في عاداتهم ، وقد أسدلوا قلائسهم فوق رؤوسهم ، يرددون بصوت الرجال صلواتهم . وفي انتظام العمل اليومي كل ما يسكن الروح ويعلمن النفس وعلى الرغم من الطاقة التي يبذلونها والنشاط الفكري الذي يزاولونه كنت تستشعر إحساساً ثابتاً بالاسترخاء .

وابتسم لارى ابتسامة يشوبها الأسف .

إن د مثل كشل رولا(١) ، فقد جئت متأخراً جداً إلى عالم قديم جداً . كان من الأفضل لي لو ولدت في العصور الوسطى حينما كان الإيمان أمراً مسلماً به ،

---

(١) سافونا رولا جيرولابو « جيروم » . صالح ديني وسياسي ولد من أسرة عريقة

في لهرارا في ٢١ سبتمبر ١١٥٢ .

( م ٢٥ - حد الموسى )

لأن وجدت طريقى واضحاً أمامى ، والبحث عن الانخراط فى سلك الرهبنة .  
ولكن الصور التى قدمها لى الرهبان عن الله لم تكن صوراً تدعو إلى الإيمان .

لم يكن لدى هؤلاء الآباء الصالحين إجابة تقنع تفكيرى أو ترضى قلبى عن  
كثير من الأسئلة ، التى بلبت أفسارى . لم يكن لى مكان بينهم . ولما ذهبت  
لأودع الأب أنسيم لم يسألنى عما إذا كنت قد أفدت من هذه التجربة بالوسيلة  
التي كان يثق بأنى سأفيد بها منها . ونظر إلى بحنان لا يمكن التعبير عنه .

قلت : « إني أخشى أن أكون قد خيبت أملك فى يا أبى ، .

أجاب : « لا ، إنك رجل على إيمان عميق لا يؤمن بالله . إن الله سيبحث  
عناك . وسوف تعود . سواء إلى هنا أم إلى هناك . الله يعلم ، .

#### ( ٤ )

« واستقر لى المقام فى باريس الجزء الباقى من الشتاء . لم أكن قد اكتسبت  
شيئاً من معرفة العلم . ورأيت أن الوقت قد حان لى ألم به إلاماً بسيطاً . قرأت  
كثيراً ولا أعرف أنى تعلمت كثيراً سوى أن جهلى كان بعيد الفورجداً ، ولكنى  
قد أدركت ذلك من قبل ، وحينما جاء الربيع ذهبت إلى الريف . ومكثت فى منزل  
صغير يقع على نهر بالقرب من بلدة من أجل المدن الفرنسية القديمة التى يبدو أن  
الحياة راكدة بها لم تتحرك منذ مائتى عام . .

وحدثت أن ذلك كان الصيف الذى قضاه لارى مع سوزان روفير ، ولكنى  
لم أعاطفه .



، وذهبت بعد ذلك إلى أسبانيا . كنت أرغب في مشاهدة أعمال فيلاسكوز (١) والجرىكو (٢) وعجبت بما إذا كان الفن سيوضح لي معالم الطريق الذي فشل في توضيحه ونجولت هناك قليلا حتى وصلت إلى أشيلية . لقد أحببتها وفكرت في قضاء الشتاء هناك .

لقد زرت أشيلية من قبل وأنا في الثالثة والعشرين من العمر، وأحببتها أيضا . أحببت شوارعها البيضاء الملتوية وكاتدرائيتها ، والسهل المتسع الممتد في (جود الكوفير) ولكني أحببت أيضا الفتيات الأندلسيات برشاقتهن ومرحهن وعيونهن السود البراقة وزهور القرنفل في شعورهن تؤكد سوادها ، وهذا التباين يجعلهن أكثر حيوية . وأحببت لون بشرتهن الفنى الخصب ، ونزوانية شفاههن الجذابة . إن الشباب حقا هو الفردوس حينما ذهب لارى إلى هناك كان يكبرنى قليلا ، ولم أتمالك سوى أن أتساءل عما إذا كان بمقدور لارى أن يظل غير مكترث بسحر هؤلاء المخلوقات الفاتنة طويلا ، وأجاب عن سؤالى الذى لم أنطق به .

، لقد التقيت مصادفة بفنان فرنسى كنت قد عرفته في باريس يدعى أوجست كرتيه ، واحتفظ بسوزان روفير في وقت من الأوقات . جاء إلى أشيلية ليرسم . وكان يعايش قناة التقطها هناك وسألتني أن أذهب معهما في إحدى الأمسيات إلى أيريتانيا لسامع مغنى فلامنكو وأحضرا معهما صديقة للفتاة . كانت

---

(١) ديجورو دريجيه دى سيلفا ( ١٥٩٩ - ١٦٦٠ ) ولد في أشيلية بأسبانيا ولكنه من أصل برتغالى .

(٢) جريكو دوفينكوس نيوتوكوزلرس ( ١٥١١ - ١٦١٤ ) ويطلق عليه اسم الجريكو ولد في كريت وتلقى تعليمه في سن مبكرة هناك .

أجمل من رأت عيني. وكانت في الثامنة عشرة من عمرها لحسب، تورطت في علاقاتها مع قتي واضطرت إلى النزوح من قريتها . فقد كانت على وشك أن تضع مولوداً . وكان هذا الفتى يؤدي الخدمة العسكرية . فبعد أن وضعت الطفل تركته في رعاية مربية ، وحصلت على وظيفة في مصنع للتيغ . أخذتها معي إلى المنزل ، كانت مرحلة جداً وعذبة جداً ، وبعد بضعة أيام سألتها عما إذا كانت ترغب في معايشتي فأجابت بأن ذلك مطلبها . فاستأجرنا غرفتين في منزل ، إحداهما للنوم والأخرى للجلوس ، وأخبرتني بأن في مقدورها أن تترك عملها إذا أرادت ، ولكنهم ترغب في ذلك ، وراقتي هذا كثيراً لأنه كان يتيح لي فرصة العزلة والهدوء في أثناء النهار . كنا نستخدم المطبخ فكانت تبعد طعام الإفطار قبل ذهابها إلى عملها وفي الظهر تعود لتعد طعام الغداء . أما في المساء فقد كنا نذهب لتناول طعام العشاء في مطعم ثم نذهب لإحدى دور السينما أو إلى صالة للرقص، كانت تعتبرني ممسوها لأنني كنت معتاداً على الاستحمام وأصر على استخدام إسفنجة باردة كل صباح . كان الطفل يلقي الرعاية في قرية تبعد عن أشيلية بضعة أميال . فكنا نذهب لرؤيته في أيام الآحاد ولم تخف عني أنها كانت تعايشني بغية الحصول على مال يكفيها لتأنيث ممكن ستقوم باستجاره بعد أن ينهي صديقها خدمته العسكرية . كانت عزيزة علي ، وكنت واثقاً أنها ستكون خير زوجة لرجلها باكو ، كانت مرحلة ، رقيقة المزاج عطوفاً ، وكانت حيواناً ، ولكنه حيوان ظريف جميل وجذاب .

• وذات أمسية أخبرتني أنها تسلمت خطاباً من باكو وهو في مراکش الإسبانية حيث يؤدي الخدمة العسكرية ، وأنه سينهي خدمته ويعود إلى قادم في غضون يومين ، حزمت أمتعتي في اليوم التالي ودست نفوسها في جوربها وصحبتها إلى المحطة ، وهناك قابلتني قبلة حارة حينما استقلها القطار ، ولكنها كانت نهب سورة تعمل في نفسها ، فلم يكن في قلبها متسع للتفكير ، إذ كان لقاء .

حبيها يشغل كل حواسها ، وإني لعل ثقة من أنه قبل أن يغيب القطار عن الأنظار  
كانت قد نويت وجودى تماماً ،

« بقيت في أشيلية وفي الحريف انطلقت في رحلة وانتهى بي المطاف  
في الهند ،

( ٥ )

وكان الوقت متأخراً وغادر أكثر الناس أما كنهم ، ولم تبق إلا موائد قليلة  
يحتلها الرواد . أما الذين كانوا جالسين لأنه لم يكن لديهم ما يعلونه فقد ذهبوا إلى  
منازلهم ، وأما الذين كانوا في إحدى دور التمثيل أو السينما وجاءوا بغية الشراب  
أو الطعام فقد غادروا أما كنهم أيضاً . وكان بعض المتأخرين يحضرون بين الفينة  
والفينة ورأيت رجلاً طويلاً ، وكان واضحاً أنه إنجليزي ، آتى برفقة شاب نحس ،  
وكان وجهه طويلاً حليقاً وشعره متموجاً ك شعر أصحاب النهى من البريطانيين .  
وكان واضحاً أنه يتألم لفكرة غير صحيحة ، هي أنه حينما يكون الإنسان خارج  
بلاده لا يتعرف عليه أحد من بني وطنه . طعم الشاب الحشن طبعا كبيرا علواً  
بالشطائر ، وصاحبه يرقبه في كرم سار ، يالها من شهوة للطعام ! ورأيت رجلاً  
عرقته من منظره لأننا نذهب إلى حلاق واحد في مدينة نيس . كان الرجل بدين  
الجسم ، نصفاً ، وأشيب الشعر ، كما كان ذا وجه متفخ أحمر اللون ، ويحيط بعينه  
جيوب عميقة . كان أحد رجال المال في الغرب الأوسط (١) ، هجر بلده بهدالكساد  
الذي حل بها مفضلاً ذلك على أن يواجه تحقياً . لم أكن أعرف ما إذا كان هذا  
الشخص قد ارتكب جرماً ما ، وإذا ما كان قد فعل فلا بد وأن يكون الجرم  
صغيراً لدرجة لم تحمل السلطات على إصدار أمر بإلقاء القبض عليه . كان ذا أبهة

(١) صنع في الولايات المتحدة

يمرح مرحاً زائفاً كما يفعل السياسي البخس . ولكن الفزع كان يبين في عينه والتعاسة تخيم عليه . لم يفقده الشراب وعيه تماماً . كان يرى دائماً وبصحة بنت من بنات الهوى كانت تعمل على أن تحصل منه على أكبر قدر يمكن من المال . وذن في ذلك الوقت مع امرأتين في منتصف العمر يملو وجههما الطلاء والماسحيق كاتتا تسخران منه ، ولم تتجشما مشوة لإخفاء هذه السخرية عنه ، وهو لا يفهم سوى نصف ما يقولانه لحسب ، يقهقه ضاحكاً بيلاهة . إنها الحياة المرحية ا واني لأصعب مما إذا لم يكن من الأفضل له أن يقبع في عقرداره ويشرب دواءه . ففي يوم قريب سوف تنصهره امرأة حتى آخر فلس يملك وبذلك لن يبقى أمامه غير نهر يلتقي فيه بنفسه أو أن ينتحر بتناول جرعة كبيرة من الفيرونال .

وكانت زيادة طفيفة في الضرائب قد فرضت بين الساعة الثانية والثالثة وظننت أن النوادي الليلة بصدد لإقبال أبوابها . ودخل جماعة من الشبان الأمريكيين مخمورين صاخبين ولكنهم لم يبقوا طويلا . وعلى مسافة ليست بعيدة منا جلست سيدتان مكتئبتان ترتديان ملابس الرجال المحكمة ، جنباً إلى جنب تحتسيان الويسكي الممزج بماء الصودا في ملابس السهرة وهم الذين يسمونهم برجال الدنيا ، في الفرنسية . وكان واضحاً أنهم قاموا بجولاتهم وقد جاءوا حيثئذ يبغون أن يصيبوا القليل من المشاء ، دخلوا وخرجوا . أثار فضولي رجل فيء الجسم كان يرتدي ثياباً مناسبة . ظل جالساً هناك ساعة أو ما يزيد وقد وضع أمامه كروباً من الجمعة وهو يقرأ الصحيفة اليومية . وكانت لحيته سوداء أحسن العناية بها ويضع على أنفه منظاراً . وفي النهاية جاءت امرأة وأخذت مكانها بجواره . هزل إليها برأسه هزة عطلت من الصداقة والود وحدثت أنه قد برم بها لأنها قد جعلته ينتظرها طويلا . كانت شابة رثة الثياب إلى حد ما ، ولكنها أسرفت في المساحيق التي طلت بها وجهها وكان يلوح عليها التعب والإعياء . وسرعان

ما أخرجت شيئاً من حقيبتها ناولته له، تقود. نثار إليها وأظلم وجهه وغاطبها بكلمات لم أتمكن من سماعها ولكنني حسنت من مسذكها أن هذه الكلمات كانت سبباً . وبدا أنها تعتذر عما فعلت . وعلى حين لجأة مال إلى الأمام وصفها على وجهها صفة رددت صداها جنبات المكان ، فصرخت وراحت تتحبب وجاء المدير الذي لفت الضوضاء نظره ، ليرى ماذا عسى أن يكون الأمر . ولاح أنه طلب منهما الخروج إذا لم يكن بوسعهما أن يسلكا سلوكاً مرضياً فالتفتت إليه الفتاة وبصوت تصطك له الآذان ، ويسمعه كل شخص كلمة ، كلمة ، وأخبرته بلفظة فاحشة أن يعنى بهشون نفسه وحسب .

صاحت قائلة : « إذا كان قد صفى فلأني أستحق ذلك . »

يا للنساء ! لقد كنت أظن دائماً أنه لكي يعيش إنسان على ما تكسبه امرأة بوسيلة مجردة من الخلق ، يجب أن يكون قسياً قوياً حسن المظهر يفيض بالجادية مستعداً بعديته أو بيندقيته ، وكان أمراً مدهشاً أن مثل هذا المخلوق القسوى الذي يبدو من مظهره أنه كاتب محام ، بوسعه أن يكون له مكان في هذه المهنة التي تصح بأصحابها .

( ٦ )

كان النادل الذي يقوم على خدمتنا على وشك أن ينهى نوبته فقدم لنا قائمة الحساب للحصول على ( بقشيش ) فنقدناه الحساب وطلبنا قهوة .

قلت : « حسن ؟ »

لقد شعرت أن لاري في حال تسمح له بالحديث كما كنت في حال سمح لي بالإصغاء .

« ألا أضجرك ؟ »

« لا . »

« حسن . لقد وصلنا إلى بومباي وكانت السفينة سترسو لمدة ثلاثة أيام لتتيح للسائحون فرصة مشاهدة المناظر والقيام بزهات . وفي اليوم الثالث لم يكن لدى ما يشغلي عصر ذلك اليوم ، فنزلت إلى الشاطئ ومشيت بعض الوقت وأنا أنظر إلى الجمهور المتراحم : ياله من خليط من الأجناس الصينيين ومسلمين وهندوسيين وتاميليين سود البشرة كقبعتك هذه . والثيران ذات السنامات والقرون الطويلة التي تجم العربات ا ثم ذهبت إلى الفتحة لمشاهدة الكهوف وانضم إلينا هندي في مدينة الإسكندرية يقصد بومباي . وكان المسافرون يشعرون نحوه بشيء من الجفاء كان بدين الجسم قصير القامة . وجهه مستدير أسمر يرتدي حلة من التويد السميك الأسود وبه مربعات خضراء ويلبس بنيقة تشبه تلك التي يلبسها رجال الدين . كنت ذات ليلة أستشق الهواء على سطح السفينة حينما أتى إلى وبأداني الحديث . لم يكن بي ميل لأن أتحدث إلى أي شخص آتئذ ، وكنت أريد أن أخلو إلى نفسي . سألتني أسئلة كثيرة ولكنني أخشى أن أكون قد خيبت ظنه ، وعلى أية حال من الأحوال فقد أخبرته أنني طالب علم وأني أعمل للحصول على نفقات رحلتي إلى أمريكا . »

قال : « عليك بالتوقف في الهند ، فإن لدى الشرق الكثير الذي يعمله للغرب أكثر مما يظن أهل الغرب . »

قلت : « آه ، نعم . »

استمر في حديثه : « على كل حال . لا بد أن تذهب وتشاهد الكهوف في الفاتا . ولن تأسف على هذا . وتوقف لارى عن الكلام ليسألني سؤالاً . » هل ذهبت يوماً ما إلى الهند ؟ »

مطلقاً .

كنت أنظر إلى التمثال العملاق ذى الرؤوس الثلاثة ، والذي يعتبر أهم منظر  
فى الفاتتا ، وأتساءل عما عساه أن يعنى كل هذا ، عندما سمعت صوتاً ورائى  
ينادىنى قائلاً : « أراك قد انصمت لنصيحتى . تلفت حولى ، ولم يتقاضانى غير  
دقيقة واحدة أن أتعرف على الشخص الذى قد تحدث إلى . كان الرجل القصير  
صاحب الحلة ذات المربعات ، والبنيقة التى تشبه بنىقات رجال الكهنوت ، ولكنه  
حينئذ كان يرتدى رداء زعفرانى اللون ، وعلت بعد ذلك أن هذا الرداء يسمى  
رأماً مكرشناً سواهير ، وبدا من الشخص القمىء الجسم الذى يبعث منظره على  
الضحك رأيت رجلاً مهيب الطلعة وقوراً نوعاً ما . ونظرنا معاً إلى التمثال  
العملاق النصنى .

قال : « إنه براهما ، الخالق ، وفيشنو الحافظ ، وسيفا المخرب . هذه هى  
الظواهر الثلاث للحقيقة القصوى ( الغائية ) ،

قلت : أخشى ألا أكون قد فهمت تماماً .

أجاب وابتسامة صغيرة على شفثيه وبريق فى عينيه ، وكأنه يسخر منى فى  
رفق ؛ « إن الإله الذى يمكن إدراكه ليس إلهاً : من هو الذى بمقدوره أن يفسر  
اللانهاى بالكلمات ؟ »

« قبض راحتيه معاً ، وبنفته انحنى وسار وتبدأ فى حال سبيله : ومكثت شاخصاً  
إلى هذه الرؤوس الغامضة ، ربما لأنى كنت فى حال تسمح لى بتقبل أى شىء ،  
وتأثرت تأثراً عجبياً ، وأنت تعلم كيف يحاول الإنسان أن يتذكر اسماً عندما يكون  
الاسم على طرف لسانه ، ولكنه لا يستطيع تذكره : كان هذا هو الشعور الذى

اختلج في صدرى في ذلك الوقت . فلما خرجت من الكهوف جلست برهة من الزمن على الدرج ، ونظرت إلى البحر . وكل ما كنت أعرفه من المذهب البرهمى آيات من شعر أمرسون (١) ، لحاولت أن أتذكرها . لقد تضايقت كثيراً لأنى لم أستطع ذلك . ولكنى عند عودتى إلى بومباى ذهبت إلى المكتبة بحثاً عن ديوان شعر يحوى هذه السطور . إنها في مجموعة « كتاب أ كسفورد للشعر الإنجليزى » فهل تذكرها ؟

، قوم يعرفون الشرم الذين يتركوتنى خارجاً .

حينما يطلقوتنى لأطير ، فأنا الأجنحة .

أنا المتشكك ، وأنا الشك .

وأنا التريفة التى يرتلها البرهمى .

، تناولت طعامى فى مطعم وطنى . ولما كان لزاماً على أن أكون على ظهر الباخرة فى الساعة العاشرة ، فقد ذهبت ومشيت فى الميدان ، ونظرت إلى البحر ، واعتقدت أنى لم أر عدداً كبيراً من النجوم فى السماء كما رأيت حينذاك . كان النسيم الرخاء جميلاً بعد يوم قاتظ . ووجدت حديقة عامة جلست فيها على صفة (٢) كان الظلام حالكا ، والهدوء يخيم على المكان ، وأشباح بيضاء تروح وتجي . وسحرنى هذا اليوم العجيب ، والشمس انشركة . والجواهر المرتدية الثياب الملونة . التى تبعث الضجيج والصخب . ورائحة الشرق ، الحادة العطرة . وكان الجو حولى يشبه تكويناً صورته فنان حينما يضع اللمة الأخيرة ليربط بين أجزائه . وكانت هذه الرؤوس العظيمة لبراهما ، وفيشنو وسيفا ، تهنى معنى غامضاً . ونبض قلبى

(١) رالف ودر أمرسون ( ١٨٠٣ - ١٨٨٢ ) فيلسوف وشاعر ومؤلف رسائل أمريكى .

(٢) دكا



بين جنبي نبضات مجنونة لأنى أحسست لجأة باعتقاد راسخ أن لدى الهندي شيئاً يمكنها أن تهبني إياه ، ولاح لي أن الفرصة قد سحقت وعلى أن أتهزها في هذا الزمان وذلك المسكان وإلا فقدتها إلى الأبد . قرعزى نهائياً وعقدت الخناصر على الذهاب إلى الباخرة فوراً . لم أكن قد تركت هناك شيئاً مذكوراً ، غير أشياء قليلة في حقيبة سفر صغيرة حملتها ويمت الحى الوطنى بحثاً عن فندق ، ووجدت واحداً بعد قليل فاستأجرت فيه غرفة . ولما لم يكن لدى غير الملابس التى أرتديها ، وبهمن النقود الصغيرة ، وجواز السفر ، وخطب حسابى فى المصرف ، فقد شعرت بأنى حر طليق وضحككت ملء رثى .

وكان موعد إقلاع الباخرة فى الساعة الحادية عشرة ، وركبى الأزم جانب الأمان لزمت غرفتى حتى هذه الساعة . ثم نزلت إلى رصيف الميناء . وراقبت السفينة وهى ترفع مرساتها ، وذهبت إلى إرسالية راماكريشنا (١) وبذلك ما وسعنى من الجهد للوصول إلى سوامى الذى تحدث معى فى الفاتنا . لم أكن أعرف اسمه ، ولكنى أوضحت لهم أنى أريد مقابلة السوامى (٢) الذى وصل مؤخراً من الإسكندرية . أخبرته أنى قد قررت البقاء فى الهند ، وسألته عما يجب على أن أراه . وجرى حديثنا طويلاً ، وأخيراً أخبرنى أنه ذاهب إلى بنارس فى تلك الليلة ، وسألنى عما إذا كنت أريد الذهاب معه . راقنتى الفكرة قتلقتها . سافرنا فى الدرجة الثالثة . كانت العرببة تفض بالمسافرين وهم يأكلون ويشربون ويسمرون . وكانت الحرارة مروعة ، ولم أحصل على سنة من النوم . وفى اليوم التالى كنت متعباً ، ولكن السوامى كان نشيطاً نظراً كزهرة الأثحوان وسألته كيف تم له ذلك ؟ فأجابنى قائلاً : بوساطة تأملى فى الذى لاشكل له . وجدت الراحة فى المطلق ، ولم أعرف فيم أفكر ، ولكن

(١) أحد تجعدات الآلهة فىشنو عند البراهمة .

(٢) السيد الهندى .

كان في مقدوري أن أرى بعيني رأسي أن الرجل كان متنبهاً شديد اليقظة ، وكانه قد قضى ليلة في نوم هادي عميق في فراش وثير .

« ولما وصلنا بنارس في النهاية ، أتى شاب في مثل عمري لمقابلة السوامي ، فطلب هذا منه أن يجد لي غرفة . كان اسم هذا الشاب ماهندوا ، وكان مدرساً في الجامعة . كان لطيفاً عطوفاً ، ذكياً ، ولاح لي أنه أحبني بالقدر العظيم الذي أحبته به . وفي هذا المساء أخذني معه في زورق في نهر الكنجج ، لقد كان المنظر جميلاً ، ومثيراً لي ، وقد ازدحمت المدينة بالجواهر المتداخلة حتى حافة النهر ، وكانت توحى بالهيبة والخشوع ، ولكن كان لديه في صباح اليوم التالي شيء أحسن من هذا يريه لي . جاءني في الفندق قبيل الفجر ، وأخذني إلى النهر مرة ثانية ، فرأيت شيئاً عجيباً لم يكن في قدرتي أن أعتقد أنه محتمل الوجود . رأيت ألوفا مؤلفة من الناس جاءوا لأخذ حمامهم النهي ، وللصلاة ، ورأيت من بينهم فتى طويل القامة نحيل الجسم ، له كتلة شعرك ، ولحية كبيرة شعناء ، لا يرتدي شيئاً سوى شريط يغطي حقويه ويستر عريه . كان واقفاً وقد مد ذراعيه طويلتين ، ويشمخ برأسه إلى أعلى ، وهو يصل إلى الشمس المشرقة . وليس في استطاعتي أن أصف لك الأثر الذي تركه في نفسي . قضيت ستة أشهر في بنارس ، وكنت أذهب كثيراً إلى نهر الكنجج في الفجر لأشاهد هذا المنظر العجيب الذي لم أتمكن من تهر عجي له . فهؤلاء الناس لا يؤمنون إيماناً قاتراً بنصف قلوبهم ، أو في تحفظ ، أو شك مزعزع ، ولكنهم يؤمنون بكل وجودهم وكيانهم .

« كان كل فرد منهم رقيقاً معي . ولما تبيينوا أني لم أجيء لصيد النمر ، ولا لشراء أو بيع شيء ما ، ولكنني جئت للدراسة لحسب ، عملوا كل ما وسعهم لم يد المساعدة إلى . وسروا سروراً عظيماً حينما علموا أني أرغب دراسة اللغة الهندوستانية . وجاءوا إلى بالمدرسين ، وأعاروني الكتب ، ولم يبد منهم الضجر مني أو الضيق بي وهم يجيبون عن أسئلتى . هل تعرف شيئاً عن الديانة الهندوكية ؟

.. أجبت : « قليلاً جداً . »

« اعتقدت أنه أمر بالغ الأهمية لي . أيوجد شيء أعجب من أن عالمنا هذا ليس له بداية . وليس له نهاية ولكنه يسير دائماً من النمو إلى الاتزان ، ومن الاتزان إلى التدهور ، ومن التدهور إلى الانحلال ، وهكذا دواليك إلى الأبد ؟ »

« وماذا يظن الهندوس فيما عسى أن يكون الهدف من هذا التكرار اللانهائي ؟ »

« أعتقد أنهم يقولون إن هذه هي طبيعة المطلق ، وأنهم يعتقدون أن الفرض من الخلق هو مرحلة للعقاب أو الثواب الذي تناله الروح في الوجود الأول . »

« وهذا يعني الاعتقاد في تناسخ الأرواح . »

« هذه عقيدة يؤمن بها ثلثا سكان العالم . »

« إن إيمان عدد كبير بعقيدة ما ليس ضاراً لصحتها . »

« لا ، ولكن معنى هذا أن الفكرة نفسها جديرة بالاعتبار ، فالمسيحية امتصت الكثير من الأفلاطونية الجديدة ، ولربما كان من السهولة بمكان القول بأنها امتصت هذه العقيدة أيضاً . ففي الواقع كانت توجد طائفة مسيحية قديمة آمنت بها ، ولكن رجل الكنيسة اعتبر هذا كفرأً وإلحاداً . وفيما عدا ذلك فالمسيحيون قد يؤمنون بهذا كما يؤمنون بقيامة المسيح من بين الأموات . »

« هل أكون على صواب إذا قلت إن هذا يعني أن الروح تمر من جسد إلى آخر في دورة لانهائية من التجربة ، بسببها ما قدمت من حسنات أو سيئات ؟ »

« ولكنك ترى أنني لست روحياً لحسب لكني جسدي أيضاً . ومن ذا الذي يمكنه أن يقرر تقريراً قاطعاً كيف أتكيف أنا — نفسي الفردية — بما يحل بجسدي ؟ أيمكن أن يكون بيرون هو ( بيرون ) لولا ساقه العرجاء ، أو دستوفسكي هو دستوفسكي لولا نوبات الصرع التي كانت تتأبه ؟ »

« إن الهنود لا يتحدثون عما يحدث بالجد ولكنهم يقولون بأن الأعمال في الحياة السابقة هي التي تفرض على الروح أن تتقمس جسداً غير كامل . ثم دق لارى المنضدة في تراخ ، وراح في تفكير عميق وهو ينظر في الفضاء . وحينئذ ، وبابتسامة خفيفة على شفثيه ونظرة مفكرة في عينيه ، وإلى حديثه . « هل دار بخلدك أن التناسخ هو تفسير أو تبرير لشرور العالم ؟ إذا كانت البلايا التي تقارفا هي نتيجة ما ارتكبنا من خطايا في حياتنا السابقة ، إذا لامكنا أن تتحلها في صبر وأمل . فإذا ما جاهدنا في هذه الحياة مولين وجوهنا نحو الفضيلة ، متوخين الخير فإن حياتنا المستقبلية ستكون أقل معاناة ، ولكان من السهولة بمكان أن نحتمل آلامنا ، وكل ما نحتاجه في هذه الحال مسكة من رجولة . أما الذي لا يمكن احتمالها فهو الشر — وهو غالباً ما لا يقدر في مظهره — الذي يجعل بالآخرين . فإذا ما اقتنعت بأنه النتيجة الحتمية لماض تأسى له ، فربما بذلت ما في وسعك لتحاى هذه النتيجة ، بل ويجب عليك أن تفعل ، ولن يكون سبباً للغضب . »

« ولأن لماذا لم يخلق الله عالماً متحرراً من الألم والبؤس منذ البدء عندما لم يكن هناك خير أو شر يحكم أعمال الإنسان ؟ »

« ويقول الهندوس إنه لم تكن هناك بداية ، فالروح وجدت جنباً إلى جنب مع الكون ، وسوف تدوم إلى الأبد الكلى ، وهي تدين بطبيعتها إلى وجود سابق . »

« وهل الاعتقاد بتناسخ الأرواح له أثر عملي في حياة الذين يعتقدون به ؟ على أية حال ، ذلك هو الاختبار . »

« أظن أن له أثراً . ويمكنني أن أخبرك عن رجل عرفته شخصياً ، كان لهذا الاعتقاد أثر عملي على حياته بكل تأكيد . ففي السنتين أو الثلاث الأولى التي قضيتها في الهند كنت أقيم في الغالب ، في الفنادق الوطنية ، ولكن بين الفينة والفينة كان

شخص يطلب مني أن أقيم معه . وعشت ضيفاً في جاه عريون في كنف أحد المهرجات . وبوساطة أحد أصدقائي في بنارس حصلت على دعوة للاقامة في إحدى الولايات الشمالية الصغيرة . كانت العاصمة جميلة (وكانت المدينة حمرام كالورد ونصف قديمة كالزمن) . وحملت توصية لوزير المالية ، وكان ذا ثقافة أوروبية ، فقد تلتى علومه في جامعة أكسفورد بإنجلترا . كنت إذا تحدثت إليه شعرت أنك تتحدث إلى شخص تقدمي ، وذكي ، مستنير ، وكان يتمتع بشهوة طيبة ، وبأنه وزير ذو كفاية ممتازة ، وسياسي ماهر حاذق . كان يرتدى الثياب الأوربية ، أنيق المظهر جداً ، وحن الصورة نوعاً ما ، أميل إلى البدانة ، شأن الهنود النصف . كان له شارب أنيق قصير جداً . وكثيراً ما كان يدعوني إلى منزله . وكان يملك حديقة كبيرة كنا نجلس فيها لتتحدث في ظلال الأشجار الضخمة . كان متزوجاً وله ولدان يافعان . إذا رأته حببته السيد الهندي العادي المألوف ، المستمك بالعادات والتقاليد والسلوك الإنجليزي . لقد ذهلت ذهولاً أقصدني اتزانى ووعي عندما علمت أنه في غضون عام ، وحينما يبلغ الحسين من عمره ، سوف يترك مركزه الذي يدر عليه مالاً وفيراً . ويتخلى عن أملاكه إلى زوجته وأطفاله ، ويذهب ضارباً في مناكب الأرض عاملاً . مستجدياً جائلاً . . . ولكن أغرب ما في الأمر هو أن أصدقاءه والمهرجا ، قبلوا هذا الأمر بوصفه لائقين فيه ولا إبرام ، واعتبروه إجراء عارفاً للعادة وإن كان طبيعياً .

قلت له ذات يوم . هل في قرارة نفسك وأنت رجل حر الفكر ، واسع العقل ، يدرف الدنيا ، وقرأ الكثير من العلم والفلسفة والأدب تؤمن بالتجدد بعد الموت . . .

بعد الموت . . .

« تغير وجهه كله وأصبح وجهه من يرى رؤيا ، وقال : يا صديق العزيز . إذا لم أومن بذلك لغدت الحياة لي بلا معنى . »

سألت . « هل تعتقد في التناسخ بالارى ؟ »

« هذا سؤال تصعب الإجابة عنه ، فلا أظن أنه من الممكن لنا نحن معشر الغربيين أن نعتقد في التناسخ ضمناً كما يفعل أهل الشرق ، فهو يجرى في دماهم ويمكن في عظامهم . ولكنه بالنسبة لنا رأى فحسب . أما أنا فلا أقره ولا أنكره . »

تريت هنية ونظر إلى المنضدة وقد استند رأسه على يده . ثم انكأ إلى خلف .

« أود أن أخبرك عن تجربة عجيبة حدثت لي مرة . كنت أتدرب على التأمل في غرقتي الصغيرة في ليلة ما في ( الأشراما ) (١) كما علمت أن أفضل أصدقائي من الهنود . وأضأت شمعة ، وكنت قد ركزت اهتمامي على لهيبها ، وبعد وقت ، ومن خلال لهيب الشمعة ، ولكن في وضوح بالغ ، رأيت صفاً من الأجسام يقف الواحد منها خلف الآخر ، وكان أولها سيدة نصفاً مرتدية قلنسوة من اللاس (٢) وخصلات شعرها الأشيب تسدل فوق أذنيها . وكانت ترتدي صدرية (٣) محكمة سوداء ، ونظارة (٤) من حرير أسود مزرقش . وهي الثياب التي كانوا يرتدونها في السبعينات على ما أظن ، وكانت تقف وتواجهني تماماً في موقف رشيق نجول

(١) صومعة الناسك

(٢) كلمة معربة معناها الدبيلة

(٣) الجزء الأعلى من ثياب سيدة ( البلوزة )

(٤) النظارة

وقد تدلت ذراعاها تماماً إلى جانبيها ، وراحتاها منحوى . كانت ترتسم على وجهها المتفضن معاني الحنان والعذوبة والرقة ، وخلفها مباشرة ، ولكنه كان منحرفاً إلى جنب حتى أمكنتني أن أرى الصورة الجانبية لوجهه بأفق المقوف كالحظاف العظيم وشفتيه السميكتين ، كان يهودياً طويلاً نحيلاً يرتدى حلة من الجباردين ، وقلنسوة صفراء تغطي شعر رأسه الكث الأسود ، وتبدو عليه نظرة العالم الجادة الثاقبة ، وتحيط به جهامة ، وفي الوقت نفسه حزم شديد وقلنسوة ولكن في مواجهتي وبوضوح متميز وكأنه لا يوجد أحد بيننا . كان هناك شاب بوجه مرح متورد ولايد أن تتحقق من شخصيته بأنه إنجليزي من رجال القرن السادس عشر ، وكان واقفاً في ثبات على قدميه وقد ابتعدت ساقاه قليلاً إحداهما عن الأخرى ، وكان يلبس رداء أحمر اللون كله ، وكان مهيباً جليلاً كأنه نوب بلاط ملكي ، وكان يتعل حذاء من القطيفة عريض المقدمة ، يضع على رأسه قانسوة منبسطة من القطيفة أيضاً . وخلف هؤلاء الثلاثة كانت تقف سلسلة لا نهاية لها من الناس مثل صف الواقفين أمام دار الصور المتحركة . ولكن كانت ملاحظ هؤلاء الناس مظلمة ولم يكن بوسعي أن أتبين ماذا عساها كانت تشبه . ولكنني كنت أحس بأشكالها الغامضة ، والحركة التي تمر بينهم مثل الحركة التي تمر خلال حقل من الحنطة عندما يهب نسيم الصيف . وفي مدى فترة قصيرة - ولا أذكر ما إذا كانت دقيقة أو خمس دقائق أو عشرة دقائق - تلاشت هذه الأجسام في ظلام الليل ولم يبق شيء غير ضوء الشمعة الثابت .

وابتسم لارى ابتسامة خفيفة .

طبعاً من المحتمل أني قد غفوت في نوم ورأيت حلاً . كما هو من المحتمل أيضاً أن التركيز من جانبي على الضوء الخافت قد بعث في نوعاً من التنويم المغناطيسي ، وأن هذه الأشكال الثلاثة التي رأيتها في وضوح كما أراك ، كانت ( م ٣٦ - حد الموصى )

ذكريات لصور محفوظة في اللاشعور ، وقد تكون هي نفسى في الأزمان الغابرة  
فن الممكن أنى كنت منذ زمن ليس بعيد جداً سيدة عجوزاً في إنجلترا الجديدة  
وقبل ذلك كنت يهودياً من الشرق ، وفي مكان ما ، في الماضي ، وبعد سيبتيان  
كابوت الذى أبحر من برستول ، نيلا كريماً في بلاط هنرى أمير الغال .

« وماذا حدث في النهاية لصديقك الذى من مدينة الوردية الحمراء ؟ »

« بعد انقضاء سنتين كنت في الجنوب في مكان يسمى ماديورا ، وفي ذات  
ليلة وأنا في المعبد لمسى شخص على ذراعى ، ونظرت حولى فرأيت رجلاً ذا لحية  
شعره طويل أسود ، لا يرتدى شيئاً ماعدا قطعة من قماش حول وسطه ، ويحمل  
عصا ، ومعه إناء الشحاذة الذى يحمله كل قديس . ولم أتحقق من شخصيته بادى  
ذى بدء حتى تكلم ، كان هو صديق . ودهشت حتى لئن لم أجد ما أقوله . سألتنى  
عما كنت أعمل ، فأخبرته بكل شىء . وسألتنى عن وجهتى ، فأخبرته أنى في طريقى  
إلى ترافنكور . فطلب منى أن أذهب وأقابل شيرى جانشا . قال : « إنه  
سيعطيك ما تبحث عنه . وسألته أن يخبرنى عن شيرى جانشا ، ولكنه ابتسم وقال  
أنى سأجد بنفسى كل ما هو ضرورى لى أن أعرفه حينما أراه . كنت قد تغلقت  
على دهشتى حينئذ ، فسألته عما كان يفعلته هو في ماديورا ، فأخبرنى أنه إذا ما قدم  
لله أحد مأوى تام في شرقه ، وإلا فهو ينام تحت شجرة أو في أرباض (١) المعبد .  
أما الطعام ، فإذا قدم له الناس وجبة تناولها ، وإذا لم يقدم الناس له الوجبة بقى  
بدونها . نظرت إليه وقلت : « لقد تقص وزنك كثيراً . » فضحك وأجاب : « إنه

---

(١) الأماكن المجاورة .



يشعر أن هذا أفضل له وأحسن . وهنا ودعني وكان عجبياً أن تسمع هذا الشاب شبه العاري ، والذي لا يرتدى إلا مئزراً حول حقويه يقول لك بالإنجليزية :  
« حسن . إلى اللقاء أيها الصديق القديم . ، ودخل مكاناً في المعبد حيث لا يمكنني أن أتبعه .

« ومكث في ماديبورا بعض الوقت . وأظن أنه للمعبد الوحيد في الهند الذي يمكن للرجل الأبيض أن يدخله . ويتجول في أنحائه بحرية . طالما أن أقدامه لا تطأ قدس الأقداس . وعندما خيم الليل غمس المكان بالناس . رجالاً ونساءً وأطفالاً وكان الرجال عراة حتى أوساطهم وهم يرتدون ( الداھوتى ) قد طلوا جباههم ، وغالباً صدورهم وأذرعهم ، بطبقة سميكة من رماد روث البقر الأبيض . كنت تراهم يركعون أمام معبد أو آخر ، وفي بعض الأحيان يستلقون على الأرض تماماً ووجوههم إلى أسفل ، في أثناء القيام بالطقوس الدينية للاسترحام . وكانوا يصلون ويقرأون الأوراد ، ينادى أحدهم الآخر ، ويحيي بعضهم البعض ، ويتشاجرون بعضهم مع بعض ويتحاجون في حماسة . ونشبت مشاجرة شريرة ؛ ولكن على الرغم من كل ذلك ، وبطريقة غامضة ، لاح أن الله قريب .

« وتمر خلال أهباء طويلة ، يعتمد فيها السقف على أعمدة منحوتة بها نقوش منحوتة أيضاً ، وعند أسفل كل عمود جلس شحاذا ديني . ووضع كل منهم أمامه إناء تجمع فيه التقدّمات ، ومنهم من وضع حصيراً صغيراً كان المؤمنون يلقون عليها من آن لآخر بقطعة نقود نحاسية . كان بعضهم يرتدى الثياب وبعضهم قد تجرد منها أوكاد ، والبعض ينظر إليك نظرات جوفاء وأنت تمر ، وكأنه ينظر في فراغ . والبعض يقرأ بهدوء ، والبعض الآخر بصوت مرتفع ، ويبدون وكأنهم لا يحسون بالحشود المتدفقة من حولهم . بحثت عن صديق بينهم ،

ولكنه كان قد اختفى إلى الأبد ، ولم أره قط مرة أخرى ، واعتقد أنه والى رحلته نحو هذه المنشودة .

« وما هو هذا الهدف المنشود ؟ »

« التحرر من أغلال الميلاد الثاني ، فالنفس ، - حسبما يقول الفيدياويون (١) - الذين يسمونها ( أتمان ) ونحن نسميها الروح - تختلف عن الجسم وحواسه ، وتميز عنه ، وتختلف عن العقل وذكائه ، وتميز عنه ، إنها ليست جزءاً من المطلق ، لأنه لما كان المطلق لانهاياً فلا يمكن أن تكون له أجزاء ، ولكنه هو المطلق نفسه ، فهو غير مستحدث ولكنه كائن من الأزل . وفي النهاية - حينما تلتقي ( النفس ) عنها بأقنعة الجهل السبعة - ستعود إلى اللانهاية التي منها جاءت . فهي كنقطة الماء التي ارتفعت من البحر ثم تساقطت شأيب في بركة صغيرة ، وبعدها اندفعت في جدول ماء ، ثم وجدت طريقها إلى نهر ، وبعد ذلك جرت في نهر ، مارة خلال أعاديذ الجبال ، وعبر سهول واسعة ملتوية ، وهناك ، تعرضت للصخور والأشجار المتساقطة ، إلى أن تصل إلى البحار غير المحدودة التي نشأت فيها . »

« ولكن هذه النقطة الصغيرة المسكنة من الماء ، وحينما اتحدت مرة أخرى مع البحر فقدت فرديتها ، »

ابسم لارى ابتسامه ساخرة :

« إنك تريد أن تنفق السكر ولكنك لا تريد أن تكون سكرأ . فهل الفردية

---

(١) شيعه هندية استمدت تعاليمها من كتب الفيديا وهي أربعة كتب مقسمة عند الهندوس تحتوي على التراويل مكتوبة باللغة السنسكريتية القديمة .

شيء غير التعبير عن الأتوية (١) فينا؟ فالألم تفضى الروح عنها آخر أثر لهذا فلا يمكن أن تتحد مع المطلق .

« إنك تتحدث عن المطلق كشيء مألوف ، بالارى ، إنها كلمة مهيبة فإذا تعنى هذه الكلمة ، حقا عندك ؟ » .

« الحقيقة أنه لا يمكنك أن تقول ما هي . يمكنك أن تقول ما ليس إياها لحسب . هي كلمة لا يمكنك التعبير عنها ، والهنود يسمونها « براهما » وهي ليست في أى مكان ولكنها في كل مكان ، وكل الأشياء تحويها وتعتمد عليها ، فهي ليست شخصاً ، وليست شيئاً ، وليست علة : إنها ليست ذات صفات ؛ ولكنها تفوق الدوام والتغير ، الكل والجزء ، النهاى واللانهاى . إنها خالدة لأن كالمها وتمامها لا يتصلان بزمن ، إنها الحق والحرية » .

قلت لنفسى : « سخيف ، ولكنى قلت للارى : « ولكن كيف يمكن أن يكون مدرك عقلى بحت تعزية للجنس البشرى المتألم ؟ لقد كان الناس دائماً في حاجة إلى إله شخصى يمكنهم الالتجاء إليه في وقت الضيق طلباً للعزاء والتشجيع » .

« من المحتمل أنه في يوم بعيد سيكون لدى الناس استنواء داخلى أعظم مما لديهم الآن فيرون لزاماً عليهم أن ينشدوا العزاء والتشجيع في داخل أنفسهم . فأنا نفسى أظن أن الحاجة إلى العبادة ليست أكثر من بقايا ذكرى قديمة عن آلهة قساة كتب على الناس استمالتهم أو استعطفهم ، فأنا أعتقد أن الله إما في داخلى وإما أنه غير موجود في أى مكان آخر . فإذا ما كان الأمر كذلك فن هو ؟ وأى

---

(١) مشتقة من ( أنا ) - وهي مذهب الألمانين .

شيء سأعبد؟ هل أعبد نفسي؟ إن مستويات الناس في التقدم الروحي تختلف ،  
وبهذا طور خيال الهند ظواهر المطلق المعروفة بـبراهما ، وفيشنوا ، وسيفا ،  
ومئات من الأسماء الأخرى . والمطلق موجود في (أسفارنا) خالق وحاكم هذا  
العالم ، وهو في الفتش (١) البسيط الذي يضع أمامه الفلاح في حقله الذي أحرقه  
الشمس قرابين الزهر ، وما آله الهند الكثيرة غير وسائل تؤدي إلى اتحاد النفس  
مع النفس العليا ، ،

### ونظرت إلى لاري مفكراً

قلت : « إنني لأعجب مما عساه أن يكون ذلك الدافع الذي جذبك إلى هذا  
الدين القاسي ، .

ويمكنني أن أخبرك لقد كنت أشعر دائماً أن ثمة شيئاً مؤثراً في موسى  
الدين الذين جعلوا الإيمان بهم شرطاً للخلاص ، وكأنهم في حاجة ماسة إلى  
إيمانك لكي يكون لهم إيمان في أنفسهم ، وبذا يذكرونك بالآلهة الوثنية الأولى  
التي تحزن وتكتئب وتخور وتضعف إذا لم تقو بقرابين المحرقات يقدمها  
المتعبدون ، إن إديتنا لا يطلب منك أن تأخذ شيئاً على عواهنه في ثقة ، ولكنه  
يطالبك بأن تكون لديك رغبة شديدة ملححة لمعرفة الحقيقة ، ويصرح بأن من  
الممكن أن تحبب اللذة والألم ، ويوجد رجال في الهند اليوم مئات من الرجال كما  
أعرف لديهم اليقين بأنهم فعلوا هذا ، ووجدت شيئاً مرضياً جداً في هذه الفكرة ،  
فكرة أنه يمكنك الوصول إلى الحقيقة بواسطة المعرفة ، وفي عصور تالية صرح  
حكما الهند - مقرين بضعف الطبيعة البشرية - بأن الممكن نيسل الخلاص عن  
طريق المحبة والأعمال الصالحة ، ولكنهم لم يذكروا أن طريق المعرفة هي أنبل

(١) كلمة معربة معناها ( البهد ) وهو ضرب من الأسمان .

الطرق على الرغم من أنها أوعرها ، لأن أدواتها أثمن ملكات الإنسان ، إلا  
وهي العقل ، .

( ٧ )

يجب أن أتوقف هنا لأبين بوضوح أتق لا أحاول أن أوضح شيئاً من قبيل  
وصف المذهب الفلسفي المعروف ( بالفيديا ) - فليست لدى المعرفة التي تمكنني  
من أن أفعل هذا . ولكن حتى لو كانت لي هذه المعرفة فليس المجال هنا مناسباً  
لذلك . كان حديثنا مستفيضاً ، وسم على لاري قدراً عظيماً شعرت أنه أكثر مما  
يمكن تدوينه في صورة ما يمكن تسميتها رواية في نهاية الأمر . إن اهتمامي مقصور  
على لاري ، وكان من الواجب ألا أقرب قط مثل هذا الموضوع المعقد المتشابك  
لولا أنه بدا لي أنه - بدون سرد بسيط ، على الأقل ، لآرائه وخبراته الفريدة التي  
ربما كانت سبب تكوين هذه الآراء - لا يمكنني أن أمتدح مسلكه الذي اهتدى  
إلى التمسك به ، والذي سأخبر القاري عنه بعد قليل . إنه لما يضايقني ألا يكون لي  
أمل بكلماتي الجردة أن أعطي للقاري فكرة واضحة عن جمال صوت لاري ، هذا  
الجمال الذي كان يملأ حديثه - حتى الحديث العرضي المحض - بالإقناع . أو عما فيه  
تغير متصل في تعبيره الذي ينتقل من الجاد إلى المرح اللطيف ، ومن التأمل إلى  
اللاهى ، وكان يلازم أفكاره مثل تموجات أنغام المعزف حين تصاحبه السكبان  
مرتلة أنغاماً طاغية تحكي موضوعات عدة في الكونشرتو ، فعلى الرغم من أنه كان  
يتحدث عن أمور جلادة كل الجدة ، إلا أنه كان يتحدث عنها حديثاً طبيعياً للغاية ،  
وبأسلوب الحديث ولهجته اللذين يشوبهما التواكل والإحجام ، ولكنه لم يكن  
يبدل جهداً أكثر من الجهد الذي يبذله عندما يتحدث عن الطقس أو الحاصلات ،

بخاذا كنت قد تركت في نفس القارى انطبعا بأن ثمة شيئاً تعليمياً كان في أسلوبه فالحظاً يقع على وحدي ، فقد كان تواضعه واضحاً مثل إخلاصه .

وكانت ثمة فئة قليلة من الرواد متأثرين هنا وهناك في المقهى ، فقد خرج الضاحجون الصاخبون منذ أمد طويل ، أما المحزونون الذين جعلوا من الحب شغلهم الشاغل فقد انصرفوا إلى ما كنهم الكئيبة ، ومن وقت لآخر كان رجل يادى الإعياء يحمى في طلب كأس من الجمعة وشطيرة ، أو آخر يلوح أنه بين اليقظة والنوم جاء ليشرّب قهحاً من القهوة ، بينما هو أحد كبار العمال من ذوى الياقات (١) البيضاء . وكان أحدم في نوبة عمل الليل ويعود إلى فراشه في منزله . والآخر وقد أيقظته الساعة المنبهة . كان في طريقه ، غير راض ، إلى عمله اليومى الطويل . وظهر أن لارى غير شاعر بالوقت كما أنه غير شاعر بما حوله . أما أنا فطالما وقفت في حياتى مواقف عجيبية كثيرة ، وكنت غير مرة قيد شعرة من الموت ، وغير مرة بلوت الغرام وعشته ، وركبت فرساً عبر آسيا الوسطى في الطريق الذى سلكه الرحالة ماركو بولو إلى أرض السحر فى كاتماى فى الصين ، ورشفت الشاى الروسى فى مضافة أنيقة فى بتروغراد ، وأخبرنى رجل صغير الجسم حلو الحديث يرتدى سترة سوداء وسراويل مخططة كيف اغتسال دوقاً عظيماً . وجلست فى غرفة الاستقبال فى وستمنستر (٢) واستمعت إلى ثلاثى البيانو الحلو الهادى لهايدن (٣) والقنابل قصف فى الخارج ، ولكنى لم أجد نفسى فى موقف أعرب من هذا ما جلست على المقاعد الحمراء فى المطعم حيث تسطع الأنوار المتلألئة ، والساعات تترى ، ولارى يتحدث عن الله والحلود وعن المطلق وعن دوران عجلة الصيرورة السرمدية .

(١) كناية عن أصحاب الدخول الكبيرة من العمال .

(٢) من مجلس الصوم البريطانى .

(٣) موبتاز مشهور .

(٨)

ظل لارى صامتا لدقائق قليلة ، ولما كنت لا أرغب فى أن أستعجله ، فقد انتظرت وبعد لحظة قصيرة منحنى ابقسامه صغيرة رقيقة . وكأنه على حين لحاة أحس بوجودى مرة ثانية .

، وعندما هبطت ترافانكور وجدت أنه لم تكن بى حاجة للسؤال عن شيرى جانشا فالجميع يعرفون عنه ، فقد عاش سنوات كثيرة فى كهف فى أحد الجبال ، ولكنه فى النهاية أغرى على الانحدار إلى السهل حيث وهبه شخص محسن بقعة من الأرض بقره فيها مسكنا صغيراً . وكانت المسافة طويلة بين ترافانكور والعاصمة ، واستغرقتى الرحلة يوماً كاملاً ، بالقطار فى أول الأمر ثم بالعربة التى يجرها الثيران حتى وصلت إلى ( الأشراما ) ولقيت شاباً بمدخل مجموعة المساكن ، وسأته عما إذا كان يمكنى مقابلة الیوجى ، كنت قد أحضرت معى سلة الفاكهة ، وهى الهدية التقليدية التى تقدم . وفى مدى دقائق قليلة عاد الشاب وصحبى خلال بهو طويل ذى نوافذ فى جميع الجوانب ، وجلس فى أحد الأركان شيرى جانشا فى وضع التأمل على منصة مرتفعة مغطاة بجلد النمر . قال « لقد كنت فى انتظارك ، فتولتى الدهشة ولكننى ظننت أن صديقى فى ماديورا كان قد أخبره بشئ عنى . ولكنه هز رأسه عندما ذكرت اسمه . قدمت هديتى من الفاكهة ، فطلب إلى الشاب أن يحملها ويذهب بها ، وتركنا وحيدين ، ونظر إلى فى صمت . ولا أدوى كم طال صمته ، من المحتمل أن يكون قد استمر نصف ساعة . لقد أخبرتك من قبل عن الصورة التى كان يبدو بها ، أما ما لم أخبرك به فهو الصفاء الذى كان يتألق حوله ، والصلاح والسلام والإيثار ،

كان الطقس حاراً وكنت متعباً بعد زحلي ، ولكنى بدأت أشعر رويداً  
رويداً براحة عجيبة ، وقبل أن يفوه بكلمة أخرى ، عرفت أنه ذلك الرجل  
الذي كنت أنشده ،

قاطعته مسائلاً : « هل كان يتكلم الإنجليزية ؟ »

« لا ، ولكنك تعرف أني سريع تعلم اللغات ، كنت قد التقطت بعض  
كلمات كافية من لغة تامليل (١) لكي أفهم ما يقال ، وأمكن من يسبغني في  
الجنوب من فهمي وأخيراً تكلم .

سألني : « ولماذا جئت إلى هنا ؟ »

« بدأت أقص عليه كيف حدث لي أن جئت إلى الهند ، وكيف قضيت وقتي  
طيلة ثلاث سنوات ، وكيف — بعد أن قرأت تقريراً عن حكمتهم وقداستهم  
— تقلت من رجل مقدس إلى آخر ولم أعثر على أحد يعطيني ما بحثت عنه . قاطعتني

« إنني أعلم كل ذلك ، وليست بك حاجة لأن تخبرني به لماذا جئت إلى هنا ؟ »  
أجبت : « لتكون رائدي . »

قال : « إن البرهمي وحده هو الرائد . »

واستمر ينظر إلى بقوة غريبة ، وحينئذ وعلى حين غرة — تصلب جسمه ،  
وبدت عيناه تتحركان إلى الداخل ، ورأيت أنه قد راح في الفيوبة التي يسميها  
الهنود « ساما داهي » والتي يكون لهم فيها ثنائية الذات ، ويتلاشى الجسم  
ويصبحون معرفة مطلقة . كنت أجلس القرفصاء على الأرض أمامه ، وقلبي ينبض  
بعنف وبعد زمن لا أعرف مداه تنهد ، واكتشفت أنه قد استرد وعيه العادي .

---

(١) اسم جنس يعيش في الهند الجنوبية واسم لغتهم أيضا .



ونظر إلى نظرة عذبة ملؤها الحنان والحب .

قال : « امك معنا وسوف يرونك أين تام . »

« أعطوني الكوخ الذي عاش فيه شيري جاننا حينما هبط هذا السهل لأول مرة ، ولقد بنى هذا البهو الذي يقيم فيه الآن ليلاً ونهاراً حين تجمع حوله المنريدون وجذبت شهرته إليه الأتباع وأكثر وأكثر لجمالها والزيارته. ولكيلاً كون ملفتاً للنظر ارتديت الثياب الهندية المريحة ، ولفحتي الشمس بسعة شديدة حتى أني مالم أسترع اقتباهك لظننتني مواطناً هندياً . قرأت الكثير جداً ، وتأملت ، واستمعت إلى شيري جاننا عندما كان يميل إلى الحديث ، إذ أنه كان مقلداً في حديثه ، ولكنه كان دائماً راعياً في الإجابة عن الأسئلة التي تاتي عليه ، وكان في الاستماع إليه وحى عجيب . كان حديثه الموسيقى في أذنيك . وعلى الرغم من أنه في شبابه قد مارس زهداً صارماً جداً فإنه لم يفرضه على حواريه أو يوصيهم به . كان يستهدف تحريرهم من عبودية حب الذات ، ومن الهوى والحس . وعلمهم أن بمقدورهم أن يتحرروا بالهدوء ، وكبح جماح النفس ، والزهد في متاع الغرور ، والتسليم للقدر ، وثبات العقل ، وبالرغبة الصادقة في الحرية . راعى الناس أن يجيئوا إليه من البلدة القريبة التي على مسيرة ثلاثة أميال أو أربعة ، حيث يوجد معبد مشهور تدفق إليه من ثريفاندروم ، ومن بلاد قاصية ، ليخبروه بمتاعبهم ، أو ليسألوه النصيحة ويستمعوا إلى تعاليمه . وكان الجميع ينصرفون وقد تقوت أرواحهم وصاروا في سلام مع أنفسهم . كانت تعاليمه بسيطة جداً . كان يعلم الناس أننا أعظم مما نعرف ، وأن الحكمة هي وسيلة الحرية . علم الناس أن العزلة عن الدنيا ليست ضرورية للخلاص ولكن الضروري هو إنكار الذات وحده وعلمهم أن العمل الذي لا يستهدف صالحاً ذاتياً يظهر العقل ، وأن الواجبات الملقاة على عاتق الإنسان هي فرص تقدم

إليه ليغرق ذاته المنفصلة ويتحد مع الذات العامة . ولكن لم تكن تعاليمه هي  
أعجب شيء فيه ، وإنما العجيب حقا كان الرجل نفسه : وداعته ، عظيمة ووجهه ،  
وقدسيته . كان وجوده يمناً وبركة . وكنت سعيداً جداً معه . وشعرت أخيراً  
بأني وجدت ما كنت أبحث عنه . ومررت الأسابيع والشهور بسرعة لا يمكن أن  
يتصورها العقل ، وعرضت عليه المسك إما إلى أن يموت - فأخبرنا أنه لا يقتوى  
أن يسكن جسده الفاني زمناً أطول كثيراً مما عاشه ، ولما إلى أن أحصل على  
التجلى ، تلك الحال التي تحطم فيها ، في النهاية ، أغلال الجهل ، وتعرف بالتأكيد  
ودون منازع ، أنك والمطلق متحدان .

« وحينئذ ؟ »

« والآن ، إذا كان ما يقولونه صدقاً ، فلم يبق شيء يقال . فإن مسار الروح  
على الأرض قد انتهى ولن تعود مرة أخرى . »

سألت : « وهل مات شيرى جانشا ؟ »

« لم يمك حساباً أعرف ، »

وإذ هو يتكلم أدرك مغزى سؤال وضحك ضحكة خافتة . ووالى حديثه بعد  
لحظة تريث ، ولكن في حال جعلتني أظن أولاً أنه أراد أن يتحامي الإجابة عن  
السؤال الثاني الذي عرف جيداً أنه على طرف لساني ، والسؤال ، طبعاً ، هو ما إذا  
كان قد حصل على التجلي .

« لم يكن مكش في ( الأشراما ) متصلاً . فقد كنت حسن الحظ إذ توطلت  
المعرفة بيني وبين ضابط طبيب جراح ، كان مقر إقامته الدائم على مشارف قرية  
عند سفح الجبال . كان ولياً لشيرى جانشا . وحينما كانت تتاح له الفرصة  
ليفلت من عمله كان يجيء ويقضى معنا يومين أو ثلاثة أيام . كان قتي لطيفاً ،

وكثيراً ما كنا نتحدث حديثاً طويلاً معاً . وكان يجب أن يتدرب على الإنجليزية على يدي . وبعد أن عرفته لبعض الوقت ، أخبرني أن خدمة الجراحة الطبية لها بنجل (١) في أعلى الجبال ، وأنه إذا ما عن لي أن أذهب إلى هناك ذات يوم لآخو إلى نفسى سوف يعطينى المفتاح ، فكنت أذهب إلى هناك من آن لآخر . كان على مسافة تستغرق رحلة يومين ، وعلى المسافر أن يذهب في سيارة الأجرة العامة إلى قرية الضابط الطبيب الجراح ، ومن ثمة مشياً على الأقدام . ولكن عندما تصل إلى هناك يصبح المكان رائعا في عظمتة وعزلته . فأخذت ما تيسر في حقيبة مثبتة على ظهري واستأجرت حمالا ليحمل مئوتى ، ومكثت حتى فقدت . لم يكن هذا البنجل غير باب صغير من كتل الخشب ، ذى مطبخ في الخلف . أما عن الأثاث فلم يكن يوجد منه إلا سرير مكون من قوائم توضع عليها حصيرة النوم ، ومنضدة ومقعدان وكان الطقس رطباً لطيفاً هناك في المرتفعات ، وكان جميلاً في بعض الأحيان أن توقد ناراً في الليل . كانت تنبعث في نشوة عجيبة إذ أعرف أنه لا توجد في نفس بشرية حية على بعد عشرين ميلاً منى . وفي الليل اعتدت سماع زئير النور ، وعجيج الفيلة وهى تشق طريقها خلال الأدغال ، كما اعتدت أن أسير مسافات طويلة مشياً على الأقدام في الغابة . كن يوجد ثمة مكان واحد أحببت الجلوس فيه لأننى كنت أرى منه الجبال تمتد أمامى وأسفل منى ، وبحيرة تردها للشرب ، في كدرة الفجر ، الحيوانات البرية من الغزال والخنزير والثور والفيل والتمر الأرقط .

بعد أن قضيت في (الأشراما) عامين لحسب صعديت إلى معتزلى في الغابة لسبب سوف يملك على الابتسام . فقد أردت أن أقضى يوم عيد ميلادى فيه ،

(١) كلمة عربية معناها بيت صغير من صابن واحد ، والكلمة هندية .

هوصلت إلى هناك في اليوم السابق له . وفي صباح اليوم التالي استيقظت قبل الفجر ، وفكرت في الذهاب لأشاهد شروق الشمس من المكان الذي أخبرتك عنه آنفا . كنت أعرف الطريق وأنا معصوب العينين . جلست تحت شجرة وانتظرت . كان الوقت ما يزال ليلاً ولكن النجوم كانت قد سبحت في السماء . ولاحظت تبشير النهار الوليد . وكان لدى إحساس غريب من الترقب والانتظار وشيئا فشيئا حتى كدت لا أحس به ، بدأ الضياء ينساب من خلال الظلام ، بطيئا كشبح غامض يتسلل بين الأشجار . وشعرت بقلبي ينبض ، وكأنه يتوجس خطراً قادماً . وأشرقت الشمس .

تمهل لارى قليلا وتلاعبت ابتسامه أسيفة على شفتيه .

« ليست لدى موهبة الوصف . فأنا لأعرف الكلمات لأرسم صورة ، وليس بمقدوري أن أخبرك ، حتى أمكنك من أن ترى ، كم كان المنظر الذي أظهر أمامي عظيماً جليلاً إذ بزغ النهار في أروع حلة . فهذه الجبال بأجسامها العميقة ، والضباب الذي ما يزال متكاثراً على قمم الأشجار ، ثم البحيرة التي لاقرار لها على انخفاض بعيد من تحتي ، والتي سقطت أشعة الشمس عليها من خلال شق في المرتفعات قلبت كالصلب الصقيل الجلو ، جعلت أعطاف تتهز فرحاً وغبطة بسحر الدنيا وجمالها ، فلم أعرف قط في حياتي من قبل مثل هذا السمو ، ولم أتذوق مثل هذا التهلل الأسنى ، وانبعث في أوصالي إحساس غريب وثار صليل في قدي وارتفع صاعداً إلى رأسي . وشعرت وكأنني قد تحللت لجأة من جسدي وصرت روحاً طاهرة في جمال لم أدركه قط من قبل في حياتي ، واستولى على شعور بأن معرفة تفوق معرفة الإنسان قد تملكنتني ، وبذلك صفا كل ما كان مشوشاً ووضوح ، ووجدت لكل ما كان يحيرني تفسيراً . كنت سعيداً بأنه كان الماء وجاهدت كي أتحرر من أسرهِ ، لأنني شعرت بأنه إذا ما طال أمده لحظة واحدة فإني لا محالة

حانت ، ومع ذلك فقد كان مثلاً للنشوة التي أفضل الاستمتاع بها مع الموت على  
الحرمان منها مع الحياة . وكيف أصورك شعورى ؟ فالكلمات لا يمكن أن  
أن تبين عما فى نشوتى من سعادة ، حيناً أقنت لنفسى كنت منك القوى وأرتعش  
واستغرقت فى سبات عميق .

« كان الظهر قد حل عندما استيقظت ، فعدت إلى البنجل . وكنت طروباً  
حتى بدلى أنى أكاد لأمس الأرض . أعددت بهن الطعام ، يا إلهى ! لقد كنت  
جرحان ، أشعلت غليونى ، .

وأشعل لارى غليونه إذ ذاك .

« ولم أجرؤ على الظن أن هذا كان تجلياً ، وأتى أنا لارى دارل من مارفن ،  
فى مقاطعة إلينوى قد تلقيت ، وأن آخرين ما يزالون فى انتظاره وهم يناهزون فى  
سبيله لسنين كثيرة بالتحفف ، والزهد ، والنسك ، وقع الشهوات ، .

« ما الذى يحمك على الظن بأنه لم يكن أكثر من حال تنويم مغناطيسى  
بمبتها حالك العقلية المختلطة بخلوة الفجر وسره الغامض ، وبجبرتك المتألقة  
كالصلب الصقيل ؟ ، .

« ولم تكن أية قوة أخرى تسيطر على غير حقيقتها ( النشوة ) الفائرة التاهرة  
فعلى أية حال كانت تجربة من رتبة تلك التجارب نفسياً التي يجربها الناسك ، فى  
جميع أنحاء العالم ، على مر العصور ، البراهمة فى الهند ، والصوفيون فى إيران ،  
والكاثوليك فى أسبانيا ، والبرتستانت فى إنجلترا الجديدة ، وبقدر ماوسمهم  
الجمهد أن يصفوا ما يجمل عن الوصف قد وصفوها فى اصطلاحات ماثلة . إنه  
لمن المستحيل إنكار حقيقة حدوثها ( نشوة التجلى ) ، إن الصعوبة الوحيدة حيالها

هو وصفها ، أما إذا كانت في لحظة ما اتحاداً مع المطلق ، أو إذا ما كانت انبثاقاً  
من لاوعى المقربة (١) للروح الكلية الكامنة فينا جميعاً ، فلا أدري ، .

توقف لارى عن الحديث برهة ثم رماني بنظرة ساخرة ، وسألني :

« وهذه المناسبة ، هل يمكنك أن تلس خنصرك بإبهامك ؟ »

قلت وأنا أورى هذه الحركة بالوسيلة المناسبة : « طبعا يمكنني ، »

« هل تعرف أن هذا العمل حركة لا يمكن أن يؤديها إلا الإنسان والرئيسات (٢) ؟  
لحسب ؟ ولأن الإبهام تعارض الأصابع الأخرى أصبحت اليد الآلة الجديرة  
بالإعجاب كما هي . أليس من الممكن أن الإبهام المعارضة ، في صورتها البدائية  
كانت في بعض أفراد السلف البعيد للإنسان والغوريلا ، ثم تطورت لحسب وصارت  
خاصيته في الجميع بعد عدد لا يعد ولا يحصى من الأجيال ؟ أليس من المحتمل  
على الأقل أن تكون هذه التجارب في الاتحاد مع الحقيقة ، التي لدى أشخاص  
كثيرين متباينين ، تصير إلى تطور في الوعي الإنساني لحاسة سادسة سوف تصبح  
في المستقبل البعيد ، البعيد جداً ، عامة في جميع الناس لدرجة أن يكون لهم إدراك  
مباشر للطلق كما لنا الآن إدراك للأجسام المحسوسة ؟ »

« يمكنني أن أقول لك ، في إيجاز . إنني كما اكتشف المخلوق الأول قدرته على  
لمس خنصره بإبهامه أستطيع أن أبين لك النتائج اللاهائية التي تتضمنها هذه الحركة  
التأفة . وعلى قدر ما يخصصني في هذا المقام يمكنني فقط أقول لك إلى حساسية

---

(١) القرب من الله - تصوف

(٢) الرئيسات أرق أنواع الثدييات ومنها الإنسان .

الآمن القوية والمرح والثقة ، التي تملكتنى في هذه اللحظة من الاسترواح (١) ما يزال كامنة في الآن ، وأن رؤيا جمال العالم ما زالت واضحة حية الآن في ذهني كما جرت عيني لما رأتها لأول مرة . .

« ولكن يا لارى ، من المؤكد أن فكرتك عن المطلق تضطرك إلى الاعتقاد بأن العالم وجماله هما مجرد وهم من نسج خيال المايا (٢) . .

« إن من الخطأ أن تظن أن الهنود يعتبرون العالم وهما ، فهم لا يعتقدون هذا . إن كل ما يقولون به إنه (جمال العالم) ليس حقيقياً بالمعنى نفسه كالمطلق . إن المايا (٣) ما هي إلا وسيلة ابتكرها المفكرون الفيورون لتفسير كيف أن اللانهائي يمكن أن ينتج النهائي . إن ساما كرا ، وهو أحكمهم جميعاً ، قرر أنها سر مفلق لا يمكن كشفه ومشكل غامض لا يمكن حله . فكما ترى أن الصعوبة هي أن تفسر لماذا يجب براهما وهو الكائن ، والبركة والعقل الأول ، الذي لا يتغير ، وهو الكائن دائماً وسيدوم وهو في سلام ، والذي لا يحتاج إلى شيء ، وهو الكامل ... لماذا يجب أن يخلق العالم ؟ حسن ، إذا سألت هذا السؤال فإن الإجابة التي تتلقاها عنه غالباً هي أن « المطلق ، خلق العالم تسليته دون أن يستهدف غرضاً ما ! ولكنك عندما تفكر في الفيضان ، والجماعة وفي الزلازل والأعاصير ، وفي كل الشرور التي ورثها الإنسان يثور شعورك الأدبي لفكرة أن هذا كله قد خلق للهو . كان شيرى جانيشا رقيق القلب إلى حد جعله لا يصدق ذلك ، كان يعتبر العالم تعبيراً عن المطلق وأنه فيض كاله . وكان يعلم أن الله خالق العالم الذي هو مظهر لطبيعته . وعندما سألت : كيف كان ذلك ؟ إذا كان العالم مظهراً لطبيعته

(١) الذبوة — الاستغراق في السرور

(٢) قبيلة هندية في أمريكا الوسطى وكانت فم حضارة عظيمة عند كشف أمريكا

(٣) افة قبيلة المايا في أمريكا الوسطى — أو أحد أفرادها

( م ٢٢ - حد الموصى )

كائن كامل ، فإنه لأمر مكروه أن يكون الغرض الوحيد الذي يهدفه الإنسان هو أن يحرر نفسه من أغلال هذا العالم . فأجاب شيرمي جانيشا بأن مسرات العالم زائلة ، وأن اللانهاى وحده هو الذى يهب السعادة الباقية . ولكن الدوام الأبدى لا يجعل ما هو حسن أحسن ، ولا يجعل ما هو أبيض أكثر بياضاً . فإذا ما قعدت الوردة فى الظهيرة ، ما كان لها من جمال فى الفجر فإن الجمال الذى كان لها آتتد جمال حقيقى . فإنه لا يوجد شىء دائم فى العالم ، ونحن نكون حتى إذا طلبنا شيئاً خالداً لا يبلى ، ولـكننا بكل تأكيد نكون أكثر حقاً إذا لم نستمع بما هو زائل وهو فى أيدينا . فاذا كان التغير هو جوهر الوجود لاعتقد الإنسان أن المعقول لحسب هو أن يجعل هذا وحده مقدمة فلسفتنا . فالإنسان الواحد منا لا يمكنه أن ينزل فى النهر نفسه مرتين ، ولكن النهر يجرى والنهر الآخر الذى تنزل فيه رطب ومنعش أيضاً .

• عندما جاء الآريون لأول مرة إلى الهند رأوا أن العالم المعروف لنا ما هو إلا مظهر للعالم الذى لا نعرفه ، ولـكنهم رحبوا به بوصفه خيراً وجيلاً ، ولم يدركوا أن فى الحياة شراً فقط ، وتطلعوا إلى التحرر من عودتها إلا بعد قرون ، وبعد أن أضام الفتح ، وعندما استنزف المناخ الموهن حيويتهم وقعوا قريسة لمحافل الغزاة الفاتحين . ولـكن لماذا نحن أهل الغرب ، والأمريكيين بخاصة ، يربنا الفساد والموت ، الجوع والظلم ، المرض والشيخوخة ، والحزن والحداق ؟ إن روح الحياة قوية فينا . وشعرت أنى أكثر حياة حينئذ . إذ جلست داخل حجرى الصغيرة الخشبية أدخن غليونى ، أقوى من أى وقت مضى من قبل ؟ شعرت أن بداخلى طاقة تصيح طالبة الانطلاق ، ولم يكن من صالحى أن أترك العالم وأعتزل العالم فى دير ، ولـكن كان لزاماً على أن أعيش فى العالم وأحب الأشياء التى فيه ، لا من أجل هذه الأشياء نفسها ، ولكن من أجل اللانهاى الكامن فيها . وفى لحظات النشوة هذه كنت حقاً متحدداً مع المطلق ، وحينئذ إذا



كان ما قالوه حقاً فلا يمكن لشيء أن يلسق . وعندما أكون قد أنعمت ( كارما ) (١) حياتي هذه فيجب ألا أعود إلى الحياة مرة أخرى . وملأني هذا الفكر بالرعب والفرح . فاني أريد أن أعيش ثانية ، وثانية ، لأقبل كل ألوان الحياة ، مهما كانت آلامها وأحزانها ، وشعرت أنها وحدها الحياة بعد الحياة ، الحياة بعد الحياة هي التي يمكن أن تروى رغبتى واقتدارى وتشوقى .

وفي الصباح التالي بدأت أهبط الجبل ووصلت في اليوم الذي بعده إلى ( الأشراما ) ودهش شيرى جانيشا لرؤيتي في الملابس الأوربية . كنت قد ارتديتها في ( البنجل ) الخاص بالضابط الطبيب الجراح الهندي عندما بدأت السير صعداً على الجبل لأن الطقس كان أبرد هناك ، ولم أفكر في استبدال غيرها بها .

قلت : « لقد جئت لأودعك ، أيها السيد . فاني حائد إلى أهلي وعشيرتي ، . لم ينبس بينت شفة . كان جالساً كالألوف عادته وقد صلب ساقيه على جلد النمر فوق المنصة . وكان عود من الطيب يحترق في وعاء نحاسي أمام المنصة ، وقد عطر المكان برائحته الذكية الخفيفة . كان وحيداً كما كان في اليوم الأول الذي رأيته فيه ؛ ونظر إلى بقوة نظرات فاحمة ثابتة حتى انطبع في نفسي أنه يرى كل ما في أعماق كياني . إنى أعرف أنه عرف ما قد حدث .

قال : « حسناً فعلت . لقد مكثت ما فيه الكفاية ، .

« جثوت على ركبتي . فنحنى بركته . وعندما نهضت واقفاً امتلأت ما في

---

( ١ ) مذهب الهندوسية والبوذية مفاده أن الإنسان في حياته الأخرى محاسب بصرفاته في حياته الأولى . ومعناها هنا حسابي في هذه الدنيا .

بالدموع لقد كان رجلاً على خلق نبيل قدسى ، ولسوف أظل دائماً أنظر إلى معرفتى به على أنها منحة وامتياز . قلت « وداعاً » للحواريين . وكان بعضهم قد قضى سنوات هناك ، وبعضهم جاء بعدى . وتركت متاعى القليل وكتبى ، ظناً منى أنها قد تكون ذات فائدة لهم . وحملت الحقيبة المثبتة على ظهرى وارتديت السراويل القديمة نفسها ، والمعطف البنى الذى وصلت فيه إلى هناك ، وعلى رأسى توباية (١) بالية وسعيت عائداً إلى البلدة . وبعد انصرام أسبوع كنت على ظهر السفينة التى أقلعت من بومباى وألقت مراسيها فى مرسيليا .

خيم الصمت علينا ونحن نتابع تأملاتنا المنفصلة ، ولكن على الرغم مما كان يرين على من تصب ، فقد كان لدى فكرة أخرى أريد أن أبرزها له . وكنت أول من بدأ الحديث ، فى النهاية .

قلت : « يا لارى ، يا صاح . إن بحثك الطويل هذا بدأ بمشكلة الشر . لقد كانت مشكلة الشر هى التى حفزتك قديماً . إن لم تقل شيئاً طيلة ذلك الوقت يدل على أنك قد وصلت حتى إلى حل تجريبى لها . »

« من المحتمل ألا يكون هناك حل ، وقد لا تكون لى المهارة الكافية لأصل إلى هذا الحل . لقد كان راماكريشنا يعتبر العالم تسلية الله . قال : إنه يشبه اللعبة . وفى هذه اللعبة فرح وحزن ، فضيلة ورذيلة ، معرفة وجهل ، خير وشر ، ولا يمكن أن تستمر اللعبة إذا اجتثت الخطيئة والآلام تماماً من الخليقة . وإنى أرفض ذلك بكل ما أوتيت من قوة . وإن أفضل ما يمكننى أن أشير به هو أنه حينما أظهر المطلق نفسه فى العالم كان الشر هو البديل الوحيد للخير . فلم يكن بمقدورك أن

---

(١) معربة : قبعة هندية عريضة تعجب الشمس .

تستمتع بجمال الهياكلا الهائل العظيم دون أن يتأبك ذعرا هزاز القشرة الأرضية .  
فالصانع الصيني الذي يصوغ الوعاء الصيني ( الفاز ) بما يسمونه الخزف الفيضى  
يمكنه أن يضفى عليه شكلا بديعاً ويزينه برسم جميل ، ويطلبه بلون فاتن ويزججه  
بطبقة كاملة من الطلية بالخزف ، ولكن من طبيعته نفسها أن يجعله أى شىء شاء  
ماعدان أن يكون هشاً قابلاً للكسر ، فإذا أسقطته على أرض الحجره فوف  
يتشم قطعاً صغيرة . أليس من الممكن ، إذن ، وبالصورة نفسها أن القيم التي نعتز  
بها فى العالم لا يمكن أن توجد إلا محتلطة بالشر ؟ ،

« إنها فكرة مبتكرة ، بالارى . ولكن لاأظن أنها فكرة مرضية . »

ابنسم قائلاً : « وأنا لاأظنها كذلك أيضاً وإن أفضل ما يقال فى هذا المقام  
لأنه عندما يصل الإنسان إلى النتيجة بأن ما لا يمكن أن يتجنبه فاعليه إلا أن  
يفيد منه بقدر المستطاع . »

« وما هى خططك الآن ؟ »

« إن لدى عملا هنا أريد أن أنجزه ثم أقفل راجعاً إلى أمريكا . »

« وماذا ستصنع ؟ »

« أعيش ، »

« كيف ؟ »

أجاب فى هدوء متناه ، ولكن بيريق شيطانى فى عينيه ، لأنه عرف جيداً  
أن هذه هى أقل إجابة كنت أتوقعها منه .

« بالهدوء ، والصبر ، والرحمة ، والإيثار ، والعفة . »

قلت : « إنه نظام بديع ، ولكن لماذا العفة ؟ فانت شاب ، فهل من العقل والحكمة أن تحاول كبت غريزة هي مع غريزة الجوع أقوى الفرائز في الحيوان البشري ؟ »

« إنى في موقف أعظم فيه ، لأن الرغبة الجنسية عندى كانت دائماً متعة أكثر منها حاجة ملحة . وإنى أعرف بالتجربة الشخصية أن حكاء الهنود ليسوا على صواب تام في شيء أكثر منهم في حجنتهم أن الطهارة تسمى بقوة الروح تسامياً كبيراً جداً . »

« كلن من الواجب أن أعتقد أن الحكمة تتضمن إقامة التوازن بين مطالب الجسد ومطالب الروح . »

« ذلك هو بالضبط ما يعتقد الهنود أننا لم نفعله في الغرب . فهم يظنون أننا بماننا من محترقات لا حصر لها ولا عدد ، وبمصانعنا وآلاتنا وكل ما نتججه ، يحنثنا عن السعادة في الماديات ، ولكن السعادة لا تقوم على الماديات ، ولكن على الروحيات . وهم يظنون أن الطريق الذى سلكناه سيقودنا إلى الهلاك . »

« وهل أنت واقع تحت تأثير فكرة أن أمريكا مكان مناسب لممارسة الفضائل المعينة التى ذكرتها ؟ »

« إنى لا أرى سبباً لعدم كونها كذلك . الأوربيون لا يعرفون شيئاً عن أمريكا . ولأننا نجمع ثروات طائلة تظنون أننا لا نحفل بشيء غير المال . نحن لا نحفل به إطلاقاً ، لحالما نحصل عليه تنفقه في الخير في بعض الأحيان ، وفي الشرفى أحيان أخرى ، ولكننا تنفقه على كل حال . والمال لا قيمة له عندنا ، إنه رمز النجاح فقط . ونحن أعظم مثاليين في العالم ، ولقد ظننت ذات يوم أننا صنعنا

مثلا الأعلى من الأشياء الخاطئة ، ولقد ظننت أيضاً أن أعظم مثل أعلى يمكن  
الإنسان أن يضعه أمامه هو الكمال النفسى . .

• إنه لمثل نبيل ، يا لارى . .

• ألا يستحق أن يعيش الإنسان من أجل أن يحققه أو يبلغه ؟

• ولكن هل بمقدورك أن تصور لحظة واحدة ، إنك ، وأنت رجل واحد،  
يمكن أن يكون لك تأثير على مثل هذا الشعب القلق ، المشغول ، المتمرد ، الفارق  
في الفردية مثل شعب أمريكا ؟ إذن لأمكنك أيضاً أن ترد مياه نهر الميسيسيبي إلى  
منبعه بيدك لا غير . .

• يمكننى المحاولة . لقد اخترع العجلة رجل واحد ، والذي كشف قوانين  
الجاذبية رجل واحد . فلا يحدث شيء دون أن يكون له تأثير . فاذا ما ألقيت  
حجراً في بركة ماء فالكون بأسره لا يبقى تماماً كما كان من قبل . ومن الخطأ أن  
تظن أن هؤلاء الرجال المقدسين الأطهار في الهند يعيشون عيشة خالية من الفائدة .  
فهم النور الساطع في الظلام ، وهم يكونون مثلاً أعلى فيه إحياء لأتباعهم ، ومن  
المحتمل ألا يبلغه سواد الناس هؤلاء ، ولكنهم يحترمونه ، ويؤثر في حياتهم إلى  
الأبد . فعندما يصبح رجل طاهراً وكاملاً فإن أثر أخلاقه ينتشر لدرجة أن هؤلاء  
الذين يبحثون عن الحق ينجذبون انجذاباً طبيعياً إليه . ومن المحتمل أنى إذا  
ما عشت الحياة التى رسمتها لنفسى ، أوثر في آخرين تأثيراً قد لا يعد في قوته قوة  
الرقاقات التى يسببها حجر ألتى في بركة ماء ، ولكن هذه الرقاقات تسبب أخرى ،  
وهذه تسبب ثالثة ، إنه لمن الممكن أن ترى فئة قليلة من الناس أن أسلوب حياتى  
يقدم سعادة وسلاماً ، وهؤلاء بدورهم يعلمون الآخرين ما قد تعلموه . .

• إنى لأعجب يا لارى بما إذا كانت لديك فكرة عما تشده . فإن المتعصبين

كما تعلم قد نبذوا منذ زمن طويل الخازوق والمخلعة (١) كوسيلتين لسكبت الآراء التي كانوا يخشونها : لقد اكتشفوا سلاحاً أشد فتكاً وهلاكاً ، النكته .

ابنم لارى : « إنى شاب صعب المراس هوذا ما . »

« حسن ، فإن كل ما يمكننى أن أقوله هو إنه من حسن الطالع أن لك دخلاً خاصاً . »

« لقد كان دائماً ذا فائدة عظيمة لى . فيما عدا أنه لم يمكننى من أن أفعل كل ما أردت فعله . ولكن تليذنى قد انتهت ، وسوف يكون هذا الدخل منذ الآن عبئاً ينقض ظهري ، وسأعمل للخلاص منه . »

« سوف يكون ذلك خرقاً ما بعده خرق . فإن الشيء الوحيد الذى يجعل الحياة التى تريد أن تحياها ممكنة هو الاستقلال المالى . »

« على النقيض ، فإن المالى يجعل الحياة التى أريد أن أحيها تافهة لامعنى لها . لم أتمالك نفسى من إظهار نفاذ صبرى . »

« من الجائز أن يكون ذلك مناسباً جداً لشحاذ جانل فى الهند ، إذ يمكنه أن ينام تحت شجرة ، فالشخص الذى يرغب رغبة كافية فى الحصول على الثواب بعمله إناء استجدائه بالطعام . ولكن المناخ الأمريكى أبعد ما يكون عن أن يمكن الإنسان من النوم خارجاً فى العراء ، وعلى الرغم من أنه لا يمكننى الإدعاء بأنى أعرف الكثير عن أمريكا ، فإنى بكل تأكيد أعرف أنه إذا وجد شيء واحد اتفق عليه مواطنوك فهو أنك إذا أردت أن تأكل فعليك بالعمل . يا عزيزى

---

(١) من أدوات التعذيب قديماً .

لارى المسكين ، سوف يبعثون بك إلى المصنع بوصفك متعطلا قبل أن تشرع في عمل ما أنت مقدم عليه .

### ضحك لارى

« أعرف ، فإن الإنسان يجب عليه أن يكيف نفسه مع بيئته ؛ ومن الطبيعي أنى سأعمل . فعندما أصل إلى أمريكا سأحاول الحصول على عمل في جراج . فإني ميكانيكى فاره في معرفة الآلات ، وأظن أن العمل يمكن ألا يكون شاقاً . »  
« أفلا تظن أنك بذلك تبذل طاقة يمكن أن تكون ذات فائدة أكبر إذا ما استخدمت في أوجه أخرى ؟ »

« إنى أحب العمل اليدوى . فكلما كانت نفسى تتشبع بالدراسة فتصرف عنها كنت ألوذ به ( العمل اليدوى ) فترة من الزمن فأشعر أنه يقوينى روحياً . وأذكر أنى قرأت سيرة إسبينوزا الذى يكسب قوته القليل كان عليه أن يقوم بصقل العدسات البصرية . إنى واثق من أن ذلك — إذا كان وحده — كان معواتاً له على متابعة نشاطه الذهنى ، لأن العمل اليدوى يصرف اتباهه لبعض الوقت ، عن الجهد الشاق الذى يبذله فى تأملاته . فان عقلى يكون حراً طلقاً وأنا أغسل سيارة أو أصلح الخلاط (١) فيها ، وعندما ينتهى العمل أشعر بالإحساس السار لإنجازى شيئاً ، وطبيعى أن أرى أنى لست فى حاجة إلى أن أمكث فى الجراج إلى الأبد . لقد مرت سنوات كثيرة منذ كنت فى أمريكا ، ويجب أن أعود وأتعلم هذه الحرفة من جديد . وسوف أحاول أن أجد عمل سائق فى عربة نقل ، وهذه الوسيلة أممكن من السفر من أقصى البلاد إلى أقصاها . »

---

(٢) كار بورشير السيارة

« ربما يكون قد غرب عن بالك أهم فائدة للبال : إن المال يوفر الوقت ،  
فالحياة قصيرة ، وفيها الكثير الذي لابد من عمله ، والإنسان لا يسعه أن يضع  
سدى دقيقة واحدة ، كم من الوقت تبده مثلا ، في السير من مكان إلى مكان  
بدلا من ركوب السيارة العامة ، وفي ركوب السيارة العامة بدلا من سيارة  
الأجرة . »

### ابنم لارى

« إن ذلك عرض الصدق ، وهو لم يخطر لي على بال . ولكنى أستطيع التغلب  
على هذه الصعوبة بأن يكون لي سيارة الأجرة الخاصة بي . »

« وماذا تعنى بقولك هذا ؟ »

« في نهاية المطاف سوف ألقى عصا الترحال في نيويورك ، ومن بين الأسباب  
التي تدفعني إلى ذلك وجود المكتبات بها ، ويمكننى أن أعيش على القليل جداً  
من المال ، فأنا لأهتم بأين أنام ، وتكفيني وجبة واحدة في اليوم ، وعندما  
يحين الوقت - بعد أن أكون قد شاهدت كل ما أردت في أمريكا - أكون قد  
ادخرت ما لا كافيأ لشراء سيارة أجرة أصبح سائقها . »

« يجب أن يلقى بك في مصحة الأمراض العقلية . يا لارى . فأنت مجنون  
مثل طير الغواص السامك (١) . »

« لا ، لست مجنوناً أبداً . فأني بكامل قواى العقلية ، وعملى جداً . وعندما

---

(١) صبر يأكل السمك ويضرب به الثقلون الجنون .



أصبح سائق سيارة أجرة أملكها لا يكون على إلا أن أعمل ساعات تدر على مالا يفي بطعامي ، ومسكني ، والإنفاق على السيارة . وبذا أستطيع أن أكرس بقية وقتي لعمل آخر ، وإذا أردت أن أذهب إلى مكان ما على عجل أملكني ذلك دائماً بسيارتي . .

وقلت له لأضايقه : « ولكن ، يا لاري . إن ملكية سيارة الأجرة كملكية سند من سندات الحكومة سواء بسواء . . ثم أردفت : « وعندما تملك سيارة أجرة تكون رأسماًلياً . .

ضحك .

« كلا ! إن سيارة الأجرة التي سأملكها ان تكون سوى أداة للعمل الذي أقوم به . وستكون مساوية للعصا والإناث اللذين يملكها الشحاذ الجائل . .

وانتهى حديثنا بهذه النغمة من الاستطراف ، ولاحظت لبعض الوقت أن الناس أخذوا يتوافدون على المقهى متلاحقين تباعاً . وجلس رجل في ملابس السهرة غير بعيدنا وطلب لنفسه إفطاراً وافرأ . كانت تبدو عليه سمة التعب ولكنها أيضاً سمة الرضا لرجل يعود بذكريته في سرور وانسراح إلى ليلة غرام خليعة . وفئة قليلة من السادة الشيوخ الذين يبكرون في الاستيقاظ ، لأن الشيخوخة تحتاج إلى نوم قليل ، كانوا يشربون قهوتهم باللبن في تمهل وهم يقرأون من خلال نظاراتهم ذات العدسات البصرية السميكه - صحف الصباح - أما الأكثرون فكانوا شباباً ، بعضهم أتيق حسن الهندام ، وبعضهم الآخر في سترات رثة مهلهلة ، يهرعون إلى الداخل ليلتهموا كهك أو يشربوا قدحاً من القوة . وهم في طريقهم إلى حانوت أو مكتب . ودخل شيخ أشمط يحمل كومة من الصحف اليومية ، ودار على الجمالين بعرضها ، عبثاً ، للبيع بقدر ما رأيت . ونظرت من خلال النوافذ ذات الألواح

الزجاجية الضخمة فرأيت وضع النهار . وبعد دقيقة أو اثنتين أطفئت الأنوار الكهربية ماعدا أنوار مؤخرة المطعم الضخم . زارت إلى ساعتى وكانت الساعة قد جاوزت السابعة .

قلت : « مارأيك فى أن تتناول إفطارنا ؟ »

وتناولنا « الأهله » الخفيفة الهشة الساخنة ، وكانت قد وصلت لتوها من حانوت الحجاز ، كما احتسينا قهوة باللبن . كنت متعباً فإترالهما ، وكنت متأكداً من أنى أبداً وكفضب السماء ، ولكن لارى كان منتعشاً كعهدنا به دائماً . وكانت عيناه تتألقان ، ولم يظهر خط واحد على وجهه الأملس . ولم يبد عليه أنه قد تجاوز الخامسة والعشرين بيوم واحد ، وأنعشنى القهوة .

قلت : « هل تسمح لى بأن أعطيك نصيحة يالارى ؟ إنى شىء لا أعطيه لأحد عادة . »

أجاب بابتسامة عريضة : « وإئها شىء لاأخذه ، عادة . »

« هلا فكرت ملياً قبل أن تتجرد من مالك الزر اليسير ؟ فعندما يذهب المال فلن يعود ثانية . وقد يجىء يوم تحتاج فيه احتياجا شديداً إلى المال أما لك وإما لشخص آخر ، وحينئذ تأسف أسفاً شديداً لأنك كنت أخرق أحق . »

ولمعت فى عينيه ومضة استهزاء إذأجاب ، ولكنها كانت خلواً من الحقد .

« إنك تعطى المال أهمية أكثر مما أفعل . »

أجبت محتداً : « ويمكننى أن أصدق ذلك جيداً . وأنت ترى أن المال كان لديك دائماً ، أما أنا فلم يكن لدى المال قط . إن المال يمنحنى ما أكلد أن أقدره أكثر من

أى شيء آخر في الحياة - الاستقلال . ولا تستطيع أن تفكرم كان عزاء وسلوى  
لى ، أن أعتقد بأنه بالمال يمكننى - إذا ما أردت ذلك - أن أقول لآى مخلوق فى  
العالم : « فلتذهب إلى جهنم » .

« ولكننى لأريد أن أقول لآى مخلوق فى العالم أن يذهب إلى جهنم ، وإذا  
ما أردت ، فلن يعنى عدم وجود رصيد لى بالمصروف من أن أقول ذلك . فالمال  
كما ترى يعنى عندك الحرية ، ويعنى العبودية عندى » .

« أنت حيوان عنيد ، يا لارى » .

« لى أعرف ذلك ، ولكن لا حيلة لى فيه ، ولدى على أية حال من الأحوال  
متسع من الوقت لأغير رأى إذا ما أردت ذلك . ولن أعود إلى أمريكا قبل  
الربيع القادم . إن صديقى أوجست كوتيه ، المصور ، قد أعارنى كوخاً فى سانارى  
وسأبقى الشتاء فيه .

ومدينة سانارى منتجع متواضع على شاطئ البحر فى ساحل الريفيرا بين  
باندول وطولون ، يرتاده الفنانون والكتاب الذين لا يأبهون للحفلات التنكرية .  
التي تبهر البصر فى سانت تروين .

« سوف تحبها إذا كنت لا تهتم بأنها ثقيلة كماء الخنادق » .

« إن لدى عملا على أداؤه . فقد جمعت مادة غزيرة ، وسأكتب كتاباً » .  
« عماذا ؟ »

« ابتم : « سوف ترى عندما ينشر » .

« إذا كنت تريد أن تبعث به إلى بعد الانتهاء منه فإنى أظن أن باءكانى أن  
أعمل على نشره لك » .

• لانتهم لذلك . فلي بعض الصحاب الأمريكین الذین یدیرون مطبعة صغيرة من باريس ، وقد دبرت الأمر معهم لطبعه .

• ولكن لا يمكنك أن تتوقع لكتاب ينشر بهذه الصورة أن يلقى رواجاً ، كما أنك لن تجد له أى تقریظ في الصحف أو المجلات .

• أنى لا أهتم إذا ما قرظ ، كما أنى لا أنتظر له رواجاً . لأنى سأطبع عدداً كافياً من النسخ لأرسله إلى أصدقائى فى الهند ، وإلى القلة التى أعرفها فى فرنسا ، وإلى الذین قد يهتمون له . فليست له أهمية خاصة ، ولكنى سأكتبه لأخيه كل ما حصلت له ، وسأشره لأنى أظن أن الإنسان يمكنه أن يقول كيف يبدو الشئ عندما يراه مطبوعاً .

• إنى أدرك أهمية هذين السببين .

فرغنا من تناول طعامنا ، وناديت النادل ليحضر قائمة الحساب ، وعندما جاءت دفعتمها إلى لارى .

• إذا كنت ستلقى بتقودك فى البالوعة فلا بأس أبداً فى أن تدفع ثمن إفطارى . .  
ضحك ودفع الحساب . كان جسدى قد تصلب لطول جلوسى ، وشعرت بالألم فى جنبى ونحن خارجون من المطعم . كان جميلاً ومفيداً أن نخرج إلى حيث هواء صباح الخريف النقي المنعش .

كانت السماء زرقاء . وكان أنفيودى كليشى ، وهو شارع عمومى حقير فى الليل يبدو ذا بهرجة معتدلة كامرأة خاسفة شاحبة اللون طلقت وجهها بالأصباغ ، وتسير بخطى الفتاة الميساء . ولوحت لسيارة أجرة مارة .

سألت لارى : • هل تود أن أوصلك ؟

• لا . إذ سأسير حتى نمر السنين وأصبح فى أحد الحمامات . ثم أذهب إلى المكتبة العامة . فليدى بحث أقوم به هناك .

تصالحنا ولاحظته وهو يعبر الشارع بخطوات طليقة واسعة وتيدة ، ولما كنت قد جبت من مادة أقل صلابة ، فقدلفت داخل سيارة وعدت إلى فندق . وعندما دخلت حجرة الاستقبال وجدت أن الساعة قد تجاوزت الثامنة .

« هذا وقت جميل يعود فيه رجل نصف إلى بيته » خاطبت بهذه الملاحظة التي تعبر عن عدم الرضا السيدة العارضة ، التي ظلت منذ عام ١٨١٣ راقدة على سطح الساعة ( خلف جدران الصندوق الزجاجي ) في وضع أظن أنه متعب للغاية .

واستمرت تنظر إلى وجهها المذهب البرونزي في مرآة مذهبة برونزية ؛ وكل ماقالتة الساعة كان : تك ، تك وأخذت حماماً ساخناً ، وبعد ما استلقيت فيه حتى أصبح فاتراً ، جففت جسدي وابتلمت قرصاً منوماً ، وأخذت معي إلى الفراش ( المقبرة البحرية ) التي ألفها فاليري (١) ، والتي تصادف أنها كانت على نضد الليل وقرأت حتى غلبني النعاس .

---

(١) الكاتب الفرنسي بول فاليري ( ١٨٧١ - ١٩٤٥ ) . شعره ذو طابع كلاسيكي وأهمه « المتزه الصنبر » ١٩١٧ « المقبرة البحرية » ١٩٢٠ و « المقاس » ١٩٢٢ .

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

## الفصل السابع

( ١ )

وفي ذات صباح ، بعد ستة أشهر ، وفي شهر أبريل ، كنت مشغولاً في الكتابة في مكتبي على سطح بيتي في كاب فيرا عندما صعد إلى أحد الخدم ليبلغني أن شرطة سان جين ( القرية المجاورة لي ) تحت ، ويرغبون في مقابلي : وتضايقت لمقاطعتي في أثناء عملي ، ولم أستطع تخمين ماذا كانوا يريدونه مني . كان ضميري مستريحاً وقد قدمت قبلاً ، معوتني إلى المؤسسة الخيرية ، وفي مقابل هذا تلقيت بطاقة احتفظت بها في سيارتي ، فإذا ما أوقفت لتجاوزي السرعة المحدودة ، أولوقوف في مكان غير مصرح بالوقوف فيه ، كنت أتعمد أن يروا هذه البطاقة عندما أقدم لهم رخصة القيادة ، وهكذا أتفادى المخالفة في حذر وبراعة . وفكرت في أنه قد تكون إحدى خادماتي راحت ضحية بلاغ من مجهول ، لأن بطاقة تحقيق الشخصية لم تكن مستكلمة ، وهذا شيء من طرائف الحياة الفرنسية ، ولكنني على أية حال لم أتوقع أن يكون في الأمر مشكلة ، لأنني على وفاق مع الشرطة المحليين ، فأكنت أسمح لهم بمغادرة بيتي بدون أن يتناولوا كأساً من النبيذ يجعلهم يسرعون في طريقهم . ولم أتوقع مشقة كبيرة ، ولكنهم وكانا اثنين ، قد جاءا في مهمة مختلفة تماماً .

وبعد أن تصالحنا وتبادلنا السؤال عن صحة كل منا ، أخرج أعلامهما رتبة مفكرة من جيبه ، وكان رتبة لواء ، وله شارب لم أر في حياتي مثله في البروز . وقلب الرجل صفحات المفكرة بأصبع الإبهام القذرة ، وسألني :

هل هذا الاسم صوفي ماكدونالد يوحى إليك بشيء ؟

( م ٢٨ - حد الموصى )

فأجبت في حذر :

« إنني أعرف شخصاً بهذا الاسم . »

« لقد تلقينا مكالمة تليفونية منذ قليل من مركز الشرطة في طولون ، والمفتش العام هناك يرجوك أن تذهب إليه بدون تأخير . »

فسألته : « لماذا ؟ إن معرفتي بهذه السيدة ما كدونا لد معرفة غير وثيقة . »

استنبتت بسرعة أنها لا بد أن تكون قد تورطت في مشكلة قد تكون متصلة بالآفيون ، ولكنني لم أفهم لماذا يدخلونني في هذا الأمر .

« هذا ليس من شأني ، بما لا شك فيه أنك كنت على صلة بهذه المرأة . ويبدو أنها لم تعد إلى مسكنها منذ خمسة أيام ، وقد أخرجت جثة من الميناء ، ولدى الشرطة من الأسباب ما يرجح أن هذه الجثة هي جثتها ، ويريدون منك التعرف على شخصيتها . »

وسرت في جسمي قشعريرة باردة ، وإن كنت لم أدهش كثيراً . فإن الحياة التي كانت تميهاها تجعلها تميل إلى وضع نهاية لحياتها في لحظة القنوط .

« ولكن من المؤكد أنه يمكن التعرف على شخصيتها من ملابسها وأوراقها . »

« لقد وجدوها عارية تماماً ومذبوحة . »

وفكرت لحظة ، وكنت أعلم أن الشرطة يستطيعون إجباري على الذهاب . وأدركت أنه من الخير أن أذهب مسالماً . وقلت : « حسناً ، سأخذ أول قطار . »

واطلعت على كتيب جداول مواعيد القطارات ووجدت أنني أستطيع اللحاق بالقطار الذي يصل طولون بين الخامسة والسادسة . وقال لي البريجادير (اللواء)



أنه سوف يبلغ المفتش العام بهذا الميعاد ، وطلب مني أن أتوجه إلى مركز الشرطة فور وصولي . ولم أعمل شيئاً أكثر مما عملت في ذلك الصباح . ووضعت بعض الأشياء الضرورية في حقيبة ، وبعد تناول الغداء ركبت سيارتي إلى المحطة .

( ٢ )

وعندما قدمت نفسي لمركز الشرطة في طولون . أدخلوني في الحال إلى حجرة المفتش العام ، وكان جالساً إلى مائدة ، وهو رجل ثقيل أسمر البشرة ذو بساطة ، ويبدو أنه قورسيتي . وألقى الرجل على نظرة ارتياح ربما بحكم العادة ، ولكنه عندما لمح شريط وسام فرقة الشرف الذي كنت أحرص على وضعه في عروة معطفي ، طلب إلى في ابتسامة رقيقة أن أجلس ، وأعتذر لي في أدب جم لإصراره إلى إزعاج رجل في مثل مكاتي . وبذهجة مائلة أكد له أنه بما يسعدني أن أكون في خدمته . ثم دخلنا في الموضوع ، واستأنف الرجل أسلوبه الأقرب إلى الوثاقة ، وقال وهو ينظر إلى بعض الأوراق التي أمامه :

« إنها مهمة قدرة ، فإنه يبدو أن هذه المرأة صوفي سيئة السمعة ، مدمنة خمرة ومخدرات ، هلوك ، وقد اعتادت أن تصاحب لاجحة السفن وحسب ، ولكن السفلة وحثالة المدينة ، فكيف يتأتى لرجل في مثل سنك ومركزك أن يتعرف إلى مثل هذه الشخصية ؟ »

وكنت على وشك أن أخبره أن هذا ليس من شأنه ، ولكن قراءاتي لمئات الروايات البوليسية جعلتني أتعلم أنه يجب أن أكون مهذباً مع رجال الشرطة ، فقلت :

« إن معرفتي بها بسيطة جداً ، فقد التقيت بها وهي بعد فتاة في شيكاغو حيث تزوجت بعد ذلك من رجل يشغل مركزاً محترماً ، ثم التقيت بها في باريس منذ نحو عام مضى أو أكثر عن طريق أصدقاء لي ولها . »

وعجب كيف ربط بيني وبين صوفي ، ولكنني رأيتته يدفع إلى كتاباً ، ويقوله  
لقد عثرت على هذا الكتاب في غرفتها ولو تفضلت بقراءة عبارة الإهداء  
لرأيت أنها تكاد لا توحى بأن المعرفة التي بينكما معرفة عابرة كما تقول.

وكان الكتاب ترجمة فرنسية لإحدى رواياتي كانت قد رأتها في واجهة إحدى  
المكتبات ، وطلبت مني أن أكتب لها إهداء على الترجمة . وكتبت لها ،  
يا عزيزتي ، هاهي ذي الوردة . . . . لأنه كان أول شيء خطر لي وقتئذ ،  
ولاشك أنها كانت جملة مألوقة . وقلت له :

« إذا كنت تريد القول إنها كانت عشيقتي فأنت غلط . . »

فأجبنى بقوله :

« هذا ليس من شأني . »

ثم استأنف كلامه بومضة سريعة من عينه :

« ولا أريد أن أسئ إليك ، ولكنني لا بد أن أضيف أن ما سمعته عن  
ميولها لا يجعلني أقول إنك من طرازها ، ولكن من الواضح أنك لا تخاطب  
امرأة غريبة عنك بعزيتي .. »  
فقلت له :

« هذا السطر ياسيدي المفتش ، هو السطر الأول لقصيدة مشهورة  
لرونسار (١) ، الذي لاشك أن مؤلفاته معروفة لرجل في مثل تربيتك وثقافتك ،  
وقد كتبت لآتي تأكدت من أنها تعرف القصيدة ، ولا بد أنها ستذكر الأسطر  
التالية التي توحى إليها بأن الحياة التي تحياها ليست لائقة . »

---

(١) شاعر فرنسي من القرن ١٦

وقال المفتش :

— « لقد قرأت كما هو واضح شعر «رونسار» في المدرسة ، ولكنني  
أقر أن الآيات التي تشير إليها تفيب عن ذاكرتي الآن لكثرة العمل  
الموكل إلى . »

وأعدت تلاوة المقطع الأول ، وكنت على يقين من أن الرجل لم يسمع قط  
باسم الشاعر قبل أن أذكره ، ولم أكن أخشى أنه سيذكر المقطع الأخير الذي  
قد لا يؤخذ على أنه إغراء بالفضيلة .

وقال :

« من الواضح أنها كانت امرأة على جانب من الثقافة ، فلقد وجدت بعضاً من  
الروايات البوليسية في غرفتها ، وديوانين أو ثلاثة من الشعر ، أحدهما لبودلير (٢)  
والثاني لرامبو (٢) ، والثالث لشاعر إنجليزي يقال له إليوت (٢) ، هل هو  
معروف ؟ »

« معروف جداً . »

« ليس لدى وقت لقراءة الشعر ولا أعرف الإنجليزية على أية حال ، وإذا  
كان شاعراً مجيداً فن المؤلف أنه لا يكتب شعره بالفرنسية حتى يتيسر لنوى  
الثقافة أن يقرأه . »

« شعرت بسرور وأنا أتخيل المفتش العام وهو يقرأ « الأرض الخراب » ،  
ولجأة دفع إلى صورة فوتوغرافية ، وسألني :

---

( ١ ، ٢ ) شاعران فرنسيان

(٣) توماس ستيرنز إليوت ولد عام ١٨٨٨ ، شاعر إنجليزي أمريكي المولد يعتبره كثيرون  
من الشعراء المحدثين زعيمهم ورمزهم وتعتبر قصيدته « الأرض الخراب » أعظم ملحمة في  
الشعر الحديث.

« هل تعرف هذا الرجل ؟ »

وفي الحال عرفت أنه لارى ، وكان يرتدى لباس البحر ، والصورة حديثة ، وأحسب أنها أخذت له في الصيف الذي أمضى جزءاً منه مع إيرابل وجرى في دينار ، وكان أول خاطر خطرل هو أن أنكر معرفتي لصاحب الصورة ، لأنني لم أكن أرغب في أن أزج بلارى في هذه المسألة البغيضة ، ولكنني رأيت أنه إذا اكتشف الشرطة هويته بدا لهم أنني كنت أريد إخفاء شيء عنهم .

« إنه أمريكي يدعى لورنس داريل . »

« إنها الصورة الوحيدة التي وجدناها في أمتعة المرأة ، فإلى العلاقة بين الاثنين ؟ »

« إنها ينتميان إلى قرية واحدة بالقرب من شيكاغو ، وكنا صديقين في

طفولتهما . . . »

« ولكن هذه الصورة التقطت حديثاً ، وأعتقد أنها أخذت في أحد مصايف شمال فرنسا أو غربها ، ومن السهل التحقق من المكان . وماذا يكون هذا الشخص ؟ »  
« قلت له في جرأة :

« إنه كاتب . . . »

ورفع المفتش حاجبيه الكشيفين ، وأدركت أنه سيء الظن بأخلاقنا نحن ههنا الكتاب ، فأضفت قولي « إنه يعيش على موارده الخاصة . . . لأنني أردت أن أكسبه مزيداً من الاحترام . »

« أين يقيم الآن ؟ »

ومرة أخرى كنت على وشك الإنكار ، ولكنني أدركت أن هذا سيزيد الأمور سوءاً ، فقد تكون عيوب رجال الشرطة الفرنسيين كثيرة ، ولكن لهم من الوسائل ما يمكنهم من أن يعثروا على أي شخص في أقل وقت .

• إنه يقيم في ساناري ، •

وتطلع إلى المفتش وبدا أنني أثرت اهتمامه •

• أين ؟ •

وقد تذكرت أن لاري كان قد أبلغني أن أوجست كوتيه قد استأجر كوخه ،  
وكتبت إليه على أثر عودتي في عيد الميلاد أن يأتي ليقم عندي بعض الوقت •  
ولكنه رفض دعوتي كما كنت أتوقع • وأعطيت عنوانه للمفتش •

• سأطلب من ساناري تليفونياً أن يحضروه إلى هنا ، فقد يكون استجوابه  
مفيداً • •

وأدركت بسهولة أن المفتش متقد أن لاري قد يكون مشبوهاً ، ولكنني  
شعرت بميل إلى الضحك • فقد كنت على يقين من أن لاري يستطيع أن يثبت  
سهولة أن لاعلاقة له بهذه الجريمة ، وكنت حريصاً على أن أعرف كيف كانت  
نهاية صوفي المؤلمة • ولكن المفتش لم يعلنني جديداً أكثر مما أعرفه من قبل • وإن  
كان قد توسع في التفاصيل ، فإثنان من صيادي السمك أخرجوا الجثة من البحر ،  
وكانت مبالغفة خيالية من رجل الشرطة المحلي الذي قال إنها كانت عارية تماماً ،  
فقد تركها القاتل ملبسها الداخلية • ولم يوجد بالجثة ما يساعد على معرفة شخصية  
القتيل ، ونشر رجال الشرطة وصفاً لها في صحيفة الإقليم ، فحضرت امرأة إلى مركز  
الشرطة ، وهي صاحبة نزل صغير في أحد الشوارع الخلفية يسميه الفرنسيون  
« منزل عابر السبيل ، وهو نزل لقضاء وقت عابر • وكانت صاحبة هذا المنزل عميلة  
للشرطة الذين كان يهمهم أن يعرفوا من يتردد على نزلها • والغرض من ترددهم •  
وكانت صوفي قد طردت من الفندق القريب من الميناء الذي كانت تقيم فيه عندما  
التقيت بها • وذلك لأن سلوكها كان فاضحاً • بحيث لا يرتاح إليه أشد أصحاب

الفنادق تسامحاً . وعرضت على المرأة صاحبة النزل أن تستأجر منها غرفة ملحقاً بها غرفة صغيرة للجلوس ، وكان من الأرباح لها أن توجرها لفترتين أو ثلاث فترات في الليلة الواحدة ، ولكن صوفى عرضت أجراً مغرباً ، فرضيت المرأة أن توجرها لها بالشهر . وجاءت المرأة إلى مركز الشرطة لتعلن أن المستأجرة متغيبه منذ بضعة أيام ، ولم يكن ليهما الأمر لأنهما حسبت أنها في رحلة إلى مرسيليا أو فيلنفرانش ، حيث وصل إليها مؤخراً قطع من الأسطول الإنجليزي ، وهذا حادث يجذب النساء الكبيريات والصغيريات من كل أنحاء الساحل . ولكنها عندما قرأت وصف القتل في الصحيفة أعتقدت أنه لا بد ينطبق على المستأجرة . وأخذوها لرؤية الجثة ، وبعد فترة قصيرة من التردد أعلنت أنها صوفى هاكدونالد .

« ولكن ما دمتم قد تحققتم من شخصية القاتل ، فإذا تريدون مني ؟ »

« السيدة بيلين شريفة وعلى خلق ؛ ولكن قد يكون لديها أسباب نجعلها نحن نجعلها تخطئ في التحقق من شخصية القاتل ، وعلى أية حال فلا بد أن نعرض الجثة على شخص كان على صلة وثيقة بصاحبها حتى تثبت شخصيتها . »

« هل تعتقد أنك تستطيع الوصول إلى القاتل ؟ »

وهز المفتش كتفيه الضخمتين ، وقال :

« من الطبيعي أننا نقوم بتحريراتنا . وقد سألتنا عدداً من الأشخاص في حانات الحنجر التي اعتادت القاتل أن تتردد عليها . وقد يكون قاتلها بحاراً غاديت سفينة الميناء ، قتلها بدافع الغيرة . أو لعله أحد رجال العصابات لأنها ماطلته في دفع الإتاوات التي فرضها عليها . ويبدو أنها كانت تحمل معها قدرًا من المال يغري

وجلا من هذا القبيل . أو لعل هناك من يعرف المذنب . ولكن لا يستطيع التكلم بشيء إلا إذا كان في صالحه ، ويرجح هذا طريقة مصرعها ، والشخصيات الشريرة التي كانت على صلة بها .

ولم أعلق بشيء على هذا ، وطلب منى المفتش الحضور في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي ، عندما يكون لدى فرأى السيد صاحب الصورة الفوتوغرافية . وبعد ذلك سبصحبنا أحد رجال الشرطة إلى المشرحة لرؤية الجثة .

« وماذا عن دفنها ؟ »

« بعد أن تتأكد من شخصيتها ، وبصفتك صديقتين للقتيل ، تعلنان عن استعدادكما لتحمل نفقات الجنازة ، وسوف تحصلان على موافقة السلطات . »  
« اتق على يقين من أن السيد داريل وأنا نود أن يتم هذا في أسرع وقت ممكن . »

« مفهوم . إنها قصة محزنة ، ومن الخير أن تثوى المرأة المسكينة في قبرها على عجل ، وبالنسبة عندي بطاقة الخنوطى سوف يؤدي المهمة لكما بشروط معقولة وبسرعة ، وسوف أكتب على البطاقة سطرأ أوصيه فيه بكما خيراً . »

« وكنت على يقين من أنه سوف يحصل على عمالة من الخنوطى ، وراكنى شكرته بحرارة ، وبعد أن ودعنى بحفاوة ، ذهبت رأساً إلى العنوان المكتوب على البطاقة . وكان الخنوطى رجلاً عملياً ، وأخذت نعشاً لاهو رخيص الثمن ولا مرتفعه ، وقبلت أن يحضرلى باقتين أو ثلاث باقات من أحد معارفه من باعة الزهور : وهو يقول : « لأوفر للسيد واجباً مؤملاً ، واحتراماً للبيت . » وأمرت أن تكون سيارة الموتى عند المشرحة في الساعة الثانية من اليوم التالي . ولم يسعنى إلا الإعجاب بكفائته عندما أبلغنى ألا أشغل بالى بمسألة المقبرة ، فسوف يقوم بما يلزم . ويرجح أن تكون السيدة بروتاتية ، ومادام الأمر كذلك فسوف يرتب حضور

الراعى ، إذا شئت ، لتأدية شعائر الدفن . وما دمت أجنبياً ومن الغرباء ، وحدد مبلغاً أكبر مما كنت أتوقع حساباً حساب المساومة ، وظهرت على وجهه علامة الدهشة التى تم على أكثر من خيبة الأمل عندما أخرجت دفتر الشيكات وكتبت الإذن المصرفى المطلوب بدون معارضة وأخذت حجرة فى أحد الفنادق ، وفى الصباح التالى عدت إلى مركز الشرطة ، وجعلونى أنتظر بعض الوقت ثم سمحوا لى بالدخول إلى مكتب المفتش العام ، ووجدت لارى جالساً على نفس الكرسي الذى جلست عليه بالأمس ، وقد بدا عليه الحزن والشقاء وحياتى المفتش فى مرح ، لا بد أنى أخوه الذى طال فراقه .

حسن ، ياسيدى العزيز . لقد أجاب صديقك عن كل الأسئلة التى كان من المحتم توجيهها إليه فى صراحة تامة ، وايس لى من الأسباب ما يجملنى لا أصدقه . عندما قال إنه لم ير هذه المرأة المسكينة منذ ثمانية عشر شهراً وقد أوضح لى كل تحركاته وتقلباته خلال الأسبوع المنصرم بطريقة مرضية ، كما فسر لى وجود صورته الفوتوغرافية فى غرفتها . وقد التقطت الصورة فى دينار ، وكانت فى جيبه فى أحد الأيام التى تناولوا الغداء معاً فيه . رقدت تقيت تقارير ممتازة عن الشاب من سنارى ، وحكى عليه ، وأنا خبير بالشخصيات بدون غر ، أن مثله لا يستطيع ارتكاب جريمة كهذه الجريمة . وقد أبدت له أسنى لأن صديقة طفولته تحرف فى حياتها بينما هى قد ترعرعت وسط حياة عائلية نظيفة . والآن ياسيدى العزيز يصبح كما أحد رجلى إلى المشرحة ، وبعد أن تأكد من شخصية القليل افضيلاً وقتكما كما تشاء ان . اذهبوا وتناولوا غداء طيباً . وعندى بطاقة لأحسن مطعم فى طولون ، وسأكتب كلة واحدة لحسب على البطاقة ، وسوف تجعل صاحب المطعم بهم بكم غاية الاهتمام ولا أنفع لك بعد هذه التجربة القاسية من زجاجة نبيذ .

وكان حينئذ سعيداً سعادة حقيقية ، وذهبنا إلى المشرحة بصحبة شرطى ، ولم



يكن العمل مثيراً في هذه المؤسسة . ولم تكن هناك غير جثة واحدة ، توجهنا إليها ، وكشف رئيس المشرحة عن الوجه ، ولم يكن المنظر ممتعاً ، وقد بسط ماء البحر شعر الميت الفضي وجعله يلتصق بالجمجمة ، وكان الوجه منتفخاً بشكل مخيف يثير الرعب فيمن ينظر إليه ، ولكن هناك شك في أنها صوفي ، أنزل رئيس المشرحة الملاحة إلى أسفل لترى ما كنا نفضل ألا نراه ، وكان الجرح الفظيع يقطع الرقبة ويمتد من الأذن إلى الأذن .

وعدنا إلى مركز الشرطة ، وكان المفتش العام مشغولاً ، فأبلغنا مساعده بما كان ينبغي لإبلاغه إياه وتركنا وعاد بالأوراق اللازمة ؛ فأخذناها إلى الخنوطى .

وقلت . « والآن هيا ، نأخذ كأساً . »

ولم ينطق لارى منذ أن غادرنا مركز الشرطة إلى المشرحة اللهم إلا عندما أعلن أنه تحقق من شخصية القاتل ، وأنها صوفي ماكدونالد ، وهبطت به إلى رصيف الميناء وجلسنا على المقهى حيث جلست معها من قبل . وكانت رياح المسترال<sup>(١)</sup> تهب بقوة ، وعلا الزبد الأبيض صفحة الماء في الميناء الذي تعودنا أن نجده غير مضطرب وكانت قوارب الصيد تتأرجح في غير عنف . وسطمت الشمس ، وبدا كل شيء واضحاً كما لو كنت تنظر إليه من خلال عدسات مركزة في دقة غير عادية كما هو الحال دائماً في الطقس الذي يسوده المسترال ، بما أهاج الأعصاب وجعلها تتجاوب في حدة مع كل ما يقع عليه البصر . وشربت براندى مزوجاً بالصودا ، أما لارى فلم يذق شيئاً من الكأس التي طلبتها له ، وجلس عابساً صامتاً ولم أشأ أن أزعجه . ونظرت إلى ساعتى ، وقلت :

(١) المسترال : رياح شمالية لازمة تهب على سواحل فرنسا .

• يحسن أن نذهب لتناول شيئاً من الطعام . فحيناً أن نكون في المشرحة في الساعة الثانية . .

• إتي جوعان ، فإني لم أتناول إفطاري . .

ولما كنت قد أدركت من مظاهر المفتش العام أنه يعرف أين يوجد الطعام الجيد ، فقد أخذت لاري إلى المطعم الذي زكاه لنا . وكنت أعلم أن لاري نادراً ما يأكل اللحم فأمرت بطبق من العجة ، والسرطان المقل ، وطلبت زجاجة من نبيذ العنب متبعاً وصية المفتش العام أيضاً ، وما أحضرت الزجاجة حتى صببت منها كأساً للاري ، وقلت له :

• هلا شربت هذه الكأس ، فقد يوحى لك شربها بموضوع للحديث . .

فشرب الكأس منصاعاً لأمرى وتمم يقول :

• لقد تعودت شربى جانيشا أن يقول إن في الصمت حديثاً . .

• هذا يوحى باجتماع مرح للنيف من أساتذة كبرديج . .

• أخشى أن تحمل أنت نفقات هذه الجنازة فأنا مفلس . .

• أنا مستعد لهذا . .

وتبتهت لما توحى به ملحوظته فقلت له :

• هل أنت مفلس حقيقة ؟ . .

• ولم يجب في الحال ، ولحمت في عينيه ومضة كدر عارضة . .

• هل أنفقت كل نقودك ؟ . .

« إنه آخر فلس ، اللهم إلا ما يكفلني حتى تأتى سفينتى . »

« أية سفينة ؟ »

« إن الرجل الذى يعيش فى الكوخ الذى يجاور كوحتى فى سانارى يعمل .  
وكيلا فى مارسيليا لخط من السفن ما بين نيويورك والشرق الأدنى ، وقد تلقى .  
برقية من الأسكندرية تفيد به بأنهم أنزلوا هناك رجلين مريضين من إحدى  
السفن المبحرة إلى مارسيليا ، ويطلبون منه أن يجد من يحمل عجلهما . والرجل .  
صديقى وقد وعدنى بأن أحل محل أحدهما ، وسأتنازل له عن سيارتى الستروين .  
القديمة هدية وداع ، وعندما أركب السفينة لن يكون معى شيء غير ملابسى التى .  
أرتديها وأشياء قليلة فى حقيبة صغيرة . »

« حسن ، إنها تقودك وأنت رجل حر . وفى الحادية والعشرين من العمر . »

« حر ، أجل ، هذه هى الكلمة المناسبة ، فلم أشعر فى أى وقت من .  
أوقات حياتى بسعادة واستقلال كما أشعر الآن ، وعندما أصل إلى نيويورك فسوف .  
يكون لى أجرى الذى يكفينى لى أن أعثر على عمل . »

« وماذا عن كتابك . »

« أوه ! لقد أنجزته وطبعته ، وأصددت قائمة بالأشخاص الذين سأهديه إليهم .  
وستصلك نسخة منه بعد يوم أو يومين . »

« ولم يكن هناك مزيد للحديث ، واتفقنا من تناول طعامنا فى صمت ودى .  
وطلبت قهوة ، وأشعل لارى غليونه ، وأشعلت أنا سيجاراً ، وأنعمت النظر .  
إليه ، وشعر بوقع نظراتى عليه ، فرمقنى بنظرة ، وكانت تضيئها ومضة شيطانية .

« إذا أردت أن تصننى بالغفلة والغباء فلا تردد ، فالأمر لا يعنينى فى كثير .  
أو قليل . »

« كلا ، فلا . أريد شيئاً محدداً كهذا ، ولكنني كنت أتساءل عما إذا كانت حياتك ستتقيم لو أنك تزوجت ، ووزقت أطفالاً كسائر الناس . »

« وابتسم ، ووددت لو دامت ابتسامته فترة طويلة لأتأملها عشرين مرة ، فكانت مليئة بالراحة والثقة والعذوبة ، فقد كانت تعكس طبيعته الصريحة الجذابة المحلصة ، وكان على أن أنظر إليها مرة أخرى ، فهي ، إلى جانب هذا كله تتم عن شيء من الآسَى المزوج بالرفقة . وقال :

« لقد فات الأوان ، فالمرأة الوحيدة التي التقيت بها ، وكنت أستطيع الزواج منها هي صوفي المسكينة . » ونظرت إليه مستغرباً .

« هل تقول هذا بعد كل ما حدث ؟ »

« لقد كان لها روح سمحة طموحة مليئة بالحياة والحرارة ، كانت مثلها سامية وحتى النهاية التي سمت إليها كانت تنطوي على مأساة نبيلة . »

« ولزمت الصمت . فلم أكن أدري ماذا أستخاض من هذه الأقوال الغريبة .

« وسألته : « ولماذا لم تتزوجها ؟ »

« أقول لك الحق ، إنها كانت طفلة ، ولم يكن يخطر لي على بال ، وأنا أتردد على بيت جدما لنقرأ الشمر معاً تحت شجرة الدردار أن في هذه الطفلة الهزيلة تكمن بذرة لجمال روحي . »

« ولم يسعني إلا أن أتساءل : لماذا أغفل ذكر إيزابيل في هذه المناسبة ؟ ، فلم يكن ينسى أنه خطبها ، وقد افترض أنني اعتبر هذه الفترة فترة غفلة لصغيرين ما كانوا يعرفان حقيقة أفكارهما . وكنت مستعداً أن أصدقته أن هذا الشك لم يطف بخاطرهم في الوقت الذي كانت تدمى فيه قلبها من أجله . »

وحان وقت رحيلنا . وسرنا إلى الميدان حيث ترك لارى سيارته ، وكانت  
فى حالة يرثى لها ، وركبناها إلى المشرحة ، وكان الحنوطى وفياً بما وعد . وزاد  
من رهبة الإجراءات الروح العملية التى تم بها كل شيء نحت السماء الخضراء  
والريح العنيفة اتى أمالت أشجار المدفن . وبعد أن تم كل شيء صالحنا الحنوطى  
فى حرارة .

« حسن ، ياسيدى ، أرجو أن تكونا راضيين فقد سار كل شيء على مايرام . »

قلت : « حسن جداً ، ، »

« أرجو ألا ينسى السيد أتنى فى خدمته دائماً ، وفى أى مكان . »

وشكرته ، وعندما وصلنا إلى بوابة المبرة سألتى لارى عما إذا كنت فى حاجة  
إليه بعد ذلك .

« لا ، ، ، »

« أفضل أن أعود إلى سنارى سريعاً ، ، »

« أنزلنى عند الفندق إذا سمحت ، ، »

ولم تتبادل كلمة واحدة طوال الطريق ، وعندما وصلنا نزلت ، وتصلحنا  
وانطلق بيارته . ودفعت قائمة الحساب وأخذت حقيبتى ، وركبت سيارة أجرة  
إلى المحطة فأننا أيضاً كنت أريد مغادرة المكان بسرعة .

( ٢ )

وبعد بضعة أيام غادرت البلد فى طريقى إلى إنجلترا وكنت أنوى أن أرحل  
إلى إنجلترا بدون توقف . ولكنى بعد ما حدث رغبت فى أن أرى إيزابل .

قررت التخلف في باريس مدة أربع وعشرين ساعة ، وأبرقت إليها مستأذناً في  
الجمي. بعد الظهر والبقاء حتى الغداء . وعندما وصلت إلى فندق وجدت مذكرة  
منها تقول فيها إنها ستناول الغداء في الخارج مع جراى ، ويسعدنا أن ترائى ،  
إذا استطعت الحضور ، بعد الخامسة والنصف ، إذ أنها قد ارتبطت بموعد قبل  
ذلك الوقت ،

وكان البرد قارصاً ، والمطر غزيراً . قدرت أن جراى لن يذهب إلى  
مورتفوتين ليلعب الجولف ، ولم يكن هذا ليناسبنى لآتى كنت أرغب في لقاء  
إيزابل على انفراد ولكن ما إن وصلت إلى الشقة حتى قالت لى إن جراى ذهب  
إلى نادى الترافلز ليلعب الورق .

« لقد أخبرته ألايتأخر إذا كان يرغب في رؤيتك ، ولـكننا لن تناول العشاء  
قبل التاسعة والنصف ، ولذلك فأمانا فسحة من الوقت للتحدث ، فعندى أشياء  
كثيرة أريد أن أخبرك إياها . »

وكانا قد أجرا الشقة من الباطن ، وتحدد موعد بيع مجموعة إلبوت بعد  
أسبوعين وكانا يريدان حضور البيع ، فقررنا الانتقال إلى فندق الرتز ، وبعد  
ذلك يجران وكانت إيزابل ستبيع كل شىء فيما عدا الصور الحديثة التى كان إلبوت  
يحتفظ بها فى أتريب . ومع أنها لم تكن تهتم بهذه الصور كثيراً إلا أنها رأت أن  
هذه الصور سيكون لها قيمتها فى يتهما فى المستقبل .

« من المؤسف أن النعم إلبوت المسكين لم يكن تقديمياً بما فيه الكفاية ،

وَأنت تعرف بيكاسو وماتيس (١) ورووه (٢) وأحدث أن صوره حسنة في حد ذاتها ، ولكنني أخشى أن تبدو من الطراز القديم . .

• لو كنت مكانك ما اهتمت بالأمر ، فسوف يظهر رسامون آخرون في مدى سنوات قليلة وسوف يبدو بيكاسو وماتيس من الطراز القديم كأصدقائك من الثلاثين (٣) . .

وكان جراى على وشك الانتهاء من التفاوض لإنشاء شركة ناجحة يكون هو نائباً للرئيس فيها ، ومساهما برأس المال الذى قدمته إيزابل وكانت الشركة تعمل في ميدان البترول وكان عليهما أن يعيشا في دالاس .

• إن أول شيء سوف نعمله هو أن نبحث لنا عن بيت لائق ، أريد حديثة يعمل فيها جراى في وقت فراغه بعد انتهائه من عمله ، وأجد في هذا البيت غرفة كبيرة أقيم فيها الحفلات لضيوفى . .

• لماذا لاتأخذين أثاث إلبوت معك ؟

---

(١) هنرى ماتيس ( ١٨٦٩ - ١٩٥٤ ) كان زعيم المدرسة الوحشية أو الوحشية أو فن الضواري - والفنان الوحشي يميل إلى الألوان القوية الشديدة الاشتعال ومعالجة الضوء المتصر على جيم الأجزاء فينيرها بدرجة واحدة ومتحررا من المنظور الهوائى ومتجنباً لثبات حلقة البعد الثالث في التكوين .

(٢) جورج رووه (١٨٧١-١٩٥٨) تحتل أعماله معظم متاحف الفن الحديث وهو فنان وحشي (٣) ولد جميع الفنانين الثلاثين فيما بين سنتي ١٨٣٦ ، ١٨٤١ ( وهم بيسارد وفانيه وديجا وسيران وسينلى ومونيه ورينوار وبازيل وجويومان وماريسو ) وهم أول من خرج إل الهواء الطلق ليرسموا الضوء المشبه بألوان شفافة كالأنير .

( م ٢٩ - حد الموسيقى )

• لا أحبه سيكون مناسباً ، سأجعل أثاث البيت من الطراز الحديث ، مع لمسة مكسيكية هنا وهناك لتضفي عليه شيئاً من السحر ، وعلى أثر وصولي إلى نيويورك سأبحث عن مهندس الديكور الذي يقصده الجميع الآن ، .

وأحضر الخادم أنطوان صينية وضعت عليها زجاجات الخمر . وطلبت من إيزابل أن أفرغ كأسين ، وهي تعلم أن تسعة من عشرة رجال يعرفون كيف يمزجون الخمر خيراً من النساء ، وهي على حق في هذا ، وصيبت شيئاً من الجن والتويلي برات والابسنت على كونياك المارتيني الجاف صانعاً من هذا كله شراباً غير معروف لاشك أن آلهة الألب تفضله على رحيقها إلا وهو شراب كنت أعتقد دائماً أنه أكثر شهياً بالكوكاكولا . وعندما تناولت إيزابل كأسها لمحت كتاباً على المنضدة ، فقلت :

• هذا كتاب لارى . .

• أجل ، وصننى هذا الصباح . وكنت مشغولة فأمامي ألف شيء أعملها قبل الغداء . وتناولت الغداء في الخارج ، وذهبت إلى مولينو بعد ظهر اليوم ولا أدري متى يتسع وقتي ، .

وتذكرت في أسى الشهور التي يقضيها الكاتب في تأليف كتابه ، ودم قلبه الذي يصبه فيه ، ثم يلقي الكتاب جانباً إلى أن يجد القارئ متسعاً من الوقت لقراءته . ولا يكون أمامه ما يشغله . وكان الكتاب في ثلاثمائة صفحة في طبعة حسنة ، وغلاف متقن .

• أحب أنك تعلم أن لارى قضى الشتاء كله في سانارى ، هل التقيت به مصادفة؟ ،



- نسّم ، كُنّا معاً في طولون أول أمس ، .
- هل كنتم حقاً هناك ؟ ، وماذا كنتم تفعلان ؟ .
- نشرف على دفن صوفي ، .
- وصاحت إيزابيل :
- هل توفيت ؟ ،
- ما لم تكن قد توفيت لما كان لدينا عنبر مقبول لندفنها ، .
- ليس هذا شيئاً مريباً ، .
- وصمتت لحظة ، ثم استطردت تقول :
- لن أظهار بالحزن ، فإنني أحسب أن وفاتها جاءت نتيجة إدمانها الآخر والمخدرات معاً ، .
- كلا ، لقد ذبحت وألقيت جثتها عارية في البحر ، .
- ووجدت نفسي أبالغ في وصف عريها كما فعل اللواء الشرطي الذي اكتشف جثتها في سان جين .
- يا للفضاعة يا للسكينة اطمبأ كانت الحياة التي تحياها تستوجب النهاية التي انتهت إليها ، .
- هذا ما قاله مفتش الشرطة في طولون ، .
- هل عرفوا القاتل ؟ ،
- كلا ، ولكنني أعرفه ، أعتقد أنك أنت التي قلتها ، .

ونظرت إله في دهشة بالغة :

« فيم تحدث ؟ » ثم قالت بعد ضحكة جافة مقتعبة : « تخمين جديد ، ولكنني  
استطيع إثبات برائي » .

« لقد التقيت بها مصادفة في طولون في الصيف الماضي ، وتحدثت معها حديثاً  
طويلاً » .

« هل كانت منزلة ؟ »

« بالقدر الكافي ، وأخبرتني كيف حدث أنها اختفت بسبب مجهول قبل الموعد  
المحدد لزوجها من لاري بيضعة أيام » .

ولمحت وجه إيزابل وقد تجمد ، ومضيت أسرد عليها ما قالته لي صوفي بحذافيره  
وكانت تصني إلى في حذر .

« ولقد فكرت في قصتها كثيراً منذ ذلك الحين . وأصبحت أكثر اقتناعاً بأن  
في قصة حياتها شيئاً غامضاً عييراً . ولقد تناولت الطعام هنا عشرين مرة ، ولم  
أر عندك مشروبات روحية ، كنت تتناولين غذاءك بعفرك . فلماذا وجدت  
من الزوبرفكا على الصينية مع فنجال القهوة ؟ »

« كان العم إليوت قد أرسلها إلى منذ قليل ، فأردت أن أعرف ما إذا كنت  
أحبها كما فعلت عندما تناولتها في الرتز » .

« نعم أذكر أنك شغفت بها وقتئذ ، ولقد دهشت لأنك لم تكوني تشربين  
مشروبات روحية ، لأنك كنت تخشين علي قوامك ، وكنت أشعر وقتئذ أنك  
تحاولين تعذيب صوفي واعتقدت أنه مجرد حقد » .

« أشكرك . . »

« وأعلم أنك حريصة على ضبط مواعيدك . فلماذا خرجت عندما كنت توقفين زيارة صوفي لك لأمر على جانب كبير من الأهمية لها والمتمة لك . وهو قياس ثوب زفافها ؟ . . »

« هل أخبرتك هي بهذا ؟ . لم أكن مرتاحة لآسان جوان ، وكان طيبب الأسنان ، الذي تتعامل معه مشغولاً جداً ، وكان على أن أوافق على الميعاد الذي يحدده لي . . »

« عندما يذهب المرء إلى طيبب الأسنان ، فإنه يحدد معه الموعد التالي قبل تركه . . »

« أعلم هذا ، ولكنك أنصلي بي في الصباح ، وأبغيتي أنه مضطر لإلغاء الميعاد على أن يستبدل به موعداً في الساعة الثالثة بعد الظهر وكان من الطبيعي أن أوافق . . »

« ألم تكن المريبة تستطيع الذهاب مع جوان ؟ »

« لقد كانت عزيزتي الصغيرة المسكينة فزعة ، وشعرت أنه يسعدها أن أذهب معها . . »

« وعند عودتك ، ألم يدهشك انصراف صوفي بعد أن أنت على ثلاثة أرباع زجاجة الزبروفكا ؟ »

« حسبت أنها مدت الانتظار ، وذهبت إلى مولينو بمفردها ، ودهشت عندما قالوا لي هناك إنها لم تحضر . . »

« والزبروفكا ؟ »

« حسن ، لقد لاحظت أن قدرا كبيرا قد اختفى ، وحسبت أن أنطوان قد شرب هذا القدر من الزجاجه ، وكنت على وشك التحدث معه في هذا الامر ، ولكنني عدلت لأن العم إليوت هو الذى يدفع له أجره . وكان صديقا لجوزيف وهو خادم ممتاز ، ولا ألومه إذا تناول جرعة من وقت لآخر . »

« بالك من كذابة يا إيزابل ! »

« ألا تصدقنى ؟ »

« ولا للحظة واحدة . »

ونهمضت إيزابل ، وتمشت إلى المدفأة حيث تشتعل النار فى الخشب ، وكانت النار فيها منظرا سارا فى مثل هذا اليوم الكئيب . ووقفت وقد أسندت مرفقها على إطار المدفأة فى وضع مغمم بالرقه ، وكان من أكثر هباتها سحرا قدرتها على التصنع بحيث لا يبدو عليها أنها تقصد هذا . وكانت ترتدى السواد كما تفعل سيدات الطبقة الراقية الفرنسيات فى ساعات النهار ، وكان السواد يلائم بشرتها الغنية بالألوان ، وكانت ترتدى فى تلك المناسبة ثوبا كشفت بساطته المتناهية عن رشاقه عودها ودقة تكوينه ، وظلت تدخن سيجارتها دقيقة .

« ليس هناك ما يمنعنى أن أكون صريحة معك صراحة كاملة . ومن سوء الحظ أن اضطرت للخروج وإلا ما كان أنطوان قد ترك زجاجه الخمر ، وفنجال القهوة فى الغرفة ، فقد كان من الضرورى إخراجها من الغرفة وأنا فى الخارج . وعندما عدت ووجدت أن الزجاجه كادت تكون فارغة أدركت ما حدث بطبيعة الحال . وعندما اختفت صوفى ظننت أنها قد خرجت على أثر نوبة أصابتها . »

ولم أشأ أن أذكر شيئاً عن هذا خشية أن يتثر لارى . وكان يكفيه ما هو فيه من هم . .

هل أنت متأكدة من أن الزجاجة لم تترك في مكانها بأوامر صريحة منك ؟ ،  
متأكدة جداً . .

إنتى لأصدقك . .

وقذفت بالسيجارة في النار ، وعيناها تقدحان بالشرر وقالت : ، على رسلك ، إذا أردت الحقيقة فأليك بها . ولتذهبوا جميعاً إلى الجحيم : نعم فعلتها ، وسأفعلها ثانية . لقد قلت لك إنتى سأفعل أى شىء . لأمضج زواجها من لارى . إنك لاتستطيع أن تفعل شيئاً ولاجرأى . لقد اكتفيتما بهز أكتافكما ، وقتلتما إنهما غلطة شنيعة ، ولم يكن الأمر يعنبيكما في قليل أما أنا فقد فعلتها . .

، ولو كنت تركتها لكأنها لكانت الآن على قيد الحياة . .

، ولتزوجت من لارى وأعاني من التعاسة الكاملة . لقد ظن أنه سيخلق منها امرأة جديدة . ما أغبي الرجال ! لقد كنت أعلم أنها سوف تنهار إن آجلاً أو عاجلاً وبقيت على بعد . وقد رأيتها بنفسك عندما تفدين جميعاً في الريتز . كم كانت عصبية ا ورأيتك وأنت تنظر لإيها ، وهى تشرب قهوتها . كانت يدها ترتعش ولذلك لم تمسك الفئجال بيد واحدة واضطرت إلى إمساكه بكلتا يديها لرفعه إلى فها ورأيتها وهى تنظر إلى الخمر عندما كان الساقى يصب لنا الأقداح وكانت عيناها البراققان تابعان الزجاجة . كما تابع الحية الفرخ الصغير ، وأدركت أنها كانت مستعدة أن تدفع حياتهما ثمناً لكأس . .

وكانت إيزابل تواجهني ، وعيناها تبرقان من الانفعال . وصوتها مبحوحاً ، ولم تكن تستطيع لإخراج الكلمات بالسرعة الكافية .

« لقد خطرت لي الفكرة عندما أثار العم إليوت ضجة حول هذا المشروب البولندي اللعين وحسوته كرها ولكنني تظاهرت بأنه أروع مشروب ذقته . وأيقنت أنها لو أتاحت لها الفرصة لشربه فلن تقوى على المقاومة . ومن أجل هذا اصطحبتها إلى معرض الأزياء . ومن أجل هذا عرضت عليها أن أهديا ثوب عرسها ، وفي ذلك اليوم الذي كان مقرراً أن تقيس ثوبها فيه لآخر مرة ، أبلغت أنطوان أنني سأتناول الزوبرفكا بعد الغداء ، ثم أبلغته أنني أتوقع زيارة سيدة فعليه أن يطلب منها الانتظار ، وأن يقدم لها القهوة ، وأن يترك المشروب فقد زرى أن تأخذ قداماً منه . أخذت جوان حقيقة إلى طبيب الأسنان ، ولكن من الطبيعي أننا لم نكن على موعد معه ، وعلى ذلك لم يسمح لنا بالدخول ، ولذلك أخذتها إلى السينما — وكنت قد حرمت أمرى على أنه إذا لم تخص صوفي الخمر قدمت لها خدماتي ، وحاوات أن أجعلها صديقتي . وهذا حق ، وأقسم عليه . ولكن عندما عدت إلى البيت ؛ ورأيت الزجاجاة كادت أن تكون فارغة أدركت أنني كنت على صواب . ولقد رحلت ، وأراهن بأى مبلغ على أن رحيلها كانه إلى الأبد . . »

وعندما أنهت إيزابل حديثها كانت تلهث وقلت : « هذا لا يختلف في كثير أو قليل عما تصورت وقوعه — ها أنت تزين أنني على صواب ، ذبحتها كما لو كنت قد أمسكت الخنجر بيديك . »

« لقد كانت شريرة ، وإني مسرورة لموتها . » وألقت بنفسها على مقعد ، وقالت : « أعطني قداماً من المزيج ، عليك اللعنة ! »

ذهبت إلى المنضدة ومزجت لها قداماً وقدمته لها ، وقالت وهي تأخذ القدرح :

«إنك لشيطان وضع . . ثم سمحت لنفسها بالابتسامه كابتسامه طفل يعلم أنه حناكر ، ولكنه يمتقد أنه يستطيع استمالتك إليه ، ودفع غضبك بلطفه وسحره ، وقالت : « لن نخبر لارى ، أليس كذلك ؟ »

« ان أفل هذا مطلقاً . »

« أقسم على هذا ، فالرجال لا يؤتمنون . . »

« أعدك بأنى لن أفل ، وحتى إذا أردت فلن تتاح لى الفرصة لآتى أعتقد أنتى لن أراه . . »

واعتدلت فى جلستها وسألت :

«ماذا تقصد ؟»

«إنه الآن على ظهر السفينة فى طريقه إلى نيويورك سواء هل فراشاً أو وقاداً فى السفينة . . »

« لا تقل هذا . . ياله من مخلوق غريب لقد جاء إلى هنا منذ بضعة أسابيع لأمر يتعلق بكتابه ، فقد كان عليه أن يرجع إلى المكتبة العامة ، ولكنه لم يشر بكلمة إلى رغبته فى الذهاب إلى أمريكا . إننى سعيدة . فعنى هذا أنا سراه . . »

« أشك فى هذا ، فسوف يكون بعيداً عنك بعد صحراء جوبي . . »

ثم أخبرتها بما فعل ، وما ينوى أن يفعل ، وأصغت إلى وهى مشدوهة فاغرة فاهاً . وقد بدا عليها الاهتمام الشديد ، وقاطعتنى من وقت لآخر قائلة : « إنه مجنون ! إنه مجنون ! » وبعد أن انتهت أطرقت برأسها ورأيت دمعين تنحدران على خدها .

، والآن قد قدته حقيقة . .

وأشاحت بوجهها عنى وبكت ، مسندة رأسها على ظهر مقعدها ، وقد تقلص وجهها بحزن لم تبال أن تخفيه . ولم يكن بمقدورى أن أفعل شيئاً . ولأدرى أية آمال لاطائل من ورائها قد راودتها ، وجاءت أخبارى فبعثرتها . وخطرت لى فكرة مبهمة هى أن رؤيتها له من وقت لآخر ، أو على الأقل إدراكها أنه جزء من عالمها كان رابطة مهما كانت هزيلة بترتها فعلته فى النهاية ، فأدركت أنها حرمت منه إلى الأبد . وتساءلت كم تحملت من أسى ، وحسبت أن البكاء يفيدها . والتقطت كتاب لارى ، وتصفحت فهرسه ولم تكن نسختى قد وصلت قبل أن أغادر الريفييرا . ولم أكن أتوقع الحصول عليها قبل بضعة أيام . ولم يكن الكتاب كما تصورته أن يكون إطلاقاً فقد كان مجموعة لمقالات طولها عين طول مقالات ليتون ستراشى (١) ، التى جمعها فى كتاب « عظماء عصر فكتوريا » ، وكان كتاب لارى عن عدد من العظماء المشهورين . وكان اختياره لهم محيراً لى : فواحدة عن سلا ، الطاغية الرومانى الذى انزوى فى عزلة بعد أن وصل إلى السلطة المطلقة ، وأخرى عن « أكبر » ، الغازى المغولى الذى أسس إمبراطورية ، وثالثة عن روبنز (٢) ورابعة عن جوته ، وخامسة عن لورد شترفييلد (٣) منشئ الرسائل المشهورة . من الواضح أن كل مقالة احتاجت إلى اطلاع واسع وغزير ، ولم يدهشنى أن أخذ الكتاب وقتاً طويلاً من لارى . ولكن لم أستطع أن أفهم لماذا أجهد نفسه كل هذا الجهد ليكتب عن هذه الشخصيات بالذات . ثم بدا لى أن كلا منهم حقق بطريقته الخاصة حياة ناجحة نجاحاً فائقاً واعتقدت أن هذا

( ١ ) كاتب تراجم إنجليزى ( ١٨٨٠ - ١٩٢٢ )

( ٢ ) مصور ( ١٨٧٠ - ١٩١٠ )

( ٣ ) لورد شترفييلد ( ١٦٩١ - ١٧٧٣ ) كاتب إنجليزى اشتهر بخطاباته إلى ابنه .



ما اهتم له لارى . فقد كان حريصاً على أن يعرف عـلام انتهت مثل هذه الحياة . .

وتصفحت على عجل صفحة لاتذوق أسلوبه ، فوجدته أسلوباً جديراً بعالم ، ولكنه صاف وسهل ، ولم يكن فيه شيء من الادعاء والتعالم بما يميز كتابة الهواة ويستطيع المرء أن يرى أنه تردد على المؤلفين الممتازين كما تردد لايبوت ، لتون على أفراد الطبقة النبيلة وخاصة القوم : وقاطعتني تهيدة صدرت عن إيزابل . فقد أعتدت في جلستها وأفرغت قدحها من الكوكتيل في استياء وقد كان قد زايلته برودته .

« إذالم أكف عن البكاء فسيكون منظر عيني مريعاً ، ونحن خارجان لتناول العشاء الليلة . » وأخرجت امرأة من حقيبتها . ونظرت إلى نفسها في قلق . ثم قالت :

« أجل ، كيس من الثلج فوق عيني لنصف ساعة ، هذا كل ماأنا في حاجة إليه . »

ورشت مسحوقاً فوق وجهها ، وصبفت شفقتها باللون الأحمر . ثم نظرت إلى في تمنع وقالت : « هل تسيء الظن بي لما فعلت ؟ »  
« هل يهلك أن تعرفي ، »

« نعم . فأنا أريدك أن تحسن الظن بي . وإن بدا هذا غريباً . »

وابتسمت ساخراتم أجبتها :

« ياعزيزتي ، لئن امرؤ لاأخلاقى ، فإذا كنت مشغوقاً بشخص حقيقة ، فلا يقلل من شفقي به مايقترفه من أخطاء حتى لوكنت أنكر عليه هذه الأخطاء . ولست بذميمة الشريرة ، ولك سحرك وجاذبيتك ، ولاقل متعنى بجمالك لأنى . »

أعلم أنه مزيج سعيد من الذوق الكامل والعزم القوى . لا يقصك غير شيء . واحد  
سليم به سحرك . . . .

وابقسمت في انتظار تكلمة حديثي .

« الرقة والحنان » .

وذلك الابتسامة من فوقها شفيتها ، ونظرت إلى نظرة خالية من الظرف ،  
حولكن قبل أن تتالك نفسها للرد على دخل جراى الغرفة في تناقل وبطء ، وكان  
جراى قد ترهل خلاص الثلاث السنوات التي قضاها في باريس . وازداد وجهه  
احمرارا . وقل شعره ، ولكن كان مكتمل الصحة وروحه المعنوية عالية . وبدا  
أنه سعيد لرؤيتي . ويتألف حديث جراى من عبارات محفوظة ، وعلى الرغم من  
قدمها إلا أنه ينطق بها كما لو كان أول من يفكر فيها . لم يذهب للفراش مرة إلا  
وأصاب نوماً عميقاً ، حيث كان ينام نوم من عدل فأمن ، وإذا ما أمطرت فما ذلك  
إلا لتفرح الطبول . وبقيت باريس في نظره حتى النهاية هي ( باريس المرححة ) .  
كان عطوفاً رقيقاً عاطلا من الأثرة مستقيماً معواناً متواضعاً حتى حمل الناس على  
حبه . كنت أكن له حبا صادقا . كان نائراً مهتاجاً لرحيله المرتقب .

« وربي ! ما أروع العودة إلى العمل ! أشعر أن رزقي في يدي الآن » .

« هل تم كل شيء . إن ؟ »

« لنتي لم أوقع العقد بعد ، ولكن الأمر مفروغ منه . فالرجل الذي سأعمل  
معه كان رفيق غرقى وأنا في الجامعة ، وهو على خلق . وأنا على يقين من أنه لن  
يفعل ما يسوءني . وما إن أصل إلى نيويورك حتى أطير على تكساس لأخبر

كل شيء ، وأدقق في كل شيء قبل أن أضيع مليماً واحداً من نقود  
إيزابل ، :

وقالت . « أنت تعلم أن جرائ رجل أعمال ممتاز ، .

وابنم وهو يقول: « إتنى لست ريفياً ، .

وأخذ يحدثني في شيء من التفصيل عن المشروع الذي يوشك أن يشترك فيه  
ولكنني كنت لأفهم كثيراً في مثل هذه الأمور ، ولكن الشيء الذي خرجت  
به هو أنه واثق من نجاحه ، ومن فرصته المواتية ، لكسب مبلغ كبير من  
المال ، وزاد اهتمامه لما يقول بما جعله يتلفت إلى إيزابل ويقول لها .

« انظري هنا ، لماذا لا تنصرف عن هذه الحفلة الكريهة ، ونذهب ثلاثتنا  
لتناول العشاء في برج الفضة ؟ ،

« لانستطيع أن نفعل هذا يا عزيزي ، إنهم يقيمون الحفلة من أجلك ، .

وقاطعتهما قائلاً :

« على أية حال فأنا لأستطيع الذهاب الآن ، إذ أتى حين وجدتكما مرتبطتين.  
بميعاد هذه الليلة اتصلت بسوزان روفير انخرج معاً ، .

وسألتني إيزابل :

« ومن هي سوزان روفير ، ؟

وأجبتها لأغیظها :

« إنها واحدة من صديقات لاري ، .

وقال جرای بابتسامة عريضة :

« إتنى أتوقع دائماً أن أجد قنّاة للارى فى كل مكان . . »

وقالت إيزابل فى حدة :

« كلام فارغ ، إتنى أعرف كل شىء عن حياة لارى العاطفية ؛ ولا توجد له غتبات من هذا النوع . . »

وقال جرای : « هيا تنازل قدحاً قبل أن يفترق . . وتناولت القدح ، وودعتهما ، وخرجا معى إلى القاعة ، وبينما كنت أرتدى معطى ، ألقى إيزابل بذراعها على كتف جرای ، ونظرت إلى عينيه بتعبير حاولت أن تقلد به الرقة والحنان اللذين وصمتا بأنهما ينقصانها . »

« قل لى بصراحة يا جرای ، هل أنا امرأة جافة العواطف ؟ »

« كلا ، يا عزيزتى ، ما أبعدك عن هذا ! لماذا ؟ »

« هل قال لك أحدهم أنك جافة ؟ »

« كلا . . »

وأشاحت بوجهها حتى لا يراها وهى تخرج لى لسانها بطريفة لم يكن إلبوت يراها تليق بسيدة مهذبة . وتمتمت وأنا أخرج من الباب وأغلقه خلفى :

« هذا ليس نفس الشىء . . »

( ٤ )

عندما مررت بباريس مرة ثانية كان آل مانورين قد رحلوا ، وحل ناس

آخرون في شقة إليوت . وافتقدت إيزابل ، فقد كانت تروق للناظرين جذابة الحديث ، للاحه ، ولاتضمر خبثاً . ولم أرها بعد ذلك ، وأنا كسول في تحرير الرسائل ، ولم تكن إيزابل من الصنف الذي يشغف بكتابة الرسائل فإذا لم تستطع الاتصال بك تليفونياً او برقياً فلن تتصل بك مطلقاً . وتلقيت منها في عيد الميلاد بطاقة عليها صورة جميلة منزل به رواق من طراز المستعمرات أحاط به سور من أشجار الزيتون المعمرة وظننت أن هذا المنزل هو الذي يقوم في المزرعة التي لم يتمكننا من بيعها عندما كنا في حاجة إلى المال ، التي ربما كنا بريدان الاحتفاظ بها الآن . ولقد أظهر خاتم البريد أنها مرسله من دلاس . وعلى هذا فقد استعجبت أنها الصفة قد تمت بنجاح مرضى وقد استقرهما المقام هناك .

لم أذهب إلى دلاس قط ، ولكني أظن أن بها مثل بقية المدن الأمريكية التي أعرفها ، حياً سكنياً يمكن الوصول إليه بسهولة بالسيارة من حى الأعمال والنادى الريفي ، وحيث الأغنياء الذين يعيشون في خفض من العيش . . منازلها جميلة تحيطها حدائق كبيرة ، وتطل على منظر جميل لتل أو واد من نوافذ حجرة الجلوس . وفي مثل هذا الحى ومثل هذا المنزل الذي تأثت من خزائن المون حتى الطابق الأعلى للبناء على أحدث طراز وعلى يد أحدث مهندسي الزخرقة في نيويورك . . في هذا البيت تسكن إيزابل بكل تأكيد ، وكل ما يوسى أن أرجو هو أن تكون صورة رينوار (١) التي عندها والصور التي من عمل مانيه (٢) والمنظر الخلوى من رسم مونييه (٣) والصورة التي من تصوير جوجان (٤) لاتبدو غير ملائمة للمصر .

- 
- (١) أوجست رينوار ( ١٨٤١ — ١٩١٩ ) مصور تأثرى  
(٢) إدورد مانيه ( ١٨٣١ — ١٨٨٣ )  
(٣) كلود مونييه ( ١٨٤٠ — ١٩٢٦ ) زعيم جماعة التأثيرين  
(٤) بول جوجان ( ١٨٤٨ — ١٩٠٣ ) مصور من المدرسة التأثيرية المتأهبة

وحجرة الطعام متناسبة الحجم بدون شك ، لحفلات غداء السيدات التي تقيمها في فترات متلاحقة . والتي يقدم فيها النيذ الجيد والطعام لممتاز . فقد تعلت ليزابل الكثير في باريس . فلم تكن لترضى أن تتخذ لها من هذا المنزل بيتاً مالم تر بعد نظرة خاطفة أن حجرة الجلوس تناسب تماماً مع حفلات الرقص التي ترى أن أقامتها سوف تكون واجبها المحجب ، عندما تشب وتكبر بتأها فإن جون وبريسكلا قد بلغتا سن الزواج الآن ، وإن لعل ثقة من أنهما نشأتا نشأة جديدة بالإعجاب ، فقد ذهبتا إلى أحسن المدارس ، وحرصت ليزابل على أن تكون لهما جميع صفات الكمال التي ترغب فيهما الشبان المرموقين . وعلى الرغم من أن وجه جراى ، كما ظننت من قبل ، ما زال أشد حمرة ورقبته أكبر إغداً ، ورأسه أكثر صلماً ، وجسمه أثقل وزناً ، فإن ليزابل مازالت تحتفظ برشاقها كما اعتقدت فإزالت تفوق ابتيها جمالاً . . وإن آل مايتورين لا بد وأن يكونوا معواناً عظيماً للجمع ولا يخامرني شك — إلا قليلاً — في أنهم ما زالوا موضع حبه الجميع وهم أهل لذلك . فإن ليزابل تقيم الولائم ، وهي كريمة مضياقة ، حنون ولطيفة ، لينة الجانب ، وفطنة لبقة ، وجراى طبعاً جوهر الشباب الأمريكى .

( ٥ )

واستمرت أقابل سوزان روفير بين الفينة والفينة حتى وقع تغير مفاجئ من ظروفها أدى بها إلى مغادرة باريس ، وخرجت من حياتى أيضاً كما خرجت من باريس . وفى أصيل يوم من الأيام ، وعلى وجه التقريب بعد مرور عامين على الأحداث التي قد ذكرتها آنفاً ، وبعد أن أمضيت ساعة طيبة أتفرج على الكتب في المعارض في الأوديون وحين كان لدى فراغ من الوقت . . فكرت في أن أزور سوزان ، فلم أكن قد رأيتها منذ ستة شهور . فتحت الباب ، وهي

تحمّل صفحة الطلاء (١) على إبهامها وتقبض على فرشاة الرسم بأصابعها وقد ارتدت  
(السق) (٢) الذي لطخته الألوان .

قالت بالفرنسية : « آه هأتذا ، يا عزيزي ، تفضل بالدخول » .

ودهشت بعض الشيء لهذا الخطاب المتكلف فإن من مألوف عادتنا أن يخاطب  
أحدنا الآخر في صيغة المفرد ولكن دخلت إلى الحجرة الصغيرة التي كانت تستخدم  
حجرة جلوس ومرسماً أيضاً . وكان على الحامل قماش سميك مشدود .

« إنى لجد مشغولة ولا أدري إلى أين أتجه ، ولكن اجلس وسأستمر في  
عملي فليس لدى دقيقة واحدة أضيعها سدى ، ربما لاتصدق ، ولكن الحقيقة  
أنى سأقيم معرضاً خاصاً بأعمالي في صالة ميرنيهايم وعلى أن أنجز ثلاثين لوحة . »

« في صالة ميرنيهايم ؟ هذا عظيم . وكيف بحق السماء توصلت إلى ذلك ؟ »

لم يكن ميرنيهايم واحداً من هؤلاء التجار الهائمين بليل في شارع السين ، له  
دكان صغير يوشك أن يفلس . يوحّد أبوابه لعجزه عن سداد إيجاره . وإنما  
ميرنيهايم يملك صالة عرض جميلة على الشاطئ الثرى من نهر السين كما أنه يتمتع  
بشهرة دولية والفنان الذي يحتضنه يكون في سبيله إلى الثروة .

« لقد أحضره مسيو أشيلي ليشاهد أعمالي ، وهو يرى أنى قدرأ كبيراً من

المبقرية . »

فأجبت بالفرنسية إجابة أظن أن خير ترجمة لها هي : « قولى ذلك لجنود

البحرية ، أيتها الفتاة العجوز . » رمتى بنظرة عجي وقهقهت :

( ١ ) البالد التي يضع عليها الصور الألوان

( ٢ ) كلمة معربة وهي ضرب من فصان السيدات .

« سوف أتزوج ،

« من ميرنيهايم ؟ »

قالت . « لاتكن أبله ، ثم أقت بفرشاتها ولوح الألوان ، « لقد ظلت أعمل طول اليوم ، وأنا في حاجة إلى الراحة . دعنا تناول كأساً من نبيذ بورتو وسوف أقوم عليك القصة كاملة . »

إن ملاح الحياة الفرنسية انقبولة أنك تنزل عند الرغبة في شرب كوب من نبيذ البورت في ساعة غير ملائمة ، ويجب أن تستسلم لهذه الرغبة . أحضرت سوزان ، زجاجة وكوبين و لآتهما وجلست هي تتنفس الصعداء .

« لقد ظلت واقفة لساعات عدة حتى آلتني الدوالي . حسناً . هذه هي العصة . ماتت زوج المسيو أشيل في مطلع هذا العام . لقد كانت امرأة طيبة وكاثوليكية صالحة ولم يكن قد تزوجها عن ميل ، ولكنه تزوجها لأن الزواج منها كان صفقة رابحة وعلى الرغم من أنها كانت موضع تقدير واحترامه فإن من الإسراف في الحديث أن نقول إن موتها قد تركه دون عزاء . لقد تزوج ابنه زواجاً مناسباً وموفقاً ناجحاً في المؤسسة ، والآن قد ترتب زواج بين ابنته ونبييل كونت . حقا إنه بلجيكي ، ولكنه نبيل الأرومة ، يملك قصراً جميلاً على .قربة من بلدة نامور . ورأى مسيو أشيل أن زوجه المسكينة لا ترضى أن تحطم سعادة شاب وشابة بسببها — وعلى هذا — وعلى الرغم من أنهم في حداد فإن الزواج سيتم حالماً تتخذ الإجراءات المالية . ومن الواضح أن مسيو أشيل سوف يستشعر الوحدة في رحاب ذلك البيت الكبير في بلدة ليل ، وهو في حاجة إلى امرأة ، لا تتوفر له الراحة لحب ، ولكن لتدير له الأمور الهامة اللازمة لمركزه . ولدى أختصر القصة . لقد طلب مني أن أحل مكان زوجه المسكينة ، لأنه كما قال قولاً معقولاً



جهداً : « لقد تزوجت في المرة الأولى لأحول دون التنافس بين مؤسستين متنافستين وإنني لست آسفاً لذلك ، ولكنني لأرى سبباً ألا أتزوج المرة الثانية لأسعد . .

قلت : « أهنتك . .

« من الواضح أنني سأقتد حريتي . لقد استمتعت بها . ولكن الواجب على أن أفكر في مستقبلي . وإنني لا أكتفك سرّاً إذا قلت إنني لن أرى إلا ربعين ثانية ومسيو أشيلي الآن في سن خطرة ، فإذا يحمل بي لو دار رأسه ليطارد قتاة في سن العشرين ؟ وهنا أيضاً ابنتي التي يجب ألا أنساها . وهي الآن في السادسة عشرة وتبشر بأن تكون جميلة كأبيها . لقد أنحت لها تربية طيبة . ولكن ليس من الخير إنكار الحقائق التي تحملق في وجوهنا ، فليس لها من الذكاء ما يؤهلها لتكون بمثابة وليس لها من المزاج ما يجعلها مثل أمها المسكينة : وإنني لأسألك الآن :

« ماذا بنتي لها تشوف إليه ؟ وظيفة كاتمة سر ، أو عمل في مكتب البريد ، لقد وافق مسيو أشيلي كراماً وأريحية ، منه على أن تعايشنا ، ويرعد بأن يعطيها بائنة كبيرة حتى تتمكن من الزواج الصالح . « قتي يا صديقي العزيز ، أن يوسع الناس أن يقولوا ماشاءوا ولكن الزواج مازال أفضل مهنة تتمتها المرأة . ومن الواضح أنه عندما يتعلق الأمر برفاهية ابنتي فلن أتردد في قبول عرض حتى ولو تقاضاني في ذلك تضحية ببعض الرغبات وهي في حالي ستغدو بمرور السنين ، أصعب من الألائه يجب على أن أصرحك بأني عندما أتزوج أعزم أن أعيش حياة فاضلة متمتة فقد أقتعتني تجربتي في الحياة أن الحياة الزوجية السعيدة هي الوفاء التام من كلا الجانبين ،

قلت : إنها لعاطفة أخلاقية سامية ، يا جميلتى . وهل سيوالى مسيو أشيلى زيارة باريس كل أسبوعين لقضاء أعماله ؟ ،

« آه ، لا ، لا . من تغلنى يا عزيزى الصغير ؟ إن أول ماقلة لمسيو أشيلى عندما طلب يدي . الآن اصغ إلى ، يا عزيزى — عندما تحضر إلى باريس لحضور اجتماعات مجلس الإدارة فإنه مفهوم ضمناً أتى سوف أرافقك . فأتى سوف لا أتمكن هنا بمفردك . فأجب ، لا يمكنك أن تصورى أتى قادر على ارتكاب الحماقات فى مثل سنى ، قلت له . يا مسيو أشيلى ، إنك رجل فى ربيع الحياة ، ولا يفوقى أحد فى معرفة أن لك عاطفة مشبوبة ولك قواماً جميلاً ، وهيته رائعة . ولك كل ما يرضى غرور المرأة ، وبالاختصار فأنى أرى أنه من الأفضل لك ألا تتعرض لعوامل الإغراء . وفى النهاية قبل أن يتخلى عن مكانه فى مجلس الإدارة إلى ابنه الذى سيحىء إلى باريس بدلاً من أبيه . وادعى مسيو أشيلى أتى غير معقولة فى نظره . ولكنه فى الحقيقة كان مقتبلاً جداً لما سمع . ، وتهدت سوزان تهد الرضا . « إن الحياة تكون أشد قسوة علينا نحن النسوة المسكينات مالم يوجد بها غرور الرجال البعيد عن الصلح . »

« إن كل ذلك جميل جداً ، ولكن ما شأن ذلك وإقامة معرض مستقل لك فى قاعة عرض ميرينهايم ؟ ،

« إنك غبى قليلاً ، اليوم . يا صديقتى المسكين . ألم أقل لك منذ سنين أن مسيو أشيلى ذكى ذكاه مفرطاً ؟ إن له مركزه الذى يفكر فيه ، وأهل مدينة ليل همازون لمازون . ومسيو أشيلى يريدنى على أن أحتل مكانى فى المجتمع بوصفى زوج رجل عظيم ، هذا المكان الذى من حق احتلاله . وأنت تعرف مالم عليه هؤلاء الريفيون إنهم يحبون أن يحشروا أنوفهم الطويلة فى شئون الآخرين ، وسيكون أول ما يسألون عنه : من عساها أن تكون سوزان روفير هذه ؟ حسن ،

وسيكون لهم إجابته . إنها المصورة الممتازة والتي لقي معرضها الأخير في صالة عرض ميرينهايم النجاح العظيم الذي يستحقه . إن مدام سوزان روفير أرملة ضابط في فرقة مشاة المستعمرات ، وبالشجاعة التي تميز النساء الفرنسيات ظلت تعول نفسها وطفلتها الجميلة التي حرمت سرياً من عناية الأب ، بعقريتها ، إننا لسعداء إذ نعرف أن الفرصة سوف تتاح وشيكاً للجمهور ليتذوق رقة لمساتها وسلامة التكنيك الفني الذي تستخدمه في معارض مسيو ميرينهايم المتميزة دائماً .

قلت وأظهر علامات الاهتمام : « ما هذا المذر ؟ »

« إنه الإعلان الذي أعده مسيو أشيلي لنشره في الصحف ، وسوف يظهر في كل صحيفة ذات أهمية في فرنسا . لقد كان مسيو أشيلي عظيمًا . كانت شروط ميرينهايم باهظة ولكن مسيو أشيلي قبلها وكأنها شيء . تافه وسوف يقام حفل شبانيا تكريمًا للذين سيحضرون المعرض الخاص ووزير الفنون الجميلة الذي يعترف بفضل مسيو أشيلي ، سوف يفتتح المعرض بخطاب بليغ يسهب فيه عن فضائل بوصني امرأة ، وعقريتي وصني مصورة ، وسوف ينهى هذا الخطاب بتصريحه أن الدولة ، وواجبها وسلطانها مكافأة أصحاب الفضل قد اشترت صورة من أعمالها لضمها للقنليات القومية ، وسوف تذهب باريس عن بكرة أبيها إلى المذرض ، وسوف يتولى ميرينهايم بنفسه أمر النقاد ، وقد تعهد بأن تكون تعليقاتهم لا في جانبي الحسب ، ولكن مطولة أيضاً . إنهم شياطين مساكير ، ويكسبون قليلاً ، وإنه إن أعمال الخير والإحسان أن تتيح لهم فرصة للافادة من مثل عملنا . »

« أنت تستحقين كل خير يا عزيزتي ، لقد كنت دائماً صالحة طيبة . »

أجابت : « ولكن ليس هذا كل ما في الأمر ، فقد اشترى مسيو أشيلي باسمي فيلا على شاطئ سانت رافيل . وسوف أحل مكانه في مجتمع مدينة ليل . »

لابوصني لفنانة ممتازة لحسب ، ولـكن بوصني امرأة ذات مال . وسوف يتقاعد في غضون عامين أو ثلاثة وسوف نعيش في الريفيرا كما يعيش عليه القوم . ويكون في إمكانه أن يجد في زورق في البحر ويصيد الأريبان (١) ، وأكرس أنا رقتي وجهدي لفتى . والآن دعني أرك رسومي .

لقد ظلت سوزان تصور لسنين عدة مترسمة أسلوب عشاقها العديدين لتصل إلى أسلوب خاص بها . وما زالت غير فادرة على الرسم ولكنها قد كسبت إحساساً جميلاً بالألوان . أرتقي صور مناظر خلوية كانت رسمتها وهي تقيم مع أمها في مقاطعة لينو ، وبعض أماكن في حدائق فرساييل وغابة فورتنبلو ، ومناظر في الشوارع استهوتها في باريس . كان تصورها أثرياً غير واقعي ولكنه يقسم برقة كرفة الزهرة ، ورشاقة تصنف بلون معين من التواكل . صورة واحدة استهوتني من بين صورها جميعاً فعرضت عليها شرائها لأنني ظننت أن ذلك يسرها . ولا يمكنني أن أتذكر إذا ما كانت تسمى « واد في الغابة » أو « الوشاح الأبيض » ، ولم أستطع أن أتأكد من ذلك بعد البحث الذي استمر حتى ذلك اليوم ، سألت عن ثمنها ، وكان مقبولاً وقلت أنني سأخذها .

صاحبة قائلة : « يالك من ملاك . أنها أول قطعة أبيعها وبالطبع فلا يمكنك أن تأخذها إلا بعد المعرض ، وسوف أهتم بنشر خبر شرائك لهذه الصورة في الصحف فعلى أية حال من الأحوال لن يضررك إذاعة هذا الخبر الصغير في شيء . إنني مسرورة لاختيارك هذه القطعة ، أظن أنها من أحسن ما صورت ، وتناولت امرأة يد ونظرت إلى الصورة من خلالها . « إن بها سحراً » قالت وهي تدير عينيها . « ولا ينكر أحد ذلك فهذه الخضرة — كم هي غنية ومع ذلك فما أرقها ! وهذه

---

(١) جراد البحر يؤكل مثل الجمبري

البقرة البيضاء في الوسط ، إنما كشف حقيقتي ، لأنها تربط أجزاء الصورة معا .  
لأنها ممتازة وفيها عبقرية ، وهذا لا شك فيه ، عبقرية أصيلة .  
ورأيت أن يدها وبين الغنان المحترف بونا شاسعا .

« والآن يا صديقي العزيز وبعد أن تحدثنا بما فيه الكفاية ، يجب أن أعود  
إلى العمل . »

« وهذه المناسبة أما زال لارى المسكين يتم بين الهندو المحرق ؟ »

« كانت هذه هي الطريقة المهيبة التي تعودت أن أتخير بها إلى سكان ( بلاد الله )  
« إن ذلك أبعد ما يكون عن عالمي . »

« له تقاس مبرلمن في مثل عنوبته ورقته . إننا كان من الممكن أن نصدق  
الأفلام السينمائية فإن الحياة هناك مروعة بن رجال المسابقات ورجال البحر  
والمسكيكين . ليس لأن هؤلاء الرعاة قد عطلوا من كل جاذبية بدنية لا توحى لك  
بشيء . آه لا ، لا ولكن يبدو أنه من الخطورة بمكان أن تخرج إلى شوارع  
نيويورك دون أن تحمل غدارة في جيبك . »

« ودعني إلى الباب الخارجي وقبلتني على كلا الحدين .

« لقد أمضينا أوقاتاً طيبة معاً . فاذا كنت بالخير . »

( ٦ )

هذه هي خاتمة قصتي . لم أسمع شيئاً عن لارى ، ولم أتوقع حتماً أن أسمع ،  
والا كان عادة يفعل ما يترامى له ، فإني أظن أنه من المحتمل قد حصل عند عودته  
إلى أمريكا على عمل في جراج ثم قاد عربة نقل إلى أن حصل على المعرفة التي كان  
يبتدئها عن البلاد التي تغيب عنها طويلاً ، وبعد أن تم له ذلك قد يكون أخرج

فكرته الخيالية ليصبح سائق سيارة أجرة إلى حيز الوجود . نعم ، لقد كانت فكرة عشوائية قلت عبر المائة بقصد الفكاهة ، ولكنني ان أدهش إطلاقاً اذا كان قد وضع فكرته في حيز التنفيذ ، ولم تقاقي سيارة أجرة في نيويورك منذ ذلك الوقت دون أن أنظر إلى السائق عل بصرى يقع مصادفة على عيني لارى الفائزين في معجربهما بابتسامتهما الرصينة وليكنني لم أوفق قط حتى تلك اللحظة . وشبت نيران الرب ، ولا بد أنه قد جاوز السن التي يمكنه فيها الطيران ، ولكن من المحتمل أنه عاد إلى قيادة عربة نقل مرة ثانية ، في وطنه أو في خارج بلاده ، وقد يكون عاملاً في مصنع . ويظنني الفكر أنه في وقت فراغه يقوم بتأليف كتاب يحاول فيه أن يضح أمام القارى كل ما قد علمته الحياة ، وما هي رسالته التي يريد أن بوجهها إلى قومه ، فإذا ما كان الآن يقوم بذلك العمل حقا فسوف تكون أمامه سنوات طويلة قبل أن يتمه . إن لديه متسعاً من الوقت ، لأن السنين لم تترك أثرها عليه . وفي الحقيقة والواقع فإنه مازال في شرح الشباب ،

لأطماع له ولا يرغب في الشهرة ويمقت كل المنقذ أن يصبح شخصية عامة ، وعلى هذا فن الجائز أنه قنع بالحياة التي اختارها لنفسه ، وأنه ان يكون أكثر مما هو عليه حقاً ، وإنه متواضع لحد يجعله يعترف عن أن يصنع من نفسه مثلاً أعلى للآخرين ، ولكن من الجائز أيضا كما يظن ، أن بعض نفوس قليلة معينة تنجذب إليه كما ينجذب الفراش نحو شمعة ، قد يميثون في الوقت المناسب ليشاركه معتقد اللامع المتوهج بأن الرضا النهائي لا يوجد إلا في حياة الروح ، وأنه حينما يتبع - وقد تجرد من الأثرة والأنانية ، وأنكر ذاته - طريق الكمال ، يكون قد أدى واجبه كما لو أنه قد كتب أشعاراً أو خطب في الجماهير .

ولكن ذلك حدس وتخمين ، وأنا من التراب ، ودينوى ، وليس بوسمى غير أن أطرى بهاء وتألّق هذا المخلوق النادر الوجود ، ليس بوسمى أن أضع نفسى في مكانه وأغوص في أعماق قلبه ، كما أخال نفسى صانع أشخاص أكثر

قرباً وأشد ارتباطاً بعامة الناس . وقد انغمس لارى ، كما أراد ، في الإنسانية المتكثفة الصاخبة ، تتنازعها كثير من المصالح المتصارعة ، وهو ضئيل في العالم المضطرب ، راغب كل الرغبة في الخير ، على يقين راسخ وهو في خارجه ، (العالم) محجم متواكل في داخله ، عطوف جداً ، وقاس جداً ، واثق كل الثقة ، وحبيس في نفسه ، شحيح مقتروسخي كريم ، وهذا هو الشعب الأمريكي . هذا كل ما يمكنني أن أقول عنه . وإني أعرف أنه غير مرضى إلى حد بعيد ولكن ليس بوسعي أن أتحمى ذلك . ولكن عندما كنت أضع اللامات الأخيرة في هذا الكتاب وشعرت بالقلق من أن أترك القارىء غير محدد الموقف ولم أر طريقاً لتحمى ذلك ، عدت بعين العقل إلى هذا القمص الطويل لارى إذا ما كان هناك سبيل لأختم قصتي خاتمة تجعله ( القارىء ) أكثر رضا ، ولدهشنى الشديدة بزخ أمامى ، ومن غير أدنى محاولة مقصودة من جانبي لأفعل ذلك ، إني قد كتبت قصة ناجحة لا أكثر ولا أقل . لأن جميع الأشخاص الذين اهتمت بهم نالوا ما أرادوا : فبلغ إليوت أوج المجد الاجتماعى ، وحصلت إيزابل على مركز وطيد تظاهرها ثروة ضخمة في مجتمع نشيط مثقف ، وشغل جراى عملاً ثابتاً مريحاً في مكتب يذهب إليه من التاسعة حتى السادسة كل يوم ، وحقت سوزان روفير الأمن والطمأنينة وصوفى الموت ، وذاق لارى السعادة . ومهما عاب علينا المتحذلقون في ذهول وخيلاء فنحن العامة في صميم قلوبنا جميعاً نحب القصة الناجحة . وبذلك تكون نهاية قصتي موضع الرضا ، كل الرضا .

مطبعة المعارف  
عمارة التأسيس، ميدان التحرير، القاهرة  
٢٢٩٩٠ ت



**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

الناشر  
مؤسسة سجل العرب

١٩٦٤



Exclusive  
For

[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)

حصريات مجلة الابتسامة